

باربرا ديفيس

رواية

طدى الكتب القديمة

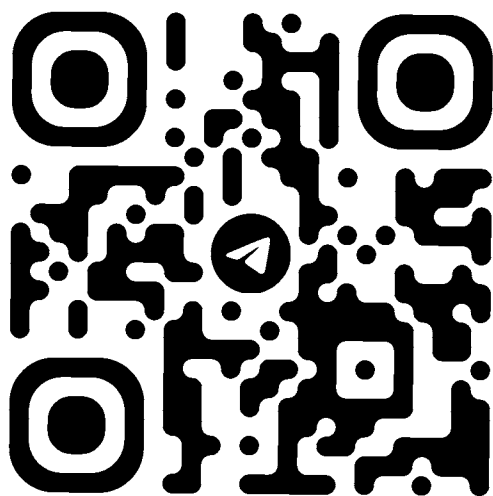
ترجمة:

سوار أحمد قادرة

"من القلب إلى القلب... عميقة وجميلة ومؤثرة."

ديان تشامبرلين

مكتبة
~
رة



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR

صدى الكتب القديمة

The Echo of Old Books

صدى الكتب القديمة
The Echo of Old Books

باربرا ديفيس
ترجمة: سوار أحمد قادرة
منشورات سدر

الموقع الإلكتروني:
www.sidrapublishing.com
البريد الإلكتروني:
Sidra.publisher@gmail.com

انستغرام:
@sidrapublishing

تويتر:
@sidrapublishing

Copyright © 2023 by Barbara Davis

مكتبة

t.me/soramnqraa

مكتبة الملك فهد الوطنية

رقم الإيداع: 1446 / 3593

ردمك: 9-3457-05-603-978

صدى الكتب القديمة

The Echo of Old Books

رواية

باربرا ديفيس

ترجمة: سوار أحمد قادرة

2025

مكتبة

t.me/soramnqraa

سورة

إلى أمناء المكتبات وبائعي الكلمات المكتوبة،
إلى حراس الخيال، ومُشبعي القلوب الجائعة.
إليكم يا نساجي الحروف،
إلام كانت ستؤول حالنا دون عملكم المفعم بالحب؟

«وأنا أجلس في مكتبتني ليلاً، متأملاً وجوه كتبي الصامته، تراودني
أحياناً مشاعر غامضة لا تنتمي إلى هذا العالم».
- ألكسندر سميث

في يوم صيفي مشمس، وصل ظرفٌ ورقي كبير خُتِمَ على وجهه الأمامي بالأحمر كلمة «أولوية» مرتين. حدّقتُ إلى الظرف الذي وصل مع بقية البريد الوارد في ذلك اليوم. كانت الكتابة على الوجه الأمامي مألوفة، كذلك اسم المرسل.

غصتُ في كرسيّ وأخذت نفساً عميقاً. اليوم، وحتى بعد مضيّ سنواتٍ كثيرة، يظلُّ ألم الذكريات حاضراً مثل ألم طرفٍ مبتور. يبقى مصدر الألم مفقوداً، لكنّ تذكيراً حاداً وفجائياً يأخذني بغتة. أتجرع هذا الألم لحظةً في انتظار أن يتلاشى.

انسلّت أشعة شمس ما بعد الظهر من بين ستائر نافذة مكتبي، ملقيةً بشرائط من الضوء النقي الدافئ إلى السجادة والجدران والرفوف التي اصطففت فوقها الكتب والجوائز وتذكاراتُ جمعتها من هنا وهناك على مرّ السنين. مكتبي ملاذي، لكن يبدو أن ماضيّ قد عثر عليّ اليوم.

فتحت الظرف وأفرغت محتوياته على المكتب. احتوى على حزمة مستطيلة ملفوفة بورق بني، وظرف آخر صغير أرفقت به ورقة ملاحظات من الخارج كتب عليها:

موجهة إليك وفقاً للرسالة المرفقة.

إنه خطٌ ديكي ابن أختي الذي أميّزه جيداً.

بالكاد نتحدث هذه الأيام، فقد أصبح الحديث بفعل السنين
يخلف شعوراً غريباً، مع أننا لم ننقطع عن إرسال البطاقات في
المناسبات وأعياد الميلاد. ما عساه يرسل إليّ؟

أخرجتُ الورقة الوحيدة من ظرفها الصغير ثم فتحتها
ووضعتها على الطاولة. إنه ليس خطّ ديكي، بل خط أحد آخر.
لكنه خطّ مألوف أيضاً، أحرف شديدة الميلان وبزوايا حادة،
وكأن شبحاً قد كتبها. كتب هذا الشخص إلى ديكي طالباً إليه أن
يرسل هذه الحزمة إليّ:

إلى ديكي:

بعد كل ما جرى بيني وبين عائلتك، لا أشك أنك ترى في
تواصلي معك ما تراه من الجرأة.

أدرك جيداً الآثار الناجمة عن علاقتي بعائلتك، وأنا مترددٌ
في وضعك في موقفٍ محرج مرة أخرى، لكنني وجدت أن هناك
أموراً تتطلب التوضيح بعد هذه السنوات كلها. لذا، أنا أرجو
منك أن تسدي إليّ خدمةً أخيرة. أطلب منك أن ترسل الحزمة
المرفقة إلى خالتك التي أضعت أثرها منذ زمنٍ بعيد. أعتقد
أنكما لا تزالان تتواصلان حتى الآن. أتذكر أنك كنت الأقرب
إلى قلبها، وأنها عهدت إليك ذات مرة بإيصال رسالة حساسة.
إنها الذكرى التي دفعتني إلى طلب مساعدتك الآن، وكلّي رجاء
أن تصل الحزمة سليمةً لأن محتوياتها حساسة نوعاً ما، فهي
مخصصة لخالتك فقط.

مع عميق شكري وامتناني.

هـ.

بدت الغرفة فجأةً ضيقةً وخانقةً ومطبقةً وأنا أنظر إلى الحزمة الملفوفة بعناية. بعد صمتٍ دام ثلاثة عشر عاماً، ودون سابق إنذار، تصل حزمةٌ غامضةٌ عبر مرسالنا القديم ديكي. لماذا الآن؟ لماذا أصلاً؟

تعرّقت يداي وأنا أمزق الورق البني الخشن. ظهرت قطعة جلدية مزخرفة ذات غلافٍ أزرق. إنه كتاب، لكنّ عنوانه الذي كُتب بحروفٍ مذهبة، نزل عليّ كالصاعقة. ندّم على بيل.

ضاقت حنجرتي ألماً جرّاء طعنات واخزة سلّبتني أنفاسي. ظللتُ خدرةً مدّةً طويلة، حَذِرَةٌ من أن تعاودني الذكرى حتى نسيت شعور أن تُجرح وتُترك لتتلف. استعدتُ رباطة جأشي وأنا أقلب الغلاف، ثم وضعت يدي على فمي لأكتم شهقتي. هناك إهداءً طبعاً. يا إلهي، لا تتخلى عن نزعتك أبداً لتكون صاحب الكلمة الأخيرة. ما لم أكن مستعدةً له هو صوتك يملأ رأسي وأنا أقرأ الكلمات التي كتبتها على الصفحة الأولى. كلمات أصابتني كسهمٍ موجهٍ نحو ضميري.

كيف يا بيل؟ بعد كل ما جرى... كيف يمكنك فعل ذلك؟

الفصل الأول

آشليين

«لا يوجد ما ينبض بالحياة أكثر من كتابٍ عانقه حبّ الجميع».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

23 سبتمبر 1984.

بور تسموث، نيوها مبشير.

كحالها دوماً عصر أيام الأحد، كانت آشليين غرير في حالة مطاردةٍ مسرحها اليوم غرفة خلفية تعمّها الفوضى، مُلحقة بمتجر أدواتٍ مستعملة قديم على بُعد بنائيتين من متجرها الذي أسمته «حكاية غير متوقّعة»، وهو متجر كتبٍ نادرة تملكه آشليين وتديره منذ نحو أربع سنوات.

تلقت يوم أمس اتصالاً من كيفن بيتري، صاحب متجر الأدوات المستعملة، يُعلمها أن شاباً جاء من مدينة راي حاملاً صناديق عدة تحوي كتباً، وأن لا مكان لديه لتخزينها. وسألها إن كانت ترغب في القدوم وإلقاء نظرة.

لم تكن تلك المرة الأولى التي تقضي فيها يوم عطلتها الوحيد في البحث عن كنوزٍ مفقودة. كانت كثيراً ما تعود خالية الوفاض، لكن ليس دائماً. فقد حصلت ذات مرة على الطبعة الأولى من كتاب «المخلوقات كلّها كبيرة وصغيرة» دون أن تُمسّ تقريباً. كما أنقذت غير مرة نسخةً من الطبعة الأولى لكتاب «الأفق المفقود» من صندوق يضم كتب طبع قديمة. كان الكتاب مهملاً وفي حالٍ

سيئة، لكن بعد عملية ترميم مكثفة، أصابت منه ربحاً جيداً. مثل هذه الاكتشافات لا تحدث كثيراً، وقد لا تحدث أبداً في الواقع، لكن في المرات النادرة التي تعثر فيها على شيء ما، فإن الإثارة التي تشعر بها تستحق عناء البحث.

لا يبدو على صناديق اليوم أنها تحمل شيئاً واعداً للأسف. كانت معظم الكتب من تلك الحديثة الأكثر مبيعاً لدانييل ستيل، ودايان شامبرلين، ولملك الروايات الحزينة الكاتب الشهير هيو غاريت. كُتِّبَ محترمون لا شك، لكن إنتاجهم لا يتسم بالندرة. أما الصندوق الثاني، فقد قدم مزيجاً أكثر تنوعاً، وضمّ عديداً من كتب الصحة والتغذية، إضافةً إلى كتاب يضمن للقارئ الحصول على معدةٍ مسطحة خلال ثلاثين يوماً، وآخر يروج لفوائد نظام الماكروبيوتيك الغذائي.

عملت آشليين بسرعة وحرصٍ على ألا تمسك بكتابٍ أكثر من اللازم، لكن كان من الصعب تجاهل الذبذبات الدقيقة التي استشعرتها وهي تعيد الكتب إلى الصندوق. تعود هذه الكتب إلى شخصٍ كان مريضاً وخائفاً وقلقاً من نفاد وقته. إنها امرأة. كانت آشليين شبه متأكدةٍ من ذلك.

كان هذا الإحساس بالكتب أشبه بهبةٍ امتلكتها، حالها حال القدرة على تحديد نغمات مقطوعةٍ موسيقية بدقة متناهية، أو تحديد مكونات عطرٍ ما. تلك القدرة على قراءة أصداءٍ ترتدّ عن جمادات معينة، الكتب على وجه التحديد. لا تعرف آشليين كيف تفعل ذلك، فكلّ ما تعرفه أن الأمر قد بدأ عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها.

كان والداها يخوضان شجاراً عنيفاً عندما خرجت من الباب الخلفي وركبت دراجتها. ظلت تقود بسرعة جنونية إلى أن وصلت إلى متجر الكتب الصغير في شارع ماركت. ذلك المتجر الذي عدّته ملاذها الآمن، ولا تزال.

استقبلها صاحب المتجر، فرانك آتواتر، بإيماءٍ صامتةٍ كعادته. كان يعلم ما تمرّ به في منزلها، شأنه شأن كل من في البلدة تقريباً. لكنه لم يحدثها بالأمر يوماً، بل اختار أن يقدم لها المكتبة ملجأً عندما يتجاوز الوضع بين والديها حدود احتمالها. وهي بادرة لطفٍ لن تتساها ما دامت حيّة.

في ذلك اليوم المشؤوم، توجهت مباشرة إلى ركنها المفضل حيث كتب الأطفال. كانت تحفظ عنوان كل كتابٍ واسم كاتبه عن ظهر قلب، بالإضافة إلى ترتيبها الدقيق على الرفوف. كانت قد قرأت الكتب كلها مرةً على الأقل، لكنها وجدت اليوم ثلاثة كتبٍ جديدة. مرّت بأصابعها على الكتب الغريبة وهي «قصة الطبيب دوليتل»، و«الغموض الذي يكتنف سحر العاج»، و«أطفال الماء» الذي سحبته من على الرف.

بدأ الأمر في تلك اللحظة بالضبط. عندما لمست الكتاب، عبرت موجةً صغيرة مثيرة ذراعيها حتى صدرها، حاملةً معها حزناً قطع أنفاسها فجأة. أفلتت الكتاب من يدها، فنزل على قدميها وانفتح على السجادة كطائرٍ صريع.

هل توهمت ما حدث؟

لا، بل أحسّت به. أحست به جسدياً. ألمٌ حقيقيٌّ خام. حقيقي إلى درجة أن الدموع فاضت من عينيها. لكن كيف حدث ذلك؟

رفعت الكتاب عن الأرض بحذر. لكنها هذه المرة، سمحت
للمشاعر بالتدفق. حنجرةً أحرقتها الدموع، وظهرَ كسره الفراق.
ألمٌ وحشي لا نهاية له. لم تكن آشليين حينها على دراية بهذا النوع
من الألم ولا تملك تجربة عنه، هذا النوع الذي يخدش الجسد
ويحفز لنفسه مكاناً في الروح. ظلت جالسةً في مكانها محاولةً
أن تعي ما جرى أياً كان.

بعد برهة، تلاشت الآلام وخفّت حدّتها نوعاً ما. إما لأنها
أفيتها، وإما لأن هذه المشاعر فاضت، ثم انحسرت وحدها. لم
يكن لدى آشليين تفسيرٌ واضح، وظلت الحال كذلك حتى بعد مرور
سنين. هل يمكن لكتاب أن يغير صداه، أم كانت المشاعر التي
اجتاحتها ذات طبيعة لا تُمحى، ومحفورة في الزمن إلى الأبد؟
في اليوم التالي، سألت فرانك عن مصدر الكتب. أخبرها أن
من جلبها كانت امرأة مات ابن أختها في حادث سير. فهمت
آشليين أخيراً. فذلك الحزن الخانق، والشعور الذي يسحق
ضلوعها كان لوعة؛ لوعةً أم، لكنها لم تفهم كيفية حدوث ذلك
بعد. هل يمكن حقاً إدراك مشاعر شخصٍ آخر من خلال لمس
شيء كان يخصه ببساطة؟

حاولت خلال الأسابيع القليلة التالية أن تستحضر هذا الشعور
مرةً أخرى. اختارت كتباً عشوائية من على الرفوف وانتظرت
بفارغ الصبر موجةً عواطف غريبة أخرى. لكنّ الأيام توالى ولم
يحدث شيء. ثم في عصر أحد الأيام، أمسكتُ بنسخةٍ متهالكة
من رواية «فيليت» لشارلوت برونتي، فاجتاحها موجة فرح عارمٍ

داعبت أصابعها كماءٍ باردٍ ينساب بينها، منعشةٌ وهائلةٌ وخفيفة، لكنَّ شدَّتْها مذهلة.

ثم كان هناك كتابٌ ثالث؛ مجلّد من قصائد إيلا ويلر ويلكوكس بعنوان «مملكة الحب». كان هناك تناقض غريب بين الطاقة الذكورية المنبعثة من الكتاب وعنوانه الرومنسي، ما يدل على أن طاقة الكتاب لا ترتبط بنوعه أو موضوعه، بل بدت كأنها انعكاسٌ لصاحبه.

أخيراً، استجمعت ما لديها من شجاعة لتخبر فرانك عن الأصدقاء. خشيت أن يقول إنها تقرأ كثيراً من القصص الخيالية، لكنه أصغى إليها بانتباهٍ وهي تبثه فيض ما لديها، إلى أن فاجأها برّدّه.

- «الكتب كالبشر يا آشلين، تمتص ما يحمل الهواء من حولها من دخانٍ وشحم وجراثيم، فلمَ لا تمتص المشاعر؟ المشاعر حقيقية، حالها حال كل شيءٍ آخر. والكتاب هو أحد أكثر الأشياء شخصيةً، خاصة إذا كان جزءاً مهماً من حياة أحدهم». اتسعت عينا آشلين وهي تسأل: «للكتب مشاعر؟».

- «الكتب مشاعر بحد ذاتها. إنها موجودة لتجعلنا نشعر، لتربطنا مع ما يعتمل في دواخلنا، ومع أشياء لا ندري بوجودها حتى. لذا من المنطقي أن ينتقل بعض مما نشعر به عند قراءة الكتب إلينا»، أجاب فرانك ببساطة.

- «هل يمكنك فعل ذلك؟ أعني الشعور بما تنقله الكتب؟».

- «لا، ولكن هذا لا يعني أن الآخرين لا يمكنهم ذلك. أشك كثيراً في أنك الأولى أو أنك ستكونين الأخيرة».

- «لا داعي للخوف عندما أعيش هذه الحالة إذن؟».
- «لا أعتقد ذلك»، فرك فرانك ذقنه لحظة، ثم أردف قائلاً: «ما تصفينه نوعٌ من الهبات، وغاية الهبات استخدامُها، وإلا لمَ نمتلكها؟ لو كنتُ مكانك، لحاولت أن أفهم كيفية تحسينها وممارستها حتى أعلم السر خلفها. وبهذه الطريقة، لن تخافي عندما تحدث مرة أخرى».

وهكذا، بدأت آشليين التدريب وإجراء بعض التحريات. وبمساعدة فرانك، اكتشفت أن هناك اسماً فعلياً لما يجري معها، وهي ظاهرة تدعى «علم نفس الأشياء». صاغ الطبيب جوزيف رودز بوكانان هذا الاسم عام 1842. وفي عام 1863، نشر عالم جيولوجيا يدعى دنتون كتاباً بعنوان «روح الأشياء». باختصار، كان ذلك نوعاً من أنواع الاستشعار، لكن مع الكتب.

لقد كان فرانك محقاً، فالكتب كالبشر. يحمل كل منها طاقة فريدة من نوعها، أشبه بتوقيع أو بصمة. وهي طاقة تنتقل أحياناً. فركت آشليين راحتِي كفيها ببنتال الجينز الذي ترتديه لتمسح عنهما الحزن الذي تسرب إلى أصابعها من صندوق كتب الطبخ المهملة. كان ذلك هو العيب فيما يسمّى «الهبة»، إذ ليست الأصداء كلها سعيدة. وكحال البشر، نالت الكتب نصيبها من مآسي القلب. وكحال البشر أيضاً، الكتب تتذكر.

مع مرور السنين، تعلمت آشليين كيف تحدّ من تعرضها للكتب المشحونة بالطاقة السلبية وتجنّب بعض الكتب تماماً. لكن في أيام كهذا اليوم، لم يكن الابتعاد وارداً. كل ما استطاعت فعله هو العمل بسرعة.

وجدت في الصندوق الأخير مزيداً من الروايات، وكلها في حال جيدة، لكنها لا تستطيع الاستفادة منها في المتجر. ومع اقترابها من أسفل الصندوق، وجدت نسخة من كتاب «بقايا اليوم» لكازو إيشيغورو.

لم يكن في الكتاب ما يميزه، بل كان رثاً إلى حد ما، وقد استحالت أوراقه إلى البني المصفر وأكلت التجاعيد غلافه. لكن لم يكن في وسعها تجاهل صداه. وضعت الكتاب على حجرها متحفزة، ثم وضعت راحتها على غلافه. كانت تلك لعبة تلعبها أحياناً، تحاول تخمين إذا ما كان الكتاب يحتوي إهداءات من نوع ما، وما مضمونها.

كانت تحب أن تتخيل كيف وصل هذا الكتاب بالضبط إلى يد القارئ، ولماذا. لماذا هذا الكتاب بالذات؟ ولأي مناسبة؟ أهى عيد ميلاد أم تخرج أم ترقية؟

قرأت كثيراً من إهداءات الكتب على مرّ السنين، بعضها لطيفٌ وبعضها مضحك وبعضها مؤثر حدّ البكاء. كان هناك شيء حميم ولذيذ في فتح كل كتاب واكتشاف تلك الأسطر القليلة المكتوبة على ورقة العنوان، وكأنها تعطي لمحةً سريعة عن حياة الكتاب العاطفية التي لا تربطها صلة بالمؤلف، بل تتعلق بالقارئ وحده. دون قارئ، يدخل الكتاب في حالة جمود، جسد دون نبضٍ أو نفسٍ، لكن ما إن يصبح الكتاب جزءاً من عالم شخص ما، حتى يعود إلى الحياة، بماضٍ وحاضر، وإذا عوملَ معاملةً صحيحة، سينال نصيباً من المستقبل أيضاً. تلك القوة الحية تلازم الكتب دائماً، توقيعٌ ذو طاقة يتوافق مع صاحبه.

تحمل بعض الكتب تواقع مختلطة تصعب قراءتها أكثر من غيرها، لوجود أكثر من صاحب عادةً، وهو الإحساس الذي أتاها من كتاب «بقايا اليوم». طبقات كثيرة وانفعالات شديدة. نوع الكتب التي لا تخلو من الإهداءات تقريباً، وهذا ما وجدته عندما فتحت الغلاف:

حبة قلبي،

ليس الشرف بالنسب أو الاسم

بل بالشجاعة والدفاع عن الحق.

وأنت يا حبيبي، طالما اخترت بشرف

ويحق لك أن تفخر بنفسك دائماً

كفخري بالرجل الذي تزوجت.

كاثرين.

بدت كأنها طمأننة من نوع ما، كلمات تسكب الراحة في قلب مضطرب. لكن الطاقة التي أطلقها الكتاب كانت شعوراً ثقيلاً لزجاً أشبه بشك تلفه خيوط الندم والذنب، شعوراً أن حبة قلبها، أياً كان، لم يكن مقتنعاً.

أغلقت أشلين الكتاب ورمته بثقة فوق كومة الكتب المرفوضة. وصلت إلى الكتاب الأخير في الصندوق. أحست بانقباض في جوفها وهي تخرجه. انقباض من النوع الذي يوحي بأنها قد تكون وجدت شيئاً قيماً أخيراً. كان حجمه صغيراً، لكنه جميل جداً. غلاف من جلد فاخر غلّف ثلاثة أرباع الكتاب، وظهر فاصل مصلّع، إضافة إلى قطع زرقاء. وإن لم يخنها الظن، فإنه كتاب مجلد يدوياً.

حبست أنفاسها وشرعت تتفحصه. كان الكتاب في حالٍ جيدة دون وجود تآكل واضح، وكان تجليده مُحكماً ومستقيماً. مال لون صفحاته إلى الأصفر لكنها جيدة عموماً. حدثت إلى الحروف الذهبية المنقوشة على ظهر الكتاب. «ندم على بيل». لم تكن لديها أدنى فكرة عن الكتاب. علا وجهها عبوسٌ وهي تواصل تفحصه، إذ لم يحتوِ على أي إشارة لاسم المؤلف أو الناشر، وهو أمر غريب لكنه ليس خارجاً عن المألوف. لكنَّ هالةً من الغموض تلف الكتاب.

كان الكتاب صامتاً على نحو غريب. صمتَ الكتاب الجديد قبل أن تنتقل إليه أصدقاء مالكة. هل كان هديةً غير مرغوبة، أم لم يقرأه أحدٌ قبلاً؟ أحزنتها هذه الفكرة، فالكُتب التي تُقدَّم هدايا ينبغي قراءتها دائماً. أمسكت بالغللاف مرة أخرى بحثاً عن حقوق النشر دون أن تجد شيئاً. لكنها وجدت إهداءً من نوع ما.

كيف يا بيل؟ بعد كل ما جرى... كيف يمكنك فعل ذلك؟

أمعنت آشليين النظر إلى هذا السطر. كان الخط مضطرباً، والكلمات أشبه بشظايا سُنت لتحرّ وتجرّح. كثّفت النقاط الثلاث رائحة الحزن الذي فاح من بين الكلمات، ومن وحشة سؤالٍ ظل دون إجابة. لم تكن هذه الكتابة موقعةً أو مؤرخة، ما يعني أن المتلقي لا يحتاج إلى أي منهما. علاقة شخصية حميمة إذن. قد تكون بيل هذه حبيبةً أو زوجة. بيل، الاسم الذي برز على الصفحة. أيمن أن يكون متلقي الكتاب هو ذاته من دُكر اسمه في عنوانه، أم أن المانع هو الكاتب ذاته؟

فتتها غموض هذا الكتاب فراحت تقلّب صفحاته بحثاً عن اسم المؤلف أو بصمة الناشر، لكن عبثاً. لم تجد أثراً لكيفية وصول هذا الكتاب الغريب والجميل إلى العالم.

يشير غياب صفحة حقوق الطبع والنشر إلى أن الكتاب أصبح ملكية عامة، ما يعني أنه كُتب قبل عام 1923. وإن كان الأمر كذلك، فإن حالته الممتازة تثير الإعجاب. لكنّ هناك احتمالاً آخر يبدو أكثر واقعية، وهو أن أحدهم أعاد تجليد الكتاب في مرحلة ما، ولم يتمكن من تضمين صفحة حقوق الطبع والنشر الأصلية. لعلّ بعض الصفحات فُقدت أو تلفت. لا بدّ أن ذلك ما حدث. لطالما عملت آشليين على إعادة تجليد الكتب التي تصل متجر الكتب في أكياس بقالة، وقد لُفّت صفحاتها السائبة بخيوط أو أشرطة مطاطية، أو تلك التي تعفنت أغلفتها في الأقبية الرطبة، أو عُثر عليها مهترئةً في العليات وقد جفت حتى أن صفحاتها تتفتت لمجرد لمسها. لكنها لم تصادف قطّ كتاباً لا يحوي أي إشارات إلى مصدره.

يرمم الناس الكتب القديمة لأسباب مختلفة، لكنها كثيراً ما تقع ضمن فئتين: إما العاطفة، وإما ما تمثله من قيمة لجامعها. أياً كانت الحال، فإن الحفاظ على اسم المؤلف أمرٌ في غاية الأهمية. لم يتكبّد أحدهم عناء ترميم كتاب وتكلفته، ثم يحذف تفاصيل مهمة كهذه إلا إذا كان الحذف مقصوداً! لكن لماذا؟

أبقت آشليين الكتاب مفتوحاً مفتونة بغموض أدبي يلفّ الكتاب. وما إن فتحت الصفحة على الفصل الأول، حتى شعرت بموجة أشبه بتيار كهربائي يمرّ بين أصابعها. سحبت يدها إلى الخلف

فزعةً. ما الذي حدث للتو؟ منذ لحظة، كان الكتاب هادئاً جامداً إلى أن فتحته وأيقظت ما في داخله، كالوميض القادم من خلف بابٍ فُتح عن نارٍ صغيرة تأججت لتصبح حريقاً هائلاً. إنها تجربة جديدة تنوي استكشافها حتماً.

حبست أنفاسها ووضعت راحتي يديها على الصفحات المفتوحة استعداداً لما عرفت أنه قادم. يوصل كل كتابٍ صده على نحو مختلف. كانت الذبذبات الحسية الخفيفة هي السائدة، كقطعة في فكها، أو اضطراب مفاجئ في بطنها. لكن بعضها كان أكثر شدة مثل طنين في أذنيها أو إحساس كالوخز في خديها وكأنها تلقت صدمة. وفي أحيان أخرى، تتكشف لها هذه الأصدا على شكل نكهات أو روائح، كالفانيليا أو الكرز الناضج أو الدخان أو الخل. لكن الشعور مختلف هذه المرة، فهو أعمق وأكثر حقيقية. طعم رمادٍ يلذع لسانها، وعبرَاتٌ تحرق حلقاتها، وألم يوسع صدرها، وقلبٌ استحال حطاماً.

رغم هذه القوة كلها، فإنها لم تشعر بها إلى أن فتحت الكتاب. وكأن أصداؤه تلجم نفسها إلى أن يحين الوقت المناسب. لكن إلى متى؟ وأصداؤه من هذه؟ من الواضح أن الإهداء «كيف يا بيل؟» موجه إلى امرأة، لكن طاقة ذكورية لا لبس فيها كانت تتبعث من الكتاب. تفحصت الغلاف مجدداً، والورقة الأولى والأخيرة على أمل العثور على ما يوحي بأصل الكتاب، لكن عبثاً. وكأن الكتاب ظهر فجأة من العدم، مجلّد شعبي وجدّ خارج الزمان والمكان الأدبيين. باستثناء أنها تحمله بين يديها، وأن أصداؤه حقيقية جداً.

رفعت راحتيها عن الصفحات وهزت أصابع يدها اليمنى في محاولة لتخفيف الألم المزعج في كفّ يدها. كانت الندبة في راحة يدها تؤلمها مجدداً. نظرت إلى الجرح الهلاليّ الشكل الممتد من إصبعها الصغير إلى أسفل إبهامها، الناجم عن جرحٍ أحدثته قطعة زجاج عن طريق الخطأ في لحظة ذعر.

التأم الجرح دون مشكلاتٍ تُذكر، مخلفاً خطأً من اللحم الأبيض المجعد الذي يقطع خط الحياة في يدها. ضغطت آشليين عميقاً بإبهامها على راحة يدها وثبتت أصابعها مراراً. إنه تمرين طُلبت منها ممارسته بعد الحادثة لمنع انكماش يدها. لعلّ الوقت قد حان لتخفف عملها في ورشة التجليد وتريح يدها. وبالحديث عن الورشة، لقد حان وقت العودة إلى المتجر.

بعد أن أعادت الكتب التي لم تناسبها إلى صناديقها، حملت المجلد الغامض وتوجهت نحو مدخل المتجر، حيث وجدت كيفن ينظف راديو وردي اللون.

- «يبدو أنكِ محظوظة اليوم»، أخذ الكتاب وفتحه على عجل، ثم أغلقه وأردف قائلاً: «لم أسمع به من قبل. من الكاتب؟». نظرت إليه آشليين بذهول غير مصدقة أنه عاجز عن الإحساس بتلك المشاعر التي تغلي داخل الكتاب، ثم قالت:

- «لا فكرة لدي. ليس هناك اسم كاتب ولا صفحة حقوق نشر ولا حتى معلومات عن الناشر. أعتقد أنه خضع للترميم ذات مرة في مرحلة ما، أو أنه إصدار محدود وخاص، على غرار رواية «العم جون» التي طُبعت منها نسخ محدودة للعائلة والأصدقاء».

- «أتظنين أن أحداً قد يرغب في اقتناء كتاب كهذا؟».
- «لا أظن. لكنني أعشق الغموض»، قالت وهي ترمقه بنظرةٍ
مشاكسة.

الفصل الثاني

آشليين

«هل من مكان تكون فيه الطبيعة البشرية في أضعف حالاتها أكثر من المكتبات؟».

- هنري وارد بيتشر

أقفلت آشليين الباب وراءها، وهي تستمتع بالهدوء الذي يحلّ عليها عندما تخطو داخل متجرها، وبالشعور الذي يملأ كيائها انتماءً تاماً إلى هذا المكان.

تملك آشليين المتجر منذ ما يقارب أربعة أعوام، لكنه لطالما كان ملكها بطريقة ما، تماماً كما كانت ملكه. لا تتذكر عن المتجر سوى أنه بيتها، وأن كتبه المُرَتبة فوق الرفوف المتناثرة هي أصدقائها الموثوقون. الكتب ملاذٌ آمن، فيها حبكة تتبع أنماطاً متوقعة، ومقدمات ومتونٌ ونهايات. أكثرها نهايات سعيدة، لكنها ليست سعيدة دائماً. فإذا وقع حادثٌ مأساوي داخل كتاب، يمكن إغلاقه ببساطة واختيار واحد آخر. على عكس الحياة الواقعية، حيث تقع أكثر الأحداث دون موافقة البطل، مثل أبٍ لم يستطع الاستمرار في وظيفته، ليس لأنه يفتقر إلى الذكاء أو المهارات اللازمة، بل لأنه ببساطة شخصٌ غاضبٌ كثير الشكوى.

كان الحيّ بأكمله على درايةٍ بطباع جيرالد غرير الصعبة، فهم إما عايشوا هذه الطباع مباشرةً، وإما سمعوا زعيقه من خلال النوافذ يومياً تقريباً. كان يعنّف والده آشليين لأنها طهت اللحم

أكثر من اللازم، أو لأنها اشترت نوعاً لا يحبه من رقائق البطاطا، أو لأنها أكثرت من استخدام المسحوق في غسل ملابسه. ما من تصرفٍ كان يراه جيرالد صحيحاً وجيداً قط.

تهامس الناس أنه يعاني الإدمان، لكنَّ آشليين لم ترَ والدها يحتفظ بأي زجاجاتٍ في المنزل، الأمر الذي وجدته الجدة ترينا إيجابياً. لطالما تدمرت الجدة من أن زوج ابنتها على بعد خطوةٍ من إحراق المنزل، وآخر ما كان يحتاج إليه هو مادة تسرّع هذا الحريق.

أما والدتها، تلك الشخصية التي تعيش في الظل، فكانت عادةً ما تلازم غرفتها تشاهد برامج المسابقات أو تنام طوال الوقت بمساعدة علبة حبوب صفراء إلى جانب سريرها بدت أنها لا تنتهي، كانت تسميها حبوب التأقلم.

في الصيف الذي بلغت فيه آشليين الخامسة عشرة من عمرها، شُخِّصت إصابة ويلا غرير بسرطان الرحم. دار حديث عن إجراء عملٍ جراحي يليه علاج كيميائي وعلاج بالأشعة، لكنَّ أمها رفضت العلاج بعد أن خُلصَت إلى عدم وجود ما تستحق البقاء من أجله. توفيت في غضون عام، ودُفنت قبل أربعة أسابيع من عيد ميلاد آشليين السادس عشر. لقد فضلت ويلا غرير الموت على عائلتها وعلى ابنتها.

اعتكف والد آشليين بعد فقدان زوجته، فكان يحبس نفسه في غرفته أو يبقى بعيداً تماماً عن المنزل. بالكاد كان يأكل أو يتحدث، واحتلَّ فراغٌ مضطرب عينيهِ. عندما حلَّ عيد ميلاد ابنته السادس عشر، وعصر يوم الحفلة التي أصرَّت جدتها

على إقامتها، صعد الأب إلى العلية، وصوّب بندقيّة أسفل ذقنه،
وضغط على الزناد.
لقد اختار هو أيضاً.

ذهبت بعدها للعيش مع جدتها وخضعت لجلسات علاج مع
طبيب نفسي متخصص في حالات الأطفال الذي يعانون الصدمة،
لكن دون نتائج تُذكر. رحل والداها خلال شهر واحد، وكلاهما
اختار تركها طوعاً. لا بدّ أنه خطؤها، شيءٌ إما فعلته وإما لم
تفعله. خطأً فظيع لا يُغتفر، كوحمة خلقية مشوهة، أو جين معيب.
أصبح هذا السؤال جزءاً دائماً منها، كالندبة على كفّ يدها.

بعد وفاة والديها أصبح متجر الكتب ملاذها الآمن، أصبح
مكاناً للانعزال عن النظرات والهمسات، فلا أحد يزدريها، ولا
يسخر أحدٌ من الفتاة التي أطفأ أبوها حياته في الوقت الذي
كانت تطفئ فيه شموع عيد ميلادها. لم يكن انتحار والديها
الشيء الوحيد الذي شوّه سنواتها الأولى، إذ لطالما كانت مختلفة
وخجولة وانطوائية.

كانت غريبة الأطوار.

إنها الوصمة التي دُمِغت بها منذ يومها الأول في الصف
السابع عندما انفجرت بالبكاء بعد أن سلّموها كتاب دراسات
اجتماعية مهترئاً تفوح منه رائحة احتقار الذات. كانت أصداؤه
قائمة وعميقة ومزعجة حتى أنها استحال عليها لمس الكتاب.
توسلت إلى الفتاة بجوارها أن تتبادلا الكتب دون أن تذكر السبب.
في النهاية، أعطاها المعلم كتاباً آخر لكن بعد أن ضحك الصف
كله عليها.

لا تزال هذه الذكرى تلسعها حتى بعد مرور سنوات، لكنها استطاعت في النهاية أن تقبل هبتها الغريبة. ومثل الرسم أو العزف على الكمان، أصبحت هذه الهبة جزءاً منها، بل ومصدر راحة أحياناً، فالأصدقاء بديل من الأصدقاء الحقيقيين الذي قد ينتقدونها أو يتخلون عنها.

طردت آشليين هذه الذكرى من رأسها عندما وضعت حقيبتها على الطاولة وجالت ببصرها في أنحاء المتجر. كانت تعشق كل شبر من فوضاء المريحة؛ السجاد المهترئ والأرضية المصنوعة من خشب البلوط، ورائحة شمع النحل الممزوج ببقايا تبغ غليون فرانك. لكنها عندما نظرت إلى كومة الكتب التي تنتظرها على الطاولة الأمامية، وإلى الرفوف التي يجب تنظيفها والنوافذ التي لم تُغسل منذ زمن طويل، ندمت على عدم تنفيذ خطتها في توظيف شخص يساعدها على إتمام المهمات اليومية.

كادت تتشر إعلان توظيف الشهر الماضي، حتى أنها كتبت نص الإعلان، لكنها غيرت رأيها في النهاية. لم يكن الأمر متعلقاً بالمال، فمع تطور أعمال التجليد كان المتجر يحقق دخلاً جيداً. لكنّ تردها كان متعلقاً بالحفاظ على الملاذ الذي بنته لنفسها، عالم معزول من الورق والحبر والأصدقاء المألوفة. لم تكن مستعدة للسماح لشخص آخر بالدخول حتى إن عني ذلك حصولها على مزيد من وقت الفراغ، بل خاصةً إن عني ذلك مزيداً من وقت الفراغ.

ألقت آشليين نظرةً على الساعة القديمة في المتجر وهي تخلع سترتها وترميها على المنضدة. شارفت الساعة على الرابعة،

وكانت أمامها ساعة تقريباً من العمل على ترتيب الرفوف قبل أن تتحول إلى ورشة التجليد. كانت كتب اليوم متنوعةً وضمت عناوين مختلفة، مثل: «فن الطهو بالأعشاب والتوابل»، و«دليل سلوك الطيور» المجلدان الأول والثاني، و«الأعمال الشعرية للسير والتر سكوت»، و«أبعاد الفلسفة الأربعة».

لطالما أذهلتها أذواق زبائنها واهتماماتهم المختلفة. إن كان هناك أحدٌ ما في مكانٍ ما مهتماً بموضوعٍ ما، فإن هناك كتاباً يتحدث عنه. وإن كان هناك كتابٌ يتحدث عن أمرٍ ما، فإن هناك شخصاً ما في مكانٍ ما يودّ قراءته. كان عملها ربط الاثنين معاً، وهو ما أنجزته بجديّة بالغة. كبرت وهي تؤمن بأن الإنسان يستطيع تعلّم أي شيءٍ من الكتب. كيف لا وهي تقضي أيامها في هذه البيئة الفريدة؟

عندما انتهت من ترتيب الكتب على الرفوف، مسحت المنضدة وملأت رف المتجر الأمامي بالكتيبات الموجودة، بما فيها العدد الأخير من نشرة المتجر الشهرية. كان عليها تأجيل تنظيف النوافذ يوماً آخر. بعد ستين عاماً من الخدمة، فقد المكان رونقه. لكن رفوفه المزدحمة وأرضيته التي ملأتها الخدوش، أضفت على المكان لمسةً عتيقة دافئة، تلك اللمسة التي يقدّرها الزبائن ويتوقعونها.

في ورشة التجليد الملحقة بالجزء الخلفي من المتجر، أشعلت آشليين مصابيح الفلورسنت التي بدت شديدة السطوع بعد أن اعتادت عيناها نور مصابيح القراءة الهادئة الموزعة في المتجر. كانت الورشة غرفةً صغيرة تبعثرت فيها الأشياء ضمن

فوضى منظمة. يميناً، وبالقرب من المدخل مباشرة، استقرت آلة الخياطة المستخدمة في خياطة الصفحات معاً، إضافةً إلى رفٍّ امتلأ بأوراق الكتب بألوان وأنماط مختلفة. احتلَّ الجانب الأيسر مكبسٌ قديم من حديد الصلب، استحضر في ذهنها كلما رآته صوراً مروعة من محاكم التفتيش الإسبانية، إلى أن علّمها فرانك كيفية استخدامه لضغط الكتب.

امتدت على طول الجدار الخلفي طاولةُ العمل، علّتها رفوفٌ حملت مجموعة كبيرة من الأدوات، مثل الأوزان المستخدمة لتثبيت الصفحات، والخرازات، وقوالب الصنفرة، والمساطر، وتشكيلة من المطارق والملاعق، إضافةً إلى مجموعة أخرى من المعدات الأقل تخصصاً، ومن المستلزمات المنزلية، مثل الورق المشمّع، ومشابك الربط، ومجفف الشعر القديم الذي استخدمته لإزالة الملصقات عن الأشياء التي تشتريها من محال بيع الأثاث المستعمل. وعلى طرف الطاولة، وُضع صندوقٌ ذو غطاء زجاجي يحتوي على مجموعة متنوعة من المواد المذيبة واللاصقة، وأواني الصباغة، ومواسير الألوان، وأقمشة، وشريط لاصق يُستخدم لتدعيم الكتب، وبعض الأوراق اليابانية المتينة لترميم الصفحات الممزقة.

في السابق، كان منظر الأدوات يثير خوفها. أما اليوم، فقد باتت تشعر بأن كل أداة تمثل امتداداً لحبها الكتب، وامتداداً لذاتها. بعد حادثة والدها، كما أصرّت الجدة ترينا على تسميتها، عرض عليها فرانك عملاً مناسباً، تمثل بدايةً في تفريغ سلال القمامة وتنظيفها. لكن عندما رآها ذات مرة تحوم قرب باب

ورشة التجليد، وتراقبه متوترةً وهو منهمكٌ حابساً أنفاسه في تفكيك نسخة من الطبعة الأولى لإحدى روايات الكاتب شتاينبيك، أشار لها بالدخول وأعطاهما الدرس الأول في ترميم الكتب. أثبتت آشلين قدرتها على التعلم بسرعة. وبعد بضعة أسابيع، سمح لها بالمساعدة في ورشة التجليد بالعمل على الكتب العادية بدايةً، ثم الانتقال إلى الكتب النادرة والباهظة. بعد سنوات، أصبح ترميم الكتب بالنسبة إليها أشبه بالمهنة المقدسة. ثمة شيءٌ مُرضٍ حدّ الشبح في أخذ شيءٍ تعرّض للإهمال وسوء المعاملة، ثم إعادته جديداً مرة أخرى، بعد تفكيكه بعناية فائقة ثم تجميعه مجدداً، وقد استوى عموده وأزيلت ندوبه واستعاد جماله المتعب. كانت كل عملية ترميم عملاً من أعمال الحب، نوعاً من البعث، شيئاً مهماً ومكسوراً مُنح حياة جديدة.

تمثلت طلبية اليوم الأولى في التحقق من بعض الصفحات من كتاب «توم سويفت» كانت قد نقتها في حوض كبير من المينا، على أمل إزالة الكميات الهائلة من الغراء المستخدمة خلال محاولة إعادة تجليد بدائية وفاشلة. العمل بالغراء يتطلب دقةً وحذراً بالغين حتى بالنسبة إلى المتمرسين في مجال التجليد. فإذا ما وقع في يد هاوٍ متحمس، فالكارثة قادمة.

باستخدام ملعقةٍ صغيرة أنزلتها في الماء، تفقدت برفقٍ خليط الغراء والشريط اللاصق القديم من على حافة الصفحة العلوية. لم تكن الأوراق جاهزةً بعد، وتحتاج إلى بضع ساعاتٍ إضافية فقط لا غير. وعندما تجففها، ستعيد تجميع النص وتضيف أغلفة صلبة جديدة، ثم ستعيد نقش عمود الكتاب. لن تكون

عملية رخيصة، لكن الكتاب سيفادر المتجر وكأنه ولد من جديد، على أمل أن يتجنب السيد لانير أي محاولة ترميم مستقبلية داخل المنزل.

عندما أحست بالرضا بأنها فعلت ما استطاعت، جفت يديها وأطفأت الأنوار العلوية، وتفكيرها مشغولٌ بما تركته على كرسي القراءة في شقتها في الطابق العلوي، وبالكلمات التي ما انفكت تتردد في رأسها:

كيف يا بيل؟ بعد كل ما جرى... كيف يمكنك فعل ذلك؟



رافقتها الكلمات وهي تخطو داخل شقتها وتخلع حذاءها. وعلى غرار المتجر، أصبحت شقة فرانك آتواتر منزلاً ثانياً لها خلال نشأتها، حتى باتت ملكها اليوم.

خلال الأوقات الصعبة التي كانت تعيشها في منزل والديها، وقر لها فرانك وزوجته تاييني مكاناً تأوي إليه عند عودتها من المدرسة لتكتب وظائفها أو تتناول الطعام، أو حتى لتستلقي على الأريكة وتشاهد مسلسل «ظلال داكنة». عندما أصيبت تاييني بالتضخم الشرياني وتوفيت فجأة، بذلت آشلين كل جهدها لسد الفراغ الذي تركه غيابها. وفي المقابل، ترك لها فرانك كل شيء عند وفاته بعد ست سنوات. قال عن آشلين في وصيته: «ابنتي التي لم يمنحني القدر إياها، فرحي وعزائي في حزني».

افتقدته آشلين بشدة. افتقدت لطفه السخي، وحكمته الرصينة، وحبه كل ما هو مكتوب. لكنه لا يزال حاضراً هنا،

في الساعة القديمة المزخرفة الرابضة على رف المدفأة، وعلى الكرسي الجلدي القديم بالقرب من النافذة، وفي مجموعته الثمينة من كتب الأدب الفيكتوري الكلاسيكي التي تعجّ كلها بأصدقاء حياةٍ جميلةٍ عاشها. أجرت بعض التحديثات في الشقة قبل الانتقال للعيش فيها، ما أسفر عن مزيجٍ انتقائيٍّ مميز جمع بين الفيكتوري والمعاصر والقطع الفنية والمصنوعات اليدوية التي أثارت الدهشة بتناسقها مع نوافذ الشقة العالية وجدران الطوب العارية.

في المطبخ، سخّنت ما تبقى من وجبة الدجاج الصيني وأكلته مباشرة من العلبة وهي تقف فوق حوض غسيل الصحون. كانت تتوق إلى الانغماس في كتاب ندمٍ على بيل، لكنها اتبعت قواعد صارمة بشأن الطعام والكتب، إما الطعام وإما الكتب، لكنهما لا يجتمعان معاً البتة.

أخيراً، وبعد أن بدلت بثيابها الضيقة أخرى واسعة، أخرجت الكتاب من حقيبتها، ونقرت على مصباح القراءة الغريب الذي اكتشفته في إحدى ساحات البيع الصيف الماضي، ثم استقرت على الكرسي القديم قرب النافذة. جلست لحظةً والكتاب متوازنٌ على ركبتيها، تهيئ نفسها للعاصفة العاطفية التي عرفت دون شك أنها قادمة. أخذت نفساً عميقاً ثم فتحت أول صفحة.

ندم على بيل

(الصفحات من 1 إلى 13)

27 مارس 1953

نيويورك.

لعلك تتساءلين لماذا أتكبد عناء هذا كله؟ لماذا أتكبد بعد هذه السنين كلها عناء مثل هذه المشروع؛ كتابة كتاب؟ أود لو أقول بدايةً إنه لم يكن في نيتي أن يكون كتاباً بل رسالة، موجة من المشاعر المتدفقة التي لا يكون للمرء نية إرسالها حقاً. لكن ما إن لامس قلمي الورق، حتى وجدت أن في جعبتي كثيراً مما يجب قوله، كثيراً من الندم الذي لا يمكن أن تستوعبه صفحة واحدة، أو حتى صفحات عدة. وهكذا، انتقلتُ إلى مكتبي، وإلى آلة والدي الكاتبة حيث أجلس الآن، أقاوم كتابة الكلمات التي ابتلعته طوال اثنتي عشرة سنة، والسؤال الذي ما انفك يطاردني:

كيف؟ كيف يا بيل؟

لأنني حتى الآن، وبعد الأخطاء التي ارتكبتها في حياتي، وهي كثيرة، أنت أكثر ما أندم عليه في حياتي كلها. أنت الذنب العظيم الذي اقترفته، الندم الذي لا شفاء منه ولا غفران، لي ولك. تحدث في حياتنا خسائر لا يمكن توقعها أبداً. حزنٌ يزحف إليك من قلب الظلام. ضرباتٌ تلطمك بسرعة وبراعة دون وجود أدنى فرصة للاستعداد لها. لكنك تستطيعين أحياناً رؤية بعض الضربات قادمةً نحوك. ترينها وتقفين مكانك دون مقاومةٍ بانتظار أن تطرحكِ أرضاً، ثم تمضي الأيام والسنون ولا تتفكين ترددين

السؤال ذاته: لماذا كنت حمقاء إلى هذا الحد؟ لقد كنت أنت هذه الضربة، لأنني رأيتك تقتربين منذ تلك الليلة الأولى، مع ذلك، وقفتُ هناك لتضربيني وتلقيني أرضاً.

لا تزال ذكرى ذلك اللقاء شوكاً محشوراً في حَلقي، سرطانياً عجز أي مقدار من الحياة عن استئصاله. لا يمنحني عيش هذه اللحظات مجدداً أي متعة، لكنه قد يجلب لي بعض السلام. لذا، يجب عليّ البدء والعودة بالزمن إلى الوراء؛ إلى الليلة التي بدأ فيها كل شيء.



27 أغسطس 1941

نيويورك.

أجول بعيني في قاعة الرقص في فندق سانت ريجيس محاولاً ألا أبدو متوتراً في بدلتني التي استأجرتها، إذ لا شيء يكشف المحتال كالتوتر، وأنا محتال متوتر.

رحت أتفحص الحاضرين من نخبة قطاع الصناعة وزوجاتهم سيدات المجتمع المدلات، وهم يتناولون كرات لحم السلطعون مع الشراب الفاخر، حتى ليخيّل للمرء أن ما من شيء يُدعى الكساد الكبير. ربما لأن الكساد لم يمسّ هذه الطبقة المخملية الرفيعة بالقسوة ذاتها التي هُشم بها عامة الناس الذين ضربهم بكل قوة.

ليس الأمر مستغرباً، وسواءً أَسْتَحَقَّ الأثرياء ذلك أم لم يستحقوه، فإن طبقات الريش والمخمل تحميهم. وما يزيد الطين بلة، أن ثروات كثيرين من هؤلاء لم تتأثر، وبدا أنهم عازمون على

استعراض نجاتهم باستعراضٍ واضحٍ للثروة، كالاستعراض الذي أشهده هنا الليلة.

كانت حفلةً عامرة شهدت ما شهدته من ترفٍ وبذخ. هناك شرابٌ لا محدود، وربطات عنق بيضاء وفساتين لن تُرتدى مجدداً غصت بها ساحة الرقص. أوركسترا كاملة وطاولات ضاقت بأطباق الروبيان والكافيار الفاخر. منحوتات وتمائيل وصَوَانٍ فضية براقّة تحمل ما لذ وطاب من الشراب. كان بذخاً يخطف الأنفاس دون أدنى شعورٍ بالخجل. وما جرى بعدها في تلك الليلة لا يخرج عن نطاق الترف والفخامة، فقد تقدم أحد الأمراء لخطبة إحدى الأميرات، وأنا هنا لأشهد التبريكات والتهاني، ولألقي نظرة على الأميرة في بيتّها الطبيعية.

لستُ حاضراً حفل الخطوبة بصفتي مدعواً، بل بصفتي ضيفاً لدى صديقة في مهمة للاندماج، إن استطعتُ، مع صنّاع الذوق العام في أعظم مدن أمريكا. إنهم الموقرون أحفاد «الأربعمئة»⁽¹⁾ المعروفون في نيويورك، الذين اشتهروا باسمهم نتيجة عدد الضيوف الذين يُقال إن قاعة كارولين أستور استوعبتهم كلهم. وعلى غرار ما كان يجري في قاعة رقص السيدة كارولين أستور، لم تُدعَ إلا نخبة النخبة لحضور حفلة اليوم. بالطبع، لم يكن

(1) مصطلح يشير إلى الطبقة الاجتماعية الأرستقراطية والثرية في نيويورك في المدة الواقعة بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كان هذا المصطلح يشير إلى 400 من الأشخاص الذين يُدعون إلى الفعاليات الاجتماعية الراقية والمرموقة ممن يمثلون نخبة مدينة نيويورك. امتلك هؤلاء الأفراد ثروات هائلة ونفوذاً كبيراً في المجتمع، واضطلعوا بدور مهم في تشكيل الأذواق والثقافة في ذلك الوقت. (المترجمة)

اسمي ليُدرج في هذه القائمة، فأنا لا نسب عريقاً لي، لا نسب لي أصلاً. أنا شخص ذكي وطفيلي نال مكانة لا بأس بها، أنا متسلق اجتماعي جئت هنا في مهمة.

رأيتُ الأختين كوشينغ بين الحشد، ميني والمتزوجة حديثاً بيب، بصحبة والدتهما وسيطة الزواج كيت التي تُعرف وسط أصدقائها باسم «غوغسي». كما حضر أفراد من آل ويتي ومورتيمرز ووينثروب وريبليز وجافري وشيرميرونزر. كان من الواضح والمتوقع في آن غياب ممثل من عائلة روزفلت عن احتفالات هذا المساء، الذين يقال إنهم ليسوا من المفضلين لدى مستضيف الحفلة. بدا الضيوف لا يكثرثون بذلك لوجود كثيرين من أفراد النخبة يعوضون غيابهم. أشخاصٌ جميلون يؤدون أشياء جميلة بملابس جميلة. وهناك، على بعد أمتار قليلة، يقف الرجل القوي بإطلالته المثالية، الرجل الذي تكفل بهذا الحفل، الرجل العظيم بشحمه ولحمه، محاطاً بأصدقائه الجدد ذوي النفوذ. وليس بعيداً منه، تقف ابنة الرجل العظيم. لا أتحدث هنا عن سيسى التي كان تزويجها بابن ملك الألمنيوم ووريثه أشبه ببيعها في مزاد، بل أتحدث عن الابنة الصغرى التي اضطرتُّ إلى حضور حفل خطوبتها الليلة. أنتِ، عزيزتي بيل، التي ظهرت صورتك مؤخراً في صحيفة سَن دي نيوز، إلى جانب صورة خطيبك الذي يلعب البولو، ثيودور، الوريث الثالث لمؤسس عائلة ثيودور.

عندما وصلتُ، عشت لحظاتٍ شعرت خلالها بالضيق وأنا أراقبكما ترقصان. رحت أحصي خصاله وأقارنها بخصالي، كحال

بني آدم في المقارنة. تفصيل سترته المثالي، وعرض منكبيه، وأمواج شعره الذهبي وقد مشطه كاشفاً عن جبينه. أما وجهه، فكأنه قد من رُخام فاخر، مربع بلون برونزي. لكن ملامح وجهه نمت عن بعض الملل وهو يراقصك على أرضية الباركيه، وكأنه يفضل أن يكون في إحدى الغرف في الطابق العلوي، يدخل السيجار ويقامر بجزء من ثروة والده في جولة سيئة من لعب الورق (في حال صحّت الشائعات طبعاً).

ظننتُ حينها أنكما ثنائي مناسب. أذرعكما تتشابك بخفة وأنتما تواصلان الرقص بدقة متناهية. تحول ظني إلى يقين عندما رأيت صورة خطوبتكما في الجريدة؛ ثنائي جميل متساو في المكانة، ومتساو في الملل وخالٍ من الجوهر. لكن الآن، وأنا أتفحصك من الطرف المقابل في الغرفة وقد انفصلتما أخيراً، أدركت أنك لا تشبهين المرأة في الصورة أبداً. وقفتُ أتأملك هناك لحظة، حتى تاه تفكيري عما حولي تماماً.

كان جمالك يخطف الأنفاس، ترفلين بفستانٍ حريري فيروزي اللون تلبسينه ويلبسك وكأنه جلدٌ ثان. كان لونه يتغير مع كل حركة؛ أزرق ثم أخضر ثم فضياً خفيفاً، أشبه بألوان حراشف سمكة رائعة، أو حورية بحر في قصة خيالية.

كنت ترتدين قفازات فيروزية طويلة تناسب لون الفستان، وتألّق على عنقك عقدٌ بسيط يضم حبات من اللؤلؤ الرمادي. أما شعرك، فكان داكناً لامعاً مسحوباً إلى الخلف ومموجاً عند أعلى رأسك، كاشفاً جمال وجهك الشاحب المثالي، وفمك الذي خطته يد السماء، وذقنك المدبب والغمزة التي توسّطته. وجهٌ

آسر، وجهٌ يطبع نفسه في الروح مثل الصورة الفوتوغرافية قبل
تظهيرها... أو مثل كدمة.

ارتشفت من كأس الشراب شاردةَ الذهن. وبينما جالت عيناك
في القاعة، التقت بعيني. كانت لحظة غريبة، وكأن تياراً خفياً
سرى بيننا كجاذبية المغناطيس. قوة من قوى الطبيعة.

أملتُ رأسي قليلاً أومئًى بتحية بسيطة وباردة، أخال نفسي
جذاباً. يا لي من أحمقٍ جعل من نفسه أضحوكة! لقد تجاهلتني
وكأنك لم تريني، وبدأت الحديث مع امرأة تضع شعراً مستعاراً
قبيحاً. لاحظتُ أن عقد اللؤلؤ يتدلى خلف كتفيك، ويتأرجح
كالبندول حتى منتصف ظهرك العاري. للمشهد تأثيرٌ يسلب
الألباب.

كنت لا أزال أحرق إليك عندما تجاهلت رفيقتك والتفت
لتنظري إليّ وكأنك تدركين أن عيني تتأملانك طوال الوقت.
بادلتي نظرتي بثبات. أكانت نظرة استتكار، أم كانت دعوة؟ ليست
لدي أدنى فكرة. تعايبك جامدة لا تفصح عن شيء. كان عليّ
أن أدرك حينها وفي ذلك المكان، وفي تلك اللحظة من التوهج
الصقيعي، أنك ستحجبين عني دائماً جزءاً منك. لكنني لم أرَ
ذلك لأنني لم أرد.

توقعتُ منك الابتعاد وأنا أدنو منك. توقعت أن تتلاشي وسط
الحشد، لكنك بقيت ثابتةً في مكانك، وعيناك لا تفارق عيني من
فوق حافة كوب شرابك. بدوت شابة فجأة، وضعيفة بطريقة لم
ألاحظها إلى الآن. وجب عليّ أن أذكر نفسي أنك احتفلت للتو
بعيد ميلادك الحادي والعشرين.

- «حذارِ»، قلتُ وأنا أبتسم برقّة وأتسلل إلى جانبك. «قد يياغتك تأثيره بأسرع مما تتوقعين، خاصة إن لم تكوني معتادةً شربه».

رمقتني بنظرة باردة وقلت: «هل أبدو لك مبتدئة في الشرب؟». جالت نظراتي عليك، وتعلقتُ بعنقك وبقوسي عظم الترقوة، بتواتر أنفاسك التي كانت أبطأ قبل لحظة.

- «لا»، نطقتُ أخيراً. «ليس الآن وأنا أنظر إليك من كُتب». مددتُ يدي نحوك وقدّمتُ نفسي. عرّفتني عن نفسك أنت أيضاً، وكأن أحداً في القاعة لا يعرف من تكونين! ألقىت نظرة سريعة على الألماسة التي تلمع في إصبعك. أخذت شكل إجازة ولا يقل وزنها عن ثلاثة قراريط مع أنني لست خبيراً بهذه الأمور.

- «تهانّي على خطوبتك». - «شكراً لك»، قلتُ وأنت تشيحين بنظرك عني. «هذا لطفٌ منك».

جعلني صوتك المنخفض بشكل مذهل بالنسبة إلى شخص صغير في العمر أتوقف لحظة، لكنني مستمتعٌ بأسلوبك اللطيف. من الواضح أنك لا تعرفين من أنا، وإلا لما عاملتني بهذا التهذيب. رمقتني بنظراتك مرة أخرى وقد لفتت يداي الخاويتان: «أنت لا تشرب شيئاً». نظرت حولك بحثاً عن نادل ثم أردفت: «دعني أحضر لك كأساً من الشمبانيا».

- «لا شكراً، أنا أشرب الجين مع الفوار فقط». - «أنت بريطاني؟»، قلتها وكأنك أدركتِ للتو أنني لستُ من بيتكم.

- «أجل».
- «أنت بعيد جداً عن وطنك. هل لي أن أسأل عن سبب قدومك إلينا؟ أنا متأكدة أنك لم تقطع المحيط الأزرق الشاسع لحضور حفل خطوبتي فحسب».
- «المغامرة»، قلت لأتهرب من سؤالك. إذ إن الاعتراف بسبب مجيئي فعلاً إلى فندق سانت ريجيس وإلى الولايات المتحدة لن يكون جيداً. «أنا هنا بحثاً عن المغامرة».
- «المغامرات خطيرة أحياناً»، قالت.
- «وهنا تكمن جاذبيتها».
- تفحصتني بعينيك العسليتين مرة أخرى، مطولاً وببطء. وجدت نفسي أتساءل عما ترين وكم ترين. «أي نوع من المغامرات تحب؟»، سألتني بتلك النبرة الضّجرة التي تتخذينها أحياناً وسيلة دفاع. «وماذا تعمل؟».
- «أنا كاتب»، تهربّ آخر، لكنه أصفر من سابقه.
- «حقاً؟ وما تكتب؟».
- «القصص».
- بات الجو بيننا ألطف وأقرب إلى الحقيقة، لكن ليس تماماً بعد. رأيت أنني أثرتُ اهتمامك، فلكلمة كاتب هذا الوقع على الناس.
- «مثل هيمنغواي؟».
- «يوماً ما ربما»، أجبتك وكنت صادقاً في هذا الجزء على الأقل. قد أكتب يوماً ما مثل هيمنغواي أو فيتزجيرالد أو وولف. هذه خطتي على الأقل.

زمنتِ شفّتيكِ لكنكِ لم تدلِ بأيّ تعليق.

- «ألسِتِ من المعجبين بالسيد هيمنفواي؟»، سألتكِ.

- «نعم، أمقت تلك الذكورية المغرورة كلها»، نظرتِ صوب حلقة

الرقص فاعتقدتُ أنك ضجرتي. «أفضّل الأخوات برونّتي».

قلتِ أخيراً على وقع العزف الهادئ المنبعث من الفرقة

الموسيقية لأغنية «Never in a Million Years».

رفعتِ كتفيّ متردداً: «أبطال مكتئبون وبرارٍ تعصف بها الرياح.

روايات لها... جوها الخاص. لكنها ذات طابع قوطي أكثر مما

أفضله».

أملتِ كأسك نحو الخلف ثم أفرغتها في فمك، ورمقتني بنظرة

جانبية ثم قلت:

- «كنت أظن أن الإنجليز متكبرون فيما يخص الكتب، ولا

يقرؤون إلا كلاسيكيات الأدب».

- «ليس الكل، بعضنا يتابع الأدب الحديث فعلاً. أقرّ بأنني من

المعجبين بديكنز. لم يكن مبالغاً في رومانسيته، لكنّ الرجل

يعرف كيف يروي قصته».

رفعتِ حينها حاجبك الرقيق الداكن اللون ثم قلت: «هل نسيّت

الآنسة هافيشام غريبة الأطوار⁽¹⁾ وكعكتها الرهيبة؟ أليس ذلك

عنصراً قوطياً؟».

(1) إحدى شخصيات رواية «آمال عظيمة» لشارلز ديكنز. عُرِفَت الآنسة هافيشام

بغربة أطوارها، وقد وصفها ديكنز بالمسنة الحانقة التي تشبه شبحاً كثيراً. فبعد

أن هجرها عريسها الطامع في ثروتها قبل عرسهما بعشرين دقيقة، أمرت بأن

تتوقف الساعات كلها لحظة علمت بخيانتها، وعاشت بقية حياتها مرتدية فستان

الزفاف، وزوج حذاء واحداً. (المترجمة)

- «حسناً. معك حقٌ في هذه. كان يضلُّ أحياناً ويكتب عن الشبان البائسين والنساء اللواتي اعتكفن وهن يرتدين فساتين الزفاف. لكنه كتب عموماً عن قضايا اجتماعية، كالفقراء والأغنياء والتفاوت بين الطبقات».

انتظرتُ بعدها بوجهٍ خالٍ من التعابير لأجد إن كنتِ ستتأولين الطُّعم أم لا. كنتُ أحاول استدراجك إلى الكلام، لأنني في حينها كونتُ فكرةً تماماً عن شخصيتك. لكنني فجأةً، ولسبب غير مفهوم، أردتُ بشدة أن أكون مخطئاً.

- «والى أي طبقةٍ تنتمي؟»، قلتِ وقد قلبت عليَّ الطاولة ببراعة، «إلى الأثرياء أم إلى الفقراء؟».

- «إلى الفئة الثانية طبعاً، لكنني أطمح إلى مزيدٍ يوماً ما». أملتُ رأسك وضاقَت عيناكِ قليلاً، ورأيتُ سؤالاً ذكياً يتشكّل. مغامرٌ يعترف بنفسه أنه لا يملك المال أو الفرص. لكنني ها أنا ذا أخالطُ عليّ القوم في حفلتك الصغيرة الجميلة، وأتناول الشراب الذي يقدمه والدك وأتصرف بوقاحة. تريدان أن تعرفي من أكون، وكيف لأحدٍ مثلي أن يصل إلى مكانٍ كهذا. لكن قبل أن تتمكني من السؤال، أخذتكِ من ذراعك امرأة ترتدي فستاناً من قماش التافتا الأسود، وهي تبتسم تحت طبقات مساحيق التجميل.

رمقتني بنظرة ازدراء وكأنني شخصٌ لا قيمة له، ثم طبعت قبلةً على خدك وقالت: «حظاً موفقاً لك ولتيدي. لا شك أن والدك مسرور جداً. خيراً ما فعلتِ لك وله».

تردين بابتسامة، لكن ليست ابتسامتك الحقيقية، بل تلك التي تحتفظين بها لمناسبات كهذه. آلية وغير عفوية. وبينما أنا واقفٌ أراقبك وأنت تتصنَّعين، لم يفارقني الشعور أن المرأة الواقفة إلى جانبي، المتأنقة بالحريز الفيروزي واللآلئ، شخصية زائفة، ممثلة في دراما الملابس الفاخرة، وآلة تعمل جيداً.

تلاشت ابتسامتك في اللحظة التي غادرت فيها المرأة. اختفت فجأة كما ظهرت. بدوت باهتةً دونها، وخفّ رونقك بطريقة ما، حتى كدت أشعر بالشفقة عليك. إنه آخر شعور توقعت أن يراودني هذا المساء. فوجدتُ نفسي مُزعجاً. الشفقة تجاوزتُ لا يمكن للرجال في مهنتي أن يحتملوه.

حيثُ المرأة المغادرة بانحناء بالكاد تُلاحظ ثم قلت: «بقدر ما تسعفني معرفتي، وهي قليلة على ما أظن، يراودني شعور بأنك غير سعيدة. وهو أمر مفاجئ بالنظر إلى أنك ظفرتِ بأكثر العازبين جاذبية في نيويورك كلها. نفط وعقارات وخيول. نموذج مثالي، أو كما يقال الفتى الذهبي».

تصلّب جسدك وتضايقتِ من نبرتي ومن حقيقة أنني تمكنت من اختراق تلك الطبقة البراقة التي تغلفك.

- «يبدو أنك تعرف كثيراً عن خطيبي. هل أنت صديق تيدي؟»
- «لست صديقه، لكنني أعرف بضعة أشياء عن فتاك وعائلته. لقد أحاطوا أنفسهم بمجموعة مميزة من الأصدقاء. ليسوا جميعهم من طبقاتٍ عليا، لكنهم... مفيدون».
- ظهرت تجعيدة صغيرة بين حاجبيك. «مفيدون؟».

- رددتُ بابتسامة باردة: «يحتاج الجميع إلى أصدقاء من طبقاتٍ دنيا. ألا تظنين ذلك؟».
- أصابتكِ حالة من عدم التوازن. لا تعرفين ماذا تستتجين من كلامي. هل هو تهديد، أم طلب تعارف، أم إحياء مسيء؟ رفعتِ كأسك حتى شفطتِ ناسيةً أنك قد شربتها كلها، ثم أنزلتها وأنتِ تتتهدين.
- «هل جئتِ إلى هنا بدعوة؟».
 - «أجل، لكن يبدو أن شريكتي اختفت. لقد غادرت منذ قليل لتعدّل مساحيق التجميل على وجهها ولم تعد».
 - «ومن تكون شريكك؟ لا أحب أن أسأل لكنها حفلتي».
 - «أنا هنا مع غولدي»، أجبتُ ببساطة دون لقب، إذ لا داعي لذكر الألقاب عند الحديث عن غولدي.
 - اتسعت فتحتا أنفك لدى ذكر اسمها، ثم قلتِ: «كنت أعتقد أن شخصاً يبدو مهتماً جداً بنوعية أصدقاء خطيبي سيكون أكثر حذراً بشأن اختيار صحبته».
 - «أفهم أنك لا توافقين على حضورها؟».
 - «ليست المسألة مسألة موافقة أو رفض، فأنا لم أعلم أنها مدعوة أصلاً. لست معتادةً التعامل مع نوع النساء اللواتي يملكن صحفاً تنشر القيل والقال».
 - «واحدةٌ منها فقط تنشر «القيل والقال» كما أسميتها. أما البقية فهي جرائد نظامية».
 - أملتِ رأسكِ ونظرتِ بعيداً.
 - «ألا تظنين أن العمل في مجال الصحافة يناسب المرأة؟».

نظرت إليّ مجدداً بعينين حادتين برّاقتين: «أي عمل تختاره المرأة يناسبها ما دام عملاً محترماً. لكن تلك المرأة...»، توقفت عن الكلام مع اقتراب النادل الذي أعطاك كأساً ممتلئة عِوض الفارغة. أخذتِ رشفةً صغيرة بانتظار أن يبتعد، ثم ملتِ نحوي لتكملي كلامك: «ليكن في علمك أن الاحترام لم يعرف طريقه إلى تلك المرأة من قريب أو من بعيد».

- «أيتعلق الأمر بقطيع الشباب من حولها؟».

رفّعت عيناك وقد أذهلتكِ فظاظتي، أو تظاهرتِ بذلك على الأقل. أنتِ من النوع الذي يحكم على الأمور بناءً على ظاهرها، دون أن يكلف نفسه عناء سبر غورها. أمرٌ مخيب، لكنه قد يكون في مصلحتي في النهاية.

- «تعرف ذلك عنها ومع ذلك أتيت بصحبته إلى حفلة كهذه؟».

- «تلقتُ غولدي دعوة وأردتُ أنا المجيء».

- «لماذا؟».

- «لأرى أبناء جلدتك في بيئتهم التي ينتمون إليها. وليكن في علمك، لا تخفي غولدي أمر علاقاتها عني أو عن أي أحد آخر».

- «وأنت مرتاحٌ في أن تكون جزءاً من... القطيع؟».

أخذتني رعشةٌ مستمتعاً بغضبك: «إنها مسألة تفاهم متبادل. اتفاقٌ يخدم كلينا».

- «فهمت».

اكتست وجنتاكِ بلونٍ وردي، فتذكرتُ مرة أخرى أنك لا تزالين صبيةً صغيرة تصغرنني بخمسة أعوام. لكن بالنسبة إلى الرجل،

تشكل تلك السنوات فارقاً أشبه بالأبدية. لعلك كنتِ محمية بعيداً عن عالم النساء والرجال الحقيقي، وعن كيفية سير الأمور. وجدتُ نفسي أَسْأَلُ فجأة عما تعرفين بالضبط، وكيف عرفتِ ما تعرفين. قاومتُ الرغبة في التراجع، في وضع مسافةٍ بيننا. بدوتِ خطرة فجأة. برودك البريء يتناقض مع اللهب الخافت الذي بدأ يرتعش في داخلي. تتحنّنتُ وأجبرتُ عقلي على التركيز على موضوع حديثنا.

- «لطفٌ منك أن تقلقي بشأن سُمعتي لكنني رجلٌ ناضج. سأقول لك شيئاً: كثيراً ما تُصنع الحقيبة الجميلة من جلد الخنزير، والعكس بالعكس».

نظرتُ إليّ نظرة الحائر وقلتُ:

- «ما الذي يُفترض أن يعنيه ذلك؟».

- «يعني، ومن خلال تجربتي، أن المظهر الخارجي الخشن كثيراً ما يُخفي دُرّاً مكنوناً، في حين أن هالة الوقار والاحترام كثيراً ما تخفي العكس».

اتسعت فتحتا أنفك مجدداً وكأنك تشمين رائحة عدو. أنا العدو، أو سأكون كذلك عندما تزداد معرفتك بي. أما الآن، فقد أثارتكِ معركتنا الكلامية. لاحت ابتسامة خفيفة على زاويتي فمك. ابتسامة أقرب إلى ابتسامتك الحقيقية مع أنك حاولتِ حبسها بصرامة.

- «هل هذه فكرتك عن المزاح الذكي في حفل؟ استعارات معقدة؟».

- «بل تذكيرٌ بأن الناس يُظهرون ما لا يبطنون».

قاستني نظراتك ببطء وقيمتني من رأسي حتى قدمي: «هل ينطبق هذا الكلام عليك أيضاً؟».

حان دوري لأكتم ابتسامتي. «أكثر من الجميع»، قلت. أومأتُ بأدبٍ ثم ابتعدت. لمحتُ غولدي للتو. ظهرت بنظرات حادة بعد أن جدت مساحيق التجميل على وجهها. انضمتُ إليها عند المشرب سعيداً بكأس الشراب التي وضعتها في يدي. أخذتُ جرعة كبيرة مقاوماً الرغبة في النظر إلى الخلف نحوكِ. أنت خيطٌ لا أجروء على سحبه. ليس لأنني أخشى أنك لن تتحملي هذا الانفكاك، بل ليقيني منذ تلك اللحظة الأولى، أنني لن أحمّله أنا. استدرتُ في النهاية، ووجدت أن عينيك لا تزالان تلاحقانني، وأنني من هذه المسافة، لستُ آمناً. حسناً فاتتة، حواء الجليدية الباردة في فستانك الحريري الفيروزي، جميلةٌ الجميلات... بيل. هكذا فكرتُ بك تلك الليلة، وهكذا سأفكر دائماً. ليس بالاسم الذي منحكِ إياه عائلتك، بل بوصفك بيل جميلتي. لأنني شعرتُ يقيناً مرة أخرى، وأنا أظاهر أنني لم ألحظ عينيك تراقبانني، أن خلف تلك الواجهة الجليدية تختبئ امرأة أخرى لا صلة تربطها بهذا الاستعراض المقام حولها.

أو لعل ذلك ما أحتاج إلى تصديقه الآن، بعد هذه السنين كلها، وأنا جالسٌ إلى آلتِي الكاتبة، أبوح بكل شيء. وهمٌ أتمسك به لأنه أسهل من الاعتراف بأنني خدعتُ تماماً.

الفصل الثالث

آشليين

«خلف كل سترة بهت لونها، وكل لوح مخدوش، هناك حياة وعمل نبيل وقلب مكلوم، وحب مفقود، ورحلة خيضة».

-آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

26 سبتمبر، 1984

بورتموث، نيو هامبشير.

احتست آشليين قهوتها بعينين مغمضتين، وهي تكافح صداً قوياً وتقلبات في معدتها. يحدث هذا أحياناً بعد لمس كتاب يحمل أصداء قوية. إنه أشبه بصداً ما بعد الثمالة أو أعراض الإنفلونزا الباكرة. كانت تعلم أن من الأفضل عدم قضاء أوقات طويلة مع كتاب مثل «ندم على بيل». أسمتها الكتب المظلمة، وهي كتب ذات أصداء قوية جداً بحيث لا يمكن وضعها على الرفوف مع الكتب العادية.

لا تعني حقيقة جهل الزبائن وجود الأصداء أنهم لم يشعروا بها، فقد رأت بأم عينها التأثيرات التي قد يخلفها كتاب مظلم في القراء الغافلين، من دوارٍ وصداً ونوبات بكاء مفاجئة. ذات مرة، سحبت زبونة نسخة من مجلة «فانيتي فير» من على الرف، فأحست بتأثيرات قوية إلى درجة أنها طلبت كوباً من الماء. يا لها من مسكينة! في ذلك اليوم بالتحديد، قررت آشليين أن عليها تطهير الرفوف.

علّقت على الباب لوحةً كُتِبَ عليها «مغلق لأعمال الجرد»، وعكفت على مدار ثلاثة أيام على التنقل بين الرفوف وملامسة الكتب كلها، وانتقاء تلك التي تحمل أصداً عَدَّتْها قاتمةً جداً بحيث لا يتعامل معها من لا يدرك حقيقتها. وجدت ما مجموعه ثمانية وعشرون كتاباً، يحمل بعضها قيمة كبيرة. باتت جميعها الآن في مكان آمن، معزولةً في خزانة ذات واجهة زجاجية في مخزن المتجر. لا شك أن كتاب «ندم على بيل» سينتهي به المطاف هناك بمجرد أن تنتهي من قراءته.

وقفت آشليْن تحديقاً إلى الكتاب المُلقى على طاولة المطبخ قرب حقيبتها. بعد ثلاث قراءات كاملة، حفر الفصل الافتتاحي لنفسه مكاناً في ذاكرتها. لقاءً أول مشتمل بين عاشقين في حفل خطوبة. بالكاد كانت بدايةً مبشرة. لاحقاً، أوضح العنوان أن هذين العاشقين لن يعيشا نهايةً سعيدة.

وهذا ما يفسر على الأرجح عدم قدرتها على الانتقال إلى الفصل الثاني. في الحقيقة، لم تستطع بعدُ تحديد ما تقرأ. هل هي مذكرات شخصية، أم هي الفصل الأول من رواية ما، أم رسالة غرامية مغلفة تغليفاً جميلاً؟ لم تملك آشليْن أدنى فكرة. ما أدركته يقيناً، أن الانغماس في قصة حبٍّ فاشلة، حتى إن كانت في كتاب، ليس فكرةً جيدة. خاصةً بعد أن كافحت جاهدةً لتستعيد توازنها بعد انهيار زواجها انهياراً مدوياً.

سلسلة من العلاقات العابرة، وطلاقٌ لم يكتمل، وموتٌ لم يكن في الحسبان. مع ذلك، لم تشعر أن من المناسب أن تطلق على نفسها صفة أرملة بعد وفاة دانييل، كما لا يمكنها وصف نفسها

بالمطلقة أيضاً مع أن زواجهما انتهى فعلياً قبل أشهر من وفاته. وهكذا، وجدت نفسها تعيش حالة غامضة مع معالج نفسي جديد، ولا تملك أدنى فكرة عما سيأتي بعد. عادت مرةً أخرى إلى ملاذها الآمن، لكنّ الأمان لا يأتي دون ثمن.

كانت تدرك متألّمة الانكماش الذي طرأ على حياتها خلال السنوات الأربع الماضية. افتقارُها الحياة الاجتماعية أو أي دائرة مهنية جادة، وتجنبها الصارم أيّ شيء قد يؤدي إلى علاقة رومانسية. أدى ذلك كله إلى عيشها حياةً محدودة تحكمها رتبة ضبابية، إذ بالكاد يحدث في حياتها ما يميز يوماً عن تاليه. من جهة أخرى، لم تكن هناك كوارث، ما جعل هذه الرتبة مجزيةً معظم الأحيان.

هذا ما يفسر شغفها بكتاب «ندمٌ على بيل»، فقد قدم إليها مهريةً من الرتبة، ورحلةً لا تتطلب مغادرة بر الأمان النسبي. لكنها في اللحظة التي فتحت فيها الكتاب في غرفة المتجر الخلفية، أدركت أنه لم يكن مجرد مهرّب. أحسّت بتواصلٍ لم تستطع تحديده تماماً. شيءٌ شائك ومألوف يعتمل تحت الخيانة والمرارة، وشعورٌ بأشياء تُركت دون أن تكتمل، كحياتها تماماً. شعرت بأن حياتها معلقة، وأنها تقف حابسةً أنفاسها بانتظار وقوع أمرٍ سيئٍ لا تعرف ماهيته، وكأن روحها تائهةٌ بين سطورٍ لم تُكتب، أو نغماتٍ لم تُعزف.

كان هذا الإدراك مؤلماً ولا يمكنها تجاهله. كل ذلك بسبب رجلٍ من راي ترك بضعة صناديق تحوي كتباً في متجر كيفن.

لم يكن الأمر وكأنها المرة الأولى التي تفاجئها فيها أصدقاء الكتب، بل حدث ذلك كثيراً في الواقع. أسراراً فاضحة إلى درجة تشعر معها أن أطراف أصابعها تحترق، وحرزٌ أشبه بحجرٍ يسدّ حنجرتها، وفرحةٌ عارمة تجعل فروة رأسها تقشعر. لم تكن هناك أشياء كثيرة لم تبُح بها الكتب لها، لكنها لم تختبر شيئاً يدنو حتى مما شعرت به وهي تمسك بكتاب «ندم على بيل».

جذب الكتاب نظرها مجدداً. شعرت به يناديها حتى وهو مغلق. شعرت بجاذبية غموض صاحبه، وسرده الدقيق الغامض. كان يدعوها إلى قراءته بعد أن مضى عليه وقت لا يعرفه أحد. وأصدقاء لم يشعر بها أحد.

اعتادت على مرّ السنين أن تفكر بالأصدقاء بالطريقة التي يصف فيها العطار النوتات العطرية.⁽¹⁾ بعضها نغمات عاطفية بسيطة، والبعض الآخر كان أوركسترا معقدة؛ طبقات خفية من الروائح تتناغم لتخلق السيمفونية الكاملة. القمة، والقلب، والقاعدة.

أما في كتاب «ندم على بيل»، كانت الأصدقاء معقدة وثقيلة ومربكة. ومع هذا، وضعت يدها على الغلاف. أحست بالمرارة أولاً، حادةً وحارة على أطراف أصابعها. تلك كانت نوتة القمة والانطباع الأول، ثم جاءت نوتة القلب الأعمق والأشد، النوتة التي نحتت تجويفاً تحت أضلاعها، وأخيراً نوتة القاعدة، أكثر الطبقات صدئاً على الإطلاق، الحزن. لكن حزن من؟

(1) هي المكونات الفردية التي تشكل العطر النهائي. تنقسم هذه النوتات إلى ثلاثة عناصر مميزة: النوتات العلوية (القمة) والوسطى (القلب) والأساسية (القاعدة). يؤدي كل عنصر دوراً مختلفاً في بناء العطر وإبراز روحه وجوهره. (المترجمة)

كيف يا بيل؟

كلما فكرتُ في الأمر، زادت قناعتها بأن بيل الجميلة والغامضة لم تكن مجرد خيالٍ نسجه المؤلف. لقد حرص على توضيح أن بيل كان اسماً أطلقه عليها، أما اسمها الحقيقي فقد غيَّبه بعناية شديدة، كما فعل مع اسمه هو. في الواقع، لم تُمنح أي من الشخصيات أسماء حقيقية. هل لأن أسماءهم الحقيقية ستكشف هويتهم بسهولة؟

قلَّبت الصفحات متجهمَةً وكأن الإجابات قد تكون مدسوسةً داخلها كرسالة حبٍّ قديمة أو سوارٍ من ورد. خاب أملها طبعاً. إذا أرادت إجابات، فعليها أن تسعى خلفها. لا بد من وجود أحد ما في دليل عناوينها القديم، أستاذ أو أمين مكتبة قد يكون قادراً على كشف بعضٍ من هذا اللغز. هناك طريقةٌ أسهل ربما، فإذا كان كيفن يعرف اسم الرجل الذي أحضر الصناديق، فقد تكون قادرة على الاتصال به.

نزلت السلم إلى المتجر وشرعت تقلب صفحات دليل عناوينها القديم حتى عثرت على رقم كيفن. بعد رنيتين، أجابت امرأة. تعرفت أشلين إلى صاحبة الصوت على الفور. كانت كاسي، الفتاة التي تمضغ العلكة باستمرار وتحاول تقليد مادونا، والتي كانت تعمل في متجر كيفن في مددٍ راحة فرقتها الموسيقية.

- «مرحباً كاسي، أنا أشلين من متجر «حكاية غير متوقعة». هل كيفن موجود؟»

- «أهلاً بك. لا، لقد غادر هو وغريغ صباح اليوم لقضاء أسبوع في جزر الباهاما. الغيرة تقتلني هنا».

- «من يدير المتجر إذن؟».
- «أنا على ما يبدو. هل هناك شيء يمكنني مساعدتك فيه؟».
- «كنت أود التحدث إليه بشأن بعض الكتب التي وصلت الأسبوع الماضي. أخذتُ أحدها ولديّ بعض الأسئلة حولها. كنت أمل أن يكون لديه رقم هاتف الشخص الذي جلبها».
- «حسناً... لا أعلم شيئاً عن هذا الموضوع أبداً».
- تخيلت آشليين كاسي وهي تلصق علقتها بالهاتف، وحاولت جاهدة ألا تغضب. «هل تعلمين إن كان كيفن يسجل معلومات عن الأشخاص الذين يأتون لبيع أشياء؟».
- «آسفة، إنها أمورٌ يتولاها هو، لكنه سيعود إلى المتجر يوم الأربعاء القادم».
- «سأتصل به حينها. شكراً لك».
- أغلقت آشليين الهاتف وعادت إلى دليل عناوينها، أسبوع كامل! إنه وقتٌ طويلٌ جداً تقضيه في الانتظار.



بحلول الوقت الذي قلبت فيه آشليين لافتة «مغلق» في ذلك المساء، كانت قد أمضت ساعة ونصف الساعة وهي تنتظر مكالماتٍ هاتفية بعد أن أرسلت سبع رسائل. واحدة لكليفورد ويستن، صديق دانييل القديم ورئيس قسم اللغة الإنجليزية الحالي في جامعة نورث هامبشير. وواحدة لجورج بارثولوميو، أستاذ في جامعة ماساتشوستس وأحد زبائنهما. واثنان لبائعَي كتب نادرة متنافسين. وثلاث رسائل لأمناء مكاتب أخرى.

لكن سعيها لم يسفر عن شيء، إذ لم يسمع أحدٌ منهم قبلاً بكتاب «ندم على بيل». كان عليها أن توسّع بحثها. ربما يستطيع فرع جمعية تجار الكتب القديمة المحلي تقديم المساعدة. أو ربما الاتحاد الدولي لتجار الكتب القديمة. هناك مكتب دائماً يُعنى بحقوق الطبع والنشر في مكتبة الكونغرس، ولكنّ خوض غمار تلك الإجراءات الروتينية البيروقراطية كلها كان أمراً شاقاً. مع ذلك، قد تكون مكتبة الكونغرس المكان المنشود.

وبينما كانت تحسب إيصالات اليوم، وقع نظرها مجدداً على الكتاب، ففقدت العزم على كشف أسرارهِ أكثر من أي وقتٍ مضى. كان تحقيق اكتشاف أكاديمي مذهل، أو العثور على عملٍ لم يُعرف قبلاً، ورؤية هذا الاكتشاف منشوراً في مجلة عريقة مثل «مراجعة دراسات اللغة الإنجليزية» أو «تاريخ الأدب الجديد» الحلم غير المعلن لتجار الكتب النادرة كلهم. لكن اهتمامها بالكتاب لم يكن أكاديمياً. لقد كان غريزياً وشخصياً بطريقة لم تستطع تفسيرها. وهكذا واصلت القراءة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

ندمٌ على بيل

(الصفحات من 14 إلى 29)

4 سبتمبر 1941

نيويورك.

بعد مرور أسبوعٍ على لقائنا الأول، وجدتُ نفسي حاضراً حفل عشاءٍ تُقيمه فيوليت وبيتير وزوجها. حفلٌ يُقام على شرف خطبتك على تيدي الشهير. كانت فكرة غولدي، ولست متأكداً كيف استطاعت ترتيب دعوتي. لعلَّ الأمر يتعلق بدينٍ سابق بين المرأتين، أو اتفاقٍ على عدم نشر قصة غير مرغوبة تتعلق بصاحبة الحفل، مع أنني لا أملك دليلاً على ذلك.

ارتسم على وجهك توترٌ خفي عندما لمحتني بين المدعوين. لم يكن ملحوظاً بما فيه الكفاية ليثير انتباه الحاضرين، لكنني لاحظته حتى وجدتُ نفسي أبتسم وأنت تكملين جولتك في المكان. تختالين كلهيبٍ باردٍ بثوبٍ حريري رمادي، وتتحركين بخفة بين الحسنات، تتوقفين بين الحين والآخر، مخلفةً وراءك نسيماً منعشاً يذوب في الهواء مع ابتعادك.

كلمات مثل «يخطف الأنفاس» تتردد كثيراً على الألسن، ولا شك أنني تفوهت بها أنا أيضاً. لكن وأنا أراقبك من خلف كأس شرابي، أشرق عليّ إدراك مفاجئ أنني لم أفهم حقاً معنى الكلمة. فأنا الآن، في هذه اللحظة، أشعر فجأة بأن الهواء امتلأ من الغرفة، وأنني ألهث في إثره.

يغمرك توهجٌ خفي، تناقض بين الظل والضوء يلتصق ببشرتك. توهمت لحظةً أنني أرى البرودة تنبعث منك مثل موجات صغيرة فضية، تماماً كأنبعاث الحرارة من الإسفلت في الصيف. شعرتُ بأنني أحرق تماماً، صبيٌّ متيم. يا لسخاقتي، أنا لستُ صبيّاً. لكنني لا أستطيع أن أشرح بنظري بعيداً عنك. أنت جليدٌ وفولاذ معزولٌ ببرودك. لكن مظهركِ الجليدي يحدثُ فيّ تأثيراً معاكساً. جاذبيته وجاذبيتك قوية وكأنها تهديد ووعيد.

ذكرتُ نفسي أن الاقتراب منك أمرٌ اقتضته الضرورة، ومجرد وسيلةٍ لتحقيق غاية. لا يُفترض أن أشعر بهذه الغبطة كلها، أو حتى هذا الاضطراب. يتطلّب عملي مستوىً معيناً من التحفظ والقدرة على النأي بنفسي والمراقبة من بعيد، وإخفاء حقيقة مشاعري تحت نظراتٍ ثابتة وهادئة. إنها مهنة أُعدُّ مؤهلاً لها تماماً. مع ذلك، تراني أسير في أعقابك وأحرق إليك طوال الوقت. أنا أبعد ما يكون عن النظرات الثابتة الهادئة.

أنت تريكينني يا سيدتي، تحليلين كل نياتي غباراً حتى أكاد أنسى أن وراء دعوتي إلى هنا سبباً معيناً. وأنه لولا ذلك لما تقاطعت دروبنا. هزنتي هذه الحقيقة بعنف، حقيقة أنني كنت ربما قد جنّبتُ نفسي ما أنا على يقينٍ أنه قادم. أنا فراشةٌ جذبها لهبٌ بارد. فراشةٌ تاهت قبل أن تبدأ الرقص حتى.

ذكرتُ نفسي أيضاً أنني يجب أن أكون أكثر حذراً، لكنّ السيف سبق العذل. فأنا.... نعم سأقولها... أنا مفتونٌ بك. وعلى طريقة المضيفات اللبقات، أو ربما كجزء من خطة سابقة، أخذتني صاحبة الحفل من ذراعي، وأخذتني غولدي من الذراع الأخرى،

ورحنا نجول في أرجاء الغرفة. ترددت أسماؤنا مراراً وتكراراً حتى بتنا وجهاً لوجه مع ضيفي الشرف.

فتاكِ تيدي تجسيدٌ للأدب، كتلة وسيمة تبتسم وتومئ برأسها. تلفين ذراعك حول ذراعه في حركة استعراضية تعبر عن التضامن أكثر من تعبيرها عن العاطفة. أم هي حاجة غريزية لحماية نفسك؟ إدراكٌ مزعج للتيار الخفي الذي يسري بيننا؟ أو لعلّي لا أرى إلا ما أريد أن أراه. ربما يحب أحكما الآخر حقاً، ولستِ تشعرين بالملل منه على الإطلاق كما تخيلتُ في تلك الليلة الأولى.

ابتسمتِ عند تقديمنا تلك الابتسامة المصطنعة مجدداً. لكن حتى ابتسامتك هذه بدت ثقيلةً عندما قدمت مضيضة الحفل لكما غولدي، ثم انسحبت تاركةً إيانا نحن الأربعة تلفنا غرابةً كاملة. نظرتِ إلى اليد التي ازدحمت فيها الجواهر الثقيلة وقد أسندتها إلى ذراعي. ثم حولتِ نظركِ إلى الصدر العارم الذي لامس ذراعي أيضاً. بالكاد استطعتِ كبح ما شعرتِ به من اشمئزاز من أن يظهر على وجهك.

التقت نظراتنا، فارتفع حاجبك البني إلى أعلى قليلاً. افترضتُ أنها نظرة عتب، لكنها لم تكن كذلك. انحنيتُ بثباتٍ مستأذناً الانصراف، وشعرت بنظراتك تخترق ظهري وأنا أبتعد بصحبة غولدي، حتى أنني شعرت بلسعة غضب خفيفة أصابتني بين كتفي. لقد ارتحتِ لابتعادي، لكنك انزعجتِ أيضاً من الطريقة التي انسحبتُ فيها من محضركما هكذا علناً، في حادثة نادرة الحدوث وأنا متأكد من ذلك.

استطعتُ لاحقاً أن أقضي بعض الوقت بمفردي مع تيدي ذي الشعر الأشقر. كنتُ قد أنجزت عملي وتمكنتُ قبل مجيئي من معرفة تفاصيل حياته. ثيودور، ويُعرف اختصاراً بتيدي. اسمه الأوسط لورانس تيمناً بأبيه وجده من قبله. وُلدَ في الرابع عشر من أبريل عام 1917. التحق بمدرسة براونينغ ودرس فيها حتى منتصف الصف الحادي عشر، حيث تميز في ثلاث رياضات قبل رحيله المفاجئ الذي أُحيط بسرية تامة. أمضى النصف الأخير من المدرسة الداخلية تحت إشراف القساوسة في معهد أيونا قبل أن ينتقل في النهاية إلى برينستون، حيث لمع نجمه قائداً لفريق البولو، وعزز سمعته بوصفه شخصاً فظاً وسكيراً، مع استبعاد احتمال أن يتخرج قبل التخلّص من الإدمان. لم تكن الخيول الشيء الوحيد الذي كان تيدي يُحبه في تلك الأيام، ولا يسعني إلا أن أتساءل كم تعرفين أنتِ عنه، وإذا ما كان قد أصلح سلوكه.

كان يمسك بكأس شرابٍ عندما دنوتُ منه. أوحى لمعان عينيه الرماديتين المائلتين إلى الخضرة بأنها ليست كأسه الأولى. مددتُ يدي فصافحني وقد كشفت ابتسامته عن أسنان بيضاء ناصعة، متظاهراً أنه قد عرفني. ومن باب كسر الجليد، هنأته على حُسن اختياره وحظه السعيد بمن ستكون عروسه، ثم أخذتُ الحديث في اتجاهٍ آخر وسألته عن رأيه في انضمام الولايات المتحدة إلى الحرب في أوروبا. وكيف يرى تردد روزفلت على الرغم من توسلات تشرشل المتكررة طلباً للمساعدة، وعن شعوره حيال تسليم فيشي باريس للألمان.

- حَدَقَ عَابِساً إِلَى الْكَأْسِ الْفَارِغَةِ تَقْرِيباً قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَهَا مُجَدِّداً.
رَمَشَ بَعِينِيهِ الْوَاسِعَتَيْنِ جِداً وَالرُّطْبَتَيْنِ جِداً بِفَعْلِ الْمَشْرُوبِ،
وَرَا حَ يَحْرِكُ فَكَّهُ الْعَرِيضَ وَكَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ إِجَابَاتٍ مُنَاسِبَةٍ. طَالَ
الصَّمْتُ حَتَّى صَارَ مُحَرِّجاً، إِلَى أَنْ وَجَدَ لِسَانَهُ آخِيراً فَقَالَ:
- «أَقُولُ إِنَّ عَلَى الْفَرَنْسِيِّينَ خَوْضَ مَعَارِكِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ هَذِهِ الْمَرَّةَ
وَتَرَكْنَا وَشَأْنَنَا بَعِيداً عَنْ حُرُوبِهِمْ. وَإِنْ سَأَلْتَنِي، فَإِنْ عَلَى
الْأَمْرِيكِيِّينَ أَنْ يَكُونُوا أَكْثَرَ قَلْقاً بِشَأْنِ مَا يَحْدُثُ هُنَا أَمَامَ
أَعْيُنِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ قَلْقِهِمْ بِشَأْنِ مَا يَحْدُثُ عَبْرَ الْأَطْلَاسِيِّ».
نَطَقَ آخِيراً بِمَا جِئْتُ مِنْ أَجْلِهِ. أَبْقَيْتُ عَلَى وَجْهِ لَطِيفٍ وَسَأَلْتُهُ:
- «مِثْلُ مَاذَا؟».
- «الْمَالُ بِالطَّبْعِ وَمَنْ يَسِيطِرُ عَلَيْهِ. إِذَا لَمْ نَكُنْ حَذَرِينَ، فَسَوْفَ
نَجِدُ أَنْفُسَنَا قَرِيباً تَحْتَ رَحْمَةِ الْأَوْغَادِ، إِنْ لَمْ نَكُنْ كَذَلِكَ
بِالْفَعْلِ».
- «وَمَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الْأَوْغَادِ؟».
- «عَائِلَاتُ شَتَايْنِ وَبِيرِجِ وَرُوزَيْنِ. اخْتَرْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ».
- كَانَتْ كُلُّهَا عَائِلَاتُ يَهُودِيَّةٍ فَسَأَلْتُهُ: «كُلُّهُمْ؟».
- رَمَشَ بَبْطَةً وَبَعِينَيْنِ ثَقِيلَتَيْنِ غَافِلاً عَنْ نَبْرَةِ السَّخْرِيَّةِ فِي
كَلَامِي ثُمَّ قَالَ: «الْأَغْنِيَاءُ مِنْهُمْ، وَمَعْظَمُهُمْ أَغْنِيَاءُ. يَجْنُونَ الْمَالَ
مِنْ الْجَمِيعِ بَدَلِ مِمَّا يَسْتَعْمِلُونَ عَمَلِ شَرِيفٍ وَلَوْ يَوْمَماً وَاحِداً. يَشْتَرُونَ
كُلَّ شَيْءٍ يَسْتَطِيعُونَ وَضْعَ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهِ».
- كَانَ التَّنَاقُضُ الصَّارِخُ فِي كَلَامِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُمْكِنُنِي احْتِمَالُهُ.
صَرَرْتُ عَلَى أَسْنَانِي لِأَمْنَعُ نَفْسِي مِنَ الْقَوْلِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ يَوْمَماً
وَاحِداً فِي حَيَاتِهِ، وَإِنْ عَائِلَتُهُ تَمْلِكُ أَصْهَماً فِي نِصْفِ شَرَكَاتِ

السكك الحديدية وشركات النفط وأحواض بناء السفن في الولايات المتحدة، ناهيك بعقاراتٍ تمتدّ أميالاً على الساحلين الغربي والشرقي.

ثارت حماسته واحتقن وجهه من جهد ربط هذه الجمل كلها معاً. لكنه شعر بالفخر أيضاً لتمكنه من إخراج خطابه الصغير في اللحظة المناسبة، وكأنه كان ينتظر فرصة للتعبير عن رأيه، حتى إن لم يكن رأيه وحده.

أومأت برأسي وأخفيت تجهمي بمساعدة الشراب: «يبدو أنك أعملت التفكير ملياً فيمن تقع عليهم لائمةٌ محنةٌ بلدك اليوم. أعني. عائلة روزين ومن لفّ لفهم».

عبسَ وكأنني نطقتُ هراءً: «لا يحتاج الأمر إلى التفكير ملياً، أليس كذلك؟ من برأيك تسبب بالانهيار اللعين أولاً؟ والآن يحاولون إفلاسنا من خلال خوض حرب شخصٍ آخر. وسيفعلونها بالتأكيد إن لم نقطع دابرهم مع الشيوعيين واتحاد رعاهم. لقد بات روزفلت دميةً في يدهم، والكونغرس هو التالي، تذكر كلامي».

خرجت كلماته وكأنها قيء. شخصٌ بليدٌ بلادةٌ طالب مدرسةٍ يحاول تقليد المدير. أشك أنه يردد آراء سمعها من الآخرين لأنه لم يكلف نفسه يوماً عناء تكوين رأي خاص به. احتفظت لنفسي بهذا الشك وغيره من الشكوك الأخرى، فغولدي لم تتسق دعوتنا إلى حفلة الهراء الفاخر هذه لكي تراني أُطرَد خارجاً.

بعد أن بصق تيدي آراءه السياسية، تحول فجأة إلى موضوعات أكثر عمومية، ليصل بالحديث في نهاية المطاف إلى الحديث عن الخيول والبولو. لم يكن تحولاً مفاجئاً بالنسبة إلي، وأراهن أن

الخيول والبولو هما الموضوعان الوحيدان اللذان يملك فيهما فعلياً رأياً خاصاً به. لكن في النهاية، أعتقد أن المرء عندما يكون ثرياً ووسيماً مثل تيدي، فلا حاجة إلى أن يكون ذكياً. سيظل العالم دائماً متسامحاً مع فتى وسيمٍ ويملك ثروة طائلة، بغض النظر عن مدى بلادته.

تحملتُ حديثه مطولاً لأتمكن من التعرف إلى بعض أصدقائه، أو بالأحرى أصدقاء والده ممن قد يكون من المفيد بناء علاقة معهم، حتى لا يذهب حديثنا سدىً تماماً. في النهاية، العلاقات هي الهدف الأساس. ولكن عندما بدأ حديثنا بالفتور، أشرتُ إلى كأسَي الفارغة واستأذنت وأنا في حيرةٍ من أمري، من منكما جديرٌ باحتقاري أكثر؟ هو لكونه أحق تماماً، أم أنتِ، لتفكيرك بالزواج برجلٍ أقل منك شأنًا بكل وضوح؟

بالكاد أخذت رشفةً من الكأس الجديدة حتى دعتنا مضيضة الحفل إلى طاولة العشاء. تظاهرت أني فوجئتُ حين علمتُ أنني سأجلس قريبك. لم يكن الأمر مصادفةً في الواقع، ولا حقيقة جلوس تيدي في الطرف الآخر من الطاولة في أبعد نقطةٍ عنا، حيث جلست غولدي إلى جانبه مباشرة تغالزه علانية لإبقائه مشغولاً. راقبتُ غولدي مستمتعةً وهي تضع يدها المثقلة بالجواهر على ذراعه وتخفض رأسها باتجاهه، وتهمس في أذنه. أما أنتِ، فلم تكوني مستمتعةً على الإطلاق.

تسللت نظراتك صوبهما مراراً دون أن يلحظ ذلك أحدٌ سواي طبعاً. أخيراً، ونحن نتناول طبق الحساء، تمكنتُ من جذب انتباهك بما يكفي لبدء محادثة.

- رسمتُ على وجهي واحدةً من أكثر ابتساماتي جاذبيةً، وقلت:
- «يسعدني جداً ويُفاجئني في الوقت نفسه أنني جالسٌ إلى جانب ضيفة الشرف».
- «إلى جانب إحدى ضيفتي الشرف. نحن ضيفا شرفٍ هنا»، أجبت ببرود.
- «بالطبع، لكنني محظوظ بجلوسي إلى جوار النصف الأفضل».
- تجاهلتِ المجاملة وسألتني:
- «ألا تفضل الجلوس إلى جانب... شريكتك؟ أنا متأكدة أنها تفتقدك بشدة».
- ابتسمتُ بلطفٍ وأنا ألقى نظرةً نحو نهاية الطاولة حيث يبدو أن غولدي وتيدي يتآلفان على نحوٍ رائع: «لا أعلم. يبدو لي أنها تقضي وقتاً ممتعاً. يبدو خطيبك مستمتعاً تماماً أيضاً».
- «أنا متأكدة أنها متحدثة بارعة».
- كانت كلماتك تقطر سماً، وكلُّ ما استطعتُ فعله كتمُ ضحكةٍ صاخبة ثم القول:
- «أنا متأكد أنك لستِ قلقةً من أن يقع تيدي ضحية سحر غولدي، أليس كذلك؟».
- وضعتُ ملعقة الحساء من يدك ورمقتني بنظرة جليدية، ثم قلت:
- «لا تكن سخيلاً. ليست من النوع المفضل لدى تيدي على الإطلاق».
- أردتُ القول إن غولدي هي بالضبط نوع تيدي المفضل، فهي صاخبة وشقراء وجريئة، وإنه لا يرقى ليصل حتى إلى نصف

مستواها، ولا مستوى أي منكما. أردتُ قولَ ذلك، لكنني امتنعت. أمران أحدهما صحيح؛ إما أنك لن تصدقيني، وإما أنك تعرفين أنني على حق. فقلت بدل ذلك:

— «ومن نوعه المفضل؟ أنت؟».

حدقت مجدداً بنظراتك الجلدية إلى أسفل الطاولة وقلت: «ليست من تسمي نفسها غولدي بالتأكيد، فهذا اسمٌ يليق بكلب أو ممثلة مبتذلة».

ابتسمت مستمتعاً بسخريتك اللاذعة: «أعتقد أن الأمر يتعلق بشعرها. كان والدها يدعوها «ذات الخصل الذهبية» (غولدي لوكس) عندما كانت صغيرة. وقد التصق الاسم بها».

— «يا لها من قصة رائعة، أعتقد أنها من أخبرتك بها».

— «أجل. من الواضح أنها ووالدها كانا مقرَّبين. ماذا عنك؟ هل ناداك والدك يوماً باسم غنج؟».

— «لم أكن أنا مدللة والدي، بل أختي». سقط تحفظك البارد وتلاشى كاشفاً عن آلام جروح لم تُشف منذ الطفولة. لم يكن هذا باباً توقعت أن أدعى إلى دخوله، ليس بهذه السرعة على الأقل، لكن ليست لدي نية لتجاهله.

— «بأي اسم كان ينادي أختك؟»، سألتها.

— «كنزي، كان يدعوها كنزي».

عزفت كلماتك نغماً هشاً كزجاج رقيق مكسور، نغماً لا يُفترض أن أسمعه، لكنني سمعته. كيف لا وقد أصبحنا فجأة، مع كل همهمة الأحاديث الأخرى، الشخصين الوحيديين في الغرفة؟ لقد أرخى الشراب عقدة لسانك، وغلفت هذه اللحظة العفوية الجو بمزيج

من الغرابة والاستتارة، لتظهر أخيراً بيل الحقيقة، المرأة التي كنتُ أشعر بوجودها منذ البداية تحت تلك الابتسامة المصطنعة. تلك التي لا تحركها تروسٌ ولا رافعات. في هذه اللحظة، في هذه اللحظة العابرة الهاربة، ينزلق الحجاب وتكشفين بالكاد برهة، لكنها كافية لأدرك أنني تائهٌ حقاً.

اللغة عليك.

مع انتقالنا إلى طبق السمك، غيرتُ الموضوع معلقاً على تحسُّنِ مذاقِ كل شيء عندما يكون المرء بعيداً عن الوطن. - «لعلَّ الأمر يتعلق بالحرب وشُحَّ المؤن في بلادنا. السكرُ والزبدة واللحم المُقدَّد كلها مواد مُقننة الآن، ويتدرد الحديث عن مزيدٍ من القيود إن طالَّت الحرب. آملُ أن تكون الولايات المتحدة أكثر استعداداً منّا».

- «يقول أبي إننا لن ننجرَّ إلى الحرب هذه المرة. لقد علَّمتنا الحرب الأخيرة ضرورةَ البقاء في الوطن. يعتقد تيدي ذلك أيضاً».

- «وما رأيكِ أنت؟».

رفعتِ كتفيكِ في حركة لا مبالاة نوعاً ما وقلت: «لا أفكر في الأمر. لا أفكر جدياً على الأقل».

أزعجني ردُّكِ والغموض الذي يكتنفه، وكأنني قد سألتكِ عن رأيكِ في مشكلةٍ رياضية معقدة ومُبهمة. «ألأنكِ مشغولةٌ جداً؟»، سألتكِ.

- «لا تُستشار النساء عادةً في شؤون الحرب. نحن نرسل أزواجنا وإخوتنا وأحبابنا ليُقتلوا، ونحافظ على تماسكِ العائلة في

غيابهم، ثم نللم الشظايا عندما يعودون، إنَّ عادوا، ولكن نادراً ما نُسأل عن رأينا».

تلاشى انزعاجي وأنا أستوعب ردك. شعرتُ بمزيج من الدهشة والارتياح لاكتشافي أنك لستِ باردةً تماماً، أو فارغة، كما كنت أخشى في البداية. جعلني هذا الاكتشاف سعيداً بطريقة غريبة.

- «هذا جوابٌ شافٍ لشخصٍ لم يفكر في الأمر كثيراً»، قلت.
- «وما رأيك أنت؟ أفترض أن لديك آراءً وأفكاراً بهذا الشأن. أخبرني، هل أنت غاضبٌ منا نحن -الأمريكيين- كبقية الناس في وطنك؟».

- «لا يتعلق الأمر بالغضب. نحن خائفون مما قد يحدث إذا بقيت الولايات المتحدة خارج الصراع. هتلى يأملُ ذلك بالتأكيد. ويبدو حتى الآن أنه يحقق مراده».
- «إذن فأنت تؤيد التدخل العسكري على ما أعتقد».
- «أنا مراقبٌ يراقب الأحداث من شاطئ بعيد».
- «بالحديث عن الشيطان البعيدة، لم تقل لي سبب نزولك شاطئنا».

بقيتُ مركزاً على طعامي، أخرجتُ عظمةً صغيرة من قطعة سمك السلمون التي أمامي ثم قلت: «ألم أقل لك حقاً؟».

- «لا. لم تقل سوى أنك جئت باحثاً عن المغامرة».

رفعتُ رأسي عندئذٍ وابتسامةً بريئة تملو وجهي: «أليس هذا ما يبحث عنه الجميع؟ أليس هذا ما تبحثين عنه أنت أيضاً؟».

أومأت برأسك متهربةً من الإجابة: «وهل وجدتها؟ أقصد المغامرة التي تسعى خلفها».

- «ليس بعد. إذ لم يمضِ على وجودي هنا سوى بضعة أسابيع».
 - «وكم ستبقى عندنا؟».
 - «إقامتي مفتوحةٌ حالياً إلى أن أصل إلى ما أبحث عنه على ما أظن».
 - «وهو؟».
 - «حسناً، دعينا لا نكرر الحديث. اسألي شيئاً آخر».
 - «لا بأس» (تربتّين بمندليكِ على فمكِ برفق، فتظهر عليه بقعة بلون العقيق). «منذ متى تكتب؟».
- تسمّرت عيناى على مندليك، على بصمة فمكِ. اضطربتُ دون أن أدري السبب. إنه سؤالٌ بسيطٌ وآمنٌ تماماً، من النوع الذي يُطرحُ في موعدٍ أول. حدثت نفسي بضرورة التنفس وتعديل جلستي.
- نطقتُ أخيراً: «لا أستطيع تذكّر وقتٍ لم أكن أكتب فيه. كان والدي صحفياً، وأردتُ أن أصبح مثله عندما أكبر. كنت في العاشرة من عمري عندما خصص لي طاولةً صغيرة في مكتبه وأعطاني إحدى آلاته الكاتبة القديمة، آلة رائعة سوداء لامعة ما زلتُ أستخدمها حتى اليوم. إنها الآلة نفسها التي استخدمها هيمنفواي. كان والدي من أشد المعجبين به. اعتدتُ الجلوس هناك ساعاتٍ طويلة وأنا أكتبُ هراءً على الورق. وعندما أنتهي، كان يقرأ ما كتبتّه، ويصححه بقلمه، ويضع ملاحظاتٍ على الهوامش: «استخدم أفعالاً أقوى، قلل الصفات التي لا معنى لها، ادخل في صلب الموضوع ودعك من الباقي». لقد كان محرري الأول، وعاشقاً للمستعمرات القديمة العزيزة، كما كان يصفها.

- وهذا على الأرجح السبب الحقيقي وراء وجودي هنا. لقد أحبّ نيويورك ولطالما جعلها تبدو جميلة جداً».
- «أعتقد أنه فخورٌ بك أيّما فخر».
- «لقد توفي منذ عشر سنوات، لكن يطيب لي أن أفكر في أنه كان فخوراً بي».
- غمرتني بنظراتٍ لطيفة وقلت: «أنا آسفة».
- إنها الكلمة التي تُقال عادةً عندما يُذكر الموت، الإجابة المهدبة. لكنّ صوتك أخبرني أنك تعينها بصدق، ثم تذكرتُ قول غولدي إنك فقدت أمك في سنٍ صغيرة بعد معاناتها طويلاً مرضاً لا أتذكر ما كان. ما أتذكره، أنها توفيت في مستشفى خاص في الشمال. كانت شذراتٍ من معلومات يحفظها المرء ببساطة في حال احتاج إليها في سياق حديثٍ ما، لكنني لم أفكر فيها بوصفها حدثاً حقيقياً مؤلماً في حياة شخص حيّ، لأنك لم تكوني بعدُ كذلك بالنسبة إليّ. أما الآن، وأنت تجلسين إلى جانبي، ويتلامس مرفقانا عرضاً، فإن القصة تأخذ شكلاً مختلفاً تماماً.
- «أنا شاكرٌ لطفك».
- «وماذا عن والدتك؟ هل...؟».
- «لا تزال على قيد الحياة ولكنها بقيت في بيركشاير للأسف. كنت آمل أن ترافقني، لكن والدي مدفونٌ في ساحة الكنيسة في كوكهام ورفضتُ تركه. إنها عنيدةٌ كمعزاة، وهذا بالضبط ما كانت تقوله عن والدي. لقد جُبلًا من الطينة ذاتها، أبي وأمي. ثنائيٌّ مثالي إن كنتِ تؤمنين بهذه المقولة».

- «هل تؤمن بها أنت؟».

لم تبُح ملامح وجهك بأي شيء، لكن نبذة صوتك حملت حزناً من نوع ما؛ نفحة استسلام لا يمكنك إخفاؤها. أرغمت نفسي على الابتسام الذي بدا كأنه اعتذار ثم قلت: «لقد عايشَت هذه الفكرة بنفسي. لذا، أعتقد أنني أومن بها، أجل. لكنني لست الشخص الذي أقيمت حفلة خطوبته مؤخراً، والسؤال الأهم هنا: هل تؤمنين أنتِ بها؟».

أنقذك ظهور النادل ليأخذ الأطباق ويضع غيرها من الإجابة. أخذتُ رشفةً من شرابي والأطباق الجديدة تنزل. أدركت فجأة أنني تساهلت بعض الشيء في حديثي، وسمحت للتفاصيل الشخصية بالتسلل إلى حيث لا ينبغي لها أن تكون. نادراً ما أكون مهملاً، خاصة مع شيء خطر مثل قول الحقيقة، لكنك تؤثرين فيّ على نحو غريب يجعلني أنسى ما أفعل ولماذا أفعله.

أمضيت الوقت ونحن نتناول الطبق التالي بالحديث مع الرجل الآخر الجالس إلى جوارك، وهو رجلٌ يدعى بريدي يعمل في السكك الحديدية، كنت قد تحدثت معه سريعاً ونحن نتناول الشراب قبل العشاء. تظاهرتُ بالتركيز على شريحة اللحم في طبقتي وأنا أتنصت على المناقشة التي تدور عبر الطاولة. تأييد قوي لتشارلز ليندبيرغ⁽¹⁾ الذي بات يُعرف باسم ليندي المحظوظ،

(1) تشارلز ليندبيرغ طيار ومهندس أمريكي، اشتهر بكونه أول شخص عبر المحيط الأطلسي منفرداً في طائرة عام 1927. حظي ليندبيرغ بشهرة عالمية وإعجاب كبير بعد هذا الإنجاز. أثار ليندبيرغ جدلاً كبيراً عندما زار ألمانيا النازية عام 1938 وقابل أدولف هتلر. أعجب ليندبيرغ بالقوة العسكرية الألمانية والنظام النازي، واعتقد أن بإمكانهم إحلال السلام في أوروبا. (المترجمة)

وتأكيدَه الحاد على أن وحشية هتلر في أوروبا لا علاقة لها بالولايات المتحدة. يبدو أن هناك موضوعاً يبرز على ساحة النقاش الآن.

أخيراً، نحيثِ طبقك الذي لم تسمّيه جانباً واستدرتِ نحوي، ثم استأنفتِ المحادثة من حيث توقفنا فقلتِ: «لم يسبق لي أن التقيتُ بكاتب قبلاً. أخبرني مزيداً عن عملك».

- «ما الذي تودين معرفته؟»

- «هل تعمل على قصة معينة الآن؟ قصة تحكي ربما عن مفامر بريطاني يقطع المحيط الأزرق الشاسع ليتعلم كل شيء عن الأمريكيين الأثرياء؟»

- «أجل»، أجبتيكِ. هذا بالضبط ما جئت لأكتب عنه. لكنها نصف الحقيقة. ستكتشفين الحقيقة كاملة لاحقاً، لكن بحلول ذلك الوقت سيكون الضرر قد وقع. وقبل أن يزداد فضولك، غيرتُ مجرى الحديث قائلاً: «والآن، حان دوري لأطرح سؤالاً. أخبرتي العصفورة أنكِ اشتريت مؤخراً خيولاً عدة من إيرلندا. هل هذا شغف شخصي أم له علاقة بحب خطيبك كل ما يتعلق بالخيول؟»

- «عصفورة؟ أهى من رافقتكِ إلى هذه الأمسية؟»

- «لم أحدد نوع العصفورة، لكن أجل».

ألقيتِ نظرةً خاطفةً إلى طرف الطاولة البعيد حيث كانت غولدي تضحك على أي شيء كان يقوله خطيبك. أمعنتِ النظر إليهما مدة غارقةً في تفكيرك. نظرتِ إليّ أخيراً وقد ارتفعت زوايتا فمك ما أضفى عليكِ مظهراً يشبه القطة: «أرى أنها تأتي على ذكري خلال تفاعلكما... فوق الوسادة».

رفعتُ كَتْفِيْ بلا اكترَاثٍ وقلت: «إنها امرأة غير متملّكة، معي على الأقل، ولا تمنع فضولي تجاهك».

- «هل سأكون جزءاً من قصتك إذن؟ هل هذا سبب ظهورك مرتين حتى الآن؟ لدراسة المرأة الأمريكية العصرية، ثم الكتابة عن مشاهداتك؟».

نظرتُ إليك من خلف كأس شرابي، وقد مال رأسي قليلاً نحو الجانب: «هل تودّين حقاً لو تُكَتَّب عنكِ قصة بهذه الطريقة؟ مقال من صفحتين تحتلها صورتك تحت عنوان: يوم في حياة وريثة أمريكية».

لمعت إشارة تحذير في عينيك في حال لم يكن سُؤالي افتراضياً: «لا أودّ لو يُكَتَّب أي شيء عني على الإطلاق».

ابتسمتُ مجدداً تلك الابتسامة التي تفكك حذر الآخرين قائلاً: «لا داعي للخوف. أفضل ترك مثل هذه الأمور للسيد وينشيل. إنه أفضل بكثير مني في هذا المجال. لكنني فضولي حقاً بشأن الخيول. إذ لا تبدين لي من النوع الذي يرتاد الإصطبلات».

تقوَّس حاجباك: «حقاً؟».

- «لا».

- «ومن أي نوع أبدو لك؟».

تغازليني الآن. تستخدمين نبرة صوتك المغفاج وتنظرين إليّ بعينيك العسليتين بطريقة قصدت بها لفت انتباه خطيبك لتذيقه من الكأس ذاتها. أنا سعيد بالمشاركة في هذه اللعبة، ولكن السؤال الوحيد الذي يدور في ذهني إن كنت مستعدة حقاً للعبة البالغين هذه.

- «لا أعلم»، أجبت بصدق. «لم أستطع فهمك بعد، لكنني سأفعل في النهاية».
- رمشت عيناك وقد أدهشتك صراحتي: «هل أنت واثق بنفسك دائماً؟».
- «لست دائماً، لكنني أرتب قطع الأحجية أحياناً بمجرد النظر إليها».
- «فهمت. أنا أحجية الآن إذن».
- ارتشفت شرابي بتأن تام غير مستعجل لإعطاء إجابة: «كل امرأة أحجية»، قلت أخيراً. «بعضها صعبة الحل أكثر من غيرها. لكن الأحاجي الصعبة، كما أرى، أجدي ببذل الجهد في سبيل حلها».
- لقد نطقتُ هراءً، كلاماً مبتذلاً يطلقه سُذَّج المدينة وقد ابتدعته للتو. لكنه يبدو مقنعاً حين يخرج من فمي، وغامضاً مع لمسة خفيفة من الإثارة، كقفاز مخملي يُلقى في منتصف العشاء. أُعجبتُ بنفسي عندما رأيت حُمرَة خفيفة تتسلل إلى خديك الشاحبين. الخجل يليق بك.
- رددت بنبرة لطيفة لا تقنع أحداً: «أنت مخطئ. أنا من النوع الذي يرتاد الإصطبلات. أو على الأقل أحاول أن أكون كذلك».
- «لأن الزوجات الصالحات يفترض بهن الاهتمام بالأشياء التي تهمن أزواجهن؟».
- «لا علاقة لتيدي بالموضوع على الإطلاق، أو بالأحرى ليست له علاقة كبيرة. أخذني في الربيع الماضي إلى ساراتوغا لرؤية بعض خيول الثوروبريد التي يمتلكها. كانوا يجهزونها

- لخوض سباق المُهر الأول، ورأيت المديرين يستعرضونها خلال التمرين. كانت مُهراً ساحرة، أنيقة وقوية وسريعة كالريح. في تلك اللحظة، عرفتُ أنني أريد أن أمتلك حصاناً. لدينا بعض الخيول في منزلنا في هامبتونز، ولكنها مخصصة للركوب فقط. خيول الثوروبريد رياضية بالفطرة. تطلّب الأمر بعض الجهد، لكنني في النهاية أقنعت والدي بأن يهديني زوجين منها في عيد ميلادي».
- حدثتُ إليك ملياً محاولاً استيعاب ما قلتِ والطريقة التي قلته بها، وكأنه مجرد حديثٍ عادي عابر: «اشترى لك والدك زوجين من خيول السباق... في عيد ميلادك؟».
- «مهرة كستنائية جميلة ومهر أحمر قرمزي. بالإضافة إلى إصطبلٍ أعيد تجديده لإيوائهما. أعلم أن الأمر يبدو كأنني مدلة بما يفوق الوصف، لكن تلبية رغبتني كانت على الأرجح لإسكاتي. يعتقد أنني سأفقد الاهتمام بها بعد أن لبي طلبتي. يقول إن لدي ضعفاً في التركيز».
- «وهل أنت كذلك؟».
- «يتوقف الأمر على عوامل عدة».
- «مثل؟».
- «مدى اهتمامي بالشيء».
- «وتجدين الخيول مثيرة للاهتمام؟».
- «أجل. هناك كثير تتعلمه. لها لغة قائمة بحد ذاتها، وهي أول شيء تتعلمه إذا كنت تريد أن تؤخذ على محمل الجد، وأنا أريد ذلك بالتأكيد. كما اضطررتُ إلى مواكبة كل شيء يتعلق

بالتكاثر. لم تكن لدي أي فكرة عن وجود عوامل كثيرة يجب مراعاتها عندما يتعلق الأمر بالفحول والأفراس. يتعين عليك أن تعرف ما تفعل كي تسير الأمور على ما يرام.»

تشغلكِ محادثتنا الشائقة جداً، إذ تفرقين في مناقشة هوايتك الجديدة والحلوى تُقدِّم، إلى درجة أنكِ لا تدركين أن متطفلاً يضع شريحة من حلوى الكمثرى أمامكِ حالياً. متطفلٌ قد يسيء فهم حديثنا تماماً. بالكاد استطعتُ إمساك نفسي والحفاظ على جديتي وأنا أراكِ كذلك.

- «حقاً؟»

- «أجل. إنه علمٌ قائم. هناك كمٌ هائل من المؤلفات حول هذا الموضوع، لكن الكتب لن تعطيكِ سوى الحد الأدنى من المعرفة. يعتقد أصدقائي أن اهتمامي بالخيول وتزاوجها لا يليق بي بوصفي سيدة، لكنني أرى أنكِ إذا أردتَ أن تبرع في شيء ما، فأنت بحاجة إلى خبرة عملية حقيقية». بات صوتك رقيقاً مغرياً أشبه بخرخرة قطعة. توقفتِ قليلاً، ابتسمتِ ورمقتني بنظرةٍ ماكرة، ثم قلتِ: «يجب ألا تكون خجولاً في هذه الأمور، بل عليك أن تشارك وتتنسخ. ألا توافقني؟».

كدتُ أبصق الشراب من فمي. ظننتُكِ بريئة وعديمة الخبرة وساذجة. أدرك الآن أنني كنت مخطئاً. تدركين تماماً ما تقولين، وكيف يمكن أن يُساء فهمه. في الواقع، أنت تستمتعين بهذا الأمر كثيراً.

- «أجل. أعتقد أنني أتفق معكِ»، كافحتُ لأحافظ على جديتي. «وماذا علمتِ المشاركة؟»

- «كثيراً. على سبيل المثال، يجب أن تكون انتقائياً جداً عند اختيار الفحل. لا بد من أخذ المزاج والسجل السابق في الحسبان، إضافةً إلى الحجم والقدرة على التحمل. كلها أمور في غاية الأهمية لضمان نتيجة مرضية».
- وضعتُ كأسِي وسكتُ لحظةً لأمسح فمي. إن كنتِ تميلين إلى الألعاب فمن أنا لأفسد متعتكِ؟ أنا مفرم بالألعاب أيضاً، لكنني ألعب للفوز. «هل ترين أنك اخترتِ بذكاء؟»، سألتكِ.
- اتسعت ابتسامتكِ وأسعدكِ قراري الانخراط في لعبتك: «أخشى أن من السابق لأوانه معرفة ذلك الآن. الوقت كفيل بإخبارنا على ما أظن».
- أومأت برأسي شاكراً الشاب الذي وضع أمامي فنجاناً من القهوة. رفعت الفنجان كي أخفي ابتسامتي، وقلت: «لديَّ رغبة كبيرة في رؤية حصانكِ الجميلين».
- «يسعدني أن أريك إياهما»، أجبت بلطفٍ وأنت تقطعين حلوى الكمثرى. «قد نستطيع ترتيب ذلك في وقتٍ ما».
- «ليست لدي أي التزامات عصر الغد. أودُّ لو أزور منطقة هامبتونز، سمعت أنها منطقة ريفية جميلة».
- اختلست نظرةً سريعةً صوبي كأرنبٍ وقع في فخ. لم تكوني مستعدةً لهذا. لم تكوني مستعدةً لما سيحدث عندما يمسك بك الصياد الذي قدته في مطاردة مرحة. لكن بعد أن نصبْتُ الفخ، تحملت الموقف بشجاعة وسألتني: «هل تعرف كيف تركب الخيل؟».
- «نوعاً ما»، أجبت ببرود، مسروراً برويتكِ في مأزق. «مرّ زمن طويل منذ أن ركبت آخر مرة، لكنها مهارة لا تُتسى بسهولة، أليس كذلك؟».

- «نعم».

- «نلتقي غداً إذن؟».

ما أثار دهشتي أنك وبعد نظرة خاطفة صوب يدي، واقضت على لقائي في إصطبلات والدك في الثانية من بعد ظهر غدٍ. لمحتُ إيماءة تهنئة خفية من غولدي. لا تعرف بشأن الموعد الذي حددناه للتو، لكنها تشعر بأنني راضٍ عن نفسي.

راضٍ أكثر من اللزوم ربما.

اقترب العشاء من نهايته. وأدركت أننا بمجرد مفادرة غرفة الطعام، سيفرقنا الليل. سأراك الآن تحومين إلى جانب يدي، وأكتفي بأفكارٍ ترضيني عن يوم غدٍ.

الفصل الرابع

آشليين

«نحن لا نقرأ لنهرب من الحياة، بل لتتعلم كيف نعيشها بعمق وغنى، ولنرى العالم من عيون الآخر».

- آشليين غريير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

27 سبتمبر 1984

بورتسموث، نيوهامبشير.

تضايقت آشليين من ضوء المصباح الساطع عندما أدارته، وتمنت لو أنها احتست كوباً ثانياً من القهوة. لقد نزلت إلى الورشة باكراً لكي تباشر العمل على مجموعة روايات نانسي درو التي جلبتها غيرترود ماكسويل مؤخراً من إحدى ساحات بيع القطع المستعملة، وهي الهدية التي ستقدمها لحفيدتها في عيد الميلاد، لكن آشليين لم تشعر بحماسة للعمل.

عيناها جافتان، وبقايا صدادٍ في مؤخرة رأسها لم تفارقها منذ البارحة. لقد سهرت حتى وقتٍ متأخر تعيد قراءة مقاطع شدت انتباهها من كتاب «ندم على بيل». كان كل شيء في الكتاب لافتاً ومثيراً. تلميحاتٌ أنّ دوافع الكاتب قد لا تكون بريئة، وإشاراتٌ غامضة إلى غولدي الذائعة الصيت، وتلاعبٌ لذيذ بالكلمات تبادلناه على طاولة العشاء.

بعد جهد جهيد، تمكنت أخيراً من إغلاق الكتاب وإطفاء الضوء. كانت تتوق إلى معرفة ما حدث في اليوم التالي في

الإصطبلات، لكنها أرادت أولاً كشف لغز أصل الكتاب.

لعلها مخطوطة مفقودة تخلق عنها كاتبها، ثم عُثِرَ عليها وجُلِّدَت في وقت لاحق. لكن الاحتمال الأرجح أنها عملُ كاتبٍ طُمُوح لم يفلح في إيجاد ناشر. لكنَّ كلا الاحتمالين لا يفسّر غياب اسم المؤلف.

استبعدتُ تماماً إمكانية أن يكون الأمر إهمالاً ممن جلد الكتاب. كان احتمالاً وارداً بالطبع، لكنها رأت أن من غير المحتمل أن يكون أيّ شخصٍ قادر على إنتاج كتابٍ جميل كهذا، مهماً إلى درجة أن يغفل عن ذكر اسم المؤلف والناشر وصفحة حقوق النشر. ناهيك بالأسلوب الذي ينضح ازدراءً. ازدراء والد بيل وتيدي وحتى بيل نفسها أحياناً. ليس ثمة ما يكشف أسماء أبطال القصة الحقيقيين. بدا الأمر برمته مدروساً بعناية فائقة. استذكرت آشليين اسمين الليلة الماضية؛ كينيث غراهام، الذي ساعدها على العثور على شخصٍ اشترى نسخةً في حال جيدة جداً من كتاب «قسيس ويكفيلد» التي حصلت عليها من بيع مقتنيات شخصٍ توفي العام الماضي. وميسن ديفاني صاحب متجر في بوسطن يكتب دورياً مقالاتٍ عن التحريّ الأدبي⁽¹⁾.

ألقت آشليين نظرةً على الساعة المعلقة فوق طاولة العمل. لا يزال الوقت باكراً بعض الشيء لإجراء المكالمات الهاتفية. من الأفضل أن تعمل قليلاً قبل فتح المتجر، وتؤجل المكالمات حتى وقت الغداء، على أمل أن تزداد احتمالية أن يردّ عليها أحدٌ ما.

(1) يشير هذا المصطلح إلى استخدام مهارات البحث والتحليل لكشف الحقائق أو المعلومات حول الأعمال الأدبية أو مؤلفيها. (الترجمة)

ارتدت آشليْن زوجين من القفازات القطنية البيضاء واستعدت لإجراء فحصٍ أكثر دقة لكتاب «الدرَج السري»، عندما سمعت هاتف المتجر يرن. تنهدت مستاءةً وخلعت القفاز وتوجهت صوب الهاتف. لطالما حرص فرانك على عدم إزعاجه أو مقاطعته في أثناء العمل، لكن كان لديه موظفون يتولون إدارة المتجر وهو يعمل في الخلف. أما في الوقت الحالي على الأقل، فقد كانت آشليْن وحدها.

- «صباح الخير. متجر حكاية غير متوقعة. كيف أساعدك؟»
- أجابت بصوتٍ مُرحَّبٍ بقدر ما استطاعت.
- «أخبروني أنكِ اتصلتِ».
- «كيفن؟»
- «في خدمتك».
- «اعتقدتُ أنكِ ذهبتِ بصحبة غريغ إلى الباهاما».
- «أجل لقد ذهبنا إلى هناك، لكن رافقتنا العاصفة المدارية إيسيدور. هربنا حين أتيحت لنا رحلةٌ للعودة. كان الجو حاراً بشكلٍ لا يُطاق، وأصبح لوتنا أحمر كالكركند. المهم أنني عدتُ وأنني أتصل بك، لكن ليس لأنك طلبتِ ذلك. كنتُ في الغرفة الخلفية أتفقد بعض الصناديق التي وصلت في اليوم السابق لمغادرتنا، ووجدتُ شيئاً قد يثير اهتمامك».
- «ماذا وجدتَ وكم سيكلفني؟»، عرفتُ أنه كتابٌ دون أن تسأل.
- «هذا سرٌّ عليكِ اكتشافه. ما يمكنني قوله إنك سترغبين في المجيء حقاً».
- «هيا أخبرني يا كيفن».

- «وأين المتعة في إخبارك بسهولة هكذا؟».
- «هلاً أخبرتني عما نتحدث على الأقل؟ هل أحضر دفتر شيكات أم سند ملكية، سيارتي مثلاً؟».
- ضحك كيفن ملء فيه، ثم قال: «لا أتحدث عن كتاب مقدس، ما قلته إنه سيثير اهتمامك وأنا متأكد من ذلك. كنت أنوي أن أجلبه لك، لكنني وحدي ما يعني أن عليك القدوم لأخذه».
- «حسناً أيها اللئيم. أنت تعرف أنني لا أستطيع المجيء إلا بعد أن أغلق المتجر».
- «أراك عند السادسة إذن».
- أصدرت السماعاة صوت نقرٍ ثم أقفل الخط. حدقت آشلين إلى السماعاة السوداء الثقيلة، وأدركت أنها نسيت في غمرة حماسها أن تسأله عن الرجل الذي جاء من مدينة راي.
- أغلقت آشلين متجرها تمام الساعة السادسة، وذهبت سيراً إلى متجر كيفن الواقع على بُعد بنائيتين فقط. كان كيفن خلف المنضدة منهمكاً في العمل على بطاقات الأسعار.
- نظر إليها بفتورٍ قائلاً: «أهلاً، ما الذي جاء بك إلى هنا؟».
- «يا لك من ظريف».
- «على رسلك، لقد أُلغيت إجازتي. عليك أن تسمح لي ببعض المرح».
- «هل انتهى مرحك الآن؟».
- «حسناً»، قال وهو يتظاهر بالعبوس. «ستتمنين لو أنك كنت ألطف معي». رمقها بابتسامة مشاكسة، وهو يمدّ يده تحت الطاولة مُخرجاً كتاباً صغيراً بغلافٍ أزرق. «مفاجأة».

شعرت أشلين بالقشعريرة تسري في مؤخرة رقبتها وهي تمدّ يدها لتأخذ الكتاب. كان نسخة طبق الأصل، أو تكاد، من النسخة التي تحملها الآن في حقيبتها. الحجم ذاته، والجلد الفاخر ذاته، والتصميم ذاته. لكن بعد أن ألقت نظرة فاحصة، وجدت اختلافاً في درجة لون الغلاف الأزرق، إذ مال إلى الخضرة نوعاً ما. أمعنت النظر إلى العنوان المذهب المكتوب عليه.

إلى الأبد وأكاذيب أخرى.

وعلى غرار النسخة التي بحوزتها، غاب اسم المؤلف والناشر كما غاب أي أثر لأصداً مميزة. وقعت فريسة إغراء فتح الكتاب وهي واقفةً مكانها لتقطع شكها بيقين ما يحوي بين دفتيه، لكنها لم تُضطر إلى ذلك. لقد عرفت ما الذي تحمله، وأرادت أن تكون وحدها عندما تفتحه.

- «لا أصدق ما أرى. إنها نسخة مطابقة تقريباً. أين وجدتها؟».
- «ذاك الشاب من راي. أحضر أربعة صناديق أخرى يوم ذهبْتُ في إجازتي. لم تُتَح لي فرصة تفقدها حتى اليوم. عرفت أنك سترغبين فيه عندما رأيته. إلى أين وصل بحثك عن الكتاب الأول؟».
- «لم أعثر على أي شيء. لم يسمع به أحد على الإطلاق، وكأن الكتاب غير موجود أصلاً».
- «غريب».
- «غريب جداً»، أصبح هناك كتابان الآن، لا شك أن الأمور ستزداد غرابة. «أجريتُ بعض الاتصالات بأشخاص ظننتُ أن بإمكانهم المساعدة، لكن دون جدوى حتى الآن. ربما يحالفني الحظ أكثر مع هذا الكتاب. كم تريد ثمناً له؟».

- «ألا تريدان أن تلقي نظرة سريعة عليه لتتأكدي أنه مرادك؟».
- هزت آشلين رأسها نفيًا: «أنا متأكدة أنه هو. كم تريد؟».
- حك كيفن ذقنه وأغمض عينيه نصف إغماضة: «لم يسبق لي أن استغللتكِ للحصول على كتاب. في الحقيقة، لقد أعطيتكِ الكتاب الماضي دون مقابل. لكن الوضع مختلف اليوم. أنت تريدين هذا الكتاب. أنت بحاجة إليه».
- نظرت إليه آشلين بدهشة. لم تعرف أن لديه ميولاً استغلالية، لكنها تحتاج إلى الكتاب فعلاً.
- «حسنًا، كم تريد؟».
- «إنه لكِ مقابل...»، توقف قليلاً لزيادة التشويق. «مقابل علبه من حلوى الكاكاو من متجر حلويات سي كوست. ولا تحاولي المساومة، فالسعر نهائي».
- علت ابتسامة عريضة وجه آشلين: «اتفقنا. لكن أعتقد أنهم أغلقوا الآن. هل يمكنني إرسالها لك غداً؟ وأعدك أنني لن أراجع».
- «حسنًا، لكن تذكرني أنني أعرف أين تعيشين».
- «أريد منك خدمة أخرى».
- تأفف كيفن قائلاً: «أنت مزعجة يا فتاة».
- «أعرف. لكنها خدمة صغيرة. الرجل الذي أحضر الصناديق... أمل أنك تحتفظ برقم هاتفه. لن أضايقه على الإطلاق. أريد أن أسأله بضع أسئلة فحسب».
- اكتسى وجه كيفن بالجدية قائلاً: «أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك. ما أعرفه أن والده توفي قبل بضعة أشهر، وأنه

- ينظف منزل العجوز الراحل. لقد جلب أغراضاً رائعة حقاً، منها أسطوانات قديمة مذهلة قد أحتفظ بها لنفسى».
- «ألن تكتب له شيكاً مقابل الأغراض التي جلبها؟»
- «هذا ما أفعله عادةً، لكنه رفض أن يأخذ فلساً واحداً. قال إن ما يريده ألا تنتهي مقتنيات والده في مكب نفايات فحسب. لم يمكث هنا أكثر من ربع ساعة في الزيارتين معاً».
- «ألا تحتفظ بسجلاتٍ من نوع ما على غرار محلات الرهونات؟»
- «لا حاجة إلى ذلك، إلا في حالة محاولة أحدهم بيع ممتلكاتٍ مسروقة كالجواهر أو أجهزة الستيريو وأشياء من هذا القبيل. لكن لن يُسجن أحد بسبب ألبوم صورٍ عائلية قديمة. واطبُتُ مدةً لا بأس بها على تسجيل الأسماء والعناوين في دفترٍ مخصص لذلك، لكنني تكاسلتُ في النهاية وتوقفت. مع ذلك، تحدثت أشياء غريبة أحياناً. يظهر الأقارب ويطالبون باستعادة ممتلكات الجدة بعد أن دفعتُ ثمنها وتعمّ الفوضى. عليّ أن أشتري دفترًا جديدًا ربما، لكن هذا لن يفيدك الآن. آسف».
- «لا عليك. لكن الأمر يستحق المحاولة. سأواصل التحري على أي حال».
- «تعتقدين أنها قد تكون ذات قيمة بالفعل؟»
- «ليس الأمر كذلك على الإطلاق. لم يسبق أن رأيت شيئاً كهذا قبلاً. لم أتعلم كثيراً في الكتاب الأول بعد، لكن ما قرأته حتى الآن يبدو شخصياً جداً، وكأنه كُتب لشخص واحد فقط».

- «رسالة مثلاً؟».
- «رسالة طويلة جداً، أو يوميات ربما. لكن لماذا يتكبد أحدهم عناء تجليد شيء كهذا بجلدٍ فاخر؟».
- هز كيفن كتفيه وحك رأسه قائلاً: «إذا كان هناك شيء علّمني إياه العمل في هذا المتجر، فهو أنه لا يوجد حدٌ للقيمة العاطفية التي يعلّقها الناس على ممتلكاتهم. من يدري؟ ربما تكمن الإجابة في الكتاب الثاني».
- «ربما»، رفعت آشلين حقيبتها على كتفها. «أعتقد أن عليّ قراءة مزيد إذن».



شعرت آشلين بأن لهيباً يخرج من الكتاب ويحرق حقيبتها وهي تقطع المسافة مشياً عائدةً إلى متجرها. هل الكتاب مقدمة أم تنمة، أم أنه عملٌ مستقلٌ تماماً؟ لم تكن لديها أدنى فكرة لكنها عقدت العزم على معرفة الإجابة. صعدت الدرج إلى شقتها مسرعةً والمفتاحُ في يدها. لم تخلع حذاءها حتى قبل أن تهوي على كرسي القراءة وتشعل المصباح.

لا شك أن كلا الكتابين صُمما بطريقة مشابهة. ولكن عند وضعهما جنباً إلى جنب، باتت الاختلافات بينهما أكثر وضوحاً. فقد استُخدم جلدٌ مشمع على نحو أكبر في تجليد كتاب «إلى الأبد وأكاذيب أخرى»، وكانت حلقات الغلاف على العمود أنظف وأكثر حدة.

أمسكت بكتاب «إلى الأبد وأكاذيب أخرى» ووضعتَه بشكل مسطح على راحة يدها. وعلى غرار رفيقه الأول، لفَّ الكتاب هدوءً غريب. لا أصداء من أي نوع ما دام مغلقاً.

حبست أنفاسها وهي تفتح الغلاف استعداداً لموجات الألم الحارق التي توقعتها بعد قراءتها أجزاء من كتاب «ندم على بيل». لم يحدث شيء في البداية، لكنها أحست بعد لحظة بهمة خافتة عند رؤوس أصابعها. راودها إحساسٌ بارد يبعث القشعريرة؛ إحساسٌ مختلف عما كانت تستعد له. أجبرت نفسها على البقاء ساكنةً وتركت الإحساس يتصاعد. مزيجٌ غريب من الخدرِ ووخز الإبر والصواعق ينتشر على ذراعها مثل صقيعٍ يزحف ببطء، ويتجمع حول ضلوعها حتى حلقها. نوتة القمة... نوتة القلب... نوتة القاعدة.

اتهام، خيانة، قلب مكسور.

أطلقت أشلين زفيراً حاداً مع تصاعد حدة الإحساس. أي من هذا لا يشبه «ندم على بيل» الذي كاد يحرق أصابعها بعدوانيته المتفاقمة وآلامه المكبوتة. في الحقيقة، الكتاب الجديد هو العكس تماماً. كان بارداً ولاسعاً مثل رياح يناير، وصقيعياً على نحو غريب.

كانت تلك طريقةً غريبةً لوصف الغضب الذي عادة ما يأتي على شكل موجة حارة وحادة، كالصفعة. ما من حرارة هنا. حريقٌ أزرق وأبيض يُشبه النار وليس بنار. لم يكن غضباً ما استشعرته. بل يأس، فراغ عظيم مألوف حدّ الألم حتى شعرت بحنجرتها تضيق.

كانت الأصدقاء أنثوية.

حدقت آشليين إلى الكتاب المفتوح محاولةً استيعاب ما بين يديها، والتأكد من شكها بكاتبته. حبست أنفاسها وهي تقلب الصفحة إلى صفحة العنوان. كان هناك سطرٌ واحد بخطٍ مائل.

كيف؟ بعد كل ما حدث، تجرؤ على أن توجه هذا السؤال لي؟
كُتبت كلمة «لي» باستقامة ووُضع خطٌ تحتها. وكانت هناك بقعة حبر غاضبة تشوّه علامة الاستفهام. وبدافع غريزي، فتحت كتاب «ندم على بيل» وقرأت النقشين معاً. سؤال وردّ.

كيف يا بيل؟ بعد كل ما جرى... كيف يمكنك فعل ذلك؟
كيف؟ بعد كل ما جرى، تجرؤ على أن توجه هذا السؤال لي؟

إلى الأبد، وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 1 إلى 6)

27 أغسطس 1941

نيويورك.

لا يجوز للفتاة أن تقع في حب شخص آخر يومَ خطوبتها.
لا يجوز لها ذلك، لكن هذا ما جرى معي. كنتُ فريسةً سهلةً
أمام مُدَّعٍ ماهرٍ مثلك كما اكتشفتُ بعد مدةٍ وجيزة.
لن أحرق المراحل وأتكلم عن النهايات، بل سأهيئ الأرضية
أولاً، لأن غايتي أن أروي ما جرى بدقة. وهنا بيت القصيد؛ سرُّ
القصة كما ينبغي، وكما حدثت حقاً، لا كما رويتها في كتابك
الصغير الجميل. لذا، سأعود إلى نقطة البداية؛ إلى قاعة الرقص
في فندق سانت ريجيس.

قبلتُ عرض زواجٍ من شابٍ نشأت معه تقريباً. تيدي، ابن أحد
أغنى رجال الأعمال في نيويورك وأبرزهم، وشريك والدي. سار
كل شيء بانسجام تام، أو هذا ما اعتقده والدي حين رتب الأمر:
اندماج ثروتي العائليتين.

يعلم الله أنني قاومتُ الأمر بقوة. لم تكن لدي أي رغبة في
الزواج بأحدٍ في تلك الأيام. بالكاد تجاوزتُ الحادية والعشرين،
وما زلت طفلةً من نواح كثيرة. يكفيني أنني شهدتُ زواج أختي
بطاعة عمياء، وشاهدتُ كيف ذبلتُ روحها تحت وطأة قبضة
زوجها الثقيلة ومتطلبات أطفالها المتواصلة، الذين جاؤوا إلى
هذه الدنيا على مددٍ متقاربة بشكلٍ مخيف.

أدت سيّسي دوراً بارزاً في طفولتي لا سيما بعد وفاة أمي. كانت تكبرني بتسع سنوات، وكانت صارمةً في تربيتي، لكن في تلك الأيام، كانت صارمة في كل شيء تقريباً، من إدارة منزل والدي بكفاءة مذهلة، إلى الإشراف على الخدم والوجبات. وفي سن السابعة عشرة، اضطلعت بدور المضيفة عندما كان يستضيف الزوار. أصبحت في نظري وفي نظر والدي أيضاً سيدة المنزل. لكنني رأيت كيف قلّل الزواج شأنها، وجعلها ضئيلة بطريقة ما، وأقل وضوحاً وأقل قيمة.

ومما رأيته أمام عيني، تمثّل دور أختي الأساسي، بوصفها زوجة، في أن تكون ودوداً ولوداً، ما أثار رعبي. لقد أردت حياة خاصة بي، حياة دراسة، وسفر، وفن، ومغامرة. وقد عزمتُ على تحقيق ذلك. لذا يمكنك تخيل دهشتي وأنا أجد نفسي في قاعة الرقص بفندق سانت ريجيس، واقفةً إلى جانب تيدي، مرتديةً فستاناً جديداً من تصميم شارل وورث، ونخبة من مشاهير مجتمع نيويورك تشرب نخب خطوبتنا. لكن حين يُصمم والدي على أمرٍ ما، يصبح مقنعاً جداً. وقد اتخذ قراره بشأن تيدي.

— «نخبُ الثنائي السعيد».

ترددت أصوات التهاني المُزعجة في أذني نخباً بعد آخر. أرفع كأس شرابي عندما يُفترض بي ذلك، وأبتسمُ عندما يُفترض بي الابتسام. أنا ابنة أبي في النهاية، وقد دُرِّبْتُ جيداً. لكنني أشعر في داخلي بخدر تام، وكأنني أنظر عبر نافذةٍ وأراقب كل شيء كأنه يحدث لشخصٍ آخر. لكنه ليس كذلك. إنه يحدث لي، ولا أستطيع أن أتخيل كيف سمحتُ له بأن يحدث.

انسلتُ بعيداً بأسرع ما استطعت، تاركةً يدي يتحدثُ عن خيول البولو مع أصحابه. بحثت عن مكانٍ هادئ، فدويّ المحادثات والموسيقا والحرارة الناتجة عن كثرة الأجساد تسبب لي الصداغ. ولكن الحقيقة، أن مجرد التفكير في احتمال أن أصبح مثل أختي يثيرُ الغثيان في نفسي. مُملة. وبائسة. وغير مرئية.

ذُكرتُ نفسي وأنا أمسك بكأس من الشراب من نادلٍ يمرّ مسرعاً ثم أشربها دفعةً واحدةً أن تيدي ليس جورج. تيدي رياضيٌّ ووسيم، وشخص ناجحٌ جداً وفقاً للمعايير الذكورية، التي أدركتُ أنها المعايير الوحيدة التي تهّم. فضلاً عن أنه يُعدّ صيداً ثميناً لنساء نيويورك كلّهن. أدركتُ، وأنا أنظر حولي بحثاً عن كأس شرابٍ أخرى، حقيقةً أنني لا أريد اصطلياد أحد. حفلاتٌ ودعوات إلى العشاء وأحاديث مملة. عطلاتٌ في الأماكن الفاخرة وتغيير ملابس لا ينتهي. ساعدني يا الله.

وصف والدي سيسى يوماً بأنها «مطواعة» لأنها تفهم أشياء مثل الولاء والواجب. كان ذلك في اليوم ذاته الذي أخبرني فيه أنني سأتزوج بتيدي. وعندما قلت إنني لست مهتمةً بالزواج، شرح لي بصبرٍ مشوب بالتوتر أننا في بعض الأحيان يتعين علينا فعل ما هو مطلوب من أجل المصلحة العامة. كان يقصد مصلحته وحده طبعاً، وهي حماية الإمبراطورية غير النظيفة التي تمكن من بنائها عند إقرار قانون فولستيد.⁽¹⁾

(1) قانون فولستيد، المعروف رسمياً باسم التعديل الثامن عشر لدستور الولايات المتحدة، هو قانون حظر تصنيع المشروبات الكحولية وبيعها واستهلاكها في الولايات المتحدة. سُنَّ عام 1919 وأُلغي عام 1933. كان لقانون فولستيد تأثير عميق في المجتمع الأمريكي. أدى إلى نشوء اقتصاد ما تحت الأرض، وتفشّي الفساد، وزيادة العنف، ولم يحل المشكلات الاجتماعية التي كان من المفترض معالجتها. (المترجمة)

كان من المفترض أن يخدم تيدي ومكانته الاجتماعية الرفيعة
غايات والدي، إذ يعدّ زواجنا تحالفاً استراتيجياً يهدف إلى تعزيز
قضية العائلة المشتركة، والتخلص من وصمة الثراء الفاحش،
ومن سنواتٍ عشرٍ من تجارة الشراب الكندي غير المشروعة.
لكنني ظننتُ بسذاجة أن الزواج يجب أن يكون أكثر من مجرد
تحالف. أنا معجبة بتيدي كما يُعجب المرء بجرو شقي أو قريبٍ
مضحك. لكن قبلاته لا تبعث فيّ الدفء ولا تدغدغ حواسي.

كانت تجربتي مع الرجال في هذه المرحلة من حياتي
محدودة، وهو أمر طبيعي بالنسبة إلى آنسةٍ لم يمضِ على
تخرجها من مدرسة البنات سوى ثلاث سنوات. مع ذلك، تلقفتُ
فكرة أن هناك في علاقة الرجال والنساء ما يجب أن يتجاوز
الخضوع والواجب؛ رباطاً وثيقاً وروحانية عميقة.

كانت هذه الأفكار تدور في رأسي عندما رأيتك أول مرة.
أزحتُ بصري بعيداً، مندهشةً من أفكارٍ هذه ومن الحر الذي
بدأ يتسلّل إلى حَلقي ويصعد إلى وجنتي. لكن بعد بضع رشقاتٍ
أخرى من الشراب، بحثتُ عنك مرة أخرى. ها أنت ذا واقفٌ
هناك. طويل القامة، ذو شعرٍ داكنٍ ووجهٍ مستطيلٍ وعينين
زرقاوين بنظرات نافذة. ولا تزال تراقبني. تسالت ابتسامةً خفيفةً
إلى شفتيك، وكأنك مسرورٌ لكنك تفضلُ عدم إظهار ذلك.

في تعاير وجهك سخريّةً جعلتني أعود إلى واقعي وأغضبتني
قليلاً. جرأة أثارت القشعريرة في جسدي. تلاقت نظراتنا،
وجاهدتُ نفسي حتى أردّ النظرة بالنظرة حتى عندما بدأت تسير
نحوي. ابتعلتُ ما تبقى في كأسٍ وأنت تقف إلى جانبي.

- «حذار، قد يباغتك تأثيره بأسرع مما تتوقعين، خاصة إن لم تكوني معتادةً شربه»، قلتُ بصوت خفيضٍ متلاعب.
- رمقتُ بنظرة سريعة وبذلت أقصى جهدي حتى أبدو أمامك غير مبالية وقلت: «هل أبدو لك أنني لست معتادةً الشرب؟».
- «لا»، قلتُ وأنت تزيج شعرك الأسود عن جبينك وتقيسني بنظراتك. «ليس الآن وأنا أنظر إليك من كُتب».
- أثار شيء غامضٌ في نظراتك اضطرابي، وكأن سربَ فراشاتٍ انطلق في جوفي. أو لعل وقوفك بالقرب مني هو السبب. ظللتُ لحية خفيفة خديك، وشت بافتقارك إلى الوقت للحلاقة قبل الحفلة. وملابسك الرسمية، رغم أناقتها، لم تكن تناسبك تماماً. كُما سترتك قصيران قليلاً عند المعصمين، وهناك تجاعيد خفيفة عند الكتفين. إنها على الأرجح بدلةٌ مستأجرة، لا رقيقة حفلاتٍ دائمة كهذه.
- لاحظتُ أنك لا تحمل كأس شراب، فاقترحتُ عليك مشروباً، لكنك رفضتَ بلهجتك البريطانية الهادئة. تصرفٌ مثقفٌ لكن لا ينتمي إلى الطبقات الراقية. تذكرتُ أنني لا أعرفك مع أنك مدعوٌ إلى حفل خطوبتي.
- تقرّستُ في وجهك ونحن نتحدث عن الكتب، محاولةً تمييز ما يجعلك وسيماً. فلامحك، إن أخذناها منفردة، لا تتماشى مع تعريف الوسامة الكلاسيكي. أنفك ضيق وطويل قليلاً ما يمنحك مظهر الغراب. فمك عريضٌ جداً يعلو ذقناً نُحِتَ بحدة. لا، لستُ مثالياً كما ظننت أول وهلة. لكن عينيكَ، بلونهما الأزرق الغامق والهالة الداكنة التي تحيط بهما، تشدانني أكثر مما ينبغي.

وفجأة، اختفت الكلمات من رأسي ومن على شفتي.
أراحني ظهور إيلين فورستر، وهي والدة إحدى صديقات
سيسي. كما أن زوجها، الذي تبخرت ثروة عائلته من تجارة
الشاي بعد الكساد الكبير، شريك والدي منذ زمن بعيد. ظننتُ
أنك ستلتقط الإشارة وتتركنا وحدنا، لكن بعد بضع عبارات تملُّق
زائفة عن تيدي وحظي السعيد، ابتعدت إيلين وعدنا وحدنا مرة
أخرى.

ملت صوبي وهنأتني بلطف وهدوء وكأنك تخبرني سراً. لم
أشعر حينها إلا بأنك تسخر مني. تجاهلت كلماتك وبالكاد أتذكر
إن شكرتك أم لا. لكن وقاحتك لم تتوقف عند هذا الحد، إذ
شرعت تستعرض ملفاً عن خطيبي. وكان سرداً مفصلاً لصفاته
 وإنجازاته جميعها. لكن إناء كلماتك نضح بالإهانة لا الإشادة،
حتى أنك لمّحت إلى أنني غير سعيدة بخطوبتي، وكأننا لم نلتق
للتو، وكأن لك الحق في إبداء الرأي.

تجاهلت وقاحتك مجدداً، وسألتك كيف وصلت إلى حفلي
لأنني لا أعرفك، كما أن اسمك لم يكن مألوفاً لدي عندما ذكرته.
أما اسم شريكك الذي نطقته دون أن يرف لك جفن، فهو اسم
ذائع الصيت على نحو مشين. جميع سكان نيويورك يعرفون
غولدي السيئة السمعة.

مع ذلك، وجدت نفسي عاجزة عن الكلام، مصعوقة لحضورها
بين المدعوين، تشرب شراب والدي وتخطط أشياء لا يعلمها إلا
الله. لا أصدق أن واحدة من أكثر نساء نيويورك شهرةً بالفضائح،
صحفية مستقلة كما تسمي نفسها، قد تمكنت من انتزاع دعوةٍ

لحفل خطوبتي. إنه تدبير خطيبي ولا شك، فهو لا يفوت فرصة
أبداً ليضع اسمه ووجهه في الصحيفة.
كان يجب أن أدرك حينها أي نوع من الرجال أنت، تجوب برفقة
امرأة تكبرك بعشر سنوات على الأقل. أضف إلى ذلك، أنها
امرأة تشتهر بإبقاء قطيع من الشباب رهن إشارتها وطوع بناتها.
كل ما استطعتُ التفكير فيه هو أي نوع من الرجال يتورط مع
امرأة كهذه! أعتقد أنني قلت شيئاً من هذا القبيل. تصلبت قليلاً
وقلت بلهجتك المتكبرة إن الناس يُظهرون ما لا يبطنون. وأنت
أكثرهم.

كم كنتُ مغفلةً حين لم أرَ حقيقة كلماتك!

إلى الأبد، وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 7 إلى 10)

4 سبتمبر 1941

نيويورك.

بوسعك تخيل مدى دهشتي حين رأيتك بعد أسبوع في حفل عشاء عائلة ويتير. كنتَ برفقتها مرة أخرى، بشعرها الأشقر الفاقع وثوبها الضيق جداً وضحكتها الصاخبة. صاحبة الماضي المشبوه والاسم السخيف، غولدي.

تتجولان معاً في أرجاء الغرفة، ذراعكما متشابكتان، وتبتسمان بلطف وأنت تُقدِّم إلى أصدقائي مرتدياً بدلةً رسمية أنيقة. أعتقد أنها هدية، هدية سخية بالمناسبة. أما هي فقد ارتدت فستان حرير مواريه بلون خوخي التصق بجسدها. أقرّ بأنها بدت جميلة وأنيقة ومكياجها مثالياً. لكنها بدت أكبر سنّاً بقليل مما يفضلهُ معظم الرجال في عمرك. لعلك تفضل هذا النوع من النساء.

راقبتُك وأنت تجول بنظرك في أرجاء الغرفة وكأنك تدون ملاحظات، أو تجمع الأسماء والوجوه وتربطهم بثرواتهم ربما. تظاهرتُ بعدم اكتراثي لوجودك والأيدي تتناقل كؤوس الشراب. تظاهرتُ بأنني لم أنتبه لوقوفك مع تيدي وحديثك معه. لكن مستحيل. حضورك، ومجرّد حقيقة وجودك، تجعلني أشعر بالتوتر الشديد. ليس الأمر أن نظراتنا تتلاقى بين الحين والآخر، ولا تلك الابتسامة الخفيفة التي ترسم على زوايا فمك حين يحدث ذلك. إنما الأمر أنني لا أفهم سبب عودتك مرة أخرى كالقط

الذي يصعب إبعاده عن قطعة الجبن كما يُقال. ماذا تريد مني؟

شعرت بالارتياح عندما دق جرس العشاء أخيراً. ترتيبات الجلوس حُدِّدَت قبلاً، وكُتِبَت الأسماء على بطاقات بلونٍ عاجي، ما سيسمح لي بمراقبتك من مسافة آمنة.

غريبٌ حقاً أن تخطر على بالي كلمة «آمنة» في مثل هذه اللحظة، وكأن مجرد وجودك يُشكل نوعاً من الخطر. إنه أمرٌ سخيفٌ حقاً. كيف يمكن أن أكون غير آمنة في غرفة جميلة كهذه، محاطة بأناسٍ ذوي أنسابٍ رفيعة؟

ابتسمتُ وقد راقَت نفسي وبحثت عن تيدي متوقعةً أن ينضم إليّ. ثم رأيت البطاقة التي تحمل اسمك إلى جوار بطاقتي بدلاً من بطاقته، وهي حقيقة لم يبدُ أنها فاجأتك على الإطلاق.

جلس خطيبي في الطرف المقابل من الطاولة، إلى جوار شريكك بالطبع. يا لها من مصادفة مرتبة. تلاقت نظراتنا وأنا أجلس وكأنها تعرف أنني أراقبها. توقَّعتُ أن أرى الغيرة في عينيها، تلك النظرة الساخطة لامرأة جلس شريكها إلى جوار امرأةٍ أخرى. لقد اعتدتُ هذا النوع من نظرات النساء، لا سيما اللائي كنّ يطمحن إلى الفوز بتيدي. لكنها رمقتني بنظرة تقييم باردة فحسب، بعينين مراقبتين وفضوليتين وكأنها تحاول أن تكونَ رأياً عني.

كنت أنا من حوّل نظره أولاً منزعجةً من نظراتها الصريحة. لكنني رأيت أعينكما تلتقي جزءاً من الثانية. لا أعلم كيف تدبرت أمر جلوسنا، لم تقل قط، لكنّ هناك شيئاً ما في نظرتكما جعلني

متأكدةً أن هذا اللقاء الثاني لم يكن مصادفةً. بدافع الأدب، أو ربما لأنني قد أسرفتُ في الشرب، سمحتُ لك بجريّ إلى محادثة. تحدثنا عن الخيول، أو على الأقل بدأنا الحديث بالكلام عنها. عن اهتمامي الجديد بسباقات الخيول الأصيلة، ورحلتي الأخيرة إلى ساراتوغا لحضور سباق سبينواي ستيكس، وهدية عيد ميلادي من والدي.

في المحصلة، وربما كان الوصول إلى هذه النقطة حتمياً، انتهى بنا المطاف إلى الحديث عن التكاثر، لكنني لا أتذكر من منّا فتح هذا الحديث. أياً كان، سألتني عن سبب اهتمامي بالخيول بنبرة تتسم بالتعالي والسخرية المقنّعة، تفوح منك رائحة ثقةٍ مفرطة بالنفس، يعززها سحرك البريطاني الجذاب، حتى راحت أسناني تصطك غيظاً. ارتسمت على وجهك ابتسامة متكلّفة شعرتُ معها بأنك تقلل من شأنِي، أنا الفتاة الغنية المدللة التي طلبت حصاناً هدية عيد ميلادها فحصلت على اثنتين. لكنني أرفض أن تقلل من قيمتي، فانتابتنِي رغبة عارمة في إعادتك إلى حجمك الطبيعي. توقفنا فجأة عن الكلام عن الخيول. كلانا يعلم أننا نخوض معركةً كلامية، وأنا نزيدها حدة مع كلّ تلميح ذكي وكل كلمة تحمل معاني عدة، وأنا نقترّب بحذر من حافة الوقاحة.

دخلتُ للتو عالماً لم أطأه قطّ، حرباً كلامية مشحونة بالإثارة. ومع ذلك، أشعر بأنّي أعرفها جيداً. وكأنّ جسدي قد عاشها قبلاً؛ معرفةً حدسية بالمكان الذي يمكن أن تقودنا إليه هذه الحرب، وبكيفية انتهائها. أدركت فجأة سبب الشعور بالخطر الذي راودني في السابق. أنا أشعر به الآن، في هذه اللحظة التي

أشعر فيها بالحاجة إلى إثبات شيء لك. وربما لنفسى أيضاً.
شيء لا أفهمه حتى أنا.

تعلو وجهك ابتسامة ساخرة، وتلوح عليه ملامح الرضا، وأنا
أغلي غضباً لأنني علقْتُ في شباكٍ نسجتها يداي. لا أعرف
كيف أخلّص نفسي دون أن أكشف كم أنني مبتدئة. لكنني لن
أرضي غرورك بالاعتراف بضعفي. وهكذا أمضي في اللعبة بتهورٍ
ووقاحة، وأخوض غماراً أجهلها تماماً، لكنك تعرفها جيداً. أردت
أن أصدمك، لكنك أبعد ما تكون من أن تتالك الصدمة، بل على
العكس تماماً.

في النهاية، تدرك خداعي.

تسمّرت عيناك في عينيّ. بدا لونهما أكثر زرقاً مما لاحظتُ
قبلاً مع بقع ذهبية صغيرة حول البؤبؤ. شعرت فجأة بحرّ شديد،
وهو ما أفترض أنه يحدث عادةً عندما يلعب المرء بالنار.

- «لديّ رغبة كبيرة في رؤية حصانيك الجميلين»، قلتها
بابتسامتك المتكلفة ذاتها التي أتقنتها تماماً لإبقاء حمقاء
صغيرة مثلي في حالة عدم توازن.

- «يسعدني أن أريك إياهما»، أجبتُ. ما عساي أقول غير ذلك؟
لقد كشفت أوراقك على الطاولة، ويجب أن أفعل أنا الشيء
ذاته.

- «ليست لدي أي التزامات عصر الغد. أودّ لو أزور منطقة
هامبتونز، سمعت أنها منطقة ريفية جميلة»، اقترحتُ
بسلاسة.

وهكذا، بتُّ محاصرة.

الفصل الخامس

آشليين

«ترميم الكتب عملية طويلة وشاقة، خاصةً عندما يكون الضرر كبيراً. سيكون التقدم بطيئاً. لذا، توقع الانتكاسات، وتحلّ بالصبر، وثابر».

- آشليين غرير

28 سبتمبر 1984

بورتسموث، نيو هامبشير.

حثت آشليين نفسها على التركيز على العمل بين يديها وهي تزيل شريطاً من الكتان القديم من ثاني كتب نانسي درو التي جلبتها غيرترود. لكن الأمر كان صعباً، إذ لم يسيطر على تفكيرها سوى الغموض الذي يحيط باكتشافها الأدبي الأخير.

بعد غوصها في فصول عدة من كتاب «ندم على بيل» ذي النزعة الذكورية الواضحة، كان من الممتع بالنسبة إليها أن تتعمق في كتاب «إلى الأبد وأكاذيب أخرى»، وأن ترى لقاء العاشقين الأول من منظور بيل هذه المرة. تفاصيل تلك الليلة في قاعة الرقص بفندق سانت ريجيس، والحوار المتطابق تقريباً، والانجذاب المتبادل الذي يتأجج ببطء. كان كل شيء يتوافق بدقة.

أم لعلها... دقة مريبة؟

سيطر عليها يقينٌ بأن الروائيتين ليستا من نسج الخيال، وأن الشخصيات حقيقية، وأن قصة الحب، إن جازت تسميتها كذلك،

واقعية. لكن ماذا إن كانت مخطئة؟ ماذا إن كانا شيئاً آخر تماماً؟ ماذا إن كانا نتاجاً يتجاوز حدود الخيال إلى خيال ذاتي أعمق، أو حيلة أدبية صُممت لجذب القراء بوهم صوتين مختلفين تماماً؟ أهما عاشقان لديهما خلافات قديمة يريدان تسويتها مثلاً، أو لغز رومانسي من نوع ما؟

كانت الفكرة مثيرةً للاهتمام وقد تفسر غياب ختم دار النشر عن كلا الكتابين. كان الخيال التجريبي⁽¹⁾ من النوع الغريب الذي يكسر القواعد، لا يزال موضوعاً ساخناً في الأوساط الأدبية. قبل ثلاثين عاماً، رُفض هذا النوع من الكتب لمصلحة مشروعات أكثر ضماناً. ربما لجأ المؤلف إلى دار نشر للطباعة عند الطلب، كما فعل إرنست هنسنت رايت عام 1939 عندما لم يتمكن من العثور على دار نشر لروايته «غادسبي». (حتى لا يُخلط بينها وبين رواية «غاتسبي العظيم» للكاتب سكوت فيتزجيرالد).

وفقاً للتصميم المعتمد، لم يتضمن كتاب رايت كلمة واحدة تحتوي على حرف E، وهو الحرف الأكثر شيوعاً في اللغة الإنجليزية. يُقال إن المؤلف قيّد مفتاح الحرف E على آله الكاتبة، ضامناً بذلك عدم ظهور الحرف في كتابه ولو عَرَضاً أو بالخطأ. لم يُثر الكتاب أي ضجة تُذكر في عصره، ولكنه في النهاية نال شهرة لا بأس بها. أما اليوم، فسيضطر جامع الكتب المحفوظ الذي يعثر على نسخة منه إلى دفع مبلغ طائل لا يقل عن 5000 دولار.

(1) نوع من الكتابة الأدبية التي تتحدى التوقعات وقواعد السرد التقليدية. (الترجمة)

هل عثرتُ حقاً على شيء بهذه القيمة والندرة؟ ربما. لكن ماذا عن الأصدقاء؟ لا يمكن لأي قدرٍ من الكتابة مهما بلغ إتقانها أن يفسر ما شعرتُ به عندما لمستُها. لم تكن الأصدقاء خدعة. لقد كانت حقيقية، ارتدادات عميقة ومظلمة من الماضي. لكن ماضي مَنْ؟

سكنتُ يداها وهي تتخيل كتابي «ندمٌ على بيل»، و«إلى الأبد وأكاذيب أخرى»، وهما يُسحبان من على الرف ويوضبان في صندوق متجه إلى متجر كيفن بمصايحه المتوهجة وأجهزة الراديو، ثم وجدا طريقهما إليها. هل من الممكن أن هناك سبباً لكونها هي من أنقذتهما من الغرفة الخلفية في متجر كيفن؟ هل اختيرت هي لتحل اللغز؟

ظَلَّت الفكرة تؤرقها وهي تلتقط سكين التجليد وتُجري أول شق، ثم تفصل بعناية اللوحتين الأمامية والخلفية عن كتلة النص. كانت فكرةٌ مثيرة للاهتمام، لكن ليس لديها أي شيء تقريباً تستند إليه. لم تمتلك أي من الشخصيات اسماً صريحاً، ولا يسعها فعل كثير بأسماء مثل بيل وسيسي. هناك اسم غولدي بالطبع، لكنه يبدو اسماً مستعاراً أيضاً. لكن ألم تذكر بيل أن الجميع في نيويورك يعرفون اسم غولدي؟ خيطٌ يستحق البحث بالتأكيد، فكم عدد النساء اللواتي أدرنَ صحفاً عام 1941؟

باغتها حماسةٌ جعلت القشعريرة تسري في جسدها وهي تتجه مباشرةً إلى قسم الصحافة في المتجر. قد تكون محاولة فاشلة، لكنها على الأقل نقطة انطلاق. للأسف، لم تجد على رف الصحافة سوى ثمانية كتب، تتحدث كلها عن المراسلين

الصحفيين الأجانب خلال الحريين العالميتين الأولى والثانية، من بينها نسخة متهالكة من رواية «وليمة متنقلة» لإرنست هيمنغواي، ونسخة جيدة من كتاب يضم كتابات متفرقة لهيمنغواي عن الحرب، ونسخة جيدة أيضاً من كتاب «وجه الحرب» لمارثا غيلهورن، زوجة هيمنغواي الثالثة. لا عجب، فقد كان فرانك مفتوناً بكل ما يتعلق بهيمنغواي.

اتجهتُ آشليين بعد ذلك إلى قسم التاريخ الأمريكي، لكن معظم العناوين تحدثت إما عن الحرب وإما عن السياسة. انتقلت بعد ذلك إلى قسم التجارة والصناعة، ووجدت كتباً كثيرة تتحدث عن التعدين والسكك الحديدية وصناعة السيارات، لكن دون أن تعثر على شيءٍ يتعلق بعالم الصحف.

إنها مهمة لا يمكن لأحدٍ أن يتصدى لها إلا روث ترومان. في الواقع، كان يجب أن تكون روث أول من يخطر على بال آشليين، فمع أنها تعمل بدوام جزئي الآن، فإن روث راكمت خبرة ثلاثين عاماً من عملها أمينةً مكتبة. إنها كنز ثمين عندما يتعلق الأمر بالبحث.

راحت آشليين تقلب صفحات دليل الهاتف القديم باحثَةً عن رقم مكتبة بورترسموث العامة، ثم رفعت سماعة الهاتف السوداء القديمة إلى أذنها.

- «صباح الخير. السيدة ترومان تتحدث. كيف يمكنني مساعدتك؟». وجدت آشليين نفسها تبتسم. كان صوت السيدة ترومان تجسيداً لما ينبغي أن تكون عليه أمينة المكتبة؛ لطيفة وقديرة وكفئاً في عملها.

- «مرحباً روث. أنا آشليين من متجر حكاية غير متوقعة».
- «أهلاً آشليين، يسرّني سماع صوتك. مرّ زمن طويل منذ أن تحدثنا آخر مرة».
- «تقصدين منذ أن أثقلتُ عليكِ آخر مرة».
- «لا تكوني سخيفة. تسعدني دائماً المساعدة متى استطعت. ما الذي تحتاجين إليه إذن؟».
- «عثرتُ على كتاب أحاول تتبّع مصدره. عنوانه "ندمٌ على بيل"، لكنني لا أعرف من ألفه. لا أقصد أنني أحاول العثور على نسخة منه، بل لديّ النسخة فعلياً. المشكلة أنه لا يحمل اسم مؤلفه ولا صفحة حقوق نشر. لا شيء البتة. إنه مجهول الهوية تماماً».
- «وتودين لو أعرف من كتبه؟».
- «في الحقيقة، كنت آمل أن تساعدني في تحديد هوية إحدى الشخصيات. امرأة كانت تُلقَّب بـ "غولدي"».
- «ندم على بيل" و"غولدي". ليست معلومات كافية لنطلق منها. ماذا لديكِ أيضاً؟».
- «لقد عاشت في نيويورك وامتلكت سلسلة جرائد في عام 1941. هذا كل ما أعرفه. أجل، لقد كانت نوعاً ما...»، توقفت آشليين تبحث عن كلمة لائقة. «مُتحرّرة»، قالت أخيراً.
- «كانت تُحبّ الشبان الصغار... كثيراً».
- «مرحى لها»، ردت روث بضحكة مكتومة. «من الجيد معرفة أن أحدهم كان يستمتع بوقته في تلك المدة».

- «ما رأيك إذن؟ هل من الممكن تعقب هذه المرأة الغامضة مع المعلومات الشحيحة التي بحوزتنا؟».
- «حسناً، لا أعدك بشيء لكنني سأبذل أقصى ما أستطيع. دعيني أراجع المعلومات معك: غولدي، سيدة من نيويورك نجهل اسمها بالضبط. كانت تمتلك سلسلة من الجرائد عام 1941، وكانت تحبهم صفاراً. صحيح؟».
- «صحيح تماماً».
- «اتفقنا. سأبدأ العمل إذن. أنا وحدي في المكتبة هذا الأسبوع، لذا قد لا أستطيع البدء على الفور. لكن إذا كان اسمها مطبوعاً في أي مكان، فسأجده».
- «أنت رائعة يا روث، أنا مدينة لك بكثير».
- لم تكد آشليين تضع سماعة الهاتف حتى سمعت أجراس باب المتجر ترن. رفعت رأسها متفاجئة برؤية كيفن. «ماذا تفعل هنا في منتصف النهار؟ أهربت من المدرسة؟».
- «كنتُ خارجاً لتناول الغداء، لذلك فكرتُ أن أحضر لك هذا». مدّ كيفن يده إلى جيبه الخلفي وأخرج ظرفاً مطوياً.
- عبست آشليين وهي تمدّ يدها لتأخذه: «ما هذا؟».
- «انظري إليه. ليس داخله بل انظري إليه من الخارج».
- حدقت إلى الظرف وقرأت العنوان المكتوب على الآلة الكاتبة بدقة: ريتشارد هيلارد. 58 شارع هاربور. راي، نيوهامبشير. رفعت رأسها في حيرة: «ما هذا؟».
- «وجدته أسفل أحد الصناديق التي أحضرها الرجل الغامض من راي. لم أكن متأكداً إذا ما كنتُ لا تزالين بحاجة إلى الاتصال به، لكنني فكرتُ في أن أحضره إليك».

كادت آشليْن أن تقفز وتعانقه لفرط حماستهما.

- «يا إلهي، شكراً لك. أجل ما زلت أودّ الاتصال به. هذا رائع».
- «ما قصة هذين الكتّابين إذن؟ هل هما عمالان مفقودان لفتزجيرالد أو أي شخص آخر؟ أرجوك، أخبريني أنني لم أفرط بشروة كانت بين يديّ».
- ابتسمت آشليْن قائلة: «أشك في ذلك. الاكتشافات التي تجلب الثروة نادرة إلى حد ما. ومع أنّ الكتّابين غريبان حقاً، لكن افترض أنهما قد يحملان أهمية أكاديمية لشخص ما. جلّ ما أتمناه أن أكتشف من كتبهما. إنه مجرد حدس في الوقت الحالي، لكن حدسي يُنبئني أنهما ليسا من وحي الخيال. أمل أن يتمكن السيد هيلارد هذا من التحقق من ذلك».
- «أرجو ألا تذكرني اسمي إذا كنت ستتصرفين بفضولٍ يصل حدّ التطفل، اتفقنا؟».
- «لن أضايق أحداً صدقتي. أريد أن أسأل بضع أسئلة فحسب»، رفعت الظرف عالياً لتُدقق النظر فيه أكثر، فشعرت بخيبة الأمل. «إنه ممهور بختم بريدي يعود إلى تاريخ 4 أبريل 1976، أي قبل ثماني سنوات من الآن، كما أنه مُرسَل من إدارة الجمعية الأمريكية للمتقاعدين. كم عمر الرجل الذي أحضر الصناديق؟».
- «بدا في مثل سنّي تقريباً، لكنه قال إن الكتب تخصّ والده. أعتقد أن ريتشارد هيلارد هو الأب. الأمر يستحقّ عناء التحقق على أي حال. اتصلي بالاستعلامات واطلبي رقم هاتف رجل يُدعى ريتشارد هيلارد في راي. إذا حصلتِ على رقم، اتصلي به واعرفي من يجيب. لكن لا ترفعي سقف آمالك كثيراً. إذ

لم يبدُ الابنُ من النوع الذي يحب الكلام. لدي انطباع بأنه أراد فقط الانتهاء من مهمة إفراغ المكان».

ظل تحذير كيفن يتردد في أذني آشليين وهي تدق رقم ريتشارد هيلارد. لم يستغرق الحصول على الرقم إلا مكالمَةً هاتفية واحدة ودقيقتين بالضبط. لكنَّ الجزء الأصعب هو مناقشة الموضوع مع شخص غريب تماماً دون أن يبدو الأمر مخيفاً أو غريباً، أو كما قال كيفن «تطفلاً». كانت لا تزال تفكر فيما ستقوله عندما بدأت بالاتصال. بعد أربع رنات، سمعت صوت نقرة على الطرف الآخر. - «لستُ هنا. اترك رسالة».

لا اسم ولا تحية تذكر ولا دليل على أن أي رسالة ستركها ستصل إلى أي شخصٍ يُدعى هيلارد. فكرت لحظةً في إنهاء المكالمة. لطالما كرهت المجيب الآلي، فضلاً عن أنها لم تكن مستعدة تماماً، ولا تعرف إن كان لديها الوقت الكافي لتقول ما تحتاج إليه. ولكن في الوقت الحالي، إنه الخيط الوحيد الذي تملكه. «مرحباً»، قالت دون تفكير وبأنفاسٍ لاهثة. «اسمي آشليين غرير، أمتلك متجراً للكتب النادرة وسط مدينة بورتسموث. أحاول التواصل مع السيد هيلارد بشأن كتابٍ يخصه حصلت عليه مؤخراً. في الواقع إنهما كتابان. لدي بعض الأسئلة ولن آخذ كثيراً من وقتك. سأكون ممتنةً إذا عاودتَ الاتصال بي». أصابها الارتباك إلى درجة أنها كادت تغلق الهاتف دون أن تترك رقم هاتفها، وانتهى بها الأمر إلى نطق رقمها وهي تتلعثم مرتين، تبعتهما بتوسل آخر بأئس كي يعاودَ الاتصال بها. يا لها من طريقةٍ رائعة لتجنب الظهور بمظهر غريبة الأطوار.



- رن الهاتف عندما كانت آشليين تقلب اللوحة من «مفتوح» إلى «مغلق». هرعت عائدةً إلى المنضدة وأمسكت بالسماعة.
- «متجر حكاية غير متوقعة».
 - «أنا أتصل رداً على مكالمة وردتني من آشليين غرير».
 - «من المتصل؟»، قالت وقد تسارع نبضها.
 - «إيثان هيلارد. ترك أحدهم رسالة على المجيب الآلي الذي يخص والدي هذا اليوم».
 - تلعثمت آشليين وهي تقول: «أجل. أنا الآنسة غرير. أشكرك جزيلاً على إعادة الاتصال بي. لم أكن متأكدة أنني سألتقى رداً في الحقيقة».
 - «قلت في رسالتك إنك موجودة في بورتسموث».
 - «أجل في شارع ماركت. لم أحبذ اتصالي فجأة لكن لدي بعض الأسئلة عن بعض الكتب التي حصلتُ عليها مؤخراً، وآمل أن تكون لديك إجابات عنها».
 - «بالتأكيد. كيف يمكنني مساعدتك؟».
 - تراحمت الأفكار في رأس آشليين. لماذا لم تضع قائمةً بالأسئلة؟ ها هي ذي الآن تكلمه عبر الهاتف، ولا تعرف من أين تبدأ. «أظن أن سؤالي الأول هو عن عمرها. هل تعرف متى نُشرت؟».
 - «لا أعلم...»، ثم تابع بعد صمتٍ طويل، «عن أي كتب تتحدثين؟».
 - «أجل عفواً. ليست لديك أي فكرة عن الكتب التي أعنيها بالطبع. كنت أسأل عن كتاب "ندم على بيل" وكتاب "إلى الأبد وأكاذيب أخرى"».

- «أخشى أنك اتصّلتِ بالشخص الخطأ. لكن قلّلي لي، كيف حصلتِ على رقمي؟».
- «لقد عثر صاحب المتجر الذي تركت فيه الكتب على ظرفٍ داخلَ أحد الصناديق يحمل عنوان والدك. اتصّلتُ بالاستعلامات وحصلت على الرقم. لا أفعل ذلك عادةً، لكن بالنسبة إلى ما بين يديّ، إنهما كتابان مميزان جداً».
- تَبَعَ كلامها صمتٌ طويلٌ آخر. إما ضيق وإما نفاد صبر. «قد يكونان كذلك يا آنسة غرير، لكن أخشى أنني لم أكتب أيّاً منهما».
- «أعلم ذلك. أنا آمل أنك تعرف ربما من كتبهما، أو أي معلومات عنهما».
- «عذراً لكن هل قلتِ إنك تملكين متجر كتب؟».
- «أجل في بورتسموث».
- «حسناً لقد أوقعْتِني في حيرة. تتصلين بشأن كتابين لم أسمع بهما قط، وتطلبين مني إخبارك من كتبهما؟».
- «أنا آسفة جداً»، كان على أشلين أن تتمهل وتبدأ من جديد. «كان يجب أن أكون أكثر وضوحاً. أنا أملك متجر كتبٍ نادرة يُدعى "حكاية غير متوقعة". قبل بضعة أسابيع، أحضرتُ صناديق عدّة تحوي كتباً إلى متجر تحفٍ قديمة. صاحب المتجر صديقي، وقد اعتاد الاتصال بي عندما يحصل على كتبٍ يعتقد أنها قد تهّم متجري».
- «عفواً. ظننتُ أنك تتصلين بخصوص كتبتي. الكتب التي ألّفتها أنا».

كتبَ ألفها هو؟ استوعبت آشلين الموقف أخيراً ثم قالت: «حسناً، فهمت الآن سبب حيرتك. لم أدر أنك كاتب. ما نوع الكتب التي تكتبها؟».

- «كتب مساعدة على النوم، بشكل رئيس. كتب غير روائية، وتاريخ سياسي. موضوعات... أكاديمية بحثية...».

- «كتب مثيرة للاهتمام»، قالت آشلين.

- «أؤكد لك أنها ليست كذلك. لكنني أعتقد أنني فهمت الآن. أنت تتحدثين عن الصناديق التي تبرعتُ بها قبل بضعة أسابيع. تلك الكتب كانت لوالدي». أحرزاً تقدماً أخيراً.

- «أجل، كتب والدك. تعازي الحارة بوفاته».

- «شكراً لك. كان والدي شغوفاً بجمع الكتب، بل بكل شيء تقريباً. اضطررتُ إلى إخلاء مساحة على الرفوف لأضع كتبتي أنا. أعطاني أحد الجيران اسم المتجرفي بورتسموث». «هل تتذكر شيئاً عن كتابين بغلافين أزرقين وقد جُلدا جزئياً بجلد فاخر ونُقش عليهما بلون ذهبي؟».

- «لا أتذكر بالتحديد صراحةً. كانت هناك كتب كثيرة. هل تعتقدين أن قيمتهما المادية كبيرة؟».

ردت آشلين بحذر: «لا، ليس الأمر كذلك. لكنهما... مثيران للاهتمام».

- «من أي ناحية؟».

- «لا يوجد اسم مؤلف على أي منهما، ولا صفحات حقوق طبع ونشر أيضاً. لكن قصصهما غير عادية. خارج التيار السائد، كما يقال».

- «نتحدث عن روايات خيالية إذن؟».

- «لا أعتقد ذلك».

- «مذكرات إذن أو سير ذاتية؟».

- «المشكلة أنني لا أستطيع تحديد ذلك. قد يكونان مذكرات أو سيرة ذاتية، وقد لا يكونان أيّاً منهما على الإطلاق. أجريتُ بعض الاتصالات، لكنني لم أعثر حتى الآن على أحدٍ سمع بأي من العنوانين، ناهيك بصعوبة البحث عن كتاب لا تعرف اسم مؤلفه. لهذا السبب اتصلت بك، على أمل أن تلقي بعض الضوء على هذا اللغز».

- «كما أسلفتُ لك، الكتب تخص والدي، وبعضها قد يعود لوالدتي. كل ما فعلته هو أخذها من على الرفوف وتوضيبتها في الصناديق. خلاف ذلك لا يسعني مساعدتك حقاً. مع ذلك، تبدين مهتمةً جداً بكتب لا قيمة لها على الإطلاق». ترددت آشلين: كان يشك في أنها تخفي شيئاً. أليس هذا ما يحدث فعلاً؟ ولكن كيف لها أن تشرح ما عاشته أول مرة تفتح فيها رواية «ندم على بيل»، وأنّ لمسها قد أطلق العنان لعاصفة عاطفية لشخص آخر؟ كان إيثان هيلارد الخيط الوحيد الذي تملكه. لا يُفترض بها أن تخيفه بكثير من الكلام الغامض. وهذا ما سيحدث لو فتحت ذلك الباب بالذات.

قالت آشلين أخيراً: «أنا مهتمة بهما ليس لأنهما قد يحملان قيمة. لم أصادف كتباً مثلهما من قبل قط. قصصهما منسوجٌ بعضها مع بعض وكأنها جدالٌ يدور عبر الصفحات. لكنهما مجهولتا المصدر تماماً، ويبدو أن حجب اسم المؤلف كان مقصوداً.

- لا يمكنني تخيل سبب يدفع أي شخص إلى مشقة تأليف كتاب دون أن يضع اسمه عليه».
- «يفعل الكتاب ذلك منذ مئات السنين»، قال.
- «أجل، ولكنهم عادةً ما يستخدمون اسماً مستعاراً، مثل بن فرانكلين وسایلنس دوجود. لكن هذين الكتّابين لا مؤلف لهما حرفياً. لا يوجد اسمٌ من أي نوع عليهما. أتفهم رغبة البعض في عدم نشر تفاصيل حياتهم العاطفية في كل مكان، ولكن لماذا كتابة هذه التفاصيل من الأساس إذن؟».
- «أتظنين أنّ الشخصيات حقيقية؟ وأن ما هو مكتوب حدث بالفعل؟».
- لم يكلّف نفسه عناء إخفاء تشككه وهذا ما أزعجها. «أعتقد ذلك. يتشابك الكتابان من ناحية السرد تشابكاً مثالياً، لكنّ الأصوات مختلفة تماماً. أحدهما كتبه رجل والآخر امرأة، لكنهما يرويان القصة ذاتها. علاقة حب يبدو جلياً أن نهايتها حزينة. كلاهما مصمّم على تبرئة نفسه من أي لوم على أي شيء وقع بينهما. إنهما كتابان استثنائيان حقاً».
- «علاقة حبّ بنهاية سيئة؟ لا تبدو فكرة استثنائية على الإطلاق، إذا أردتِ رأيي. لكنّ فكرة سرد القصة في كتابين تظل جذابة. طريقة ذكية لمضاعفة مبيعاتك».
- «هذا ما ظننته في البداية، لكن حدسي ينبئني خلاف ذلك. أعتقد أن كلّ شيء حدث كما هو مكتوب تماماً، لكنني لا أعلم مع من حدث».
- «وتظنين أنني قد أعرف؟».

- «كان الأمر يستحق المحاولة. راودتني فكرة أنك قد تكون رأيت الكتابين وأنت صغير أو حتى قرأتهم».
 - «في الحقيقة، أنا لا أقرأ كثيراً من الروايات. لأكون صادقاً، أنا لا أقرأ الروايات على الإطلاق».
 - «فهمت. ظننتُ أن والدك قد يكون تحدث عنهما في مرحلة ما، أو أن لديك فكرة عن كيفية وصولهما إلى رفوف كتبه».
 - «أنا آسف، لا أستطيع مساعدتك. لن أظاهر بفهم سبب اهتمامك بأشياء لا ندري إن حدثت أم لم تحدث، ووقعت بين أشخاص لا يمكننا التثبت من وجودهم أو عدمه. على أي حال، أتمنى لك التوفيق في عملية البحث هذه».
 - «حسناً إذن»، قالت آشليين مُدركةً رغبته في إنهاء المحادثة، ثم أردفت: «شكراً جزيلاً على إعادة اتصالك بي، وأعتذر عن إزعاجك».
- لم تتوقع حقيقةً أن يحلّ إيثان اللغز بمكالمة هاتفية واحدة، لكنّ شعورَ الإحباط تسلل إليها وهي تعيد سماعه الهاتف. الآن، إذا لم تتوصل روث إلى شيء عن غولدي الذائعة الصيت، فستكون فرصها في معرفة ما حدث بين العاشقين معدومة عملياً.
- ربما كان إيثان على حق. ربما كانت الفكرة برمتها سخيفة ويجب أن تخرجها من رأسها قبل أن تصبح أكثر تشبثاً. لقد أخذ الكتابان منها ساعاتٍ من الأفضل لو قضتُها في ورشة التجليد. لكنّ حتى وهي تعترف بحكمة التخلي عن هذا الهوس الجديد الغريب، شعرت بالجاذبية نحوه... نحوهما، أيّاً كانا، ونحو قصتهما غير المكتملة التي تغريها بمواصلة القراءة.

إلى الأبد، وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 11 إلى 28)

5 سبتمبر 1491

ووترميل، نيويورك.

وصلتُ إلى المزرعة قبل موعدنا بساعتين وتوقفت في الفناء خلف الإصطبلات. تعمّدتُ المجيء باكراً، لأستقر في المكان وأذكر نفسي بأننا اليوم سنكون على أرضي، ولن أدعك تسيطر على الموقف. أخذتني البارحة على حين غرة عندما رأيتك تتجول في القاعة في منزل عائلة ويتير وإلى جانبك حبيبك المسنة التي لا تفارقك. لكنني الآن مستعدة لأي لعبةٍ قد تلعبها، فكما يُقال، من عِلِمَ سَلِمَ.

نظرتُ إلى ساعتَي مئة مرة على الأقل، نادمةً على تهوري ليلة أمس بكل ذرةٍ من كياني، متمنيةً لو امتلكتُ القدرة على اختلاق عذرٍ ما عندما دعوتُ نفسك لمرافقتي. لحسن الحظ أن ذكائي أسعفني لأرفض عرضك بأن نخرج معاً بالسيارة، واخترتُ بدلاً من ذلك استعارة واحدة من سيارات والدي. لم يسألني أحدٌ عن وجهتي عندما غادرتُ المنزل، ولم أكلّف نفسي عناء إخبارهم. أنا محظوظة من هذه الناحية. عندما لا يهتم أحدٌ بك، فإنهم لا يسألون عن مكانك أو متى ستعود.

ألقيتُ نظرةً أخرى على ساعتَي. شعرتُ بالتوتر بعد الرحلة الطويلة بالسيارة من المدينة، غير مقتنعةٍ بقدومي من الأساس. كان بإمكانني أن أتصل بك هذا الصباح وأعتذر عن عدم المجيء،

متحججةً بالطقس أو بموعدٍ نسيته. ليس من الصعب الحصول على رقم هاتف غولدي، وهي بدورها تعرف كيف تصل إليك. لكن هذا يعني أنني أستسلم، خاصةً أنني أدركتُ أنني قد استسلمت بما فيه الكفاية في الآونة الأخيرة لوالدي، ولأختي، ولتيدي. أرفض أن أضيفك إلى هذه القائمة. ولهذا السبب أنا هنا، أنتظر تحت الأفاريز، أشاهد المطر يهطل، وأترقب سماع صرير الحصى تحت إطارات السيارة على الممر.

لطالما أحببتُ مزرعتنا في روزهولو، حتى في الأيام الممطرة. أعشق إحساسها بالانبساط تحت السماء الزرقاء الصافية، والمنزل الفسيح المبني من حجارة رمادية بمداخنه ونوافذه البارزة ووروده المتسلقة. أعشق المروج الخضراء الممتدة خلف الإصطبل وأشجار التفاح. تلك المروج التي تعلو وتتخفض مشكّلةً المنخفض المائي الذي اعتادت أُمي أن تأخذني لألعب عنده بالزلاجة عندما كنت صغيرة.

أحبّت أُمي هذا المكان أيضاً، بعيداً عن ضوضاء المدينة وصخبها. أنا أشبهها في هذا الجانب. أشبهها في نواح كثيرة أكثر مما كنت أعرفه حينها وأكثر مما يُرضي والدي وأختي. لكن المجيء إلى هنا يريحني، خاصةً الآن وقد كفّ الجميع عن القدوم. أصبح المكان ملكي، بحكم الأمر الواقع إن لم يكن رسمياً. مع ذلك، فإن المجيء إلى هنا يُحزنني أحياناً. ولهذا ربما امتنع والدي عن زيارة المكان الذي يحمل ذكريات لا يستطيع تحمّل ثقلها، ذكريات الأيام التي سبقت إبعاده أُمي إلى هنا. لكنني أنا أتذكرها، مع أنه يتمنى لو أنني لا أتذكر.

أتذكر ماما هيلين كما اعتدتُ مناداتها عندما نكون بمفردنا .
أتذكر كيف كانت تفوح منها رائحة الزنابق ومياه المطر، وكيف
تحدث كأنها دوقة بنعمةٍ فرنسية ناعمة . أتذكر عينيها العسليتين
اللّتين ورثتهما عنها، حزينتين دائماً . أتذكر كيف كانت تغمضهما
عندما تصلي صلوات غريبة علّمتني إياها، بكلمات غريبة شعرت
بأنها كبيرة جداً على فمي . أتذكر كيف كانت تقلّب ألبوم الصور
القديمة الذي كانت تخبئه تحت فراشها، والقصص التي كانت
ترويها لي وحدي . وأتذكر كيف عوقبت على ذلك كله عندما
اكتشف والدي الأمر، وكيف حطمها ذلك في النهاية .

يخنقني ألم الحنين إلى ذكراها حتى اليوم . كانت مرهفةً جداً
بالنسبة إلى رجل مثل أبي، وهشة جداً بالنسبة إلى نوع الحياة
التي توقعَ منها أن تعيشها . بعيدةً عن عائلتها في فرنسا ومعزولةً
عن أصدقائها في الولايات المتحدة، تُركت أُمي تتخبط بمفردها
بعد ولادة أطفالها، تتاكلها الوحدة والاكتئاب . وكأن ذلك كله لا
يكفي حتى ابتلعها الشعور بالذنب بعد أن ابتعد أخي الذي لم
أعرفه يوماً خلال غداءٍ في منزل إحدى الصديقات، وتعثّر وسقط
في إحدى البُرك . لقد مات إرنست وهو في الرابعة من عمره .
خرجت أُمي من هذا كله هشة، وعرضة لنوبات بكاءٍ منهكة
تتحول إلى اكتئابٍ حاد، وهو عيبٌ لم يستطع والدي أن يغفره .
اعتاد القول إن الدموع مضيعةٌ للوقت وعلامة ضعفٍ وفشل . كان
يقصد ذلك تماماً، وهذا ما تعلّمته بنفسني عندما انهمرت دموعي
استجابةً لأمره بأن أخطب بحلول نهاية العام .

أعتقد أنه سعيد وراضٍ الآن بعد موافقتي أخيراً على الزواج
بتيدي. لقد قاومته بقدر ما استطعت، لكن أبي انتصر في النهاية،
كحاله دائماً. أما أنا، فلستُ سعيدةً أبداً كما خمنتُ.

لا رغبة لي أبداً في أن أصبح ظلاً. تتحول النساء في عائلتي
إلى ظلال، كائنات مطيعة خاوية تتلاشى في الخلفية بمجرد
انتهاء فائدتها يوصفها أوراق مساومة. نهتم بقوائم الطعام، ونربي
الأطفال ونتابع صحبات الموضة، ونزين موائد أزواجنا عندما
يستقبلون زواراً؛ ونتغاضى عندما يلفت انتباههم وجه فتاة جميلة.
لكنني كنت أطمح إلى غير ذلك. تخيلتُ حياةً لها قيمة حقيقية،
تترك بصمة تستحق الذكر. ليست لدي أدنى فكرة عن الشكل
الذي يمكن أن تتخذه تلك الحياة. قد يكون شيئاً له علاقة
بالفنون أو التعليم ربما، لكن الآن، إذا ما صرْتُ زوجة تيدي، فلن
أعرف ذلك أبداً.

ذهلتُ من نقسي لحظةً وأنا أرى أفكارٍ تتجه بحزنٍ صوب
غولدي شريكك. غولدي وإمبراطورية الصحف التي تملكها
والحياة الحرة التي تعيشها. ما شعور أن تحيا حياةً كهذه؟ أن
تكون قبطان سفينتك وتتحكم في ثروتك، وتعيش حياتك دون أن
تقيدك آراء الآخرين؟

لن أعرف هذا الشعور يوماً.

هوى عليّ هذا الإدراك كمطرقةٍ ثقيلةٍ طرحتني أرضاً، وأنا
أحدق إلى قطعة الألباس في خاتمي. يا له من تذكيرٍ مزعج.
سأ تزوج قريباً، وهذا كل ما يُتَوَقَّعُ مني أن أرغب فيه. سيكون لديّ
عقار فخم في نيويورك، ولقب عائلة محترم، وسأنجب ذكراً

يرثان هذا الإرث كله. ستتزوج بناتي بإذعان بشباب يليقون بهنّ
كما فعلتُ سيّسي قبل سنوات. كما سأتزوج أنا أيضاً عندما أحدد
موعداً فعلياً للزفاف.

Fin، كما كانت تقول مامّا هيلين بالفرنسية، النهاية.

لكن لا وقت لديّ للتأمل في نهائية مثل هذه الأفكار وحتميتها.
لقد سمعت للتو صوت إطارات سيارتك وشعرتُ باضطرابٍ في
معدتي. نظرتُ عبر الحديقة ورأيت سيارتك قادمة. أدركت حينها
أن جزءاً مني كان يتمنى ألا تأتي، وتاق الجزء الآخر إلى قدومك.
راقبتك وأنت تنزل من السيارة. سيارة فضية أنيقة ولامعة
مطعمة بقطع الكروم. عرفتُ دون أن أسأل أنك استعرتها منها،
فسيارة كهذه لا تلائم ذوقك، وهو أمر غريب أن أعرفه عنك وأنا
لا أعرفك على الإطلاق.

بدوت مرتاحاً وأنت ترتدي سترة من الصوف الخشن وبنطالاً
صوفياً واسعاً وحذاءً متيناً. تعّلي رأسك قبعةً أضفت عليك
مظهراً مَرِحاً. هذه هي ملابسك الحقيقية، حدثتُ نفسي وأنت
تدنو مني. ها أنت ذا الآن على حقيقتك. لا تنتمي إلى فئة
حفلات الشراب الأنيقة، بل إلى الريف. لا يزعجك المطر، بل
تشعر بالراحة في ملابسك وفي داخلك.

أما أنا، فقد ارتديتُ ملابس الفروسية التقليدية، وهي سترة
رمادية وبنطال بلونٍ عاجي ضيق عند القدمين ويتسع إلى أعلى.
وانتعلتُ حذاءً ركوبٍ بنياً لا يزال يلمع من جدّته ما يفضحني
بصفتي وافدة جديدة إلى عالم الفروسية. إنه هدية من يدي
الذي لا يتساهل بشأن ملابس الفروسية. لا أدري حقاً لماذا

تكبدتُ عناء ارتداء هذه الملابس، فقد قال الطقّس كلمته إلى درجة استحالة معها ركوب الخيل اليوم. لكنني شعرتُ بأن عليّ أن أقدم استعراضاً لائقاً. لدى أفراد طبقتنا زيّ معينٌ لكل مناسبة، ويُفضّل أن تُخاطَ عليها العلامة التجارية على نحوٍ ظاهر. لا نرتديها لأنها مريحة أو حتى مناسبة للنشاط الذي نمارسه، ولكن لأنها ما هو متوقع، ولا يجوز لنا أبداً أن نحيد عن المألوف.

خلعتُ قبعتك وأنت تتحني لتدخل وتقف تحت الإفريز، ورحت تتفضها لإزالة ما علق بها من ماء المطر. قلت وأنت تبتسم ابتسامةً عريضة: «يومٌ موحد لا يصلح لركوب الخيل، ماذا نفعل بدلاً من ذلك؟».

بدوتُ أصغر سنّاً في ضوء النهار، وأكثر صرامة بعد أن نزعتُ عنك الثياب الرسمية الباهظة. لا أنكر أنك بارعٌ في إظهار نفسك بطريقة تناسب كلّ موقف. أنت حرياء من نوع ما؛ ذلك الرجل القادر على الامتزاج والتلاشي في محيطه عندما يحتاج إلى ذلك. أتساءل: لمَ قد يحتاج أحدهم إلى مثل هذه المهارة؟ ثم تذكرتُ عينيك الليلة الماضية، وهما تتحركان بطريقة منهجية في الغرفة، وكأنك تلتقط صوراً دون كاميرا.

لكن صور ماذا؟ أو صور من؟

أدركت فجأة أنها المرة الأولى التي نكون فيها وحدنا. ذهب الأولاد الذين يعمتون بالإصطبلات لتناول الغداء، واعتذر المدرب بسبب سوء الأحوال الجوية. لا توجد أعين تراقبنا الآن، ولا مجاملات نتبادلها. لا أعرف لماذا يزعجني هذا الأمر، ولكنه يزعجني حقاً. ليس لأنني أخافك، لا. لكني لا أشعر بأنني على سجيتي وأنت قريب مني.

رحت تحدّق إلي حتى أدركتُ أنك تنتظر رداً: «أعتقد أن بإمكانني أن آخذك في جولة على الإصطبلات. لأريك الخيول». - «تقصدين هدية عيد ميلادك».

ها أنتَ ذا تسخر مني مجدداً، بشفتيك المزمومتين وعينيكَ الزرقاوين. لكن بدل أن يفضبني ذلك، وجدت نفسي أبتسم وأقول: «أجل، هدية عيد ميلادي».

تتأثرت قطرات المطر على سترتك وربطة عنقك، وأخذت شكل بقع شفافة على قميصك. فاحت منك رائحة النشاء والصوف الدافئ المبلل، مع لمسة خفيفة من رائحة صابون الحلاقة. تراجعتُ قليلاً مبتعدةً عن هذا الهجوم الذي يعبق بالرجولة ويبعث القلق على نحو غامضٍ في حواسي. «سأحاول أن أجِد لك منشفة لتجفف نفسك»، قلتُ.

- «لا داعي لذلك، لكنني سأستمتع بالقيام بجولة بالتأكيد». تفحّصت عيناك جسدي بأكمله، وتوقفت نظراتك عند حذائي قبل أن ترتفع مجدداً. «ملابس جميلة بالمناسبة. تناسب عشاق الخيل. من المؤسف أنك ارتديتها سدى. ولكن ربما نركب الخيل في يوم آخر ويمكنك الاستفادة منها بشكل مناسب».

استدرتُ مبتعدةً وقد تلاشى سحرُ مُضايقتك إياي الآن. تبعثني عبر الممر الواصل إلى الأبواب المنزلقة المزدوجة التي تؤدي إلى الإصطبل. خفت صوت المطر بمجرد دخولنا، وحلّ مكانه صمتٌ ثقيلٌ معزول.

المكان في الداخل بارد ومظلم ويبعث النعاس. عيقت في هوائه روائح اختلط فيها القش مع روث الخيول، ما أعاد إلى ذاكرتي يومَ وجدني والداي نائمةً على فراش الخيل، عندما جلبا لي ولأختي مهراً صغيراً. كان الجو يومها ماطرًا أيضاً. وحرزْتُ لعدم السماح للسيد أوليفر بالدخول إلى المنزل الدافئ، لذا استلقيت في حظيرته لأبقى بصحبته. قلب والداي المنزل رأساً على عقب بحثاً عني، وكانت والدتي في حالة هستيرية خوفاً من أن أكون قد لقيت مصيراً مروعاً، مثل إرنست المسكين. وعندما وجدني صبي الإصطبل أخيراً وأحضرني إلى المنزل، هزني والدي بقوة حتى تساقطت إحدى أسناني اللبنية.

أعادني صوت صغيرٍ خفيف إلى الواقع. أنت تقف إلى جانبي وقد مددت عنقك إلى الأمام، محاولاً استيعاب كل شيء؛ السقف العالي ذي العوارض الخشبية والنوافذ المضافة حديثاً، والممر الرئيس المرصوف بالطوب، والأبواب اللامعة والفواصل المزخرفة بين مرابط الخيل.

- «مكانٌ مميز حقاً»، قلت أخيراً. «فخمٌ بالنسبة إلى حظيرة، لكن مظهر الحجارة يوحي بأنه مكانٌ قديم».
- «بُنِيَ المنزل عام 1807، أما الإصطبل، فقد أُضيف لاحقاً. أعتقد أنه كان يأوي خرافاً أو خنازير في ذلك الوقت. لقد كان مناسباً لإيواء مهرٍ عندما كنت صغيرة، ولكن اضطررنا إلى رفع السقف قبل أن نتمكن من إحضار الخيول الجديدة».
- «أراهن أنه كلّف والدك مبلغاً كبيراً من المال».

- هزرتُ كتفَيَّ غير عارفةٍ كم كلّف والدي: «لقد عدّها نفقات عمل».
- بدت عليك الدهشة فسألتني: «هل يعتقد والدك أن لديك فرصة لكسب المال من هوايتك الجديدة هذه؟».
- «ليس هذا نوع العمل الذي قصدته».
- «هل تسمحين أن أتجراً وأسألك؟».
- كدتُ أضحك. فأنا بالكاد أعرفك، أو لا أعرفك على الإطلاق.
- لكن انطباعي الأول هو أنك رجل يجروء على فعل أي شيء تقريباً.
- قلتُ بهدوء: «كان الأمر يتعلق بتيدي. وبموافقتي على الزواج به».
- «فهمت. ظنّ والدك أنه إذا استسلم بشأن الخيول، سترين مزايا الحياة التي ستحظين بها إذا وافقت على الزواج بتيدي، وبهذا ستكونين أكثر ميلاً إلى قبول عرضه».
- «شيء من هذا القبيل».
- «إنها... رشوة إذن».
- «إنها طريقته في تسوية الأمور. يشتري ما يريد»، ويسحق ما لا يريد، وهذا ما لم أقله لك، فقد بحثُ بأكثر مما ينبغي.
- «لنرَ الخيول».
- شعرت بالامتنان أنك وقفتَ هناك، محتفظاً بكل ما تفكر فيه دون أن تتطرق به. ومع بعض الحظ، ستشتتك الخيول تماماً إلى درجةٍ تتسبب معها موضوع والدي. الحديث معك عنه يبدو خاطئاً.
- لست لأنتني أخشى الكذب، ولكن لأنتني نشأت على إبقاء شؤون العائلة داخل العائلة. إنه قانونٌ غرسه والدي فينا جميعاً، في والدتي وأختي وأنا. الولاء للعائلة والطاعة لكبيرها، له. لقد رأيت ما يحدث عندما يخون أحدهم هذا القانون ويخرقه.

- «كم حصاناً لديكم هنا؟»، سألتني مجبراً إياي على العودة إلى الواقع.
- «لدينا ستة مرابط وأربعة خيول حالياً»، ثم أشرتُ إلى أول مَرِطَين يساراً وقلت: «هذان الحصانان الرفيقان للركوب فقط».
- حدقا إلينا بعيون فضولية. الحصان الأول كان أثنى هادئة الحركة بلون أغبر تُدعى بوني غيرل. أما الثاني، فكان حصاناً أسود قوي البنية أطلقت عليه أختي اسم نيبير لأنه كان يعضّ عندما كان صغيراً. لم يعضني قط. لكن بطبيعة الحال، لم تكن سيسي يوماً من محبي الحيوانات، أو حتى من محبي البشر في الحقيقة.
- زمجرت بوني غيرل مع اقترابنا، واتسعت فتحتا أنفها وانتصبت أذناها. إنها تشتم رائحة الحرية، حتى تكاد تتذوقها. اعتصرني الحزن لعدم قدرتي على تلبية رغبتها. زمجرتُ مجدداً وحكّت أنفها بكفي. أدرتُ وجهي نحوها وطبعت قبلة على خيشومها الأحمر المخملي، متمنيةً لو أنني أحضرت لهما مكافأة على الأقل.
- «آسفة يا فتاة». لكزتني على خدي وكأنها تسامحني على تقصيري. ربّتُ عليها بحب وطبعت قبلةً أخرى.
- «إنها تحبك كثيراً».
- «إننا معاً منذ مدة طويلة. اشتراهما والداي عندما كبرتُ على ركوب المهر الصغيرة. اشتراهما لي ولأختي».
- «أيّهما اختارت كل منكما؟».

- كدتُ أنطق بكلام لا ينبغي لي قوله. أمسكتُ نفسي ورفعتُ
كتفي وقلت: «لَمْ تكن سيّسي من هواة ركوب الخيل،
لذلك انتهى بي الأمر بامتلاك الاثنين معاً. لقد تقدما
في العمر الآن، لكنهما لا يزالان يصلحان للركوب جيداً».
- «هل هذان هما الحصانان اللذان كان من المفترض أن
نركبهما اليوم؟».

أومأتُ برأسي ومددتُ يدي لأداعب خصلة شعر من مقدمة
رأس نيبير: «يحزنني أنا لا نستطيع أن نأخذهما في نزهة اليوم.
لم يعد بإمكانني المجيء كثيراً كما في السابق. أعتقد أنهما كانا
سيستمتعان بقضاء يوم في الخارج».
ابتسمتُ وربتُ على رقبة نيبير قائلاً: «أعتقد أنني كنت
سأستمتع أنا أيضاً».

سهل نيبير ورفض اللمسة بحركة من رأسه، لكنه مال فوراً
من أجل تربيطة أخرى. إنه حَذِر ولكنه يتوق إلى التواصل. إنه
يحتاج إلى اللمس، إلى أن يُرى. نظرتُ إليه داخل حظيرته مطيعاً
منتظراً أن أفتح قفل الباب وأقوده إلى الخارج. غمرتني فجأة
موجة حزن.

- «أيها البائس المسكين»، همستُ له. «ليس ممتعاً أن تكون
محبوساً طوال الوقت، أليس كذلك؟ أنتتظر من يحركك؟».
أنزلتُ يدك عنه ووقفتُ صامتاً لحظة. تظاهرتُ أنني لم
ألاحظ وقوفك متأملاً إياي، لكن ثقل نظرتك جعل مؤخرة عنقي
ترتعث. كنتُ أتحرق لأصرخ في وجهك وأسألك: ماذا ترى؟ لكنّ
جزءاً مني يخاف أن يعرف، بل أجزائي كلها تخاف في الحقيقة.

لطالما كنت حذرة بشأن مقدار ما أسمح للعالم برؤيته. لكن يبدو أن هذا لا يهم. أنت ترى كل شيء، خاصة الأجزاء التي لا أحبها. وتريديني أن أعرف أنك تراها.

- «هل ما زلنا نتحدث عن الأحصنة هنا؟ أعني تلك التي تنتظر أن يحررها أحد؟».

خرج صوتك ثقيلاً في الهدوء المحيط بنا، ومزعجاً على نحو غامض. تظاهرتُ بالاستهزاء بكلامك، وأنا أعلم يقيناً أنني لم أفجح. ومع ذلك، يجب أن أحافظ على رباطة جأشي ومظهري. «أتحدث عن الخيول طبعاً. وعمّ سأحدث غير ذلك؟»، ابتعدتُ وخطوتُ مسرعةً فجأةً متوجهةً صوب الحظائر على الجانب الآخر من الممر.

- «تعال لتشاهد هديتي».

اتجهتُ صوبي، وعيناك لم تفارقا وجهي. تريد استفزازي لأبوح بمزيدٍ مما تريد، لكنك تمتع وكأنك تخشى أن أفزع وأهرب مسرعة. أنت محق. ربما أهرب.

- «هذا "كراكر جاك براي"، قلتُ وأنا أشير إلى حصانٍ أملس داكن ذي عيينين براقيتين وشعلة بيضاء فوق أنفه. «وُلد عام 1939، ما يعني أنه لا يزال صغيراً جداً وفق معايير عمر الخيول».

- «جميلٌ حقاً».

- «أليس كذلك؟ يقول المدربون إنه سيكون بطلاً. يتمتع بدكاء حاد وينحدر من سلالة مميزة. أبوه هو دارك أبستارت من ليكسنغتون، حقق أرباحاً عالية إلى أن اضطر إلى التقاعد

بسبب كسر في العظم».

بدوت متفاجئاً ومعجباً نوعاً ما: «وأنا الذي ظننتُ أنك مبتدئة.

تبدين محترفةً وأنت تتحدثين بهذا الكلام كله عن الخيول».

ابتسمتُ وارتحت قليلاً، وقد أسعدني مديحك: «أخبرتكَ أنني أقرأ كثيراً».

- «يبدو متحفظاً قليلاً مقارنةً بغيره».

- «الخيول ليست كالبشر. لا تقع في الحب من النظرة الأولى،

بل يستغرق الأمر وقتاً لتكوين روابط معها. لقد نشأتُ عملياً

مع نيبير وبوني غيرل. إنهما أشبه بحيوانين أليفين. لكنّ

الأمر يختلف مع خيول السباق. إنها رياضية وليست أنيسة

أو رفيقة. ولن يبقى أي منهما هنا مدةً طويلة. مكوئهما عندنا

ما هو إلا زيارة للتعارف حتى يُكسر خضارها».

- «يُكسر خضارها؟».

- «يعني أن تستجيب للأوامر وتعتاد السرج. إنها البداية

فحسب. عندما يصبحان كبيرين بما يكفي للتدرب على

المضمار، سيُنقلان إلى ساراتوغا».

- «مع خيول تيدي؟».

تصلّبتُ وقد عكّر صفوي نطق اسمه مرة أخرى: «أجل. سنعمل

على تحضير كراكر جاك براي خلال الشتاء والربيع، ونأمل أن

يبدأ المشاركة في السباقات عندما يبلغ من العمر عامين الصيف

المقبل».

تجاوزتني لتلقي نظرة على آخر مربط وسألتني: «من هذه

الجميلة؟».

نظرتُ إلى الفرس الكستائية بلامحها المميزة الواضحة ولون سيقانها المغاير وكأنها ترتدي جوارب متطابقة. إنها جميلة على الرغم من سلالتها المتواضعة. وخزنتي مشاعر الذنب قليلاً وأنا أقول: «لا أعلم. في الحقيقة، لم أطلق عليها اسماً بعد. لا يعول عليها المدربون كثيراً، لكنني أعتقد أنها تملك إمكانات واعدة كثيرة. هذا ما أتمناه على الأقل. أناديها الفتاة الصغيرة فقط. ليس اسماً مبتكراً لكنه سيفي بالغرض حتى يحين وقت تسميتها رسمياً. مع ذلك، يجب أن أسرع في اتخاذ القرار قبل أن ينفد الوقت».

- «ينفذ الوقت؟».

- «تحظى عملية تسمية خيل السباق بأهمية كبيرة. هناك قواعد يجب مراعاتها، كأن لا يزيد اسم الحصان على ثمانية عشر حرفاً. إنها عملية تامة الأركان. تقدم ستة أسماء حسب تفضيلك إلى نادي الفروسية حيث الكلمة الفصل».

- «هذا ليس عدلاً».

- «إنها القواعد. أميل حالياً إلى اسم سويت رانوي. لا أدري إن كانوا سيقبلونه، لكنه خيارى الأول حالياً».

علت وجهك أكثر الملامح غرابة وأنت تسمعني أتحدث. غرابة جعلتني أشيح بنظري عنك.

- «سَمَّها "وعد بيل"، قلتَ فجأة».

- «وعد بيل؟».

- «قلتَ إنها تملك إمكانات واعدة».

- «أجل، لكن من تكون بيل؟».

- «أنتِ»، نظرتَ بعدها بعيداً بطريقة صبيانية، ثم أردفتَ: «إنه الاسم الذي أطلقتَه عليكِ ليلةَ التقينا. كنتِ نجمةَ الحفل في تلك الليلة. وأظن أنك كذلك في أي ليلة أخرى، وفي أي مكانٍ تكونين فيه. هكذا كنتُ أفكر فيكِ منذ التقينا».
- أحرقَت كلماتكِ وجنتيَّ خجلاً. «تفكر فيّ؟».
- «لا تتظاهري بالبراءة. إنها لا تناسبكِ».
- ذكَّرتكِ بصوتٍ لاهثٍ ونفَسٍ يكاد ينقطع: «إننا غريبان، ولا فكرة لديك عما يناسبني».
- «أود لو أغير ذلك».
- هزَّزتُ رأسي وأنا أضحك بعصبية: «حسناً، إذا كنتُ بيل، ماذا سأناديك؟ هيمنفواي ربما؟ أم هيمي؟».
- «لا يهَمّ، المهم أن تتأديني».
- نظرتُ بعيداً. أنت تغالزني وهذا لا يعجبني. أو لعله يعجبني كثيراً. حاولت الابتعاد، لكن يدكِ أمسكت بذراعي، أو بالكاد لمَسَتْها.
- «لا تذهبي أرجوك».
- «لماذا أنت هنا؟»، سألتكِ بوضوح. «ماذا تريد مني؟».
- «لقد أخبرتك، أريد التحدث. كان من المفترض أن نتحدث خلال جولتنا على الخيل، لكننا سنفعل ذلك دونها».
- توجهتُ إلى الخلف نحو أبواب الإصطبل المفتوحة ووجدت كرسيين قديمين، ثم سحبتهما إلى المدخل. راقبتكِ بغيظ وأنت تعلّق قبعتكِ على مسمار قريب، وتجلس على أحد الكرسيين، وتنتظر. رجل آخر اعتاد الحصول على ما يريد. وخلافاً لما اعتقدتُ أنه صواب، انضممتُ إليك.

أصبح المطر يهطل بغزارة الآن، وكأن ستارة رمادية سميقة أُسِدَّت من حولنا. نحن الاثنان وصوت المطر المنهمر فوق السطح. حواسي متحفزة وأعصابي مشدودة إلى أقصى درجة. ابتسمت محاولاً تخفيف حدة التوتر ثم قلت: «عمّ نتحدث إذن؟».

انتزعتُ خيوطاً وهمية من على كمّي ورميتها: «أنت من طلب اللقاء. السؤال الأول لك».

- «حسناً، أخبريني عن نشأتك».

نظرت إليك باستغراب: «عن نشأتي؟».

- «أريد أن أعرف كل شيء. هل كنتِ تضفرين شعرك؟ من كان حبيبك الأول؟ هل كنتِ تحبين المدرسة؟».

- «لا لم أكن أضفر شعري»، أجبتُ، مع أنني لم أفهم سبب اهتمامك بشيء كهذا. «لا أتذكر اسم حبيبي الأول. وكنت أكره المدرسة. حسناً، لم أكره كل شيء فيها. لقد كرهتُ الفتيات اللاتي ذهبتُ معهنّ إلى المدرسة. ومديرة المدرسة، السيدة كافاناغ، التي لم تكن تحبني لأنني كنتُ أطرح أسئلة كثيرة وأخريش في أثناء الدرس».

- «تخريشين؟».

- «في دفتر الإنشاء».

- «أتخريشين اسم حبيبك؟».

- «بل قصائد»، أجبتُ ببساطة.

- «أكتبين الشعر؟».

رأيتُ أنني قد فاجأتك. لقد فاجأتُ نفسي أيضاً. لم أفكر في تلك القصائد السخيفة منذ سنوات، وأتساءل لماذا خطرَت على بالي فجأة. «كنتُ فتاة صغيرة. هذا ما تفعله الفتيات. نكتب قصائد سخيفة عن مخاوفنا».

- «قصائد حب؟»

أملتُ رأسي بفنٍج وأنا أضحك غير مدركةٍ تماماً إذا ما كانت إيماءة يمكن تفسيرها على أنها مغازلة. «ماذا كنت أعرف عن الحب؟ كنت مجرد طفلة. ما كتبته كلامٌ عبثي، سخافات عن طائر محبوس يحلم بتكسير قضبان سجنه، والتحليق عالياً فوق المدينة والطيران بعيداً، بعيداً جداً. وقصيدة أخرى عن الضياع في متاهة الشجيرات، حيث ظلت الشجيرات تتناول حتى عجزتُ عن إيجاد مخرج».

- «تبدو قصائد عميقة».

- «بل هراء كما تقولون في بلدكم. كنتُ مولعةً بالشعر حينها، وأقرأ كل ما وقعت يدي عليه. بعضه لم يكن مناسباً لفتاة في سني. كنتُ مقتنعة أنني سأصبح مثل إليزابيث باريت براونينغ⁽¹⁾ عندما أكبر».

تأملتني بغرابة وكأنك تبحث عن شيء ما: «متى كنت ستخبريني هذا كله؟».

(1) إليزابيث باريت براونينغ (1806 - 1861): واحدة من ألمع شعراء العصر الفيكتوري، ومن أبرز رواد الأدب الرومانسي في إنكلترا. ألهمت كتاباتها كثيراً من الشعراء والكتاب، بمن فيهم فيرجينيا وولف وتيد هيزوز. (المترجمة)

بدا السؤال غريباً. سؤال من النوع الذي توجهه إلى شخصٍ تعرفه منذ سنوات. «لَمْ قد أخبرك؟ ومتى؟ لقد تقابلنا للتو». انشئت شفطاك بطريقة فيها إثارة خفية: «لا أنفك أنسى هذه الحقيقة»، قلت.

لا أدري كيف فعلت ذلك، لكنني شعرتُ بأنك تقترب مني الآن، وكأن العالم قد تقلص فجأة ليصبح مجرد هذا الباب، ليصبح أنا وأنت وكلما كنا، نتماهى كلنا مع ماء المطر. لكنني عندما رأيت أن كرسيك لا يزال في المكان ذاته الذي وضعته فيه، أخفضتُ بصري ورحت أحرق إلى حذائي.

- «ليلة لقائنا الأول»، قلت أخيراً. «في فندق سانت ريجيس»، وكأنني بحاجة إلى تذكير، «تحدثنا عن الكتب، وعن هيمنفواي وديكنز والأخوات برونتي، ولم تلمحي ولو مرة أنك تكتبين». - «لأنني لا أكتب»، قلتُ بنبرة حاسمة ودفاعية جداً. أردفتُ لأخفف من حدة نبرتي: «كانت الكتابة مجرد واحدة من تلك الخيالات الطفولية التي تتخلص منها وأنت تكبر. تعلم كيف يسير الأمر، تصبح شغوفاً بأمرٍ يستهلكك مدّة من الزمن، ثم يحدث شيء ما وينتهي الأمر». - «ماذا حدث؟».

تململتُ في جلستي وآلمتني الذكرى، لكنك تراقبني باهتمام شديد. «السيدة كافاناغ» أجبتُ أخيراً. «لقد صادرتُ أحد دفاتري وأرثتها لوالدي. لقد كان... كان إعجابي بسافو⁽¹⁾ قد بلغ ذروته

(1) سافو: شاعرة إغريقية مشهورة كتبت عن الحب والعاطفة. (المترجمة)

آنذاك. تفاحة خجلى، لم تُقَطَف، ولم تُجَمَع.⁽¹⁾ لم تكن لديّ أي فكرة عما يعنيه أي من ذلك، ولم أهتمّ حتى. جذبتني الكلمات وإيقاعها والألم الذي تنقله. كنتُ أتوق إلى إعادة خلقها بطريقة ما، بكلماتي الخاصة، لذا بدأت التجربة، محاولةً محاكاة تلك الغنائية الجميلة. فزع والدي مما كتبته ووصفه بالخزعبلات. جعلني أسلمه دفاتري كلها، ثم أرغمني على مشاهدته وهو يمزق الصفحات ويقطعها إرباً. مُنعتُ حتى من قراءة الشعر. احتفظتُ مدةً من الزمن بمذكرات تحت سريري وواظبتُ على الخريشة، لكن أختي وجدتها وأفشت سري. كانت تلك نهاية مسيرتي الشعرية».

- «كم كان عمرك حينها؟»
- «أربعة عشر أو خمسة عشر. شيء من هذا القبيل».
- «ولم تكتبي منذ ذلك الحين؟»
- «لم أكتب».
- «لكن يمكنك الكتابة. أقصد الآن».
- رفعتُ كتفيّ وحولت نظري بعيداً عن نظراتك: «لا جدوى من ذلك».

- «بمعنى أن ليس لديك ما تقولينه؟ أهذا ما تقصدينه؟»
- «ليس لديّ ما أقوله بالفعل».
- «لا أصدق ذلك».
- «أنا لست مثلك»، قلتُ بوضوح لأن من الأفضل أن تعرف ذلك الآن، قبل أن أتمادى في هذا الكشف الغريب عن ذاتي

(1) اقتباس من قصيدة سافو «إلى حبيب غائب». (الترجمة)

الداخلية. «ليس لديّ عمق. لا أملك أي جوهر حقيقي، هكذا ستسميه على الأرجح. إلا إذا عدّيت الصندوق الائتماني الذي أملكه جوهراً. أنا لست من النوع الذي يبهر حول العالم ويطارد الأحلام أو يستهين بالعواديات والتقاليد مثل صديقتك غولدي. ظنّيتُ نفسي هكذا يوماً، لكن سرعان ما تبدد هذا الوهم. أنا كما تخيلتني تماماً عندما سألتني عن الخيول؛ الابنة المدللة لرجل ثري جداً اعتادت الحصول على كل ما تريد».

«وما ثمن هذا كلّها؟ الطاعة؟».

واجهتُ النظرة بالنظرة، وتحديثُ تلك العينين اللتين تبدوان كأنهما تريان من خلالي: «لا تشفق عليّ».

- «لستُ مشفقاً. جميعنا نتخذ قرارات تتعلق بالعمل أو السياسة أو الزواج بشخص لن نكون سعداء معه أبداً. هذا ما يُدعى التنازل».

- «أهذا ما تفعله مع غولدي؟»، قلتُ وأنا أستميت لكي أقلب الطاولة عليه. «تتنازل؟».

تهدّدتُ قائلاً: «غولدي مرةً أخرى. حسناً، ما الذي تودين معرفته؟».

- «هل أنتما...».

- «عاشقان؟»، أكملتُ كلامي. «لا داعي للخجل. تسعدني مشاركة التفاصيل المثيرة كلها معك، لكن استعدي. إنها فاحشة حقاً». جلستُ بلا حراك، مصممةً على ألا أتركك تصدمني.

- «الحقيقة أن علاقتي مع غولدي...»، توقفت لحظة وفركت ذقنك بيدك. «كيف أقول هذا بأدب؟ إنها علاقة ذات طبيعة مالية».
- اتسعت عيناى رغماً عني. «تأخذ منها المال مقابل...»، ثم رفعتُ يدي وقلت: «لا عليك، لا أريد أن أعرف».
- «عجباً عجباً، لديك أفكارٌ شقية كما أرى».
- «أنا؟ بل أنت الذي...».
- ابتسمتَ وكأنني قلت شيئاً مضحكاً: «لقد أضافت مجلةً جديدة إلى قائمة مطبوعاتها وعرضت عليّ أن أكتب فيها مقالات عن موضوعات اجتماعية وواقعية غير تقليدية. لن تتيح لي الإبداع مثل هيمنفواي مثلاً، لكنني سأتمكن من تسديد فواتيري إلى أن أحصل على فرصة أفضل. كما سأتمكن من الاحتكاك بالطبقة الأرستقراطية الأمريكية الراقية مثلك. ومن يدري؟ ربما أحصل على رحلة مدفوعة أو اثنتين من هذا العمل».
- «وماذا عن الرواية التي تحدثت عن نشرها يوماً ما؟ متى سيحدث ذلك؟».
- دورك الآن لتشيع بنظرك بعيداً: «أخشى أنه حلمٌ بعيد المنال».
- «لا وقت لديك لتحقيقه؟».
- «بل لا نبض فيه؟».
- عبستُ وسألتك: «وماذا يعني ذلك؟».
- «يعني أنه يُحتَضَر. لذا إلى أن أكتشف طريقةً لإحيائه مجدداً...».

- «ستكتب مقالات عن الحياة اليومية وترافقك رئيستك في المناسبات الاجتماعية؟».
- «لأكون صريحاً تماماً، سأقيم في منزل غولدي أيضاً إلى أن أتمكن من إيجاد شقة تناسبني. سننام في غرفتين منفصلتين».
- رمتك بنظرات الشك.
- «لم أعاشرها»، قلت بثبات، «ولا أنوي معاشرتها يوماً».
- «لا أظن أن هناك أحداً يخطط لمعاشرتها. إنها أشبه بأنثى عنكبوت شقراء».
- «هل أشم رائحة غيرة هنا؟».
- «غيرة؟»، رمتك بنظرة باردة. «أنا مخطوبة لأحد أكثر الرجال المؤهلين للزواج في نيويورك».
- نهضت عن كرسيك واتجهت نحو الأبواب المفتوحة ويداك في جيبك. نظرت إلى الإصطبل الذي بلله المطر وقلت: «عندما تحدثت قبلاً عن الزواج بشخص لن تكوني سعيدة معه أبداً، قصدتُ تيدي. أتريدين أن أخبرك لماذا؟».
- «لا يهمني رأيك عن خطيبي».
- «هل أنت خائفة ما سأقول؟ هل تخافين أن أكون محقاً؟».
- «لا أخاف أي شيءٍ يمكن أن تقوله لي».
- «حقاً؟».
- فجأة ودون سابق إنذار، وجدتكَ تقف أمامي تماماً. تصلبتُ واجتاحني موجة توتر بسبب قربك المباغت. أريد أن أضع مسافةً بيننا، لكن بخلاف المرور من تحت ذراعك إلى المطر،

لا يوجد مكان أذهب إليه. بدلاً من ذلك، ملّْتُ برأسي إلى الوراء ونظرتُ إلى تلك العينين الهادئتين الصافيتين: «أجل»، قلتُ.
- «حتى لو قلتُ إنني أودّ تقبيلك؟».

لم تنتظر إذنًا مني، لكنني منحتك إياه عندما أطبقت شفّتك على شفّتي. ما أذهلني وأنا أتمايل بجسدي على أنغام جسدك أن ما نعيشه الآن كان قادمًا لا محالة، وأنّ تلك النار الهادئة التي انطلقت شرارتها مذ رأيتك أول مرة ستتدلع وتشبّ فيّ على حين غرة. وأنها لو أُتيحت لها الفرصة ستلتهمني، وسأسمح لها بذلك. هكذا يجب أن تحرقنا، فكرتُ وقد اختلطت أنفاسنا وبدأت عظامي بالذوبان.

هكذا ... هكذا ... هكذا .

ندمٌ على بيل

(الصفحات من 30 إلى 39)

5 سبتمبر 1941

ووتر ميل، نيويورك.

تزاحم في رأسي مئة سبب يمنعي من تقبيلك، لا بل ألف سبب، بل مليون. لكن تلك الحجج تبددت كدخانٍ في مهب الريح حين التقت عيناك بعيني. تتوق شفّتك إلى التقبيل، وأنفاسك تتسارع بخفة، يصاحبها نبضٌ يدق عند حلقك بجنونٍ كنبض عصفور.

توقعتُ أن تصدّيني، بل تمنيتُ ذلك في قرارة نفسي ليتجنب كلانا الفوضى التي نوشك أن نحدثها. لكنك طاوعتني باستسلام يخطف الأنفاس، حتى لم أعد أدرك من منا المبادر ومن المتلقي. سلبني إحساسك وطعمك لبّي. أثمّني التوق إليك الذي حاولت كبته منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. لكنّ أوان التراجع قد فات، وهي الحقيقة التي تأكلني من الداخل، وشفاهنا يستكشف بعضها بعضاً ويلتقط بعضها بعضاً وتستسلم.

مع ذلك، لم يكن هذا جزءاً من الخطة، ولا أصدق حقاً أنني سمحت لنفسي بأن أتهور إلى هذا الحد. جزء مني، ذلك الجزء الذي لا يزال قادراً على التفكير العقلاني، يعتقد جازماً أن هذا الأمر جديد عليك، وأنت لم تستسلمي لأحد بهذه الطريقة من قبل. الفكرة مُسكرة، تشبه شعور حقن المورفين في الوريد كما

أتخيله. نشوة تسكنها الرغبة في أن تستمر قبلتنا إلى الأبد. لكن لا بد لها أن تنتهي، وهذا ما حصل.



الآن، وحتى بعد هذه السنين الطويلة كلها، لا أستطيع تحديد من منا استعاد صوابه في النهاية وابتعد. يطيب لي لو كنت أنا من بادر بذلك، لكن يصعب عليّ تذكر الأمر.

كانت تلك القبلية شرارة البداية لكثيرٍ جرى بعدها، أكثر مما كنت أتوقعه. وأكثر مما كنت لأتحمل خسارته. لكن الأمر لم يقتصر على القبلية وحدها. منذ اللحظة الأولى، ومنذ الكلمات الأولى التي نطقت بها، جرفني تيار سحرك، وسحبني بعيداً إلى عرض البحر حتى غمرني الماء قبل أن أفطن لذلك تقريباً. وهذا ما أوهمتني أنك تشعرين به أيضاً.

إلى يومنا هذا، لا يسعني فهم كيف استطعت أن تقبّليني بهذه الطريقة، وكأن لا شيء يمنعك من منحي كل شيء، لكن دون أن تعني ذلك حقاً. أو لعلك عانيت ذلك في تلك اللحظة الأولى الملأى باللهفة والضعف، وفي كل لحظة مشابهة تلتها. لاحقاً، عندما بدأ البريق يبهت، أدركت ربما حقيقة ما يمكن أن يكون بيننا وما لا يمكن أن يكون، فغيرت رأيك.

التقينا في اليوم التالي، وفي اليوم الذي تلاه أيضاً. أتذكرين؟ كنا نلتقي في إصطبلات الخيول خلال مدة الظهيرة، ونركب معاً أو نسير في الغابة حيث لا يرانا أحد، متشابكي الأيدي، نتوقف بين الحين والآخر من أجل قبالات مطولة وهادئة. كنت سعيداً

بجنون، راضياً لمجرد أن أكون معك، متظاهراً بأن الأمر لم يكن غريباً لأننا لم نتحدث مطلقاً عن خطوبتك.

تظاهرننا بعدم وجود تيدي وكأنه حقل ألغام نتجنب دخوله. فمجرد نطق اسمه، أو الإقرار بحقيقة وجوده، كان كفيلاً بتحطيم التعويذة التي أحكمت سحرها علينا.

شعرنا بأننا نعيش خارج الزمان، نسرق لحظاتها في عالم صنعناه معاً، عالم يضمنا وحدنا. وفي تلك الأيام الأولى من... كيف لي أن أصفها؟ من الجنون، نعم، في تلك الأيام الأولى من الجنون، كدت أنسى سبب قدومي إلى الولايات المتحدة. كنت مسحوراً وساذجاً ومتيماً بك. وصدقتُ أنك متيمةٌ بي أيضاً. لا تزال الذكريات حيةً، كائنات تعيش وتتففس في داخلي، تتريص بي حين يخيم الظلام. ثم فجأةً ورغماً عني، أو ربما برغبة مني، أعود إلى الأمس.



مع حلول أول أيام الخريف، جهّزنا سلة الطعام وانطلقنا بالسيارة باتجاه البحيرة. بسطنا غطاءً على العشب، وتناولنا سلطة الخيار وقطعاً من الدجاج المشوي البارد، وجلسنا متريعين على غطاءٍ وجدناه في صندوق سيّارة استعرتها من غولدي. حان دورك للسؤال عن طفولتي. حدثتك عن والديّ وطبيعة زواجهما، وكيف أن والدي كان بطلي. أخبرتك قصصاً عن إجازاتنا المتواضعة على شاطئ بورنموث، ومدة تجربتي القصيرة مع فريق الكريكيت، وأيامي التي لم أحسن استثمارها في الجامعة.

حدّثتك أخيراً عن وفاة والدي قبل بضع سنوات إثرَ جلطة دموية لم يتوقعها أحد، وكيف أن رئيسه السابق في صحيفة «ذا لندن أوبزيرفر» وظفني بدافع الوفاء له، مع أنني لن أرقى أبداً إلى مستوى الكاتب الذي وصل إليه والدي.

أصغيت إلى ذلك كله وأنتِ مغمضة العينين، ووجهك مشدود ناحية الشمس، وعلى طرفي فمكِ تلوح خيوط ابتسامة خفيفة، وكأنكِ ترين كل كلمةٍ وتشمينها وتتذوقينها. لكن عندما نطقْتُ بالجزء الأخير، فتحتِ عينيكِ ونظرتِ إلى وجهي بإمعان.

- «أتصدق ذلك حقاً؟ أنك لن ترتقي إلى مستوى أبيك؟».

قلتُ وأنا أتصنّع الابتسامة: «يظن الجميع ذلك، ما عدا أُمي طبعاً. إنها تراني أفضل كاتب في العالم. لكنَّ إيمانها بي بدافع الواجب طبعاً».

- «أنا أومن بك»، قلتِ بعدوبة.

أشحتُ بنظري بعيداً وأنا أبتلع الكلمات من على طرف لساني. يجب ألا تؤمني بي، ولن تفعلي ذلك عندما تكتشفين ما أسعى خلفه حقاً. قلت بدلاً من ذلك: «أنّى لك أن تؤمني بي وأنت لم تقرئي حرفاً واحداً مما كتبت؟».

- «غير صحيح. لقد قرأت قصصك كلها قبل أسابيع».

لوححت بيدي بلا مبالاة قائلاً: «هذه القصص لا تمثلني. إنها مجرد أشياء كتبتها لكسب لقمة العيش».

- «دعني أقرأ روايتك إذن؟».

- «لا».

- «لأنها تفتقد النبض؟».

- «أجل».
- «لا زلت عاجزة عن فهم ما يعنيه ذلك».
- «إنه شيء قاله لي والدي ذات مرة بعد أن قرأ قطعة كتبتها.
- لم أنس ولن أنسى ما قاله. قال إن لكل كتابة جيدة، خيالية أو واقعية، نبضاً، قوة حياة تتبع من الكاتب، مثل حبل سري يربطه بالقارئ. ودونه، يولد العمل ميتاً».
- «هل كان لكتابات والدك نبض؟».
- ابتسمت رغماً عني. «كان لديها نبض كالرعد. للأسف أن هذه القدرة لا تورث، لا يمكنك وراثتها أو تقليدها. إنها صفة تميز كل كاتب، لكن عليك أن تجديها».
- «وكيف لأحد أن يجد هذا النبض؟».
- «سألت والدي السؤال ذاته».
- «وماذا أجاب؟».
- «بالكتابة ثم الكتابة ثم الكتابة. لقد كان صارماً جداً معي».
- «لأنه آمن بك»، قلت بهدوء. «أنت محظوظ بوجود شخص كهذا في حياتك، شخص أراد لك أن تكون ما تريد، وأن تملك ما تريد».

مكتبة

t.me/soramnqraa

غرست أسناني في تفاحةٍ أخرجتها من سلة الفواكه، ورحت أتأمل ملامح وجهك، وقد تسلسل الحزن فجأة إلى صوتك. أريد أن أعرف مصدر هذه الكآبة وسببها، وكيف يمكنني تبديدها. لم تكن المرة الأولى التي أشعر فيها بذلك. تلك الهالة الحزينة التي تلفك عندما تظنّين أن أحداً لا يراك. وتلك النظرة التي تبعديها عن ناظري حين أسألك أسئلة معينة.

أخذت من التفاحة قضةً أخرى وقلتُ مدركاً أنني أغامر بكسر ذلك الجليد الذي يحيط بك عادةً عندما أتعلم في الأسئلة: «لا أستطيع تخيل أنك عرفتِ الحرمان وأنت طفلة صغيرة».

قطفتِ سيقاناً عدّةً من العشب وشرعتِ تضفريها على حجرك. لَقِكِ الصمتُ برهةً، وأنتِ تحوّلين عينيكَ بعناية، فتوهمت أنكِ قررتِ تجاهل التعليق. رفعتِ رأسكِ أخيراً وهمست: «كنتُ أتمنى لو نقضي عطلة عائلية على الشاطئ مثلكم. كنتُ لأبذل أيّ شيء في سبيل صيفٍ كهذا».

رفعتِ رأسي متأملاً الطبيعة الريفية الخلابة. تلالٌ خضراء تتهادى بلطف، وسطح البحيرة يلمع خلف أوراق الشجر الزاهية. لم يراودني أيّ شعور بالتعاطف بل قلتُ متهكماً: «يا لها من مأساة. الاضطرار إلى تحمّل أوقات الصيف تلك كلها في مكان كهذا، ثم الاضطرار إلى الانتظار مطولاً للحصول على خيول عيد ميلادك. كيف نجوتِ من هذا كله يا تُرى؟».

- «أجل، هذه أنا بالضبط»، رددتِ بسرعة وأنتِ ترمين سيقان العشب المضفورة بعيداً. «فتاة مدللة لم تعرف خيبة الأمل يوماً».

أصبح وجهكِ عابساً متجهماً الآن في محاولةٍ لإخفاء الهشاشة التي لطالما حاولتِ إخفاءها بشجاعة. لكنني أراها. لطالما رأيتهَا. حزنك الغامض والمُتوهّج ذاك.

راعني ما أدركته في تلك اللحظة. لم يكن حزناً بل كان استسلاماً. استسلامٌ لأشياء غير مكتملة ولأشياء لم تجربها ولأشياء لم تُبادل بالمثل. استسلامٌ لما كان يمكن أن يكون ولكنه

لن يكون أبداً. لأنك اخترت شيئاً آخر. شيئاً أقل قيمة وأكثر أماناً.

أجبتني متضايقَةً مغتمة: «أكمل، شاركني مزيداً عن رأيك بي». رميتُ تفاحتي التي أكلتُ نصفها نحو الأشجار ومسحت يديّ بينطالي. غمرتني الرغبة في أن أمسك بيدك وأشبك أصابعي بأصابعك وألا أفلتها أبداً. لكنها ليست فكرة صائبة، لا سيما أن نظراتك الحادة تلسعني.

قلتُ بلطف: «أظن أن من يكبر محاطاً بامتيازات كتلك التي تتمتعين بها، يسهل عليه نسيان أن كثيرين يعانون طفولةً قاسية. لا يعني هذا أنك فتاةٌ مدللةٌ أبداً، لكنه يشير إلى أن فهمك كيفية سير العالم الحقيقي ينقصه بعض الوضوح. يُجنّب المال أصحابه المحن التي تُثقل كاهل الفقراء يومياً. لا شيء يقاوم قوة ثروتك، لا شيء يُعجزك. وكل شيء بين يديك».

- «إذن وبعد بضع نزعات قضيناها معاً، باتت أحلامي وخيالاتي مكشوفةً أمامك على مصراعيها، أليس كذلك؟»، رفعت ذقنك قليلاً وأردفت: «ربما يثير اهتمامك أن أعلمك بأنني مستعدةٌ للتخلي عن كل صيف قضيتُهُ في هامبتون مقابل عطلة واحدة متواضعة في بورنموث».

حمل صوتك حرارة مفاجئةً باغتتني لأنك تصبحين باردةً عندما تتزعجين. لقد ضربتُ وترًا حساساً لا شك. ليس وتر الاعتداد بالنفس، بل شيء آخر. «لم أقصد افتراض أنك...».

- «لا بأس. لم أعد أريد التحدث عن عطلات الصيف».

- «حدثيني عن أمك إذن».

قلتِ وقد جلستِ دون حراك على نحو غريب: «لماذا؟».

أُنبني ضميري لأنني أدركتُ أنني أتدخل في أمور تضايقك. لكنني تابعتُ أسئلتني، مُصمِّماً على استدراجكِ إلى الحديث: «لأن لا أحد يذكرها البتة. يُشار إلى والدك باستمرار، لكنكِ لا تتكلمين عن والدتك أبداً. حدثيني عنها؟».

غامت عيناك تحت غشاوة حزينة ونظرتنا بعيداً عني. رنوت إلى الصمت طويلاً، طويلاً جداً حتى ظننتُ أنك قررتِ ألا تتحدثي. قلتِ أخيراً دون أن تلتفتي إليّ: «كانت فرنسية».

- «من المؤكد أن هناك أشياء أخرى كثيرة تذكريها بها عدا عن كونها فرنسية».

راقبتكِ وأنت تفكرين. هل أنا جديرٌ بذكرياتكِ، بكشف أماكن ضعفكِ؟ أخيراً، بدأت حدة ملامحك تخف ورأيت كم تتحرقين إلى الحديث عنها وكأنكِ تنتظرين فرصة مشاركتها مع أحدهم. «أجل. هناك كثير أرويه عنها. كانت رائعة ولطيفة جداً، كانت تشعّ جمالاً أينما حلت».

- «جميلة الجميلات، كابنتها»، قلتُ برقة.

- «لا، ليست مثلي. إنها لا تشبه أي شخصٍ عرفته في حياتي»، تاهت نظراتكِ واكتست ملامح وجهكِ بحنين حزين. «لقد كانت... استثنائية. كان لديها ذلك البُعدُ الحالم، كأنها أتت من عالمٍ مختلفٍ تماماً عن عالمنا. هذا ما أحببتهُ فيها أكثر من أي شيءٍ آخر. لكنّ والدي لم يغفر لها ذلك قط».

- «لأنها كانت فرنسية؟».

- «لا، لم يكن ذلك هو السبب، أو لم يكن السبب وحده»، ابتسمت حينها واتقدت عيناكِ بوهج ذكرياتٍ طفولية. «كانت بيني وبينها أسرار نخفيها عن أبي وأختي. قصص ترويها لي وحدي، ثم تجعلني أقسم ألا أفشي بها لأحد. كانت تتاديني "ما توت-بتيت"- صغيرتي».
- «يبدو أنها كانت رائعة حقاً».
- «اسمها هيلين»، نطقت اسمها وكأنه تهيدة تخرج من أعماق صدرك. «كان اسماً يليق بها، وكانت كتحفة فنية ثمينة وجميلة، لكن لا يمكن عرضها». تلاشى بريق عينيك وبهت صوتك. «لقد مرضت عندما كنت صغيرة».
- «يؤسفني ذلك»، قلت صادقاً. فأنا أعرف تنمة الحديث. سمعت أشياء من هنا وهناك وليس من غولدي فقط. كان عليّ أن أسأل لأنك يجب ألا تعرفي أنني على علم. «ما الذي حدث؟».
- «ذات ليلة، في أثناء عشاءٍ كان والدي يقيمه على شرف بعض المستثمرين المهمين، أصابتها نوبة من نوع ما. ما حدث كان مروعاً. جاء الطبيب وأعطاهما شيئاً يُهدئها، لكن في اليوم التالي أخذت بعيداً... إلى مستشفى. مصحة إن صحَّ القول. لم تُعدَّ إلى المنزل قط. وبعد عام، تلقينا اتصالاً يُخبرنا بوفاتها».
- تهدج صوتك وتوقفت عن الكلام. أعلم أن هناك مزيداً، لكنني لم أُلح عليكِ، بل انتظرتك. عندما واصلت الكلام، لمعت عيناكِ بدموعٍ غير مسكوبة: «لم يتسنَّ لي وداعها قط».

مددتُ يدي لأمسك بيدكِ . راقبتكِ باهتمام وأنا أشبك أصابعي بأصابعك: «لا أتخيل كم كان قاسياً بالنسبة إليك أن تفقدي والدتك وأنتِ صغيرة! لا بدّ أن والدك انهار أيضاً عندما تلقى الاتصال».

- «انهار!»، رددتِ بجمودٍ وأنتِ تحدقين إلى يدينا المتشابكتين. «أجل. كان منهاراً بالتأكيد. الأحاديث التي تلت إبعادها كانت سيئة بما يكفي. فزوجةٌ تفقدُ صوابها وسط حفل عشاء أمرٌ مُروع، لكن الموت في مصحة عقلية ونشر الخبر في الصحف كلها لم يكن أقلّ كارثية بالنسبة إلى رجلٍ أمضى معظم حياته محكوماً بالمظاهر. مع ذلك، كان يعرف كيف يؤدي دوره بإتقان، إذ تحول من زوجٍ صبورٍ إلى أرمل مكسور. وهذا ما روجت له الصحف الصفراء، معظمها على الأقل». كانت تلك أول مرة أسمعك وأنتِ تنتقدين والدك. وما زاد دهشتي قسوة نبرتك في الكلام عنه. «لا تحبينه كثيراً أليس كذلك؟».

أجفلكِ سؤالي وكأنكِ أدركتِ أنكِ بُحتِ بأكثر من اللازم: «انسَ ما قلته رجاءً. كنت طفلة حزينة تعاني وبحاجةٍ إلى من ألقى اللوم عليه».

- «ماذا عن أختك؟».

- «ماذا عنها؟».

- «كيف تلقّت الخبر؟».

رفعتِ كتفيك بالطريقة المراوغة ذاتها ثم قلتِ: «يتعامل الناس مع الفقد بطرائق مختلفة».

- «هل كنتما مقرّبتين؟».

- «هي من ربّتي بعد رحيل أمي. كانت قد بلغت السابعة عشرة، لكنها حلّت محل أمي وكأنها تدرّبت على ذلك طوال حياتها. كرّست كل لحظة من وقتها لرعاية والدي، وتدير منزله، وكتابة رسائله، وإقامة حفلات عشاءه. حتى أصبح لا يستطيع الاستغناء عنها».

في وصفك انزعاج خفي. ليس انزعاجاً نابعاً من بغض أو حقّد، لكنه ليس طبيعياً أيضاً. «أمرٌ غريب أليس كذلك؟ صبية في السابعة عشرة تؤدي دور سيدة القصر؟ في تلك السن، تقلق معظم الفتيات بشأن الملابس والشبان، لا اعتماد قوائم الطعام الأسبوعية والاضطلاع بدور المضيف».

هرّيت من شفّتيك ابتسامة واهية انتزعت الدفء من عينيك: «لم تكن سيّسي تشبه الفتيات الأخريات. كانت منقادةً تماماً ومستعدّةً لإلقاء نفسها على قبلة لو طلب والدي منها ذلك. وهو ما كان يفعله من وقتٍ إلى آخر. لم نكن مقرّبتين يوماً، لا قبل وفاة أمي ولا بعدها. لكنها اعتنت بي، اعتنت بكل شيء. يصعب إلقاء اللوم على مثل هذا النوع من الولاء».

- «مع ذلك، هناك ما يُخبرني أنك تلومينها».

- «قطعاً لا».

قلتُ برقة: «نحن وحدنا الآن. ليس عليك الدفاع عنها ولا عن والدك. ليس أمامي».

- «لا أفهم ما تعنيه».

- «تبدّين كأنك تحاولين حمايتهما. تتغلّقين بمجرد أن أسأل عنهما. وإذا حدث وانزلق لسانك وقلت ما تفكرين فيه،

تتراجعين على الفور».

- «الخصوصية تعني كثيراً لوالدي. والولاء كذلك. إنهما كل شيء. العائلة أولاً ودائماً وأبداً. في الحقيقة لديه سبب وجيه لذلك».

- «حقاً؟».

- «والدي رجل ثري جداً، الأمر الذي يزعج البعض ممن سيكونون في غاية السعادة عندما يرونه مكسوراً».

- «من هؤلاء البعض؟».

- «منافسون في العمل بمعظمهم، كذلك الصحف».

- «كتلك التي أعمل فيها»، ذكرتِ كلماتي أننا ندخل منطقة وعرة في النقاش. «لماذا ترغب الصحف في إسقاط مواطنٍ عاديٍّ؟ هل فعل والدكِ شيئاً يستحقُّ الإطاحة به؟».

- «تناقل الناس على مر السنين... قصصاً وإشاعات»، أخفضتِ بصركِ ونظرتِ بعيداً. «قصصاً وإشاعات غير ودودة».

- «أي نوع من الإشاعات؟».

سحبتِ يدكِ ونظرتِ إليَّ وفمكِ مغلقٌ بإحكام: «تحدثتي وكأنك صحفي الآن».

- «أو رجل يودُّ لو يعرف كل شيء عنكِ».

- «وأيٍّ منهما أنت؟».

لفكِ الرداء الجليدي مجدداً وأنت تتفرسين في وجهي. لا يزال النظر إليك يذهلني. تلك الطريقة الآسرة التي تلقي بها الشمس ظلاً تحت عظمتي وجنتيك. والنسيم الذي يتغلغل في شعرك ويرفعه عن وجهك.

- «الأخير»، قلت بهدوء. «الأخير دون شك».

أمسكتُ بيدك وتشابكت أصابعنا مجدداً ثم انحنيت لأقبلك. شعرتُ بارتياحك وحذرك المتجدد عندما تلامست شفاهنا. ثم شعرت بشفتيك تذوبان لتُلاقيا شفتي. طرحتكِ على الملاءة ورحت أقبلكِ حتى أخذني الدوار. أدرك جزء مني أننا نندفع نحو نقطة لا رجعة منها، فكان كل ما استطعتُ فعله الابتعاد، تذكرت أنكِ لستِ ملكي وأنكِ تتتمين إلى عالمٍ آخر ورجلٍ آخر.



لو أنّ باستطاعتي القول إنّ هذا ما أوقفني ذلك اليوم، وإنّ ضبط النفس يعود إلى وخز نبيلٍ في الضمير، لكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق. توقفتُ لأنني كنت أعلم أنكِ ستندمين عليّ ما قد يجري، وستندمين عليّ. ومجرّد التفكير في أن أكون ندماً، أو تهوراً تتدمين عليه يوماً، كان كافياً لإعادتي إلى رشدي. هذا إلى جانب اليقين التام بأنني لن أتحمّل ذلك عندما تشعرين أنتِ به. يا ليتني تذكرتُ ذلك منذ البداية لأنك ندمتِ عليّ بالفعل، أليس كذلك؟ لكنّ ندمكِ يا حبيبتي بيل، لم يكن سوى شعلة خافتة مقارنةً بنار ندمي الحارقة.

إلى الأبد، وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 29 إلى 36)

22 سبتمبر 1941

ووتر ميل، نيويورك.

تتحدث عن الندم؟ أنت من بين الناس كلهم تتحدث عن الندم؟ وكأنك الوحيد الذي لديه ما يندم عليه! اطمئن، لدي كثيرٌ من أسباب الندم وتبدأ كلها وتنتهي عندك. يذهلني تماماً أن تتحدث عن ذلك اليوم من بين الأيام كلها.

أستعيد شريط ذاكرتي وأرى كيف استدرجتني لأبوح بكل شيء. خدعتني بابتسامتك، تلك الابتسامة التي أنقذتني تماماً. تلك الابتسامة التي توحى بأنك ترغب في المعرفة، بل تحتاج إلى معرفة كل شيء عني بالتفصيل. طريقتك في ادعاء الاهتمام والكذب وفمك البارع ذاك. قبلاتك وكلماتك، كانت كلها مزيفة. وتسألني إن كنت أتذكر؟ بالطبع أتذكر. كيف لي أن أنسى أصلاً؟ نحن وحدنا، قلت لي.

لكنك كذبت. لقد كانت هناك معنا. سيدتك المعطاة بجرائدها المقدسة. لقد كانت معنا ذلك اليوم ومنذ البداية، تهمس في أذنك وتحركك كالدمية. هل علمتك هذا كله؟ هل علمتك كيف تليّن الحجارة بسحرك وبحكايات عائلتك الحميمة، أم أنك تكذب بالفطرة؟ كان يليق بك لو أصبحت ممثلاً لا كاتباً. لقد أقنعتني تماماً، وإلا ما كنت لأبوح بكل خبايا نفسي لك، ما كنت لأعطيك هذا السلاح وما كنت لتؤذيني. لتؤذينا جميعاً.

على الملاءة ذلك اليوم، كانت البداية. أجل أنا أتذكر. وأتساءل حتى الآن وأنا أكتب هذا الكلام، كيف عميت بصيرتي عن رؤية ما هو قادم، وعن كشف غاياتك ونيّاتك؟

سألتني عن أمي، فرويتُ لك بعضاً من قصتها. طوال حياتي، كانت أمي أشبه بظلّ، وميضاً من الصور الخافتة المتغيرة، تظهر ثم تختفي ثم تعود مجدداً، إلى درجةٍ تجعلني أشعر أحياناً بأنني أنا من اخترعها. لكن ليس الأمر كذلك، مهما تمنّ والدي لو كان ذلك صحيحاً. لقد كانت حقيقية تماماً. وفي مرحلةٍ معينة، كانت عالمي كلّهُ.

إليك بعض الأشياء التي لم أخبرك عنها. أشياء جميلة ربما لاحظتها لكنك لم تكلف نفسك عناء السؤال، لأنك لم تتحرّر إلا عن الأجزاء القبيحة. تلك الأجزاء التي استغلّلتها سريعاً حالما حصلتَ عليها، أليس كذلك؟ يا له من يومٍ مثمرٍ بالنسبةٍ إليك. كم ضحكتَ عليّ حينها! وكم كنت مغفلةً لأستسلم لك هكذا! سأخبرك الباقي الآن، لست لأنّي أتوقع منك ندماً، فأنا أعرفك جيداً. لكن لأنّي أريدك أن تعرف المرأة التي عرفتُها أنا.

أخبرتكَ أن أمي كانت جميلة. قال البعض إنها أجمل امرأة في نيويورك. لكن ما لم أخبرك به أن الناس كانوا يقولون إنني أشبهها. لديّ شعرها الغامق وعيناها العسليتان وحتى تقاسيم وجهها. لهذا السبب ربما كان والدي يتجنب النظر إليّ في تلك الأيام، لأنني أذكره بالشابة التي تزوج بها، مع أنني لم أكن لأقترب من جمالها قط.

اعتدتُ مناداتها «مامّا» عندما نكون وحدنا فقط. لم يكن والدي يحب أن تتحدث الفرنسية في المنزل. اعتدنا قضاء مدّة ما بعد الظهر معاً، أنا وهي فقط. نخبئُ في غرفتها التي تعبق برائحة الزنبق وصابون الاستحمام الفرنسي الذي كانت تستخدمه. كانت تخرج ألبوم الصور، ذاك الذي خبأته بعيداً عن ناظر والدي. غلافه ناعم كالحرير وقد طُبعت عليه كلماتٌ بلون ذهبي. نفتحه ونقلب الصفحات معاً. لم أستطع فهم التعليقات، كانت الحروف غريبة لا تشبه كلمات اللغة الإنجليزية، لكنها كانت تقرؤها بصوت عالٍ وتسرد لي حكايات عنها.

كانت هناك صورة لها وهي تلميذة، تبدو متبسة ومضحكة، وشعرها مشدود إلى الورا على شكل قوس ضخّم. كانت تلك صورتي المفضلة لأنني استطعت أن أرى نفسي فيها وكنت أتوق إلى أن أصبح مثلها عندما أكبر. لكني أحببت الصور كلها. أرتقي صور إجازات على شاطئ البحر قضوها في سابل دولون، وعشاءات عائلية على ضوء الشموع، وعطلات عائلية استمرت أياماً حيث كان الجميع يضحكون. لطالما تساءلتُ عما حلّ بهذا الألبوم. عندما سألت سيسي عنه، ادّعت أنها لم تره قط. ولكن بعد مدّةٍ وجيزة من تلقي مكالمة المستشفى، رأيته تدخل خلسةً غرفة والدتنا وتعبث بأغراضها. بعد بضعة أيام، تسلّلتُ أنا إلى الغرفة وقد اختفى كل شيء. كانت خزانة ملابسها عارية، وأدراج أغراضها فارغة تماماً، وحتى طاولة الزينة التي كانت تضع عليها عطوراتها ومساحيق تجميلها، جُرّدت من كل شيء. كان الأمر كأنها لم تكن موجودة على الإطلاق، وكأنها مُحيّت من الوجود.

عاهدتُ نفسي حينها ألا أنساها أبداً. لأن هذا ما أُراده والذي
وسيُسي، أن ينسى الجميع أنها كانت جزءاً من حياتنا يوماً. لكنني
أتذكرها، أتذكر الجميل والقييح.

كانت تضحك كثيراً عندما نكون معاً، لكن حتى وأنا طفلة،
كنت أشعر بأن هناك شيئاً مُصطنعاً في ضحكتها. لم أفصح قط
بأنني لاحظت ذلك، لكن مع مرور الوقت أصبح التظاهر أصعب.
نوبات بكاءٍ مفاجئة وصواني طعام تُترك دون مساس، وزيارات من
الطبيب في الليل وفي النهار. ثم تتملكها فجأة رغبة في الانطواء
على نفسها، وكأنَّ أحدهم رسم غيمة سوداء فوق قرص الشمس.
سنحت لي الفرصة مرةً لاستراق السمع إلى عمال المطبخ.
قالوا إن كل شيء بدأ بعد ولادة أختي، وهو ما أسماه الطبيب
اكتئاب النفاس. عاودتها الحالة بعد ولادة أخي، لكنَّ سعادة أبي
بلغت منتهاها بإنجاب ابنٍ ذكر وبذل ما في وسعه لتحمل نوبات
بكائها، فقد أنعمت عليه بالأمير الصغير، وكان ذلك كافياً مدّةً
من الزمن. لكن بعد انتشالهم الصغير البائس إرست من البركة،
دخلت أُمي في دوامة مروعة. وبعد بضع سنوات، ظهرتُ أنا إلى
الوجود، ابنة بدلاً من الابن البديل الذي كان يأمله أبي. عانت
أُمي الاكتئاب مرةً أخرى. فبعد دفنِ ابنها، لم تعد قادرةً على
تحمل دفعة ثالثة من اكتئاب النفاس. لم تتعافَ بعدها قط وساء
وضعها حتى وصل إلى نقطة لا عودة منها.

لا أتذكر بالضبط كم كان عمري عندما أدركتُ هذه الحقيقة.
بدأ الأمر تدريجياً بتصرفات صغيرة كتوقفها عن الغناء والنوم
مطولاً. وعندما أطلب منها أن تروي لي مجدداً بعضاً من

حكاياتها، كانت تقول إنها متعبة جداً أو إنها لا تستطيع تذكرها. لكنني شعرت أن الأمر يتجاوز كونه تعباً، شعرت بأنها خائفة لكن لا أعرف من ماذا. كنت أظن أن الكبار لا يخافون شيئاً، لكن الحياة ببساطة بدت أثقل مما يمكنها تحمّله. كانت تحبس نفسها في غرفتها أياماً كثيرة دون أن تخرج أو تأكل أو تستحم أو تسمح لأحد برؤيتها. ثم تظهر فجأة وكأن شيئاً لم يكن، وتشرق الشمس مرة أخرى. كانوا يسمونها «الكآبة السوداء».

لم يقف أبي إلى جانبها قط، ولم يتحلّ بالصبر عندما تصبح على هذه الحال، فكانا يتشاجران باستمرار. كانت أختي تتسلل بهدوء عبر الممر لتسترق السمع عند باب غرفة نومها، فيعلو صوته مزمجرأً عن تشويه سمعته، وأما تتنحب بمرارة متحدثّة عما ضحت به لتكون زوجته. تسللتُ مرةً وحاولتُ الإصغاء لكنني لم أحتمل. كان يقذفها بأشنع الصفات. كلمات لم أفهمها آنذاك لكنني أفهمها الآن. لقد خجل منها. خجل من ضعف الأنثى والإنسان فيها.

لكن ذلك الجزء تعلّمه أنت.

توالت نوبات اكتئابها مع الوقت وأصبحت أطول مدةً. ذات مرة، غادرت المنزل ومكثت خارجه ثلاثة أيام. عثروا عليها بعدها في فندق في نيوجيرسي مسجلةً باسم مستعار، ما منح الصحافة مادةً دسمة استغلّتها جيداً. طرد والدي طبيبها المعتقد واستدعى اختصاصياً بـ«أمراض النساء» وهو طبيب معروف بمهارته. وصف لها أدوية أعصاب تحسنت على إثرها مدة من الزمن وراقت نفسها نوعاً ما. ثم في إحدى الليالي، كان والدي يقيم عشاءً

لمستثمرين محتملين في مشروع جديد . وهناك على الطاولة، في خضم مناقشة مقالٍ ورد في صحيفة «ميشيغان إنديبندنت» التي يملكها هنري فورّد وحملتها المتجددة ضد اليهود، أصيبت بنوع من الانهيار العصبي.

لم أستطع انتزاع ذكرى تلك الليلة من رأسي رغم محاولاتي. كان الضجيج صاخباً جداً إلى درجة أنني وسيسي هرعنا من غرفتيّنا وجثمنا أعلى الدرج نشاهد كل ما يحدث. أبي يزيع أُمي من على الطاولة وقد امتقع وجهه. صرخات أُمي ترتد عن الجدران وهو يجرها أعلى الدرج. هربنا لنبقى بعيدتين عن الأنظار، وتسللنا إلى إحدى الغرف ورأينا أبي من خلف الباب الموارب يركل باب غرفة نوم أُمي ويدفعها إلى الداخل ويقفل الباب.

أصابني المشهد بالغثيان. مشهد دمارها وانهيارها وعدم اكترائه بها. كثيرٌ من الأشياء لم أفهمها حينها، لكن أختي فهمت. أو هكذا بدت على الأقل. أتذكرها تتسلل إلى الممر مرةً أخرى بعد أن انتهى كل شيء، تستمع لنحيب أُمي المكتوم وتعبيرٌ غريب يعلو وجهها. ليست ابتسامة، لكنها تكاد تكون كذلك. ثم تنهت إلى صوته يصعد الدرج بعد خروجه من غرفة الطعام وهو يشرح لضيوفه بنبرةٍ حزينة متألّمة أن زوجته تعاني منذ وفاة ابنهما.

- «إنها تلوم نفسها كما ترون. أكدنا لها مراراً أن ما جرى كان حادثاً، لكنها ترفض أن تسامح نفسها. كنا نأمل أن تتحسن أحوالها مع مرور الوقت، لكن جرت الرياح بما لا تشتهي سفننا، وسار كل شيء نحو الأسوأ منذ ولادة ابنتنا الصغرى». أنا. كان يتحدث عني أنا. يلومني أنا.

لم يكن هذا اللوم جديداً عليّ. سمعته مرة يصفني أنتي «غلطة» في أثناء حديثٍ له مع سيّسي. لكن بدا الأمر أسوأ هذه المرة حين نطقها أمام غريباء. كنت أنا المُلامّة على انهيار أمي. ارتفعت همهمات متعاطفة. أصوات نسائية في معظمها. زوجات المستثمرين على ما يبدو، لكن لم أستطع تمييز الكلمات الفعلية.

- «نعم»، سمعت والدي يقول رداً على سؤال أحدهم. «لقد كان الأمر صعباً. لكنني قلقٌ على الفتاتين. يخشى الطبيب أن يكون لسلوك والدتهما تأثيرٌ دائم فيهما. اقترح أن تحصل على قسطٍ من الراحة، رفضت حتى الآن، لكنني أعتقد أنه قد يكون على حق».

لاح مجدداً طيف ابتسامة على محيا سيّسي كقطعةٍ لعقت آخر بقايا القشطة. همست وكأنها تحدث نفسها أكثر مما توجه الكلام لي: «سنرى... الآن سنرى».

أتذكر أنني تساءلتُ حينها: «ماذا سنرى؟»، لكنني كنت لا أزال أبكي عندما استدارت وابتعدت. وصل الطبيب بعد بضع ساعاتٍ من مغادرة الضيوف جميعهم. وفي صباح اليوم التالي، جاءت سيارة إسعافٍ أقلتُها إلى مكان يُسمى «كريج هاوس» في بيكون. «إنها ذاهبة لنيل بعض الراحة»، قال والدي الذي ربّت على رأسي، أنا ابنته البالغة سنواتٍ سبع، ترى أمها أمامها تُحمل على نقالة وقد شخصت عيناها وشحب لونها.

بكيّت يومها حد الغثيان. أغلقت غرفتها، تلك الغرفة التي شاركنا فيها في مدد بعد الظهر لقاءات لا تُتسى، وأقفل بابها

وأخذ المفتاح، وكأن والدي يخشى أن يكون مرض أمي معدياً. تحوّل المنزل الذي لم يكن يوماً ملاذاً دافئاً إلى ضريح فارغ وساكن. ومع مرور الأيام، بدأت أفهم. قيل لي إننا سنزورها أيام الأحد حاملين معنا الزهور وعلباً من الكرز المغطى بالشوكولا التي كانت تعشقها. لكن ذلك لم يحدث ولو مرة واحدة. بعد مرور عام، في اليوم السابق لعيد الميلاد الأول منذ مغادرتها، جاءتنا مكالمة هاتفية. وجدها أحد الممرضين ذلك الصباح ميتة. سقوطٌ وسكين وحادث مروع. لكنه لم يكن حادثاً، بل كان أمراً متعمداً. أخفّوا الأمر، إذ لم يرغب أحد في نطق كلمة «انتحار» فهي تزعج الناس. لكن عرف الجميع.

هذه هي الأشياء التي لم أقلها في ذلك اليوم عندما سألت عن أمي. لأنها كانت مؤلمة وخاصة. بدلاً من ذلك، أخبرتك بالأشياء الجيدة، الأشياء التي كنت أطيق قولها بصوت عالٍ. لكن لم يكن ذلك كافياً لك، أو لها.

وتسألني إن كنت أتذكر يوم النزهة ذاك؟ وكأني أستطيع نسيان لحظة واحدة من تلك الدوامة التي أخذتنا من تلك الشهور القليلة التي همست لي فيها «إلى الأبد»، وتركت نفسي أصدقك! أتذكرك وأنت تصغي إليّ ويدانا متشابكتان. وعندما انتهيت، لم تضغط عليّ لأستمر في الكلام. بالمناسبة، أنت لم تضغط عليّ للحصول على أي شيء البتة. لم تكن مضطراً إلى ذلك حينها فقد كانت لديك طرائق أخرى للحصول على ما تريد، كما اكتشفتُ سريعاً.

الفصل السادس

آشليين

«كحال البشر، الكتب التي تحمل ندوباً كثيرة هي الأعمق تجربة. صفحاتها الباهتة، وطيّاتها الكثيرة، وغبار الزمن المتراكم فوقها، وحتى شقوقها، تروي كلها أفضل القصص وتقدم فاكهة الحكمة».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

29 سبتمبر 1984

بور تسموث، نيوهامبشير.

انتحار.

تردد صدى الكلمة كوجع متواصل، وآشليين تغلق الكتاب وتضعه جانباً، وكأن عصباً مكشوفاً تسلّخ من جديد. على غرار ويلا غرير، اختارت هيلين إنهاء حياتها، وفضلت الموت على بناتها. لم يكن حادثاً، بل كان قراراً واعياً ومتعمداً.

عاشت آشليين وجع الفقد عن قرب، تلك الفجوة التي تُخلّفها روحٌ أحبّتها حين ترحل بلا وداع أو اعتذار. فهمت سبب كتمان بيل تلك التفاصيل عن هيمي يومَ النزهة. ففي اعتراف الابنة بأن أمها قد اختارت الرحيل ببساطة نوعٍ من الخجل، وكأنها لم تكن تستحق البقاء من أجلها، وكأنها لم تكن تستحق عناء أن تقاتل من أجلها. أصبح لديهما الآن قاسمٌ مشترك، عضويةٌ في نادٍ لا يرغب أحدٌ في الانضمام إليه؛ نادٍ للناجين المُجبرين على العيش مع عبء معرفة أنهم لم يكونوا كافيين يوماً.

رفض أمها العلاج كان اختياراً سلبياً، أو نبيلاً كما يرى البعض، استسلاماً راسخاً لمشیئة القدر. أما الأب، فكان اختياره صارخاً، بندقية صُوبت بدقة تحت الذقن. ثورة على من انتزع زوجته. لم يكن دافعه حباً لها، بل كان شعوراً بالغبن لخسارة يراها مُلكه. ولا يمكن أن يمرّ هذا دون عقاب. وهكذا صعد إلى العلية، وبحركة سريعة من إصبعه، جعل ابنته يتيمة.

تلك كانت طريقته في معاقبة القدر.

لم يفكر في تأثير قراره فيها، وفي عمق الجروح التي يمكن أن يلحقها فعلٌ أناني واحد.

لكن ربما كان الوضع مختلفاً بالنسبة إلى هيلين التي فصلت قسراً عن عائلتها، والتي بدت تعاني مرضاً نفسياً. ربما لم تكن قادرةً في حالتها على مراعاة مشاعر أي شخص آخر.

إنه اكتئاب النفاس، أو كما أسمتها بيل «الكآبة السوداء» التي تُعرّف اليوم باكتئاب ما بعد الولادة. لم تكن المصطلحات لتغير شيئاً على أي حال. بناءً على كلام بيل، عانت هيلين أعراضاً حادة ازدادت سوءاً بعد كل ولادة. أضف إلى ذلك وفاة ابن ووجود زوج قاس. لقد كانت وصفاً كاملةً لوقوع كارثة.

لم تكن طريقة موت هيلين الاكتشاف الوحيد في قراءتها هذا المساء. فقد حظيت آشليين أخيراً باسم، أو على الأقل بلقب لمؤلف كتاب «ندم على بيل». هيمي اختصاراً لهيمنغواي. تتكرّر فني آخر، لكنها على الأقل عرفت بماذا ستناديه. أما وصفه ذلك اليوم، والنزهة الخارجية والحديث الذي دار بينهما، فقد كان غايةً في الإتقان، مزيجاً من الاستجواب والإغواء، وقد برع في الجانبين.

اتهمته بيل باستدراجها لتبوح بالأسرار، وباستمالة عواطفها بتلك الابتسامة التي أتقن فنّها. ولكنه اعترف بهذا كله بطريقة غير مباشرة، مُلمّحاً إلى دوافع خفية وراء تصرفاته، بل وأشار حتى إلى أنها قد تتعلق بذائعة الصيت غولدي. مع ذلك، بدا صوته متضارباً في بعض الأحيان، وكأنه لاعبٌ مترددٌ في خيانةٍ يقتربها شخصٌ آخر. هل كانت تلك الخيانة هي التي فرّقت بينهما في النهاية؟ وإذا كان الأمر كذلك، لماذا يصرّ هيمي على أن الخيانة جاءت من جانب بيل؟

ظلت الأسئلة تتردد في ذهن آشلين وهي تنهض على قدميها. فوجئت عندما رفعت بصرها نحو الساعة لتجدها تشير إلى ما بعد السادسة مساءً. لا عجب أن ظهرها ورقبتها قد تيبسا. لقد ظلت على جلستها منذ الغداء وفقدت تماماً إحساسها بالوقت. يحدث أحياناً أن تمرّ ظهيرةً بأكملها دون أن يدخل زبونٌ واحد، خاصة عندما يسوء الطقس كما هي الحال اليوم. لم يتوقف هطول المطر طوال اليوم، ما دفع المتسوقين إلى التوجه إلى المراكز التجارية الضخمة وغيرها من الأماكن المغلقة. اعتادت أن تستغلّ أوقات الركود لتتجز العمل المتراكم، لكن بعد أن سهرت الليلة الماضية على إعادة خياطة طبعات كتاب «سرّ الساعة القديمة»، شعرت بأن من حقها أن تترجّع خلف المنضدة وبين يديها كتاب «إلى الأبد وأكاذيب أخرى».

كان كتاب «ندم على بيل» على مقربةٍ منها يستريح غير بعيدٍ عن رفيقه. هكذا باتت تفكر في الكتّابين الآن؛ زوج أو ثنائي من نوعٍ ما. وعلى الرغم من غرابة الفكرة حتى بالنسبة إليها، ارتبط

الكتابان في مخيلتها برياطٍ وثيقٍ كارتباط هيمي وبيل، يكمل كلٌّ منهما الآخر.

تتراكم الأسئلة في ذهنها مع كلِّ صفحةٍ تقرأها. كانت على يقين بأنَّ هيمي أحبَّ بعمقٍ ويأسٍ، وأنَّ بيل بادلتَه ذلك الحبَّ. فكيف انتهى بهما الأمر إلى أن يؤذي أحدهما الآخر بهذا الشكل الفادح؟

لكن هل لها حقاً أن تسأل بالنظر إلى زواجها الكارثي الذي انتهى بمرارة؟ عندما يتعلق الأمر بالحب، أليس هناك دائماً اختلال في التوازن؟ بغض النظر عن طبيعة العلاقة سواء أكانت بين الآباء أم كانت بين الأبناء أو الأخوة أو العشاق، دائماً ما يكون أحد الطرفين أكثر التزاماً من الآخر وأكثر استعداداً للتخلي عن قوته وتصغير نفسه، مقابل الحصول على الحب. لقد كانت آشليين دائماً الطرف الأكثر استعداداً للتنازل في علاقتها مع والديها ومع زوجها.

دانييل.

التقيا في جامعة نيوهامبشير. كانت تدرس الأدب، وكان دانييل أستاذاً مساعداً يدرّس أحد مقرراتها. كاتبٌ طموحٌ يعمل لنيل درجة الدكتوراه، وخدمٌ يسعده دوماً توجيه موهبة شابة واعدة، ما دامت تلك الموهبة أنثى وجميلة. لقد تمتّع بكل شيء؛ جسم رياضي وابتسامة مثيرة وعينين بلون سماءٍ عاصِفة، تحت غطاء أكاديمي لامع.

بدأت لقاءتهما بعد المحاضرات لشرب القهوة ومناقشة كتاباتها ظاهرياً. سرعان ما تحولت القهوة إلى شراب، والشراب

إلى ليالٍ مشتركة. بعد ستة أسابيع، انتقلت من منزل جدتها إلى شقة دانييل الفخمة، ليتزوجا بعد ستة أسابيع تلتها. وبإلحاح من دانييل، تركت الدراسة وشرعت تعمل لدى فرانك بدوام كامل حتى يتمكن هو من التركيز على كتاباته. كان يعمل على روايةٍ زعم أنها ستحتلّ الساحة الأدبية وستسمح له أخيراً بالتخلي عن التدريس. كانت آشليين على استعداد تام لتأجيل دراستها الجامعية لحين انتهاء دانييل من روايته، لكن بعد أن انتهى منها أخيراً وامتدت الشهور دون أن تلوح بوادر عودته إلى التدريس بدوام كامل، شرعت تلمّح إلى احتمال عودتها إلى الدراسة. لكن دانييل كان حازماً في رفضه. فحتى يجد ناشراً لكتابه، كان يحتاج إلى أن تعمل أطول مدةٍ ممكنة في المتجر حتى يركز هو على إرسال عروض النشر. لكن دور النشر رفضت كتابه. ومع كل رسالة رفض جديدة تصل، كان يخترع ذريعة ليلقي اللائمة على آشليين. ليس الأمر أنه وكتابه فاشلان، بل تذرّع بزواجه سبباً لفشله.

ثم كانت هناك الليالي الطويلة مع ماريبيث. شابة يانعة موهوبة، لكن عملها افتقر إلى التوجيه، توجيهه هو. وعندما سألتها آشليين صراحةً إن كان ينوي استبدال أخرى بها، اتهمها بالهستيريا. وهو سلوكٌ اعتاد اللجوء إليه، ينكر كل شيء مهما كانت الأدلة واضحة. يضلل ويتلاعب ويقلب الأمور رأساً على عقب. لقد أتقن فن التملص وبرع فيه.

انتشرت بالطبع أقاويل وهمسات عن طالبات أخريات. قيل إن إحداهن هددت بالانتحار غرقاً عندما تركها، وأخرى أجرت عملية إجهاض وتركّت المدرسة بعد تقاضيها مبلغاً كبيراً مقابل

صمتها. رفضت آشلين تصديق تلك الأقاويل في ذلك الوقت، وعدّتها مجرد ثرثرة طلابية. إلى أن عادت إلى المنزل في وقتٍ باكر ذات يوم، لتجد ماريبيث ودانييل في المطبخ يعدّان الطعام معاً. كان دانييل يرتدي سروال بجامته فقط، وماريبيث إلى جانبه مرتدية رداء الاستحمام الذي أهدته إياه آشلين وشعرها لا يزال رطباً بعد الاستحمام.

كالعادة، ألقي دانييل اللوم عليها لعدم كونها داعمةً بما يكفي، وموهوبة بما يكفي، وامرأة بما يكفي. دُعِرت آشلين لإدراكها فجأة في خضم هذا اللوم كله الذي انهال عليها، أنها أصبحت مثل والدتها تماماً، مجرد سجادة وضحية وشماعة عاطفية لرجلٍ يعلق عليها فشله وغضبه.

غادرت تلك الليلة حاملةً حقيبتها الصغيرة فقط، راغبةً في إنهاء كل شيء. لكن بالنسبة إلى دانييل، لم تكن النهاية قد حانت بعد، ولا حتى اقتربت. كان عليها أن تدرك أنه سيجد طريقة لمعاقبتها، وليحظى بالكلمة الأخيرة. لقد تأخرت كثيراً في إدراك حقيقته. رجل قاسٍ وماكر، مستعد لتدمير كليهما إن لم يحصل على ما يريد.

وكاد ينجح.

بدأت الندبة على راحة يدها تحت الضوء الخافت بيضاء لامعة، هلالاً شاحباً مثالياً يقسم خط الحياة في يدها اليمنى. وهو يناسبها تماماً لأن وجودها الآن يبدو مقسّماً إلى نصفين؛ قبل دانييل وبعده. أزعجت الندبة في الآونة الأخيرة، إذ تأتيها ومضات مؤلمة فجأة. تساءلت إن كان لذلك علاقة بالأصدقاء

التي التقطتها من كتابي بيل وهيمي، إذ كانا بطريقة ما كالشوكة الرنانة⁽¹⁾، لامست أصداؤها جرحها الدفين، فأيقظت فيه آلاماً ممّضة.

لعل الوقت حان للتراجع قليلاً والتركيز على العمل وتهدئة هوسها الجديد قبل متابعة القراءة، أو التوقف عن القراءة نهائياً ربما. كان عليها إنجاز النشرة الإخبارية الخاصة بالعطلة وإرسالها إلى المطبعة، ثم توجيه طاقتها لإنهاء كتب غيرترود في الوقت المناسب قبل عيد الميلاد.

نهضت عن كرسيها وتوجهت صوب الباب لإقفاله. رتبت بعض اللافئات المبعثرة ولملت المكان في أثناء سيرها وبدأت تفكر في العشاء عندما سمعت رنين أجراس باب المتجر.

كتمت تنهيدةً مستاءة. لم يأت زبونٌ واحد طوال عصر اليوم، والآن يدخل أحدهم عند السادسة والنصف. «معذرة»، نادَتْ وهي تقترب. «أخشى أننا أغلقنا وأنا على وشك إقفال المتجر».

رفع رجل يرتدي معطفاً مطرياً نظره عن رف النشرات المجانية بالقرب من الباب. كان في الثلاثينيات من عمره، طويلاً نحيلاً بعينين خضراوين باهتتين وشعر قصير يميل إلى البني الرملي لو لم يكن مبلاً. رفع نسخة من نشرتها وقال «راعية الكتب القديمة وحافظتها، وصفٌ ذكي. هل هو من بنات أفكارك؟».

عبست آشليين منزعةً مما بدا كأنه تجاهلٌ متعمّد: «أجل شكراً لك. لكنني أخشى...».

(1) أداة معدنية على شكل حرف U، تُستخدم لضبط نغمات الآلات الموسيقية ودراسة خصائص الصوت، مثل التردد والاهتزاز. (المترجمة)

- «صورتك جميلة أيضاً».

- «شكراً، لكن كما قلت لك لقد أغلقت المكان. سنفتح أبوابنا مرة أخرى في التاسعة غداً صباحاً إن كنتَ تبحث عن شيء مميز».

أعاد الرجل النشرة إلى مكانها على الرف، ووضع يديه في جيبه وألقى نظرة شاملة على المتجر. بدا أصغر سناً مما ظنت. لا يبدو أنه كان مرتاحاً لمظهره، لكنه بدا وسيماً بملابسه المبللة وشعره الأشعث.

أجبرت نفسها على الابتسام مذكرةً إياه مجدداً: «إذا كنتَ تبحث عن شيء محدد، كعنوانٍ معين أو اسم مؤلف، يسعدني أن أخذ اسمك ورقمك وأتصل بك غداً».

نظر إليها بلطفٍ قائلاً: «لديك رقمي بالفعل، فقد تحدثنا قبل أيام قليلة. أنا إيثان هيلارد. لا أعرف موعد إغلاق متجرك، لكنني غامرتُ بالمجيء. أتساءل إن كان بالإمكان رؤية الكتابين». رمشت آشلين بعينيها مذهولةً وقد أخذتها المفاجأة، إذ لم يبدو مهتماً على الإطلاق عندما تحدثا على الهاتف.

- «تريد رؤيتهما؟».

- «حسناً، قراءتهما».

دق تغيير رأيه المفاجئ ناقوس الخطر لدى آشلين. هل جاء لاستعادة الكتابين؟ «إذا كنتَ تعتقد أن الكتابين يحملان قيمة مادية يا سيد هيلارد...».

- «نادني إيثان»، قال مقاطعاً آشلين. «كلا لا يتعلق الأمر بالمال».

بعد أن تحدثنا ذلك اليوم، ظلّ اسم بيل يدور في رأسي ولم أستطع تفسير ذلك، ثم تذكرت أمس. لدي جدّة... في الواقع، هي أخت جدي لأبي. اسمها الحقيقي ماريان، لكنني متأكد تقريباً أن اسم بيل ذُكر في محادثة بين والديّ». شعرت آشليين بنبضها يتسارع. «ماريان»، رددت ببطء وكأنها تقيس ثقل الاسم على لسانها.

- «هل تعتقد أن بيل هي ماريان أخت جدتك؟»
- «ليست لدي أي فكرة. لكن الكتابين كانا في مكتب والدي عندما توفي، واسم بيل ليس اسماً شائعاً لفتاة، ولهذا أتيت. ظننتُ أنني إذا ألقيت نظرة، فقد أتمكن من تأكيد احتمالية كونها هي أو نفيها. ربما أجد أسماء أعرفها، أسماء عائلات أو أماكن قد أتعرف إليها».

فكرة أنّ آشليين كانت على وشك تأكيد شكوكها حول حقيقة وجود بيل وهيمي جعلت الأدرينالين يجتاح عروقها. سألته من باب أنها قد توفر الوقت عليه: «هل مرّ عليك اسم غولدي؟». فكر إيثن لحظة ثم هز رأسه نفيّاً: «لا».

- «امرأة»، حثّه آشليين بالقول. «كانت تمتلك سلسلة صحف».
هز رأسه مرة أخرى: «لا يستدعي هذا الاسم أي شيء من ذاكرتي. أنا لا أعرف جدي هذه مطلقاً، ومن غير المرجح أن أتعرف إلى أسماء أصدقائها».

- «لا يمكنني القول إن غولدي كانت صديقة بيل، لكن اسمها يظهر في كلا الكتابين. من الواضح أنها كانت رئيسة هيمي في العمل».

حقوق إيثان إليها ببلاهة: «ومن هيمي هذا؟».

تلاشت حماسة آشلين. كانت تأمل أن يتعرف إلى الاسم. «إنه مؤلف كتاب «ندم على بيل». وهو ليس اسمه الحقيقي، بل اسمٌ أطلقته عليه بيل تيمناً بهيمنغواي لأنه كان كاتباً. وأظن أن اسم غولدي مُستعارٌ أيضاً. آمل أن أكتشف هويتها قريباً. وبمجرد أن أتمكن من ذلك، قد أستطيع تحديد هوية هيمي أيضاً لأنه عمل في إحدى صحفها. ماذا عن هيلين؟ هل يوقظ هذا الاسم أي ذكريات لديك؟».

- «أبداً. ومن تكون هيلين؟».

- «والدة بيل، أو الاسم الذي استخدمته أقله. لا بد أنها جدتك الكبرى، جدة والدك. توفيت عندما كانت بيل مجرد طفلة... ماتت منتحرةً حسب قول بيل. يبدو أن العائلة بذلت أقصى جهدها لإخفاء الأمر»، توقفت لحظة لتستوعب تعابير وجه إيثان الخالية. «ألا يثير هذا أي ذكريات؟».

هز إيثان رأسه: «لا، لكن الأمر يبدو حتماً وكأنه يتعلق بعائلة مانينغ».

- «عائلة من؟».

- «نحن»، أجاب ببساطة. «عائلة مانينغ وعائلة هيلارد. كان والدي من آل هيلارد، ووالدتي من آل مانينغ حتى تزوجت. هل لديك اسم زوج هيلين؟».

رفعت آشلين كتفيها: «لم تذكر اسمه ولا حتى لقبه قط. ليس في الفصول التي قرأتها حتى الآن على الأقل. كل ما أعرفه أنه كان ثرياً ومستبداً. وهناك أوقات بدت فيها بيل خائفة منه».

- ضاقَت عينا إيثان الخضراوان وهو يمعن النظر إلى وجه آشلين: «تتحدثين وكأنك تعرفينها».
- أدارت آشلين وجهها. كيف لها أن تشرح الأمر؟ «لو أنك قرأتها...».
- «ولهذا أنا هنا. لأقرأهما أو لألقي نظرة عليهما على الأقل».
 - «أجل بالتأكيد»، حملت آشلين الكتابين من على المنضدة وتخطت إيثان لإغلاق باب المتجر. «يوجد كرسيان مريحان في الخلف حيث يمكننا القراءة».
 - «لا أريد أن أستبقيكِ هنا. كنت سأأخذهما معي فقط».
- ذُمرت آشلين من فكرة خروج الكتابين من المتجر. ماذا إن قرر عدم إعادتهما؟ «أفضّل أن يبقيا هنا إن لم تمانع، ويمكنك البقاء بقدر ما تشاء».
- بدا إيثان مستغرباً، لكنه لم يستطع تحديد إذا ما كان هذا الاستغراب نابعاً من عرضها عليه البقاء والقراءة بعد ساعات العمل، أم بسبب تردها في إخراج الكتابين من المتجر. «حسناً»، قال، وهو يخلع معطفه. «ما دمتِ مصرّة».
- قادته آشلين إلى قسم المتجر الخلفي وهي تعانق الكتابين. خطا إيثان بخطا بطيئة خلفها، يتوقف بين الحين والآخر ليتأمل جدران الطوب المكشوفة وسقف القرميد الأبيض.
- «لديك مكان رائع هنا»، قال عندما لحق بها أخيراً. «كان والدي يعشق الأماكن القديمة كهذه. يبدو أنه بُني منذ زمن بعيد. هل هو عمل عائلي؟».

تذكرت آشيلين فرانك وابتسمت: «لا. مع أنني نشأت هنا نوعاً ما. اعتاد المالك الأصلي أن يسمح لي بالتسكع هنا عندما كنت طفلة. كان يسمح لي بأداء بعض الأعمال مقابل الكتب. عندما كبرت، عملتُ هنا خلال المرحلة الثانوية والجامعة. وعندما توفي قبل بضع سنوات، ترك المكان لي».

رفع إيثن حاجبيه متعجباً: «هذا كرمٌ بالغ».

- «لم تكن لديه عائلة. كنت أنا عائلته».

- «تبقى لفتة كريمة مع ذلك».

أومأت آشيلين برأسها: «كان رجلاً رائعاً وما زلت أفقده».

ساد بينهما صمت غريب. وقفاً يتبادلان النظرات برهة. آشيلين تمسك بالكتابين وإيثن قبالتها ومعطفه ملقى على كتفه. أشار أخيراً إلى ذراعيها المضمومتين وقال: «ماذا عن الكتابين».

- «المعذرة، أجل. يمكننا الجلوس هنا. اجلس على الكرسي ناحية اليسار، إنه أكثر راحة».

ألقى إيثن نظرة على الكرسي ثم عاد إلى آشيلين: «لا بأس إن بقيتُ وحدي إذا كان لديك عملٌ تتجزيه».

- «لا بأس»، قالت وهي تجلس على الكرسي الأقرب إلى النافذة. «كنت أخطط للقراءة على أي حال».

رمى إيثن معطفه على ظهر الكرسي المجاور وجلس: «حسناً. شكرًا لك».

- «كيف تريد أن نفعل ذلك؟».

- «ماذا تعنين؟».

- «هل تريد أن نبدأ مباشرة بكتاب بيل، أم نبدأ بكتاب هيمي لأنه كُتب أولاً؟ أعتقد أنك إن قرأتهما بالتأوب، ستتمكن من

- تكوين صورة شاملة للقصة من خلال وجهتي النظر».
- «لا أحتاج إلى تكوين صورة شاملة. ما أريده فحسب، معرفة إذا ما كانت جدتي قد كتبت الكتاب الثاني».
- «وإن كانت هي من كتبتَه؟».
- رفع إيثان كتفيه قائلاً: «تكون قد كتبتَه».
- «أقصد ماذا سيحدث للكتابين؟ هل سترغب في استعادتهما؟».
- نظر إليها إيثان مدهوشاً: «أتظنين أنني هنا لاستعادتهما؟».
- «لو فرضنا أنها كُتِبَا عن عائلتك...».
- استقام إيثان في جلسته قائلاً: «كان والداي هما عائلتي، وهنا ينتهي كل شيء تقريباً».
- «آسفة لم أقصد أن...».
- «لا بأس. العائلة ليست مفهوماً راسخاً لدى عائلتي مانينغ وهيلارد. ليس كالعائلات الأخرى على الأقل. لا تجمعنا مشاعر الدفء والحب في الأعياد، ولا نحتفل بذكرى ميلادنا بإطفاء الشموع وتبادل الهدايا. تقتصر علاقتنا على تشارك محامي الإرث والوصايا باستثناء بعض الروابط الوراثية».
- «ألهذا لم تقابل جدتك قط؟».
- أوماً برأسه موافقاً: «ضغائن عائلية قديمة. قابلتُ أطفالها مرة عندما جاؤوا لزيارتنا، لكنهم لم يمكثوا طويلاً. لا يمكنني حتى تذكر أسمائهم».
- «هل تعلم إن كانت لا تزال على قيد الحياة؟».
- «لا أعلم. لم أتلّق أي خبر أو مكالمة منها عندما توفي والدي، لكنني لم أحاول الاتصال بها أيضاً. لمَ تسألين؟».

- «لم أقرأهما بالكامل، لكن ما قرأته حتى الآن يبدو شخصياً جداً. إذا تبين أن بيل هي جدتك بالفعل وأنها على قيد الحياة، فقد لا يسعدها أن تقع التفاصيل الحميمة عن حياتها العاطفية بين يدي شخص غريب. ولما كان الشيء بالشيء يُذكر، كيف وصل الكتابان إلى يد والدك؟».
- «ليست لدي فكرة. كان هو وماريان مقربين جداً، علاقة من نوع ابن الأخت المفضل لديها. لكنّ تواصلهما انقطع في النهاية. ربما كانا هدية».
- استبعدت آشليين هذا الاحتمال على الفور. لا تشارك النساء عموماً هذا النوع من التفاصيل مع أبناء الأخوة حتى المفضلين منهم.
- «هل هناك أي شخص قد يكون لديه عنوانها أو رقم هاتفها؟».
- «أشك في ذلك. آخر ما سمعته أن ماريان منبوذة من العائلة. حتى لو كانت على قيد الحياة، أشك أنها تتواصل مع أي منهم. كان والدي الوحيد الذي تتواصل معه. كانت تتصل به فجأة من حين إلى آخر ويتبادلان الحديث، أو ترسل له بطاقة معايدة في عيد ميلاده. لكن بعد مدة توقفت حتى تلك العادة. لم أعرف السبب قط، ولم أسأل أيضاً. على أي حال، هل سنمضي في هذا الأمر؟ هناك احتمال كبير أن يكون هذا الحديث بأكمله بلا جدوى».
- أومأت آشليين برأسها موافقة: «أي كتاب تريد أولاً؟».
- «لنبدأ بكتاب بيل. أمل ألا يستغرق وقتاً طويلاً. فقصوص الحب الفاشلة ليست من اهتماماتي».

أعطته آشلين كتاب «إلى الأبد وأكاذيب أخرى» ثم أدركت أنها أغفلت معلومة مهمة: «هناك إهداءان في كلا الكتابين، واحد من بيل والآخر من هيمي. يجب أن تقرأهما معاً».

رفع عينيه عن الكتاب، وقد بدا عليه انزعاجٌ خفيف: «لماذا؟». عضت آشلين شفتها في محاولةٍ لإخفاء انزعاجها. إنه أقل رجلٍ فضولي قابلته على الإطلاق: «لأنهما يمهدان للقصة بأكملها. اسمع...»، وضعت كتاب «ندم على بيل» على حجرها وفتحت مشيرةً إلى السطر الذي كتبه هيمي غاضباً وهي تقرأ الكلمات بصوت عالٍ: «كيف يا بيل؟ بعد كل ما جرى... كيف يمكنك فعل ذلك؟». ثم رفعت عينها، وواجهت إيثان بنظرة مباشرة. «لقد وجّه هذه الكلمات لها مباشرة؛ اتهامٌ وسؤال. في الكتاب الذي تحمله، ترد بيل عليه. اقرأه وستفهم ما أعنيه».

فتح إيثان الكتاب عند الإهداء، وأمسك بالكتاب بيدٍ واحدةٍ وراح يقرأ: «كيف؟ بعد كل ما جرى، تجرؤ على أن توجه هذا السؤال لي؟». هز إيثان رأسه. «حسناً، فهمت ما تقصدين».

- «يسير الكتابان على هذا المنوال، حربٌ كلماتٍ وصدامٌ على الورق».

رمقها إيثان بابتسامة مقتضبة: «سأقرأ قليلاً فقط لأرى إن كان هناك شيء مألوف».

كان يطلب منها أن تصمت حتى يتمكن من متابعة القراءة وكان طلباً معقولاً. لقد ظلت تحاصره بالأسئلة منذ دخوله، وتستجوبه عن أشياء أخبرها قبلاً أنه لا يعرفها. إذا استمرت على هذا النحو، فستجعله يرحل، وهي بحاجة إلى مساعدته.

عادت لتركز انتباهها على إهداء هيمي. ليس على الكلمات نفسها فقد حفظتها عن ظهر قلب منذ اليوم الأول، بل على الطريقة التي حضرت بها حروف القلم عميقاً في الورقة، حادة وخشنة، كجرح. والسؤال هو لماذا.

ندم على بيل

(الصفحات من 40 إلى 47)

4 نوفمبر 1941

نيويورك.

خطر انكشاف أمرنا يحقق بنا باستمرار. يهددك أكثر مما يهددني. مع أنني أدرك تماماً أن غضب غولدي سيحلّ بي إن انكشف أمري. باتت تشك الآن في غداءاتي الطويلة المتكررة، وبدأت تراقبني كأني تلميذ مشاغب. أصبح من الصعب علينا إيجاد حجج غياب مقنعة، وترتيب لقاءاتنا بات أكثر صعوبة. ومع ذلك، نتمكن من التلاقي ونعيش حياة مزدوجة ومؤقتة ومحفوظة بالمخاطر، منفصلين عن الواقع والأشياء كلها التي لا يفترض بنا امتلاكها. نظاهر بأنها ستدوم إلى الأبد، لكن مع مرور الأيام واقتراب الشتاء، تتغير الأمور التي لطالما علمنا أنها ستتغير. يصعب تحديد اللحظة التي تغير فيها كل شيء، ولكني أتذكر بوضوح شديد اليوم الذي أدركت فيه ذلك فجأة.

كان يوم ثلاثاء بارداً من أيام نوفمبر. السماء مكفهرة وتهدد بإلقاء أحمالها من الثلج. أخبرت أختك أنك ستقضين الصباح في دوباري، لتجربة بعض الفساتين الجديدة التي طلبتها لهذا الموسم، لكنك تنهين المهمة في أقل من ساعة وتتجولين خارج متجر ويليام بارثمان للمجوهرات، متظاهرة بالإعجاب بالأساور البراقة المعروضة على النافذة، عندما وصلت بسيارتي مصادفةً. اشتريت زوجين من القفازات لإضفاء المصداقية على حجة

غيابك، وحقيبة التسوق تتدلى من ذراعك. تظاهرنَا أن اللقاء مجرد مصادفة، مع أننا نفذناه مراتٍ كثيرة حتى الآن في أماكن مختلفة في أنحاء المدينة كلها. لقد أتقنت فن التمويه والمراوغة حتى أدركتُ أنك خُلقت لأداء دور الحسناء اللعوب. ممثلة بارعة تستحق واحداً من تلك التماثيل الذهبية التي يمنحونها كل عام. أخفضتُ نافذة السيارة ولوحتُ لك لتقتربي، ثم عرضتُ عليك الركوب. تظاهرتِ بالرفض في البداية، لكنكِ سرعان ما فتحتِ الباب وانزلقتِ إلى المقعد بجانبِي، مبتسمة بأدبٍ ونحن نبتعد عن الرصيف. انطلقنا إلى لونغ آيلاند لتناول الغداء، وهو شطائر تناولناها في السيارة، ملفوفة بأكياس ورقية وقهوة في أكواب ورقية، أحضرناها من مطعم إلى جانب الطريق كنا قد اعتدنا المرور به مراتٍ عدة قبلاً.

كان يوماً فارقتَه الشمس، وغلّفه البرد القارس بما لا يسمح بقضاء نزهةٍ حقيقية. أوقفتُ السيارة بالقرب من مرسى القوارب حتى نتمكن من تأمل البحيرة. انحنيتُ لتقبيلكِ ورأسي يدور مع تلامس شفاهنا، متعطشاً بعد ما يقرب من أسبوع من عدم رؤيتكِ.

- «ليس لدينا وقتٌ طويل»، تمتمت ما بين القُبَل. «لديّ حفل عشاء الليلة وعليّ أن أعود باكراً حتى أجهّز نفسي». ابتعدتُ عنكِ منزعجاً. لقد أطفأتُ للتو محرك السيارة وأنتِ تتحدثين عن العودة. هناك دائماً مكان ما يُفترض أن تكوني فيه، مكان يتطلب ملابس جديدة ودعوة مزخرفة، مكان لم أدعُ إليه. زفرتُ بحدّة مستاءً من نزقي.

- «والدك فنانٌ ماهرٌ في التسلية»، قلتُ محدقاً إلى البحيرة من خلف الزجاج الأمامي. «من ضيفه الليلة؟ كنت لأقول روزفلت، لكنني أعلم جيداً أن والدك العجوز لن يدعو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إلى مكتبه لتناول الشراب وتدخين السيجار».

نظرتُ إليّ وقد أزعجتكِ نبرتي: «لَمْ تقول ذلك؟».

- «ليس سراً أين تكمن ولاءات والدك يا بيل. إنه من أنصار ليندبيرغ، ولا يخجل من إعلان ذلك. وعلى شاكلة ليندبيرغ وبقية رفاقه في حركة أمريكا أولاً، فهو يعارض بشدة تدخل حكومتك في أوروبا. كما أنه لا يمانع سياسات هتلر المعادية للسامية. تعلمين ذلك بالتأكيد».

- «قلتُ لك، لا شأن لي بالسياسة».

- «بينما أنتم غارقون في رفاهةٍ محمية لا يمكن لغيركم تحملها، هناك فئة معينة في هذه البلاد، رجال ممن يلقبون أنفسهم بالوطنيين، يعملون بهدوء على تقويض القيم ذاتها التي يزعمون الدفاع عنها. وهم يراهنون على لا مبالاة أمثالك. يزعمون أنهم وطنيون، ويحرّضون العامة بالحديث عن العرق النقي والأمريكيين الحقيقيين، لكن ما يريدونه حقاً هو تهميش اليهود وإقصاؤهم من المواقع القيادية، وحرمانهم من مكانهم في المجتمع كلياً إن استطاعوا. هكذا بدأ الأمر في أوروبا يا بيل، مع مجموعة من الألمان القوميين الذين يتفوهون بالهراء عن العرق النقي، وهم يريدون فعل الشيء ذاته هنا. إنهم ينظمون أنفسهم الآن، تحت أنوفكم مباشرة».

لقد أسسوا الرابطة الألمانية الأمريكية. ليندبيرغ وجماعته،
وتشارلز كوفلين ذلك الكاهن الذي يقدم برنامجاً إذاعياً
معادياً للسامية. وهم يكتسبون زخماً. أقامت الرابطة تجمعاً
حاشداً في ماديسون سكوير جاردن. عشرون ألف شخص
يؤدون التحية النازية على أرض أمريكية، دون أن يحرك أحد
ساكناً، بل ويصفق لهم البعض. الطريقة الوحيدة لإبعاد هؤلاء
«الوطنيين» المزعومين عن السلطة هي الانتباه يا بيل. الانتباه
لتحديد موقفك من القضايا قبل أن تجدي نفسك عن غير
قصد في الجانب الخطأ».

انتظرتِ حتى أنهيتُ كلامي، ثم رمقتني بإحدى نظراتك الهادئة
وقلت: «وهل هناك دائماً جانب خاطئ؟».

- «ليس دائماً ربما. ولكن في الوقت الحالي أجل، هناك جانب
خاطئ. لا يوجد الأشرار في ألمانيا وحدها يا بيل. يحتاج
الناس إلى إدراك ذلك. يحتاجون إلى الانتباه».

أمعنتِ النظر إلى وجهي وقد بان عليكِ الضيق والانزعاج:
«الهذا السبب أحضرتني إلى هنا؟ لتلقي عليّ محاضرة عن واجبي
الوطني بوصفي مواطنة أمريكية؟ من الغريب بعض الشيء أن
يصدر هذا الكلام عن شخصٍ يقيم في غرفة الضيوف في منزل
رئيسه في العمل، بدل أن يكون في بلده يشارك في المعركة».

تصلّب جسدي لدى سماعكِ. لقد ألمحتِ إلى الأمر من قبل
بطرائق غير مباشرة. ألمحتِ إلى ضيق حالي وحقيقة كوني
بريطانياً. أفكر أحياناً أنك تقولين ذلك لإرضاء نفسك أكثر مما
تقولينه لإزعاجي. تذكيرٌ بأنني فكرة سيئة، دخیلٌ لا يمكن الوثوق

به. وهذا صحيح، فأنا غير جديرٍ بالثقة. لكنك كذلك أيضاً عندما يتعلق الأمر بنا. أشعر بذلك الآن وشعرتُ به مدةً طويلة، كبقعة داكنة في الأفق تزداد حجماً وقتامة.

- «حسناً»، أقول محاولاً تخفيف حدة المحادثة. «لا فكرة لديك حول هوية ضيف الشرف الليلة؟».

رفعتِ كتفيكِ بلا مبالاة على الإطلاق: «لا أعرف أسماءهم. أنا أظهر عندما يُطلب مني ذلك. لكنهم ضيوف، ليس ضيفاً واحداً بل ضيوف. بعض رجال الأعمال من شيكاغو، وعضو مجلس شيوخ من مونتانا، ورجلان من لوس أنجلوس».

شيكاغو ومونتانا ولوس أنجلوس. دارت في ذهني قائمة من الأسماء المحتملة. كوب وديلون وريجيري وويلر. قائمة تضم كبار الشخصيات من دعاة عدم التدخل في الحرب والمتعاطفين مع النازية.

- «لوس أنجلوس هي المكان الذي يجمع نجوم السينما لديكم، أليس كذلك؟»، قلتُ محاولاً الظهور بمظهر اللا مبالي.

- «أجل في هوليوود».

- «لعل والدك دعا اثنين من كبار منتجي الأفلام أو نجوم السينما. إيرول فلين أو ذلك الفتى الراقص أستير. وربما حريّ بذاك الذي لا يُذكر اسمه أن يقلق من أن يخطفك أحدهم».

أدرتِ وجهكِ نحو النافذة عقاباً على كسر القواعد. فأنا وخلال محاولتي تمويه غيرتي، دخلتُ أرضاً محظورة. بعد هذه الأسابيع

كلها، بعد ثمانية أسابيع رائعة ومؤلمة، لا نزال نتجنب موضوع خطبتك. لكن عاجلاً أم آجلاً سيتعين علينا مناقشته. ما حقيقة؟ وما زيفه؟ وكيف نتصرف حياله؟

الرجل الحقيقي لم يكن لينتظر حتى الآن ليسوي الأمر برمته، كان ليتصدى له مباشرةً ويجبرك على الاختيار. لكنني لست رجلاً فعلاً. أنا شخصٌ أناني يريد ما يشتهي، وجبان جداً إلى درجة لا تدفعني إلى الضغط عليك، لأنني في أعماقي أعرف سلفاً من ستختارين ولماذا. ليس بدافع الحب، فأنت لا تحبين ذلك الغلام الأخرق البليد. لكنك ستختارينه مع البهرجة والبرفعة كلها التي تصاحب اسمه.

مالٌ وجاه وحفلات وكل ما اعتدته. بالطبع ستختارينه. أي امرأة تربت كما تربيت أنت ستفعل ذلك. لكن قول ذلك بصوت عالٍ في هذه اللحظة يعني نهاية ما بيننا مهما كان ضئيلاً، وأنا لست مستعداً لذلك. ليس بعد. لذا ابتلعت كبريائي مرة أخرى، وقررت أن أكون سعيداً بما يمكنني الحصول عليه منك.

أنهينا شطائرنا بصمت، وأتبعناها بقهوة فاترة رديئة المذاق. مددتُ يدي إلى حقيبة الغداء، وأخرجت منها علبة من بسكويت دبس السكر، وقدمتُ لك واحدة. قبلتُ مني هدية الصلح، فارتحت.

- «لا شك أنك ستترتدين شيئاً رائعاً الليلة. أتمنى لو أراك فيه مهما كان».

- «فستان أرزق مخملي مكشوف الكتفين مع قصة منخفضة عند الظهر».

- ابتسمت ابتسامة خفيفة ورفعت حاجبي وقلت: «عليّ أن أتخيله إذن».
- «لا»، قلت فجأةً وابتسامةً مأكرة تعلو وجهك. «لن تضطر إلى ذلك».
- «ماذا تعنين؟».
- «تعال إلى العشاء».
- «ماذا؟».
- «تعال إلى العشاء. اضطر تيدي إلى الاعتذار. لقد علق في الشمال لحلّ مشكلة مع حصانه الجديد، لذلك ينقصنا رجل. يمكنك إلقاء نظرة على نجوم السينما».
- حدقتُ إليك بدهشة محاولاً أن أرتب في رأسي ما قلته للتو. عشاء على مائدة والدك ومع ضيوفه! إنها الفرصة التي كنت أتعيّنها. مع ذلك، شعرت بوخزٍ في الضمير فقلت: «أتظنين أنه تصرف حكيم؟ أن تستعرضيني أمام عائلتك؟».
- ابتسمت ببراءة تامة وقلت: «ليست لدي نية في استعراضك أمام أي أحد. لكن بالكاد يلاحظ الناس ما هو أمامهم مباشرة».
- «لن تُسرّ شقيقتك بوجود دخيل».
- «ستضطر شقيقتي إلى تقبّل الأمر. لقد خططوا في المطبخ لحضور اثني عشر ضيفاً، وهذا ما سيحصلون عليه. نحن نتحدث هنا عن إعادة كتابة اسم على بطاقة فحسب، وسأكتبه بنفسي إذا أرادت».
- أقلقتني نبرة التهور في كلامك. مزيج من الغبطة والتحدي يجعلني أرغب في هزك. «لست قلقاً من أن طبق كبد الإوز لن

يكفي الجميع يا بيل. أنا أفكر في نوعية الضيوف الذين اعتادت عائلتك استضافتهم على مائدتها. كلانا يعرف أنني لا أرقى إلى مستواهم».

رمقتي بواحدة من نظراتك الثاقبة الهادئة. تلك النظرات التي تجعل القلب يضطرب، تساءلت أين تعلمتها، أم تراها طبيعية فيك؟

- «ألا تريد أن تلتقي بوالدي؟».

حدثت نفسي أنني لم أرغب في شيء أكثر مما تعرضه عليّ مذ وطئت قدماي هذه البلاد، لكن ليس هذا محور الحديث الآن: «أنا لست خاطباً يا بيل. ليس هذا ما نتحدث عنه».

- «عمّ نتحدث إذن؟».

عضضت شفتي مدركاً أنني قلتُ كثيراً: «لا شيء». لا نتحدث عن أي شيء».

- «ما المشكلة إذن؟ كنت تتذمر من عدم قدرتك على رؤيتي في فستاني. وأنا سأندبر الأمر حتى تراني. ظننتُ أنك ستكون...».

- «ممتأ؟».

- «بل سعيداً»، قلتُ بعد لحظةٍ سادها التوتر. «ظننتُ أنك ستكون سعيداً. بدلاً من ذلك، تتقذني وتخلق الأعذار لعدم الحضور».

- «أنا لا أنتقدك، لكن جزءاً مني يتساءل عن...».

- «عمّ يا هيمي؟ عمّ تتساءل؟».

- «عما نفعل.. أو بالأحرى عما تفعلينه بي. تحذرينني أحياناً بنظراتك، فأكف عن الكلام. لا أرقى إلى نسبكم ولا أملك ثرواتكم، ولا يسعني إلا أن أفكر في أنك ترينني نوعاً من التسلية أو فعالية من فعاليات موسم النشاطات الاجتماعية. أعتقد أنكم أنتم -النيويوركيين- تسمون ذلك انحداراً».
- غلقت عينيكَ غشاوةً حزينةً وظننتُ أنك ستبكين. لكن عندما نظرت إليّ مجدداً، كانت نظراتك حادة وقاسية كالصوّان.
- «انحدار؟».
- «أو ربما تمرد. طعنة لوالدك الذي لا يراني مناسباً لابنته، حتى لو لم تكن...».
- ما إن شعرت أين سيفضي بي الحديث حتى فتحت باب السيارة واندفعت خارجاً. وقبل أن أستوعب ما يجري، انطلقت كالسهم نحو البحيرة. اندفعت خلفك صارخاً في وجه الريح الباردة الآتية مع الماء: «إلى أين أنت ذاهبة؟ البرد لا يطاق هنا».
- بالكاد أدركتك عندما استدرت. انفلت شعرك من دبايسه وغطا وجهك بوحشية.
- «هل فكرت مرة أنني أريدك هناك؟ أنني أرغب أن يكون لدي... صديق... يجلس قربي هناك؟ شخص يهتم حقاً بما أفكر فيه؟ أو أنني قد مللت رؤيتك في الخفاء، ومن الغداء على البطانيات أو في السيارات، ومن القبلات المسروقة، واللقاءات العشوائية عند نواصي الشوارع؟».
- صعقتني كلماتك. ليست لخشونتها، ولا حتى للطريقة التي فاضت بها عيناك بالدموع وأنت تبوحين بها، ولكن لأنك رشقتني

بها كالحصى، وكأنتي أنا سبب تعاستك كلها .

- «لست أنا العائق يا بيل. إن كنتَ تريدان تغيير الأمور، فعليك أنتَ تغييرها».

تدفقت الكلمات من فمي قبل أن أتمكن من إيقافها. لم أنطق اسمه، لكنه يقف بيننا الآن، ويحوم حولنا في رياح شهر نوفمبر القارسة. تبدي ذو الثراء المقرز والمثالية المفرطة والغباء اللا محدود.

نطقت بنبرة قاسية باردة: «أعدني إلى البيت من فضلك، لدي عشاء مهم ولا أجزؤ على التأخير».

انطلقنا صوب المدينة يلفنا صمتٌ مطبق. أنزلتك على بعد شارع من حيث أخذتك. نزلت من السيارة حاملةً حقيبتك، ثم توقفت لحظة على الرصيف وقلت: «هل ستأتي؟».

- «يتوقف الأمر عليك. هل ما زلتَ تريدني هناك؟».

- «ستكون هناك بطاقة تحمل اسمك. الأمر متروكٌ لك».

ندمٌ على بيل

(الصفحات من 48 إلى 54)

«الأمر متروكٌ لك»، هكذا قلتِ، «وكأنَّ الخيار كان متاحاً للنقاش».

التفتُ نحوي بحدة عندما أدخلني رئيس الخدم إلى صالون والدك. أمسكتِ نفسك بسرعة، وأخفيتِ تعابير وجهك، ثم همستِ معذرةً لامرأةٍ تتحدثين معها. امرأةٌ ممثلةٌ ترتدي فستاناً ضيقاً يذكرني بباذنجانٍ ناضجٍ أكثر من اللازم. ابتسمتِ ببرود، ومددتِ يدك وأنتِ تعبرين الغرفة لتحيتي، كشبحٍ يرتدي مخملاً أزرق داكناً كالليل. مهذبةٌ جداً ولطيفةٌ جداً.

- «كرمٌ منك أن تلي دعوتنا خلال مدةٍ قصيرة»، كانت نبذة صوتك مضبوطةً بدقة بالكاد تعلو فوق همهمة الأحاديث. أداءٌ لا تشوبه شائبة. «اسمح لي بأن أحضر لك مشروباً. ماذا تريد أن تشرب؟».

- «الجين مع الفوار».

التوت شفتاك عند زاويتي فمك، مجرد لمحة من ابتسامة متكلفة: «بالطبع. مشروب الإنجليز».

شعرتُ ببعض الارتباك وأنتِ تستديرين وتكررين الطلب على أحد النُدُل ذوي المعاطف البيضاء الذين وظفهم والدك خصوصاً لهذه المناسبة، وكأن الزمن انحرف بطريقة ما ونقلني عائداً إلى ليلة حفل خطبتك، ثم أدركتُ فجأةً أن هذا ما قصدته بالضبط. أنتِ تغيظينني كقطعةٍ تلعب بفأر.

أمسكتُ بمرفقي وكأنك غافلةٌ تماماً عن عبثية اللحظة. أومأتُ برأسك إلى الجانب الآخر من الغرفة، حيث يقف والدك يتحدث مع ثلاثة رجال بيدلات تبدو باهظة الثمن: «تعال، دعني أقدمك إلى مضيفك».

عند اقترابي، رفع والدك رأسه وابتسامةً جاهزة تملو وجهه المربع. رأيت لوهلة بعض ملامحك في وجهه، تلك التعابير السلسة المحترفة التي تتبدل وكأن مفتاحاً كهربائياً يتحكم فيها. النظرة ذاتها موجودة في ترسانتك من الملامح المصطنعة.

مدّ ذراعه عندما وصلت إلى جانبه: «أيها السادة أعرفكم إلى ابنتي الجميلة و...»، توقف لحظة وألقى نظرة سريعة عليّ ثم أكمل قائلاً: «آسف يا عزيزتي لا أظن أنني أعرف صديقك».

أعطيته اسمي ولا شيء سواه، ثم حلّ بعدها صمتٌ قصير وكأنه ينتظر مني أن أكمل النقص، لكنني لم أفعل. مدّ يده حينها ونظر إليّ مرة أخرى وكأنه يقيسني، ثم قدمني إلى رفاقه. كما توقعت، كان ويلر أحدهم، وكوب ثانيهم، أما الثالث فهو ديلون.

- «كيف تعرّفت إلى ابنتي الصغيرة؟»، سأل بصوت جهوري كصوت رجل يعتقد أن العالم بين يديه.

شاءت الظروف الغريبة كلها أنني لم أكن مستعداً لهذا السؤال. ولحسن الحظ، تدخلت أنت: «إنه واحد من أصدقاء تيدي. التقينا في فندق سانت ريجيس ليلة خطبتي، وصادف أن نلتقي اليوم وأنا خارجةٌ من متجر دُوباري. كان الجو سيئاً جداً اليوم، ففضل عليّ وعرض أن يوصلني. ورأيت أن أقل ما يمكنني فعله هو دعوته إلى العشاء نوعاً من رد الجميل. لكنني نسيت أننا نستضيف زواراً اليوم».

يا لك من كاذبةٍ بارعة، فكرتُ وأنا أهز رأسي وأبتسم. ثم أخذتني مسرعةً لتقدميني إلى أختك لتكرري الكذبة ذاتها؛ واحد من أصدقاء تيدي القدامى.

لمحتُ أختك من بعيدٍ في تلك الليلة في فندق سانت ريجيس. وها أنا ذا أُصدم من جديدٍ بالفوارق الشاسعة بينكما. توجد تشابهات تجمعكما بالطبع، رغم فارق السن، كذلك شبهٌ خفيٌّ إذا ما دقتُ النظر ملياً. لكنها نسخة باهتة منك، أصغر حجماً وأكثر شحوباً، وكأن الزمن قد غسل كل ألوانها. تساءلتُ إن كانت هذه حالها دائماً، أم أن ذلك نتيجة الحياة التي عاشتها. زوجٌ اختاره والدها، وأطفالٌ تربوا تربية مثالية، وسنوات من تلبية توقعات شخص آخر. راعتني فكرة إمكانية أن تصبحي مثلها بعد سنوات مع تيدي.

مدت يدها وألقت عليّ نظرة ثاقبة تبعث الريبة في النفس: «عجباً عجباً، إنجليزي بيننا. يبدو أن أختي كانت تخفيك عنا. لماذا برأيك؟».

تقلصت تحت وطأة نظرتها منتظراً منك أن تمدي يد العون، لكنك بقيت صامتة على نحو يثير الفضول وكأنك تستمتعين بحرجي: «حسناً»، قلتُ محاولاً ألا أبذو متكلّفاً. «لقد كنتُ مشغولاً جداً منذ وصولي. تعرفين، الاستقرار والتعرف إلى المكان ولم أحظ بوقتٍ كافٍ للتواصل الاجتماعي».

تقوَّس حاجباها الحادّان الرفيعان واختلط في ملامحها مزيج من الفضول وقليل من الشك: «يبدو وقتاً غريباً للسفر، رغم الاضطراب الذي تعيشه أوروبا...».

ظلت كلماتها معلقةً غير مكتملة. ليست سؤالاً تماماً بل تشبيه السؤال. أدركت أنني أحتاج إلى توخي الحذر، فابنة أبيها هذه تهتم بالسياسة. أومأت برأسي مقرأً رأيها: «بالفعل. لكن يجب أن تستمر الحياة لبقيتنا».

- «يبدو أن سيدك تشرشل مصممٌ على جر العالم بأكمله إلى حربه»، قالت بتهكم وعبست مصطنعةً لهجةً التوبيخ. «هل من الحكمة حقاً الرحيل في مثل هذا الوقت، حين يحتاج بلدك إلى كل رجل قادر على حمل السلاح في ساحة المعركة؟». لجأتُ إلى ابتسامتي الماكرة وقلت لها غامزاً: «وهل من وقتٍ أفضل للرحيل؟».

أشرق وجهها وكأنها التقت صديقاً للتو: «أستنتج إذن أنك لست من محبي الحرب؟».

- «أنا مع الرأي القائل إن الحرب خيارٌ يجب تجنبه دائماً»، كان أكثر ما قلته صدقاً طوال الأمسية، وبدا أنه يرضيها.

- «فهمت. هل أنت سياسي إذن؟».

قلت وأنا أختار كلماتي التالية بعناية فائقة: «لقد تلقيتُ تنبيهاتٍ في الآونة الأخيرة في الواقع، تحذرنني أنني بوصفي زائراً في بلدكم، ليس من حقي الخوض في السياسة. على الأقل ليس على هذا الجانب من المحيط. ومع ذلك، أقر بأنني أتمسك بآراء محددة جداً في بعض الأمور».

من الواضح أن سيسي كانت مفتونة، لكن قبل أن تتمكن من سؤالني عن تلك الآراء، شعرتُ بذراعك تشابك ذراعي: «يجب أن نستمر في التجول لنمنحك فرصة لقاء الجميع قبل تناول العشاء».

لكنّ سيّسي ردّت عليكِ بسرعة، وشبكت بذراعها ذراعي الأخرى. لمعت عيناها وهي تسحبني إلى جانبها وقالت بابتسامة مصطنعة: «لا تتجرئي على أخذه بعيداً الآن وقد وجدنا شيئاً مشتركاً. لم لا تفعلين ما ينفع وتتحدثين مع الزوجات؟ إنهنّ يتحرقن شوقاً للسؤال عن فستانك. ولا تقلقي بشأن صديقك يا عزيزتي. سأحرص على وصوله إلى غرفة الطعام عندما يحين الوقت».

امتنع وجهك وكنت على وشك الاحتجاج، لكنك اكتفيت في النهاية بهزّ رأسك ببرود والابتعاد وقد بدا عليك الانزعاج الواضح أن أختك سرقت فأرك.

الفصل السابع

آشليين

«الكتب كالأشخاص الذين يدخلون حياتنا . يصبح البعض رفقاء
درب، ويمرّ آخرون مرور العابرين. تكمن الحكمة في التمييز
بينها».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

29 سبتمبر 1984

بور تسموث، نيوهامبشير.

- «إنها هي. إنها ماريان»، صاح إيثان وهو يفلق كتاب "إلى الأبد
وأكاذيب أخرى" ويضعه على الطاولة بينهما.
رفعت آشليين عينيها عن كتاب «ندم على بيل»، حيث تلاشى
الضيوف والنُدُل ذوو المعاطف البيضاء كمشهد سينمائي: «متأكد؟»،
سألته.

- «كان والدي يتحدث عن قضاء الصيف في هامبتونز، في
مزرعة تدعى روز هولو. والأخت... تلك المرأة التي يسمونها
سيسسي، إنها بالتأكيد كورين مانينغ، جدتي. لم ألتقِ بتلك
المرأة قط، لكن كل شيء بات منطقياً الآن».

شعرت آشليين بانقباض في معدتها. ماريان وكورين حقيقتان!
تتحدث بيل كثيراً عن سيسسي، وكيف أنها ربتها بعد وفاة والدتهما.
لكن لم تتحدث كثيراً عن والدها، باستثناء أنه كان مستبدّاً إلى
حد ما، حتى أنها لم تعطه اسماً.

تجهّم إيّان عند ذكر اسم جده الأكبر: «اسمه مارتن مانينغ. كان فاحش الثراء حسب ما قاله والدي، ووغدٌ لعين. مات بعد وقتٍ قصير من ولادتي بسكتة دماغية على ما أعتقد». صمّنت آشليّن لحظةً لتستوعب المعلومات الجديدة وترتبها كقطع أحجية لتكتمل الصورة أخيراً. تهتدت وقالت: «لا أصدق. لقد وجدناها حقاً».

- «أنتِ من وجدتها»، صحح إيّان. «كل ما فعلته أنا هو تأكيد هويتها».

- «وماذا عن هيمي؟ أليديك فكرة عمّن يكون؟».

- «أبداً. وقبل أن تسألي، لا يمكنني المساعدة في معرفة تيدي أيضاً. لا أعرف أياً من الاسمين».

- «كنتُ أمل أن تخبرني إن تزوجته يوماً».

- «لم تتزوج قط على حد علمي».

عقدت آشليّن جبينها: «أظنكَ قلتَ إنك قابلت أطفالها».

- «أطفالها بالتبني. صبيٌّ وفتاة من أيتام الحرب».

- «تبنتُ اثنين من أيتام الحرب؟ من أي بلد؟».

- «لا أتذكر ولا أعرف. أعلم أنها سافرت بعد الحرب، لكن

ليست لدي أي فكرة إلى أين. كما قلت لك، كل ما أعرفه هو من استراق السمع إلى حديث والدي».

أومأت آشليّن برأسها بحزن: «ماذا سيحدث الآن إذن؟».

- «ماذا تعنين؟».

- «أعني إلى أين نتجه من هنا؟».

نهض إيّان وجذب معطفه من على ظهر الكرسي: «لن نذهب إلى أي مكان. بيل هي ماريان أخت جدتي. حُلّ اللغز».

- نظرت إليه آشلين غير مصدّقة: «لكنها مجرد قطعةٍ من اللغز. ألا تثير فضولك بقية التفاصيل؟»
- «نهائياً».
- ارتدى المعطف وهمّ بالمغادرة. نهضت آشلين وتبعته قائلة: «ألا تريد معرفة بقية القصة؟»
- «كل ما يهمني عن عائلة مانينغ عرفته بالفعل».
- «ألا يثير فضولك معرفة من هو هيمي، وما الذي فرّق بينهما؟»
- «في الحقيقة، لا. لكنني أعتقد أنك ستجدين الإجابة في الكتابين إذا واصلتِ القراءة».
- عندما وصلا مدخل المتجر، أمسك إيثان بنسخة من النشرة الإخبارية من على الرف بالقرب من الباب وطواها إلى أربعة أقسام قبل أن يدسها في جيبه: «يجب أن أسرع. لدي محاضرة غداً صباحاً عن تاريخ الفكر الأمريكي».
- «أنت مدرّس؟»
- «أنا أستاذ مساعد في جامعة نيوهامبشير، قسم العلوم السياسية».
- مثل دانييل، فكرت آشلين وهي تضم قبضتها حول الندبة على كفها. لكنّ إيثان ليس دانييل، إنه بطريقةٍ ما حفيد ماريان مانينغ، حفيد بيل. وهو على وشك الرحيل.
- «هل لي... إذا صادفتُ شيئاً... هل أستطيع أن أتصل بك؟ أعدك أنني لن أكون مصدر إزعاج. سأتصل فقط إذا احتجت إلى التأكد من شيء ما».

هز إيثان كتفيه متضايقاً نوعاً ما: «لا أظن أن هناك كثيراً مما يمكنني إضافته بعد الآن. فضلاً عن أنني في المراحل الأولى من تأليف كتاب جديد ولا يمكنني تحمّل أي تشتيت».

رفض ناعم، لكنه رفض على أي حال. تقدمت آشليين ومدت يدها لتفتح قفل الباب، لكنها قررت أن تحاول مرةً أخيرة: «أفهم سبب عدم اهتمامك بيسي ومارتن. لكن هيمي، أياً كان هذا الشخص، كان غاضباً من جدتك، وغضبها منه كان جلياً أيضاً. ألا تريد أن تعرف ما الذي حدث؟».

- «نعرف ما الذي حدث، أليس كذلك؟ أحدهم ظلم الآخر وهذه حال الدنيا. حتى أن أحدهم كتب أغنيةً عن ذلك».

- «بي جي توماس 1975».

قطب إيثان حاجبيه مستغرياً، ثم فاجأها بضحكةٍ صاخبة: «من أين جاءت إجابتك بهذه السرعة؟».

- «أحب هذه الأغنية»، قالت آشليين.

- «حسناً، لا تعترفي بذلك لأحد أبداً»، قال ضاحكاً ثم أخفض رأسه وأوماً باتجاه النافذة.

- «يبدو أن المطر توقف».

- «أجل»، تتحت آشليين جانباً لتفسح له المجال للخروج. «شكراً على مساعدتك. أصبحت أعرف اسم بيل على الأقل وهي نقطة انطلاق جيدة».

اندفعت نفحةً من الهواء البارد إلى الداخل عندما فتح الباب: «أنت لا تعرفيني يا آشليين. لذا قد لا تحمل كلماتي لك وزناً. لكن لو كنت مكانك، لما علّقت آمالاً على نهايةٍ سعيدة. النهايات

السعيدة نادرة في شجرة عائلة مانينغ أو حتى عائلة هيلارد . في الواقع، قد يكون والداي الزهرة الغريبة الوحيدة في حديقة من الأشواك. أياً يكن، أتمنى لك التوفيق في بحثك».

رنت أجراس الباب المتدلية وهو يغلقه خلفه . تقدمت آشليين نحو النافذة تراقب إيثان وهو يسير على الرصيف . لكن صدى كلماته الأخيرة عن عدم وجود نهايات سعيدة في عائلته ظل يتردد في رأسها حتى بعد أن اختفى بسترته الصفراء عن ناظريها . ربما لأنها كلمات حقيقية صادقة . نظرت إلى يدها اليمنى، إلى الخط الأبيض المجمع الذي يقسم كفها . لم تكن النهايات السعيدة حاضرة في حياتها أيضاً .

الفصل الثامن

آشليين

«أن تقرأ كتاباً يعني أن تذهب في رحلة، رحلة إلى عوالم مجهولة شاسعة، رحلة تُسمَع فيها أصوات الملائكة، أحياء وأمواتاً».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

30 سبتمبر 1984

بور تسموث، نيوهامبشير.

عصر اليوم التالي، كانت آشليين منهمكة في ورشة التجليد وذهنها مشغولٌ يحاول استيعاب ما عَلِمَتْه خلال زيارة إيثان غير المتوقعة، حين رن جرس الهاتف. أفلتت ما بيدها وأسرعت لتجيب.

- «من هي أمينة المكتبة المفضلة لديك؟»، قال الصوت العذب الصادر من الطرف الآخر.

شعرت آشليين بدفق الحماسة يغمرها، إذ لم تتوقع أن تتلقى أخباراً من روث بهذه السرعة. لكنّ نبرة صوتها المنتصرة بشّرت بخيرٍ قادم. «مُحالٌ أن تكوني قد وجدتها!».

- «لقد وجدتها، وإن تطلب الأمر جهداً مضنياً. يبدو أن عدد النساء اللاتي عَمِلْنَ في مجال الصحافة في تلك الأيام كان أكبر بكثير مما توقعنا. أسماءٌ لامعة مثل أغنيس ماير في صحيفة واشنطن بوست، وأليسيا باترسون في نيوزداي. لكن لم تتطابق مواصفات أي منهما مع المرأة التي وصفتها،

فكلتاها متزوجتان. لذا واصلت البحث. لن تصدقي كمية
أشرطة التصوير المصغرة التي اضطررتُ إلى غريبتها. لكن
في النهاية، عثرتُ على كنزٍ حقيقيٍّ.

- «تابعي».

- «اسمها الحقيقي جيرالدين إيفلين سبنسر. ولدت عام 1899
في شيكاغو في ولاية إيلينوي. والدها رونالد ب. سبنسر،
جمع ثروته من تجارة الفحم وكان يمتلك سلسلة من الصحف
اليومية المتواضعة نوعاً من الهواية. كان رونالد وزوجته
إديث على متن السفينة إس إس أفريك، متجهين إلى
السنغال عندما اصطدمت السفينة بشعاب مرجانية، لتغرق
وتأخذ معها ستمئة وثلاثة ركاب إلى قاع المحيط. كانت
جيرالدين، أو غولدي كما كان يلقبها والدها، تبلغ من العمر
واحداً وعشرين عاماً في ذلك الوقت وورثت كل شيء. نحو
سنة ملايين دولار في عام 1920، وهو ما يعادل أكثر من
ثلاثين مليون دولار اليوم».

ظلت آشليين صامتةً وهي تستوعب المعلومات. وريثة سلسلة
صحف في سن الحادية والعشرين، وما يعادل أكثر من ثلاثين
مليون دولار. لا عجب أن غولدي لم تبال بما يقوله الناس عنها.
- «آشليين، هل تسمعينني؟»

- «المعذرة، كنتُ أرتب كل شيء في ذهني. كيف استطعتِ جمع
هذه المعلومات كلها؟»

- «كما قلتُ لك، أشرطة تصوير مصغرة. كما استعنتُ بخدمات
زميلٍ في مدينة ألباني. وبمجرد أن حددتُ هويتها كان الباقي

- سهلاً. لم تتردد الصحافة قطّ في الحديث عنهم. هناك مزيدٌ من المعلومات بالمناسبة».
- «مزيد من المعلومات؟».
- «الغسيل القذر كما يسمونه. أظن أنك ترغبين في سماعه أيضاً».
- «أريد كل ما في جعبتك».
- «حسناً، لم تكن بالتأكيد وريثة نموذجية. رجال وخمر وحياء جامحة حقيقية. لم يتوقع أحدٌ منها أن تتدخل وتدير قطاع النشر في إمبراطورية والدها. لقد أحدثت ضجةً كبيرة. لطالما كان رونالد سبنسر معتدلاً في آرائه السياسية ولم يكن يحب إزعاج أحد. لم تكن الحال كذلك بالنسبة إلى ابنته الصغيرة التي لم تتردد في التعبير عن آرائها مهما كانت مثيرة للجدل. شمّرت عن ساعديها وتصدت للقضايا الاجتماعية السائدة في ذلك الوقت، مثل تحديد النسل وأجور النساء وعمالة الأطفال. كانت لديها أشياء كثيرة لتقولها عن النازيين أيضاً. ليسوا أولئك الموجودين في أوروبا، بل أولئك الذين ادّعت أنهم يعيشون هنا في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد ذكرت أسماء أيضاً».
- «لا بد أن ذلك انعكس عليها سلباً».
- «لم تكن تحظى بشعبية كبيرة بين أصدقاء والدها. وُصفت باليسارية والشيوعية، لكنها لم تتراجع قط. كانت بارعةً في كشف فضائح كبار الشخصيات من رِشى وفساد ومحسوبيات. إذا ما شمّت رائحة فسادٍ هنا أو هناك، كانت

تستقصي عنه وتشره. أسقطت أكثر من شخصية مهمة في عصرها، وبالوسائل اللازمة كلها. لكن لم يغير أي من ذلك سمعتها على أنها فتاة سهرٍ وحفلات. حتى أنها اعتُقلت خلال مداهمة على نادي جاز في هارلم، وصُورت والشرطة تقتادها. استغل خصومها الفرصة لكنها لم تبال. لم تتمتع هذه المرأة بالحياء. هناك صورٌ كثيرةٌ لها وهي متأنقة إلى أقصى حد، وترتدي جواهر لم تَرِ مثلها قط».

«وماذا عن الشائعات بشأن الرجال من حولها؟» -

«صحيحة كلها. شبان وكهول وأغنياء وفقراء، كانت تستمتع بصحبتهم جميعاً. لم تتزوج قط على حد علمي، لكنها استقرت أخيراً عندما دخل حياتها شخصٌ يدعى ستيفن شواب. أغلب الظن أنه كان شخصاً مقرباً منها سنوات، وعشيقاً محتملاً. يبدو أنه عمل في إحدى صحفها، لكنني لست متأكدة ما الوظيفة التي شغلها بالضبط. من الواضح أن علاقتهما كانت متقلبة على مر السنين».

شعرت آشلين بقشعريرةٍ تسري في ذراعيها: «علاقة حب؟».

«حسناً، هذا الجزء غامضٌ بعض الشيء، لكنه يظهر إلى جانبها في كثيرٍ من الصور. من المؤكد أنه أصغر منها سناً كما أنه وسيماً جداً. ذُكر في إحدى المقالات أن تفانيه من أجلها لا يُداني. ووُصف في مقالةٍ أخرى أنه روائي طموح، لكن طموحه يفوق موهبته بكثير، وهو ادعاءٌ لا يخالف الواقع، لأنني بحثت ولم أعثر على كتابٍ واحدٍ يحمل اسمه. على كل حال، عاش مع غولدي خلال السنوات العشر الأخيرة من

حياتها، وتركت له بعض المال عند وفاتها. من الواضح أن هناك شيئاً ما كان يدور بينهما».

رُكِّبَت آشليْن القطع الجديدة من الأحجية. ستيفن شواب، شابٌ وسيم عمل في إحدى صحف غولدي. وروائي طموحٌ لكن ليست لديه كتب منشورة. أيعقل أن يكون هيمي وستيفن شواب الشخص ذاته؟ إذا كانت حساباتها صحيحة، فإن هيمي كان في السادسة والعشرين عندما التقى ببيل عام 1941، ما يعني أنه سيكون في الستينيات الآن.

أثارت هذه الفكرة طيفاً واسعاً من الاحتمالات. «هل ذُكِرَ شيء عن مكان إقامة السيد شواب هذه الأيام يا روث؟».

- «لا يقيم في أي مكان. توفيت غولدي عام 1979، وتبعها شواب بعد عامين. حاولتُ معرفة مزيدٍ من المعلومات عنه، لكن يبدو أنه لم يكن شخصيةً بارزة على الإطلاق، باستثناء علاقته بغولدي. إنه ميت على أي حال».

ميت. خلّفت هذه الكلمة شعوراً بالإحباط في نفس آشليْن.

- «حسناً».

- «هل ستخبريني الآن عما تعملين عليه؟ أقرّ بأنني مفتونة بالآنسة سبنسر المشاغبة».

عضت آشليْن شفتها. فالكشف عما عثرت عليه، خاصةً مع معرفتها أن قصة هيمي وبيل حقيقية، سيكون نوعاً من خيانة الثقة.

- «أفهم فضولك تجاه غولدي، إنها شخصية متلونة ولا شك. لكن في هذه المرحلة لا أعتقد أن من الصائب مشاركة كثير.

لأنني لا أعرف أشياء كثيرة أولاً، وبسبب مشكلات تتعلق بالخصوصية ثانياً. في الوقت الحالي، أعتقد أن من الأفضل أن أحتفظ بما أعرفه لنفسِي وأواصل البحث».

أطلقت روث تهيدة خيبة وقالت: «حسناً، فهمت. لقد نسختُ بعض المقالات والصور وأظن أنك سترغبين في الحصول عليها».

- «بالتأكيد. لكنني لست متأكدة متى يمكنني إحضارها».

- «ينتهي عملي عند الثانية. سأحضر لك النسخ إلى المكتبة إن كان هذا يناسبك».

- «شكراً لك يا روث. أنا مدينة لك بكثير».

أجابت ضاحكة: «أجل، أنت مدينة لي، لكن الأمر كان ممتعاً بصراحة. ربما فاتني اكتشاف موهبتي الحقيقية. وربما أكتب سلسلة روايات عن محققة أدبية غليظة الطباع من نيو إنجلاند، وأناافس أجاثا كريستي. أراك بعد الثانية».

عند الثانية وعشر دقائق، اقتحمت روث ترومان المكتبة وهي تلوح بغلاف ورقي كبير. كانت آشليْن في قسم كتب السفر تساعد زبونةً في اختيار كتاب تهديه لزوجها في عيد ميلاده عندما سمعت رنين جرس باب المتجر. أشارت لروث بيدها، لكن روث واصلت تحركها ولم تتوقف إلا لوضع الغلاف على المنضدة، وشرح أنها ركنت سيارتها في مكان مخالف، وأن زوجها أقسم على مصادرة مفاتيحها إذا عادت إلى المنزل بمخالفة أخرى.

كاد صبر آشليْن ينفد وهي تمسك نفسها عن الابتعاد عن الزبونة وإلقاء نظرة خاطفة على الغلاف. لم تستقر الزبونة على كتاب معين واستمرّ ترددها نحو الساعة إلى أن انتهى بها الأمر

بالمغادرة خالية الوفاض. لم تهتم آشلين لذلك، إذ بالكاد انتظرت خروج المرأة من الباب قبل أن تتجه مسرعةً نحو المنضدة.

حبست أنفاسها وهي تفك خيط الغلاف وتفرغ المحتويات. أحست بانقباض في معدتها عندما رأت الأوراق. بينما شُبِكت بعض الأوراق معاً بشكل أنيق مرتب، كانت البقية أوراقاً منفردة بعناوين عريضة وصور مشوشة بالأبيض والأسود. لم تكن جودة الطباعة جيدة، إذ نادراً ما تكون مواد أشرطة التصوير واضحة. لكنّ عدسةً مكبرة يجب أن تفي بالغرض.

فرشت الأوراق على المنضدة كأوراق لعبة سوليتير، مرتبة إياها حسب التسلسل الزمني. عندما انتهت، سحبت عدسة فرانك المكبرة الضخمة من تحت المنضدة والتقطت أول ورقة؛ مقالة من صحيفة شيكاغو تريبيون بتاريخ 14 يناير 1920.

أنباء عن وفاة رجل الأعمال رونالد بي سبنسر غرقاً في البحر شيكاغو 14 يناير 1920. أفادت أنباء أن رجل الأعمال البارز رونالد سبنسر وزوجته إيديث، لقيا حتفهما في حادث غرق السفينة المأساوي إس. إس أفريك يوم أمس الثالث عشر من يناير. كانت السفينة التابعة لشركة Chargeurs Réunis الفرنسية التي تقلّ نحو 600 راكب بالإضافة إلى طاقم مكونٍ من 135 فرداً، متجهةً إلى السنغال عندما انحرفت عن مسارها جراء عاصفة شديدة واصطدمت بحيدٍ مرجاني قبالة الساحل الفرنسي. تشير التقارير إلى أن مولدات الكهرباء في غرفة المحركات تعطلت خلال العاصفة، ما أدى إلى انقطاع التيار الكهربائي وعدم قدرة السفينة على المناورة. في نحو الساعة 11:58 مساءً، ارتطمت

السفينة إس. إس أفريك بحيد مرجاني، ما تسبّب بأضرار جسيمة في الهيكل. وبحلول الساعة 3:00 صباحاً، فقد الاتصال مع السفينة بالكامل، وسرعان ما غرقت. لم ينجُ من الكارثة سوى 34 شخصاً من الركاب والطاقم. ولم يبقَ من عائلة السيد سبنسر وزوجته سوى ابنتهما الآنسة جيرالدلين سبنسر البالغة من العمر 21 عاماً.

لم يكن لبقية المقال أهمية بالنسبة إلى آشليين، إذ تحدث عن ثروة رونالد سبنسر ومشروعاته التجارية. ما استحوذ على اهتمامها هو صورة الشابة في أسفل الصفحة: جيرالدين «غولدي» سبنسر، 21 عاماً.

تحت العدسة المكبرة، انكشفت تفاصيل غولدي بوضوح أكثر. شعرها البلاتيني يحيط بعينيها كبتعتين مظلمتين، وابتسامة خفيفة ترسم على شفثيها، وكأنها تتحدى الكاميرا أن تسبر غورها. بدا وصف بيل لها دقيقاً، فهي امرأة جريئة وجذابة، مثل أغنية ساحرة تجذب الحفلات والشباب. مديرة هيمي بلا شك، وربما عشيقته أيضاً.

ظهر في صحيفة «تريبيون» مقال آخر نُشر بعد اثني عشر أسبوعاً من الفاجعة، يأسف فيه كاتب المقال على استيلاء «فتاة مدللة تبلغ الحادية والعشرين من عمرها» على دار نشر «سبنسر»، وتنبأ بأنها ستحول قريباً إرث والدها الصحفي المرموق إلى سلسلة من مجلات الترفيه الرخيصة، الملأى بأخبار النوادي الليلية وصيحات الموضة العابرة. واختتم المقال بمناشدة ملحة لمجلس الإدارة بالتدخل السريع.

إلقاء القبض على وريثة مجلة «تاتلر» في مدامه ملهى ليلي غير شرعي.

نيويورك، 14 يونيو 1928. في عملية مدامه سرية نفذتها الشرطة فجر يوم 13 يونيو، أغلقت السلطات ملهى «نيتي جريتي كلوب»، وهو ملهى ليلي غير شرعي يقع في شارع ويست 125. وبناءً على معلومات حصلت عليها السلطات، اكتشف الضباط مخبأً سرياً يحتوي كمية كبيرة من المشروبات الكحولية المهربة مخبأة خلف جدار زائف داخل الملهى، صودرت كلها وسيجري إتلافها أصولاً. كما عُثر على كمية صغيرة من الماريوانا في المبنى. أُلقي القبض على اثنين وأربعين شخصاً خلال المدامه، من بينهم مالك الملهى ليفلي أبوت، والممثل الشهير ريجينالد بينيت، ووريثة سلسلة الصحف غولدي سبنسر. وُجِهُت تهمة رسمية لكل من بينيت وسبنسر وغُرم كل منهما بمبلغ 50 دولاراً. أما أبوت، الذي امتلأ سجله بالمخالفات القانونية، فيواجه احتمال السجن مدة تصل إلى سنة وغرامات تزيد على 700 دولار.

حدقت آشليين ملياً إلى صورة غولدي المشوشة تحت طبقات هائلة من المكياج، وهي تُدفع بعنف إلى مؤخرة عربة الشرطة. بدا شعرها البلاتيني الذي كان ينساب قبلاً، قصيراً الآن وممشطاً بفرق مستقيم في الوسط. وقد وضعت على رأسها وجبينها غطاء رأس مزيناً بالخرز، دلالة على فتيات العشرينيات المستهترات. نجح المصور في التقاط الصورة في لحظة احتجاج، فمها مفتوح وكأنها تصرخ بكلام لاذع في وجه الشرطي الذي يمسك بذراعها. لم تكن الصورة لطيفة بأي حال، لكنها عكست مرة أخرى جموح غولدي الصارخ.

كانت المقالتان التاليتان «فضيحة تورط السيناتور ثونيمان في قضايا رشوة» و«الأعداء بيننا: النازيون الأمريكيون يتغلغلون على مرأى الجميع» قد أُدرجتا بوصفهما دليلاً واضحاً على شجاعة غولدي الصحفية وجراتها. ألقت آشلين نظرة سريعة على المقالة الثانية، مُلاحظةً ورود اسم كل من هنري فورد وتشارلز ليندبيرغ في المقال. أما المقالة التالية التي يعود تاريخها إلى عام 1971، فقد تحدثت بالتفصيل عن مشاركة غولدي في مظاهرة للدفاع عن امرأة تُدعى شيرلي ويلر، أول امرأة تُتهم بالقتل غير العمد بسبب إنهاء حملها بشكل غير قانوني.

وصلت أخيراً إلى مقالة صغيرة مأخوذة من صحيفة شعبية يرجع تاريخها إلى الثاني من نوفمبر عام 1974 تحمل عنوان «من الشاب الوسيم الذي ظهر مع غولدي سبنسر؟». أظهرت الصورة غولدي وهي تبتسم رغم علامات تقدم العمر التي بدت واضحةً عليها، وذلك في إحدى الحفلات أو الفعاليات. كانت ترتدي فستاناً مزيناً بالريش وقلادة يمكن أن تموّل دولة صغيرة نامية، وإلى جانبها يقف شابٌ وسيمٌ فارغ الطول بملابس أنيقة. يتمتع الشاب الذي يشبه ممثلي الأفلام بملامح جميلة منحوتة وابتسامة عريضة ناصعة البياض. شعرت آشلين بالحماسة وهي تحرك العدسة المكبرة. ها هو ذا، ستيفن شواب الأنيق الجذاب والأصغر سناً من غولدي بكثير.

اقتربت آشلين أكثر فأكثر من وجهه، متأملةً ابتسامته الواسعة التي تكشف عن أسنانه البيضاء، ونظرة عينيه الجانبية الموجهة نحو غولدي، وكأنهما تشاركا للتو نكتة خاصة. هل كان هذا الرجل

هو حقاً من أحبته ماريان مانينغ بشدة؟ الرجل الذي خدعها وحطم قلبها؟ وإذا صحَّ هذا التخمين، فأين تقع غولدي في هذه المعادلة؟ لعلها أحبته أولاً ورأت في ماريان مانينغ دخيلةً على قصة حبهما. لو كان الحب والحرب يسيران وفق مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، ولو كان هيمي وستيفن شواب هما الشخص ذاته، فقد كانت غولدي سبنسر هي المنتصرة بلا شك.

وفقاً لما قالته روث، فقد بقي شواب معها حتى النهاية. وبدا أن المقالة التالية: «وفاة وريثة سلسلة الصحف غولدي سبنسر عن عمر يناهز 80 عاماً» تؤكد هذه المعلومة، إذ ذكر أن شقة غولدي في بارك أفينيو بالإضافة إلى جزء كبير من ثروتها قد آلت إلى رفيقها القديم ستيفن شواب. وبناءً على وصيتها، قُسمَت باقي ممتلكاتها بين الجمعيات الخيرية التي تدافع عن قضايا المرأة، وهو ما يتناسب تماماً مع المقالة الأخيرة المكونة من صفحات عدة المأخوذ من مجلة نيويورك في يوم تأبين غولدي بعنوان «غولدي سبنسر: إرث نسوي».

عادت آشلي لتدقق النظر في صورة الشاب الوسيم ستيفن شواب، باحثةً عن أي تفصيل يثبت أنه حبّ حياة ماريان. لكن مع الرجال كلهم الذين تعاقبوا على حياة غولدي، كان احتمال أن يكون هيمي أي شخص آخر وارداً. مع ذلك، تتلاءم قطع الأحجية معاً على نحوٍ لافت، خاصةً الجزء المتعلق بطموحه أن يصبح روائياً. ماذا إن كان السيد شواب لم يكتفِ بالطموح فحسب؟ ماذا إن كان كتب كتاباً مجهول الهوية، عن قصة حب فاشلة مع ابنة رجلٍ من أصحاب النفوذ؟

هيمي... هل هذا أنت؟

حتى لو كانا الشخص ذاته، كيف لها أن تثبت ذلك؟ لم يعد بإمكانه الإجابة عن الأسئلة، حاله حال غولدي. كلما توغلت آشليين في قصة بيل وهيمي، تراكمت الأسئلة لديها. ماذا حدث لشعر ماريان مانينغ؟ متى فسخت خطوبتها عن تيدي؟ ولأي غاية فسختها إن لم تكن تريد الزواج بهيمي؟ هل يمكن أن تكون هناك صورٌ مخبأة في مكان ما تجمع ستيفن شواب وماريان مانينغ؟ صورٌ التقطت دون قصد مثلاً خلال حفلة أو مناسبة ما؟ لو وجدت مثل هذه الصور، ستكون دليلاً أو شبه دليل.

لا صلة لها بكل هذه التفاصيل بالطبع، ولن تُغيّر معرفتها شيئاً من النتيجة المأساوية. لكنّ هاجس المعرفة كان جمرةً تتقد في صدرها ولا سبيل لها لإخمادها. ضمن المشهد الحالي، لم يبقَ سوى شخص واحد قد يُسعفها، مع أنّ قدرته على المساعدة ورغبته فيها أمران مختلفان. بدا إيثن متردداً في استكشاف مزيد عن ماضي جدته، مع أن آشليين اشتبهت في أنه يعرف أكثر مما يدرك. ربما يُحرّك الاسمان «ستيفن شواب» و«جيرالدين سبنسر» ذاكرته الراكدة.

تروّت آشليين قبل الاتصال لتتظم أفكارها بعناية وترتّب كلماتها بدقة. من المرجّح أن يردّ المجيب الآلي في هذا الوقت من النهار. عندما رتبت في ذهنها ما تريد قوله وبعد أن تدربت عليه مجدداً، طلبت الرقم فسمعت صوت المجيب الآلي كما توقعت.

- «مرحباً إيثن، أنا آشليين من متجر الكتب. أعلم أنّك مشغول جداً الآن، لكنّ هناك أموراً جديدة طرأت. لديّ بعض الأسماء

أودّ لو أناقشها معك، بالإضافة إلى أسئلة قليلة نسيتُ طرحها عليك تلك الليلة. أرجو أن تعاود الاتصال بي إن أمكن؟».

اقترب موعد إغلاق المتجر ولم تتلق رداً من إيثان بعد، وقد تراكمت ستة أسئلة جديدة على قائمتها. حدثت نفسها أن هذا لا يعني بالضرورة أنه يتجاهلها. ربما لم يعد إلى المنزل بعد، أو أنه نسي تفقد المجيب الآلي. أعادت الاتصال مجدداً على أمل أن يرد هو.

- «لست في المنزل. اترك رسالة».

اللجنة.

- «مرحباً، أشلين مجدداً. أتساءل إن تلقيت رسالتي بعد ظهر هذا اليوم. لدي صديقة ساعدتني في البحث قليلاً ووصلت إلى اسم ستيفن شواب. آمل أن يوقظ هذا الاسم شيئاً في ذاكرتك. أعتقد أنه قد يكون هيمي. أنا على وشك إغلاق المتجر الآن، ولكن يمكنك الاتصال بي على رقم هاتف منزلي. شكراً لك على أي حال».

بعد حمام ساخن وعشاء سريع مكون من سلطة وبقايا دجاج، فردت أشلين محتويات المغلف على طاولة المطبخ وراحت تقرأها مرة أخرى.

اعترتها غبطة عارمة عندما قرأتها أول مرة، لكن حماسها خفت قليلاً منذ ذلك الحين. بعيداً عن حقيقة أن هناك رجلاً يدعى ستيفن شواب قد جمعته ربما علاقة عاطفية مع غولدي الذائعة الصيت وربما لا، فما الجديد الذي علمته؟ أنه ربما يكون قد عمل في إحدى صحف سبنسر؟ أو أنه ربما كان روائياً؟ لكن

لم تعلم أي شيء قد يربط ستيفن شواب بماريان مانينغ.
نظرت إلى الهاتف مدركةً تماماً أنه لم يرنّ. كان يومَ أحد.
لعلّ إيثان سافر في عطلة نهاية الأسبوع، أو ربما كان لديه موعد
غرامي. تمنّيت أن يكون الأمر كذلك وأنه لا يتجاهلها عمداً. لم
تجرؤ على الاتصال مرة أخرى، ليس بعد. ستنتظر بضعة أيام
وستواصل القراءة في الوقت ذاته على أمل أن يزلّ لسان هيمي
أو ببيل في ذكر بعض التفاصيل التي قد تساعدنا.

إلى الأبد وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 37 إلى 44)

4 نوفمبر 1941

نيويورك.

راقبتُ أختي وهي تأخذك بعيداً وقد شبكت ذراعها بذراعك. ولاحظت أنك لم تحاول أن تتحرر منها. لطالما ذكرتني بالعنكبوت، تحيك خيوطها بصبرٍ لا محدود منتظرةً اللحظة المناسبة لتتقضَّ بسرعة ودون رحمة، تلك الانتهازية البارعة.

لم أعرف حينها ما تحيك لك من مخططات. لعلها قصدت مضايقتي فحسب. وتذكيري أنها المسيطرة وكأن أحداً منا قادرٌ على نسيان ذلك. على أي حال، بدوت مرتاحاً تماماً باقتيادها إياك.

يا له من ذكاءٍ تتوهمه في نفسك، حرياء تتلوّن وهي تشق طريقها عبر الغرفة، تتجاذب أطراف الحديث وتضحك مع ضيوف والدي. لن يخمّن من يراك أنك لست أحدهم، أو أنك كنت متردداً بادئ الأمر حين دعوتك. تؤدي دورك بإتقان تام. إتقانٌ يجعلني أتساءل إذا ما كان تمنّئك عن الحضور مصطنعاً.

ترتشف شرابك وتومئ برأسك، وتناقش قضايا العمل والسياسات النقدية وكأنك دبلوماسيٌّ زائر في عشاء يُقام على شرفك. تتجول بين الضيوف ولا تُلقِي صوبي ولو نظرةً عابرةً، حتى حين كدتُ أحرقُ سترتك بنظراتي، متوسلةً أن تلتفت إليّ. أدركُ أنك تفعل هذا لإغاضتي، رداً على جدالنا الحادّ هذا المساء عند البحيرة. أعرضتُ عنك في النهاية وتركتك لسيسي.

عندما حان موعد العشاء، لاحظتُ أنها بدلت بطاقات الجلوس. أصبح مكانك في الطرف البعيد من الطاولة، في أبعد نقطةٍ ممكنة عني. اضطررتُ إلى مشاهدتكِ وأنت تتودد إلى السيدة فيولا ويلر، وتوزع ابتسامتكِ الجذابة، وتأسرِ أذنانها التي اعتادت لهجة مونتانا الخشنة بلهجتك البريطانية الرقيقة.

أثارت مراقبتها اشمئزازي. عجزتُ ترتدي فستاناً بلون الكدمات، وتضحك كطالبة مدرسةٍ بمرحٍ هستيري على شيءٍ قتلته للتو. ضحككِ الرجولية تُسمَع بوضوحٍ على طول الطاولة. وعادتكِ اللا شعورية في إبعاد شعركِ عن جبينكِ أصبحتُ مألوفة جداً الآن. مع ذلك، بالكاد منحتني ابتسامةً منذ وصولكِ، وكأننا غرباء حقاً كما ندّعي. كنتُ أتوق إلى انتهاء العشاء لأتمكن أخيراً من سحبكِ بعيداً عن البقية وإيجاد ذريعة لأكون معكِ على انفراد. بدلاً من ذلك، بعد تناول الحلوى وانتهاء القهوة، اقترح والدي أن ينفصل الرجال عن السيدات وينتقلوا إلى مكتبه من أجل تدخين السيجار. فوجئتُ عندما خصكِ والدي بهذه الدعوة برفقة أصدقائه. لكن بينما هم الرجال بالابتعاد، تبادل أبي ويسي نظرةً أنبأتني بموافقتها على دعوتكِ، بل وربما كانت هي من اقترح دعوتكِ.

تجمّعت السيدات عند الطاولة يحملن أكواب الشراب الكريستالية، ويشتكين صعوبة إيجاد طبّاخٍ ماهرٍ، أو يعبرن عن خيبة أملهنّ من العروض المسرحية هذا العام. أومأت برأسي متظاهرةً بالمتابعة، لكن كل ما يدور في خلدي هو أنت. تخيلتكِ جالسةً في أحد الكراسي الجلدية في مكتب والدي، تدخن

وتتحدث مع أصدقائه المزيفين. شعرت بالنفور وأنا أفكر في الأمر، غاضبةً وحانقةً. أنا لم أدعُك إلى هنا لتدخن السيجار وتحكّ بحفنةٍ من الشيوخ البغيضين.

لكنني عندما أنهيتُ كأس شرابي الثانية بجرعةٍ واحدة، أدركت أن هؤلاء الشيوخ هم بالضبط سبب مجيئك الليلة. جئتُ من أجل أموالهم وعلاقاتهم وأي شيء قد يقدرّون على فعله من أجلك. يجب ألا يفاجئني الأمر. لقد عرّفت عن نفسك أنك مغامر في أول لقاءٍ بيننا. والآن تجد نفسك تحت سقف والدي، مدعواً إلى غرفته السرية. تدبرتُ أمرَكَ بسرعةٍ وبراعة، وذلك كله بفضلِي. سكبتُ مزيداً من الشراب في كأسِي. وعلى حين غرة، شعرتُ بحرقّة الدموع تنهش عينيّ. ألقِ سيّسي نحوي نظرة تحذير صامتة. تظاهرتُ بأنّي لم ألاحظها. أتراها ترى انعكاساً واضحاً لما يعتمل في داخلي؟ هل أنا مكشوفةٌ كما أخشى؟ شعرتُ بأنني حمقاء تماماً.

كنتُ أودّ حضورَكَ لأجلِكَ أنت. لأجل ما أشعر به وأنا معك، وكأنّ قلبي قد كبر حتّى لم يعد يسعه صدري. وكأنتني أخيراً أنتمي إلى شخصٍ لا تربطه صلةٌ بهذا البيت البائس وبهذه العائلة البائسة. لكن يبدو أنّ لديك أسباباً أخرى لمجيئك، أسباباً لا علاقة لها بي على الإطلاق. لا تزال النسوة يتهاوسنّ حول القبعات وأطوال التتورات، وفجأةً لم يعد باستطاعتي تحمّل كلمةٍ جوفاء أخرى أو رشفة أخرى من الشراب. نهضتُ واعتذرت، متعذرةً بصدايحٍ مفاجئ.

رمتي أختي بنظرتها اللاذعة المعتادة وأنا أتجه صوب الباب. لم أعد أبالي فقد اعتدتُ استنكارها تصرفاتي على مرّ السنين. بل إن جزءاً في داخلي يُلقي عليها بعضاً من اللوم على هذه الليلة، لإبعادك عني واستعراضها إياك أمام الجميع.

لطالما كنتُ ظلاً خافتاً يتلاشى أمام ضوءِ شمسِها. صغيرة جداً بحيث لا أثير اهتمامها. لم يكن ذلك يزعجني، فحبّ أمي أغناني عن الجميع. ولكن عندما توفيت، أحدث فقدانها فجوةً عميقةً في صدري. ولذلك تشبّثُ بيسي، كنتُ أتبعها من غرفةٍ إلى أخرى، وأشاهدها عندما تقرأ الرسائل أو تكتبها، وأطلب منها أن تلعب معي أو تروي لي قصةً. كنتُ بحاجةٍ إلى من أتحدث إليه، إلى من يتذكر أمي وحال بيتنا قبل مرضها. لكن لم يكن لدى أختي أي صبرٍ على حاجتي إلى الاهتمام والانتباه.

أتذكر أنني تسللْتُ إلى غرفتها ذات ليلة، واستلقيتُ إلى جانبها في الفراش أنشد حضاناً آمناً بعد أن راودني كابوسٌ مرعب. لكنها ضربتني بمرفقها على صدري وأعادتي إلى غرفتي. تقبلتُ على مضضٍ في النهاية دور الأم البديلة بناءً على طلب والدي فقط. لم تستطع قطّ رفض أيّ طلبٍ له، بما في ذلك الزواج بابن ذلك الرجل المتكلف، ابن صديقٍ له من أصحاب الأعمال. ولكن في النهاية، كانت سيسي طموحةً مثله، ومتحمّسةً لمساعدة العائلة على استعادة مكانتها بعد الانهيار الاقتصادي. لكن في عالم والدي، لكل شيءٍ ثمنٌ يُدفع.

بعد اثنتي عشرة سنة، تخلّلتها موت زوج وإنجاب أربعة أطفال، أصبحت سيسي ربّة العائلة، ومثال الذوق الرفيع والسلوك اللائق،

وسجّاني بطريقة ما . ترى من واجبها إبقائي ملتزمةً تماماً برغبات والدي، وأنا عادةً أفعل ما يُتوقَّعُ مني لأنّه الأسهل، ولكن ليس هذه الليلة.

تسللتُ إلى الممر وتوجّهتُ نحو الدرج . ليست لديّ أدنى فكرة عن مدة بقاء والدي في مكتبه مع ضيوفه، ولا أعلم ما ستفكر فيه حين تتحرر وتجدني صعدتُ إلى غرفتي تاركةً إيّاك تتصرف بنفسك . لقد كوَّنتُ كثيراً من الصداقات الجديدة، فليُرافقك أحدهم إلى الخارج . أو ربما ستتولى سيسي هذا الشرف، فهي تبدو مفتونةً بك جداً .

كدت أضع قدمي على الدرجة الأولى عندما سمعتُ وقع أقدام خافتٍ خلفي . التفتُ لأجدك تقترب مني، لكنك توقفت فجأةً، وأبقيت على مسافةٍ غريبة بيننا .

- «أنا ذاهب»، قلت بنبرةٍ جادة .

- «ذهاب؟ لماذا؟» .

- «لقد مللت، وسأكتفي عند هذا الحد الليلة» .

بدوت حينها بارداً وغاضباً في آن .

- «هل حدث شيء ما؟ هل نشب خلافٌ من نوع ما؟» .

أريّتي واحدةً من ابتساماتك المقتضبة وقلت: «بل على العكس تماماً . لقد لقيتُ ترحيباً حاراً، وبعد بضعة أسابيع أخرى، سيعلمونني المصافحة السرية» .

عبستُ محاولةً فهمَ كلماتك ونبرتُك . إنّها ثاني مشادةٍ بيننا خلال يومٍ واحدٍ وهذا يُخيفني .

- «لم أفهم. ألم يكن هذا سبب مجيئك؟».

- «جئتُ من أجلك يا بيل، لأنكِ طلبتِ مني ذلك، ألا تذكرين؟

قلتِ لي "هل فكّرتِ مرةً أنني أريدك هناك؟" وها قد أتيت».

- «وفي اللحظة التي دخلتَ فيها بيتنا، أصبحتُ خافيةً عن

ناظريك». مكتبة سُرْمَن قرأ

تفحصتني ملياً وقتاً بدا طويلاً وعبرت وجهك غمامة

استياء. اقتربت مني أخيراً خطوةً واحدة وتوقّعتُ أن تلمسني أو

تقبّلني لأننا وحدنا. لكنك بدل ذلك هزّزت رأسك بالنفي وقلت:

«ستعرضيني أمام أختك وأبيك كأنني قطعة زينة، وتظاهرين

بأنكِ بالكاد تعرفينني، ثم تغضبين لأنني لم أمضِ الليلة بأكملها

متلهفاً إليك من الجانب الآخر من الغرفة».

- «لم أتوقع أن...».

رفعت يدك مقاطعاً كلامي: «أتظنين أننا نلعب يا بيل! تتركينني

معلقاً أياماً عدة في كل مرة، وتتلاعبين بي كأنني دميةٌ تسحبين

خيوطها وفق ما تشائين. لقد سررتُ بلعبِ دوري مدةً من الزمن،

لكن الأمور مختلفةٌ الآن، ولم أعد أريد اللعب».

جلدتني كلماتك كالسّوط.

- «ماذا تقصد؟».

- «أقصد أنكِ يجب أن تكوني أكثر حرصاً مع دعواتكِ في

المستقبل».

استدرت حينها وابتعدت عبر الصالة. راقبتك وأنت تبتعد،

وكتفك مشدودتان وأنت تعبر الباب وتختفي عن الأنظار. رنّ

صوتُ حذائك على البلاطات الرخامية في الردهة، ثم سمعتُ
دويَّ باب المدخل، قوياً ونهائياً،
نهائياً جداً.



حاولت الاتصال بك صباح اليوم التالي في شقة غولدي. أجاب
رجلٌ لا أعرفه. لكن عندما طلبتُ التحدث معك، أخبرني أنك لم
تعد تقيمُ هناك، وأنك نقلتَ أغراضك هذا الصباح. أذهلني النبأ
وأثار فيَّ ذعراً لا مبرر له. سألتُهُ عن سبب مغادرتك المُفاجئة أو
إن كان يعرف إلى أين ذهبتَ، لكنّه لم يُفدني في شيء.

بيدين ترتعشان، ضغطت أزرار الهاتف لأتصل بك في الجريدة.
كنا قد اتفقنا ألا أتصل بك في العمل ولا تتصل بي في المنزل.
المرأة التي أجابتي بدت فضلةً ومستعجلة. أخبرتني وسط ضجيج
المكتب في الخلفية، أنك لم تأتِ إلى العمل بعدُ، وأن أحداً لم
يسمع منك خبراً. اقترحتُ أن أعيد المحاولة بعد الغداء، ثم
سألتني وكأنّها تذكرت فجأةً إن كنت أريد أن أترك لك رسالة.

راودتني الرغبة لحظاتٍ في إملاء بعض الملاحظات الغاضبة
حول رحيلك الفظّ الليلة الماضية، وفي تأنيبك بالطريقة الوحيدة
المتاحة لي حالياً. لكن ماذا بعد أن تسمعها؟ سينتهي الأمر
بالاعتذار عن غضبي.

- «لا، لا أريد ترك رسالة»، كنت على وشك أن أغلق الهاتف
عندما قلتُ فجأةً أنني أود لو أتحدث مع غولدي.

- «أخشى أن الآنسة سبنسر مشغولة في الوقت الحالي. هل
ترغبين في ترك...».

انقطعت كلماتها فجأة، تلاها صمتٌ مكتوم، وكأنَّ يداً وُضعت على سماعة الهاتف. بعد لحظة، وصل صوت غولدي عبر السماعة: «ماذا تريدان؟».

- «أنا أتصل...».

- «أعرف لماذا تتصلين يا عزيزتي. لا يزال الوقت مبكراً، حتى بالنسبة إليك. كنتُ أظنُّ أن علاقَتكما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموعد الغداء».

علاقة انزلت الكلمة عليّ كالصاعقة بطبيعتها المؤقتة والعابرة. لكن أليس هذا ما نعيشه حقاً؟ علاقة تربطنا؟ ربما ليست بالمعنى الحرفي الكامل فقد تمكنا من الحفاظ على ملابسنا على جسدنا، لكن بالمعاني الأخرى كلها. التسلل لملتقي سراً، والكذب بشأن أماكن وجودنا، والتظاهر أن ما بيننا يختلف عن الآخرين. لقد كنا واقعين في الحب.

لكننا لم ننطق الكلمة قطّ. أما أنا، فلأنه يُمنع عليّ قولها، ليس لك على الأقل. وأما أنت، فأرى أن الأمر يعود إلى الصفة التي عقدناها؛ أن نحوم حول الحقيقة دون مساسها. منحُ شيءٍ ما اسماً، يعني أن تفتقده عندما تضطرُّ إلى التخلي عنه. ولست متأكدة إن كان بوسعي تحمّل الفقد أو التخلي.

والآن، يبدو أنك أنت من تتخلي عنا.

ذكرني الصمتُ المريب على الخطِّ بأنَّ غولدي لا تزال تنتظر ردِّي. فكرتُ في إنكار الأمر، ثم أدركت مدى عبثية ذلك. لا توجد سوى طريقة واحدة يمكنها من خلالها معرفة مواعيد لقاءاتنا وقت الغداء. لقد أخبرتها. لقد أخبرتها كلَّ شيءٍ على ما يبدو.

وضعت السماعة واتجهت صوب الدرج الخلفي وخرجت من باب المطبخ. أخبرت بانكس، الرجل الذي يعتني بالسيارات، أنني ذاهبة إلى المدينة للتسوق ثم مقابلة بعض الأصدقاء لتناول الغداء. وأنا أخبره ذلك، أدركت مدى سهولة جريان الكذبة على لساني، وكم أصبحت بارعة في قولها!

انتظرتُ نحو الساعتين في الشارع المقابل لمكاتب الجريدة، أراقب المدخل وأنتظرُ ظهورك. أعلم أن ما أفعله ضربٌ من اليأس والجنون، وسلوك متهور متسرّع. لكن شيئاً ما حدث ليلة أمس، شيئاً تعتقد أنني سببٌ فيه، وأعتقد أن لي الحق على الأقل في معرفة طبيعة ذنبي، وإذا ما كانت له أي علاقة بتغيير عنوانك المفاجئ. هل تشاجرت مع غولدي؟ أبسببي؟ وإن كان الأمر كذلك، هل خسرت وظيفتك بالإضافة إلى غرفة الضيوف؟ وأنا أراقبُ سيارات الأجرة تتوالى على الرصيف، وتُنزلُ ركاباً لستَ بينهم، يزدادُ اضطرابي من احتمالِ عودتكِ إلى إنجلترا. إلى أن ظهرتُ أخيراً.

أطلقتُ بوق السيارة ثلاث مراتٍ قصارٍ إلى أن التفتت ناحية السيارة. تجرد وجهك من التعابير أول ما رأيته، ثم قطعت الشارع بخطواتٍ طويلة حازمة. لم تقل شيئاً عندما وصلت. فتحت الباب وصعدت السيارة.

- «ما الذي تفعله هنا يا بيل؟»
- «لقد اتصلت بك... قالوا إنك لم... كان يجب أن أراك».
- «أظن أننا اتفقنا على...».
- «لا يهمني ما اتفقنا عليه. قالوا إنك انتقلت هذا الصباح».

- «من قال ذلك؟».
- «شخص ردّ على الهاتف. ما الذي جرى؟».
- نزعَت قبعتك وسرّحت شعرك بيدك. لاحظتُ أول مرةٍ مدى التعبِ الذي يسيطر على ملامحك، وكأنك لم تتم أو تستحم منذ مدّة. حدّقت إليّ بعينين ضيقتين وسألتني: «منذ متى وأنتِ هنا؟ شفتاك زرقاوان».
- أشحت بنظري بعيداً وشعرت بحنجرتي تضيق: «لا أعلم، ساعتين تقريباً. يجب أن نتحدث عما جرى ليلة أمس. أرجوك يا هيمي».
- «لا يمكننا البقاء هنا. أديرى محرك السيارة».
- «إلى أين؟».
- «إلى منزلي».

ندمٌ على بيل

(الصفحات من 55 إلى 56)

5 نوفمبر 1941

نيويورك.

التزمت الصمت وأنت تقودين سيارة والدك الكرايسلر وسط زحمة ساعة الغداء. تنعطفين عند كل إشارة مني وتتوقفين حيث أشير. وضعتُ بعض النقود في عداد الوقوف وأشرتُ إلى مبنى سكني من الطوب بست طبقات، يختبئ خجولاً بين جيرانه الأطول في الشارع 37. بعد نظرة سريعة في كلا الاتجاهين، تبعيتي إلى داخل المبنى. تجاوزنا في أثناء مرورنا عدداً من صناديق البريد المعدنية وبضعة كراسٍ وطاولات مبعثرة. تساءلتُ عما يجول في خلدك ونحن نصعد درج السلم الضيق، ويدك تحوم قليلاً فوق الدرابزين كي لا تلوث قفازاتك.

توقفتُ أمام الشقة رقم 2 وتلمستُ المفتاح في جيبِي مرتبكاً. أنّ الباب وأنا أفتحه ثم تنحيتُ جانباً. دخلتُ بخطواتٍ مترددة حذرة من المدخل الباهت الخافت بعض الشيء. سادت لحظة حرجٍ عندما أشعلتُ مصباح غرفة المعيشة وظهرت الغرف الصغيرة بأثاثها البسيط القليل. ليست سيئة، لكنها ليست فخمة أيضاً ولا تُقارن بمكتب والدك بجدرانهِ المكسوة بألواح خشب الماهوغني وكراسيه الجلدية الفخمة.

تتوسط الغرفة أريكة منجّدة بقماشٍ بسيط، إلى جانبها كرسي بذراعين من النمط ذاته وطاولتان منخفضتان. في الخلف، يشغل

المطبخ حيزاً صغيراً ضيقاً ومكتظاً كمطبخ سفينة بستائر حمراء وبيضاء وطاولة مندمجة في جداره. تظهر غرفة النوم عبر ممرٍ قصير، مفروشةً بأثاثٍ بسيط يتكوّن من منضدةٍ صغيرة ومكتب وسرير مزدوج مغطى بمفرشٍ قديم. تترجّع حقائبٍ سفري إلى جانب المدخل، برفقة حقيبة آلة الكتابة وبعض الكتب الممزقة. جالت عيناك في المكان بسرعة ثم التفت إليّ وقلت: «أهذا... منزلك؟».

- «أجل. منذ الساعة التاسعة والنصف صباحاً. حدثت بعض المناوشات بيني وبين غولدي... لذا رأيتُ أن من الأفضل أن أخرج وأستقلّ عنها. ليس قصراً، لكنه مكانٌ للكتابة والنوم، وهذا كلّ ما أحتاج إليه».

رأيتُ الدموع تتجمع في عينيك. حاولت منعها لكنّ الأوان قد فات، وفاضت على خديك بحرقة. ذهلتُ وقد ارتميت في حضني وأنت تبكين.

همست بصوتٍ أجشّ: «ظننتُ أنّك عائدٌ إلى بلدك...»، ثمّ أملت رأسك إلى الورا لتتظري إليّ. «حين سمعت أنّك غادرت منزل غولدي هذا الصباح، ظننتُ أنّك عائدٌ إلى إنجلترا».

- «من أين جاءتكِ هذه الفكرة؟».

- «ليلة أمس حين غادرت...»، أشحت بنظرك ثم حدقت إلى الأرض. «لماذا تركتَ منزل غولدي؟».

ابتعدتُ حينها وأنا أشعر بالحاجة إلى مسافة بيننا. تمنيت لو ادخن الآن. أحتاج إلى أيّ نوع من المشتتات، أيّ تكتيك للمماطلة، أيّ شيء يُشغلُ يديّ. دسستهما في جيبَيّ بدلاً من ذلك ثم قلت باقتضاب: «لقد تشاجرنا».

- «بسببي؟».
- «من بين أسباب أخرى».
- «إنها تعلم بأمرنا، أليس كذلك؟».
- سمعتُ في صوتك نبرة اتهامٍ أستحقها.
- «أجل»، قلت.
- تصلَّب وجهك وتلاشت دموعك: «كيف تجرأت على ذلك؟ من بين سكان هذا الكوكب كلهم، كيف تجرأت وأخبرت غولدي سبنسر؟ الأشياء التي قالتها لي على الهاتف...».
- «أنا آسف. لقد عرفتُ ليلة البارحة حين عدتُ إلى منزلها. ثمَّ تجدد النقاش هذا الصباح. نيّاتها طيبة صدقيني».
- «لا تدافع عنها».
- «تعتقدُ أنني تجاوزتُ الحدود معك وأني فقدتُ اتزانِي»، أجبتُ بصدقٍ لكن دون أن أقول الحقيقةَ كاملة.
- «حدود من تجاوزت؟ حدودها هي؟».
- «بل حدودي أنا. إنها ليست مخطئة. أدركتُ ذلك ليلة البارحة على العشاء».
- «ماذا يعني ذلك؟».
- أخذتُ نفساً عميقاً وكأنتي أستعدُّ لكَيَّ جرح ملتهب: «يعني أننا يجب أن ننهي هذا كله يا بيل. أياً كان ما بيننا، يجب أن ينتهي الآن».
- تجمَّد وجهك وبيست ملامحك: «بسببها؟».
- «بسببنا معاً، بسببك وبسببي، وبسبب ما قد يحدث لو أن ما نفعله...».

- «مغامرة عاطفية؟»، قلت بصوتٍ لا أكاد أعرفه.
- «أجل. لنسمِّ الأمور بمسمياتها وعلى حقيقتها. ماذا تظنين سيحدث لو انكشف أمرنا؟ أنتِ ابنة واحدٍ من أغنى رجال البلاد، وخطيبك واحدٌ من أبرز الشبان في نيويورك. وأنا...».
- «ماذا؟».
- «أحمق تورط مع امرأةٍ على وشك الزواج برجلٍ آخر. رجل مزيتة الوحيدة، دون أن نذكر كتفيه العريضتين وكؤوس البولو، أنه سيرث ثروة والده الضخمة. وأنت تقفين هنا تلعينيني بنظراتك وكأنني أنا المخطئ. ألا ترين المفارقة هنا يا بيل؟».
- «لم اختر تيدي ولم أرده يوماً».
- «لكنك لم ترفضيه صحيح؟ لم ترفضني. لقد وضعتِ خاتمه في إصبعك وابتسمتِ حينَ تمنّى الحضور السعادة للعروسين. كنتُ هناك، أتذكرين؟».
- «من فضلك... لا تتحدّث عن تلك الليلة»، قلت بصوتٍ مرتجف وأنت تنظرين إلى الماسة التي لا تزال تلمع على خاتمكِ.
- «لقد ضربت وترّاً حساساً وأنا سعيد بذلك. يمنحني الحديث عن خطيبك علناً أخيراً شعوراً جيداً. رجلٌ من لحم ودم وله اسم وليس ظلاً يتظاهر كلانا بعدم رؤيته». «لماذا يجب أن أمتع عن ذكرها؟ لقد كانت درّة تاج المناسبات الاجتماعية. ليلة فخمة لا تُسى كما وصفتها صحيفة التايمز حسبما أذكر».
- «أتمنى لو أستطيع نسيانها، ونسيان كل ثانيةٍ منها»، توقفت عن الكلام فجأة وهزّزت رأسك. «لا، ليس كل ثانيةٍ منها. ففي مكانٍ ما هناك، كنت أنت. تقف بعيداً وتتفحصني مرتدياً بدلتك التي استأجرتها. تبتسم بسخريّة وترى حقيقتي».

- «لم أرَ حقيقتكِ كاملة»، صحتُ كلامك. «فلو رأيتهَا، لما كنتِ واقفةً هنا الآن. كنتُ سأفهم الأمورَ فهماً أفضل، وكنتُ قد تجنّبنا قدراً كبيراً من المقت».

- «مقت؟»، تحدّقين إليّ مصعوقة. «من بين الكلماتِ كلها في جمعيتكِ أيها الكاتب، هذه هي الكلمةُ التي تختارها في هذه اللحظة؟».

أنزلتُ يديّ وحركتُ رأسي بالنفي. ظننتُ أنّ بإمكانني تسهيل اللحظة بإيلاامكِ، لكن لم أجد الراحة في ذلك. لطّفتُ نبرتي لكنني لم أحاولِ مواساتك. لم أجرؤُ على ذلك. «كلانا يعلم أن ما بيننا سينتهي يا بيل. صحيحٌ أننا لم نتحدّث عن الأمر، لكننا نعلم أنه سينتهي».

بالكادِ استطعتِ ابتلاع ريقك، لكنك تومئين إليّ مقرّةً بما قلته حتى الآن على الأقل: «لكن لماذا الآن؟ لماذا ولا يزال أماننا متسعٌ من الوقت؟».

- «متى كنتِ تظنين أن الأمر سينتهي؟ ليلة زفافك؟ أو بعدها ربما؟».

تصلّب جسدك لدى سماع كلماتي: «طبعاً لا».

- «طبعاً لا، لكنكِ افترضتِ أنكِ ستكونين أنتِ الطرف الذي سينهي العلاقة. وإلى حينها، كان من المفترض أن أكتفي برؤيتكِ سرّاً. وأن نلعب ألعاباً، كما فعلنا الليلة الماضية، ألعاباً خطيرةً لكلينا. لربما كنتُ قانعاً بذلك في مرحلةٍ ما، لكن الأمر أصبح أكثر تعقيداً الآن ولأسبابٍ كثيرة».

- «لطالما كان الأمر معقداً وفوضوياً يا هيمي. كل لحظة وكل نزهة وكل قبلة. لكن لم يهمننا الأمر قط فلم الآن؟».
- «كان مهماً دائماً، لكنني أنا من نسيت».
- وقفت ترمقينني بنظراتٍ فولاذية: «فهمت. ومن بين الناس كلهم، غولدي هي من ذكّرتك. لكن لمْ طردتك من عش الحب؟ ها قد نالت ما أرادت وسأختفي من المشهد».
- «لم تطردني، أنا من غادرت. وهذا ما أشعل الخلاف في المقام الأول. أخبرتها أنني وجدتُ منزلاً لكنها ظنت أنها فكرة سيئة».
- «لا عجب في ذلك».
- «ليس للأسباب التي تعتقدينها. إنها تظن أنني أرتكب خطأ معك، وأن الأمر مجرد تسلية بالنسبة إليك. وأظن أنني لمست ذلك الليلة الماضية. أحاولُ أن أستعيد توازني هنا، وأن أفعل شيئاً ذا قيمة. هذا هو السببُ الذي جعلني آتي إلى الولايات المتحدة. ولأول مرةٍ في حياتي، أعمل على شيءٍ مهم. اعتقدتُ أنّ بوسعي الفصل بين العمل والحياة الشخصية، لكنني فشلت. ولا أقدرُ على تحمّلِ تشتيتِ انتباهي. ليس في هذا المشروع الذي أعمل عليه».
- «ما المشروع؟».
- «أبوك».
- «أبي؟ ما شأن أبي؟».
- «هناك... أخبار».
- «أخبار سمعتها من غولدي؟».

- «بعضها وليست كلها. أنتِ نفسك أخبرتي أن شائعات تسري منذ سنين. يُقال إن والدك كان يدير عمليات مشبوهة في العشرينيات. تهريبُ الشراب من كندا وبimini. وأن لديه أصدقاء من ذوي السمعة السيئة في تلك الأيام أيضاً. أصدقاء من ذاك النوع الذي ينقذ المرء حين يكون متورطاً في تجارة غير شرعية».

انسحب الدم من وجهك. ليس لأنني أخبرتك شيئاً لم تشتهي فيه من قبل، بل لأنني أكدته لك. فضلاً عن أنك لست معتادة أن يخبرك الناس الحقيقة. ولكن عليك أن تسمعيها الآن، فقد يأتي وقتٌ تُضطرّين فيه إلى اختيار صفّ تقفين فيه، وعندما يحلّ ذلك الوقت، يجب أن تكوني على درايةٍ بالحقائق كلها.

واصلتُ كلامي بنبرة هادئة: «رشي وابتزاز وحادثة اختفاء لم يُحلّ لغزها بعد، مع أن أحداً لم يستطع أن يثبت صلة والدك بها تماماً. لطالما حرص على الابتعاد عن الأضواء، وها هو ذا الآن قد أعاد تكوين نفسه، وحوّل تلك الأموال التي يصعب تفسير مصدرها إلى أسهم وسندات، وبنى لنفسه إمبراطورية راسخة. لقد استقطب أيضاً بعض الحلفاء ذوي النفوذ ممن سيساعدونه على النجاة من المآزق العرضية، مع أنني أظن أنه يحتفظ ببعض أصدقاء الماضي أيضاً تحسباً لأيّ طارئ. إنه يختبئ خلف ستار رجل الأعمال ذي المظهر اللائق، لكنه في الحقيقة، ليس إلاً بلطجياً يملك خزانة ملأى بالبذلات الفاخرة الباهظة».

- «لكنك لم تجد حرجاً في مخالطة أصدقائه هؤلاء ليلة أمس. إن كان رجلاً سيئاً وخطراً إلى هذا الحدّ، فلم إذن تشرب من

- شرابه وتدخلن سيجاره؟ ولم قبلت دعوتي أصلاً؟».
- «للسبب نفسه الذي جعلك تقبلين خاتم تيدي. لأنه يصب في مصلحتي. ويبدو أن والدك قد أعجب بي. يعتقد أنني قد أكون... مفيداً له».
- نظرت إليّ بريبة وسألتني: «مفيداً؟ كيف؟».
- «يريدني أن أكتب مقالاً لمجلة ريفيو».
- «أي نوع من المقالات؟».
- «مقالٌ ترويجي يساعده في تلميع صورته».
- «وهل هذا ما تتوي كتابته؟ مقال لتلميع صورته؟».
- «لا».
- «لكنك ستكتب شيئاً ما؟».
- «أجل».
- «شيئاً... غير محبذ؟».
- «سأكتب الحقيقة يا بيل، بغض النظر عن التبعات».
- «والآن بعد أن رسخت مكانك عنده، لم أعد ذات نفع لك».
- «لا تفسري الأمر على هذا النحو».
- «كيف أفسره إذن؟».
- «والدك رجلٌ لا يستهان به. لقد أخبرتني ذلك بنفسك. ما الذي تعتقدين سيحدث لو علمَ بأنني على علاقةٍ مع ابنته المخطوبة علناً؟».
- وقفت جامدة ورفعت رأسك وأنزلت يديك إلى خصرك:
- «تخشى إذن أن أكون عائقاً أمام طموحاتك الصحفية».

توقعتُ أن تتسكب دموعك. كنتُ مستعداً لها. لكن ذلك البرود القتال الذي سيطر عليك الآن أوهن عزيمتي. استحضرتُ في ذهني كلمات غولدي صباح هذا اليوم، تأكيدها أنني فقدتُ البصيرة في تمييز أهمية الأمور، وأني أغرقت نفسي في متاعب لا تُحمد عقباها. لم تكن غولدي مخطئة.

- «أنا أتحدثُ بصدقٍ معك يا بيل، هذا ما يجبُ أن يحدث. من أجلنا نحن، قبل أن يُصابَ أحدٌ منا بأذى».

أغمضتُ عينيكَ برهة وكأنك تحاولين حجبَ كلماتي: «لماذا تفعلُ هذا؟».

حافظتُ على حيادية تعابيري وأنا أستوعب السؤال وأقوي عزيمتي لما أعلمُ أنه سيأتي بعده. لن أدعك تُشعرينني بالذنب. لن أشعر بالذنب بسببك أو بسبب أيٍّ من هذا. ليس وأنت على استعدادٍ للزواج برجلٍ آخر. ليس وأنت تتظرين إليَّ على الأقلّ. ولست متأكداً أنني سأستطيعُ تحمّل ما سأقول لو كنت تتظرين إليّ.

- «لا داعي لأداء المسرحية كاملةً يا بيل. يعلم كلانا أن هذا اليوم سيأتي. الفرق أنك منزعجةٌ لأنني أنا من اختار الوقت والمكان بدل أن أترك الأمر لك، لكن حان الوقت لننتحرر من هذا القيد، ألا تعتقدين ذلك؟».

- «نتحرر من هذا القيد؟».

وصلنا الآن إلى الجزء الذي أخشاه؛ نظرةُ الخيانة التي سترتسم على وجهك عندما تدركين أخيراً ما كنتُ أسعى إليه حقاً، ولماذا. ولكن كشف هذه الحقيقة ضروريٌّ لوضع حدٍّ لقصتنا. فلو لم

- أفعلُ أنا ذلك، لفعلتِ أنتِ عاجلاً أم آجلاً، وأفضلُ أن أكون أنا المسيطر في هذه اللحظة.
- «قبل أربعة أشهر، كنتُ دخيلاً في عالمكِ، رجلاً يرتدي ملابس غير مناسبة ويتكلّم بلكنة مضحكة. جئتُ إلى هنا لأداء مهمة. لكنني كنت أحتاج أولاً إلى وسيلةٍ للدخول، إلى حضور الحفلات التي يقيمها والدك ومَن هم على شاكلته. سهّلت غولدي هذا الأمر لكنني كنت أحتاج إلى رابطٍ أكثر... حميمية». بلغتُ ريفي بصعوبة بالغة وأكملت: «وهنا دخلت أنتِ الصورة».
 - رأيتُ الإنكار يتسلل إلى تعابير وجهكِ، ورأيت محاولتك عدم تصديق ما خمّنتُ أنّي على وشك إخباركِ به.
 - «ماذا تقول؟».
 - «أقول إنّ لقاءنا لم يكن مصادفةً وإنني ظهرت ليلة حفلٍ خطوبتك لغاية معينة. لقد جئتُ إلى الولايات المتحدة لإعداد تحقيق صحفي، وكنت بحاجة إلى وسيلة للدخول».
 - «تحقيق لمصلحة غولدي؟».
 - «كانت في لندن تزور أصدقاءها العام الماضي، وقد التقينا في إحدى الندوات. وانتهى بنا الأمر بالخروج لتناول مشروب معاً. تحدثنا عن الفساد والسياسة والحرب. وقد وردَ اسم والدكِ عند نقطة معينة. إنها تعرف كثيراً عن ماضيه، وما أرادتُ معرفته حقاً هو خططه وأنشطته الحالية».
 - «إذن فقد استأجرتكِ لمساعدتها في ذلك».
 - «أجل».

- «وتلك الليلة في فندق سانت ريجيس، ومغازلتي على العشاء الأسبوع الذي تلاها، والقبلة في الإصطبل، هل كان ذلك كله مرتبطاً بوالدي أيضاً؟».

- «أجل».

بهتت عيناك كريح عاصفة أطفأت شمعة. أردتني أن أنكر الأمر أو على الأقلّ ألطف من ردي، لكنني عاهدت نفسي بقول الحقيقة كلها. مع ذلك، وحتى بعد أن انتهى الأمر، أشعر بأن جزءاً مني قد بُتر.

هددني صمتك بإعادتي خطوة إلى الوراء. فكرت لحظة في التراجع عن كل شيء وإخبارك الحقيقة الحقيقية. حقيقة أن الأمر كان صحيحاً في البداية، ولكنه لم يعد كذلك الآن. وأن التحقيق الذي أعمل عليه قد أخذ انعطافة لم أتوقعها، وتغيراً أتمنى لو لم أضطر إلى متابعته. راودتني فكرة التخلي عن هذا العمل المقيت كله وأخذك معي إلى مكان بعيد جداً. ثم ذكرت نفسي كما ذكرتني غولدي ليلة أمس ومرة أخرى هذا الصباح، أن لديك خططك وهي لا تشملني.

لو لم أتحدث الآن، لو لم أكمل ما بدأت، فلن أفعل ذلك أبداً. سيترك الأمر جرحاً غائراً مدة من الزمن، كصفعة لم تتوقعها. لقد استغللتك ثم نبذتك، ولكن سيكون لديك تيدي ليخفف وطأة الصدمة، وستسينني سريعاً.

ساعدني تذكر تيدي. تتحنّنت وأجبرت نفسي على النظر في عينيك: «ما عشناه، وما كان بيننا خلال الأشهر القليلة الماضية، حقّ غرضاً لكلينا».

لمعت عيناك بدموع مكبوتة: «لماذا تفعل هذا؟».

ظننت أنني سأتحمل أي شيء تلقينه عليّ، لكنني كنتُ مخطئاً. شعرت فجأةً بحاجةٍ عارمةٍ إلى إنهاء هذا الأمر.

- «بيل...».

- «ألم يعني لك كل ما جرى بيننا شيئاً؟ تلك الأسابيع كلها، ونزهات العصر كلها؟ كانت مسرحيةً من أجلها؟ من أجل غولدي؟ في حين كنت تعرف أنني أحبك؟».

أحبك.

حزّرتي الكلمة كنصلٍ حاد. لم يتفوه أحدنا بهذه الكلمة قبلاً. وأنا من بين الناس كلهم، أقل من يستخدمها. بدلاً من ذلك، عشتُ موقناً بأن يومنا الأخير سيحين فجأة. كان من العبث، ناهيك بالحماقة، السماح لقلبي بالانزلاق إلى مهاوي هذا المأزق الخطر. الآن وعلى حين غرة، يضربني الواقع بكلّ قوّةٍ ووضوح لا مفرّ منهما. لقد أحببتُك منذ الليلة الأولى، والنظرة الأولى، والكذبة الأولى. لقد سمحتُ لنفسي بالاعتقاد أنني كنتُ أسيطر على مشاعري، وأنني أستطيع قهرها، وإماتتها جوعاً. لكنني أدركت الآن أن تلك كانت أكبر كذبة على الإطلاق.

شعرت فجأةً بأنّ قيودي قد فُكّت، وأصبحت أترنح وقد سقطت أقنعتي كلها. نطقْتُ أخيراً بكلام يبدو سخيفاً: «لقد كنتُ حذراً جداً، ظننتُ أنني أستطيع منع نفسي من الشعور ب.... ظننتُ أنني أستطيع أن أكون السباق إلى الوداع والانفصال».

- «وقد فعلتَ ذلك للتو»، قلتُ وأنت تمسحين غاضبةً دمعاً جديدةً انفلتت من عينيكَ وكأنك منزعةٌ من سماحك لها

بالخروج. «يا لي من حمقاء. ظننت طيلة ذلك الوقت أنك...
تحبني كما أحبك».

اختتقت كلماتك وأنت تمدين يدك نحو حقيبتك. مددت يدي
وأمسكت بذراعك برفق مانعاً إياك من الرحيل. «أحببتك وما
أزال أحبك يا بيل». عندما رفعت عينيك لتلتقيا بعيني، دامتني
واسعتني وممتلئتين بالأمل، شعرتُ بأنني أغرق فيهما، وتتقاذفني
مشاعر عاتية. دوار، حيرة، توهان. «أحبك يا بيل. أحبتك منذ
تلك الليلة الأولى، حين اقتحمت حفل خطوبتك».

جذبتك إلى حضني حينذاك. أنا الرجل الذي يدرك تماماً أنه
قد خسر ما لا يمكن تعويضه. لقد كانت غولدي على حق صباح
هذا اليوم حين قذفت بكلمات الوداع اللاذعة خلفي. لقد غرقتُ
معك حتى أذنتي. كنتُ مستعداً لأن أتركك حين غادرتها هذا
الصباح. لمصلحتي أنا ومصلحتك أنت. لكن الآن، تبدو الفكرة
مستحيلة. أنتِ استجابة لصلاة لم أفكر قط في أن أتلوها،
وتهديد لخططي كلها. لكنني لست قوياً بما يكفي لأبتعد. أنا
أريدك. أريدك بأي طريقة يمكن أن أمتلكك بها، ولأي مدة يمكن
أن أظفر بك فيها. علماً أن ما نرتكبه خطأ، وأنه لا يحل شيئاً.
علماً أننا سنقف هنا مرة أخرى يوماً ما، على شفير الوداع.

مكتبة

t.me/soramnqraa

5 نوفمبر 1941

نيويورك.

بالكاد سمعتُ صوت حقيبة يدي وهي تهوي أرضاً وأنتَ
تجذبني إليك. ضممتني إليك بقوة جارفة حتى لم أعد أستطيعُ
التمييز بين حدود جسدي وحدود جسدك. ولا أريد ذلك أبداً، لأن
هذا هو الصواب. هذه اللوعة التي تتهش روعي لأكون بقربك،
لأكون لك، كانت جزءاً مني منذ تلك الليلة الأولى، والآن أدركُ أنها
كانت جزءاً منك أنت أيضاً.

أنتَ تحبني.

خيم بعدها صمتٌ مطبقٌ لا يشوبه إلا صوتُ أنفاسنا. تقول
شفتاك على شفتيّ المحمومتين المتعطشين كلَّ ما يجبُ أن يُقال،
وكلَّ ما لا يمكن قوله. الوعدُ الذي لا تستطيع أن تطلبه مني لأنني
قد قطعته لرجلٍ آخر. الوعدُ الذي لا أستطيع نقضه لأسباب
كثيرة. مع ذلك، وفي هذه اللحظة المحمومة الأسرة الرائعة، أعلمُ
أنني أنوي نقضه بطريقةٍ ما، وليذهب كل شيءٍ إلى الجحيم.

أخذنا اللهاث عندما ابتعدت عني. خشيتُ أنك قد غيرتَ
رأيك. ثم التقت عينايا بعينيك فرأيت السؤال معلقاً فيهما صامتاً
تواقاً يتقد رغبةً في إنهاء ما بدأناه، واستكمال كلِّ ما تظاهرنَا
مطولاً بعدم الشعور به.

دسستُ يدي بيدك، وسمحتُ لك بأن تقودني عبر الرواق،
متجاوزين حقائب سفرك وآلتك الكاتبة، إلى غرفة النوم. يوجد
نافذة تطلُّ على زقاقٍ وصفٍ مهيب من مباني الطوب. انسلَّ ضوء
الظهيرة من النافذة بارداً وقاسياً في تذكير صارخ بالعالم الخارجي.
ثمَّ أسدلتُ الستائر بصمتٍ مطبق، وشرعتُ على الفور تحرر
أزرار قفازيَّ. راودني إحساسٌ حميمي مفاجئ وأنت تتزعهما
بأصابعك الدافئة الماهرة. فجأةً، أحسستُ بالعُري والهشاشة،
وكأنَّ جلدي نُزع عني.

كنت أرتجف وألهث خائفةً ممَّا لا أعرف ماهيته. ومع ذلك،
لم تراودني ولو لحظة فكرةٍ منعكَ مما أنت مُقدم عليه. لطالما
تقدَّمتنا نحو هذه الهاوية ببطءٍ شديدٍ، ولطالما حرصنا على
التراجع في اللحظة الأخيرة متمسكين بما بقي من لياقة. لكن لن
يكون هناك نصف أفعال اليوم، ولا توقف عند الحافة، ولتذهب
اللياقة إلى الجحيم.

لمساتك تفيضُ رغبةً كنبعٍ شوقٍ فاض بعد أن كان حبيساً.
استجبتُ لك غريزياً وأشبعْتُ جوعك بجوعي. إذ لم يعد للخوف
مكان ولا للخجل سطوة. إن قوة ما يجري، قوّتنا نحن، تفوق أيَّ خيالٍ
راودني. أنا قوية وعاجزة في الوقت ذاته. منتصرة ومهزومة. أشعرُ
بالاكتمال بين ذراعيك بطريقةٍ لم أعتقد أنها ممكنة قطّ. كذلك
أشعر بأنني محطمة تماماً ونحنُ ننحرف صوب الهاوية. وفي تلك
اللحظة، تلاشت كلُّ إمكانيّةٍ للعودة إلى الوراء. أنا لك إلى الأبد. أنا
لك دون تراجع، راسخةً في أعماق قلبك كنتقشُّ لا يُمحى.



استيقظتُ على وقع أنفاسك العميقة المنتظمة وأنت إلى جانبي. تغير الضوء وامتدت الظلال على الحائط والسجادة. جلّت بناظريّ في الغرفة بحثاً عن ساعة معلقة لكنني لم أجد. لا أملك أدنى فكرة عن الوقت أو كم ساعة لبثنا في أحضان النوم. امتدت ذراعك ثقيلةً على أضلعي وغفت على خصري. غمرني وزنها وحقيقة وجودها بفيضٍ جامعٍ من الفرح. هذا ما سيكون عليه شعور أن أكون زوجتك. أستيقظ كل صباح وسط معركةٍ مرحة مع أغطيةٍ دافئة، وأنفاسك تداعب مؤخرة عنقي، وصدرك ملتصقٌ تماماً بانحناء عمودي الفقري. أتخيل صورة فطور في الفراش خلال عطلة نهاية الأسبوع. بيضٌ مقلي مع خبزٍ محمّص على صينيةٍ إلى جانب جريدتك. هناك قهوة أيضاً. يجب أن أتعلّم إعداد القهوة. أو ربما تفضّل الشاي؟ لم أفكر قطّ في أن أسأل. أعادني هذا الإدراك إلى الواقع بقوة. هناك كثيرٌ ممّا لا أعرفه عنك، وكثيرٌ ممّا لا تعرفه عني. تلك التفاصيل الصغيرة الحميمة التي تتكوّن مع الزمن، وتلك الأشياء التي تربط العشاق بعريّ لا تتفصم ليست جزءاً ممّا بيننا. في الحقيقة، ما زلنا غريبين بطرائق عدة. شخصان ألقى بهما القدر في متاهة الحب الأعمى دون أن يجدا مخرجاً نحو السعادة.

تغيرت أنفاسك والفكرة ما زالت تدور في رأسي. أحطت بذراعك خصري، وأدنيّتي إليك، مُداعباً بلمساتٍ خفيفة انحناء كتفي. غمرتني فجأة موجة من الخوف، قلقٌ من أن يطفئ صقيع الواقع شعله هذا الفرح الوليد المتقد.

استدرتُ صوبك وأخذت وجهك بكلتا يديّ، أحفر ملامحك في ذاكرتي وكأنتي يمكن أن أنساها يوماً. الغمزة الخفيفة أسفل ذقنك. التغيّض بين حاجبيكَ الذي لا يختفي تماماً حتى وأنت تضحك. الندبة الصغيرة على شكل هلالٍ عند زاوية عينك، وآثار جرح منذ الطفولة. هذه التفاصيل كلها محفورة في ذاكرتي حتى الآن. جرحٌ لا يندمل، تلامسه أصابع الذكريات فيؤلم.

وضعت يدك فوق يدي وازداد عمق التغيّض بين حاجبيك: «أهناك ما يُورقك؟».

- «لا شيء يُذكر. أنقش ملامح وجهك في ذاكرتي... تحسباً؟»
قلت بصوتٍ خفيضٍ ناعم.
- «تحسباً لم؟».

أخذتني رعشة فسحبتُ الغطاء لأغطي به كتفيّ: «لا أستطيع تصديق أنني هنا، أننا هنا معاً. يبدو الأمر كحلم».
أجبتني بصوتٍ ناعس: «بل هو حلمٌ فعلاً. حلم راودني مراتٍ لا تُحصى، لكنّ صورتك لم تتلاش من أمام عينيّ هذه المرة عندما استيقظت».

قبّلتني قبلة منكّهةً بالحنان والذهول. لكنّها تحولت لديّ إلى شيءٍ آخر، إلى شيءٍ شرس ومخيف. تشبّثت بك بياسٍ، مُحاولَةً إقناع نفسي بأنّ هذا حقيقي، وأننا حقيقيّان.

خضنا غمار الحبّ مجدداً. بهدوءٍ أكبر هذه المرّة، نتلمّس التضاريس الرقيقة التي فاتنا إدراكها في اندماجنا المحموم الأوّل. أعطينا كل لحظةٍ حقها. كلّ لمسة وكلّ همسة، وكلّ مذاقٍ. تبادلنا الوعود همساً مع تحول العصر إلى مساء. تبادلنا كلماتٍ

مثل إلى الأبد وغداً ودائماً، وقد عنيها حقاً. عنيها أنا على الأقل لأنني لم أكن قد بدأت بعد التفكير في تداعيات هذا كله. ماذا سيعنيه وماذا سيكلفني وإلى أين قد يؤدي بنا.



في الأيام التي تلت ذلك، كنّا نسرق كل لحظة نستطيع انتزاعها لنكون معاً. أزيّف مواعيد للخروج مع صديقات لم أراهنّ منذ أشهر، وأشتري تذاكر لحفلاتٍ لن أحضرها، وأبتدع جولات تسوق لشراء ملابس لا أحتاج إليها ولا أرغب فيها. وذلك كله من أجل إيجاد أعذارٍ مقبولة لتغيّبي المتكرر عن المنزل. وحين تفترض سيسي أنني بدأتُ بتسوّقٍ جهاز العروس، لا أصوّب خطأها، بل أومئ برأسي وأبتسم، وأحاول في الوقت نفسه التفكير في كيفية التخلص من خطوبتي. لأنني سأتخلّص منها بمجرد عودة تيدي ووالده من رحلتهما الأخيرة. وإلى حينها، وقتي الآن ملكي أنا، ومن السهل تأجيل تلك الخطط والاكتفاء بالاستمتاع بهذه اللحظات المسروقة السعيدة معك.

أحاول قدر المستطاع أن أكون في الشقة حين تعود من العمل. أستخدم المفتاح الذي خبّأته سراً في علبة المكيّاج لدخول الشقة، وأتجاهل النظرات التي ترمقني بها أحياناً تلك المرأة التي تسكن قبالتك في الممرّ. تلك النظرات التي تقول: «أعرف ما تفعلين. تدخين وتخرجين في وضع النهار». أظنّ أنها تعرف فعلاً، لكن ذلك لا يهمّني. فهي على الأغلب لن تكون جزءاً من دائرة معارف والدي.

ألهو في المطبخ أحياناً لأفاجئكَ بطبقٍ لذيذ، لكنَّ مهاراتي في الطبخ متواضعةٌ للأسف. هكذا تكون الحال حين يعتني الآخرون بحاجاتك كلها طوال حياتك. ومع ذلك، لم تشتكِ قط. كنا نتناول الطعام معاً في مطبخك الصغير، ونصفي إلى الأخبار على الراديو، نتابع الأحداث في أوروبا وبريطانيا باهتمامٍ شديد. نغسل الأطباق معاً بعد الطعام جنباً إلى جنب، كمروسين تزوجا حديثاً. لكننا لسنا كذلك. ولا بأي معنىٍ من المعاني. وعندما ننتهي من غسل الأطباق وسماع الأخبار، أعتمر قبعتي وأرتدي قفازاتي وأقبلُك مودّعةً.

وأتمرن على حجة غيابٍ جديدة في طريقي إلى المنزل. يزداد فراقك صعوبةً يوماً بعد يوم، كذلك العودة إلى حياتي الباردة وعائلتي الباردة. لا أزال أرتدي الخاتم، رمز وعدي الذي نقضته. لكنني لم أنقضه بعد، رسمياً على الأقل، ولا حتّى بأيّ شكلٍ من الأشكال. وقد بدأت سيسي تضايقني لتحديد موعدٍ من أجل الزفاف. أما تيدي فلا يبدو أنه على عجلةٍ من أمره. تصل رسائله على مددٍ متباعدة، وعندما تصل تكون رسميةً ومقتضبةً لحسنِ الحظ، بل ومهذبة على نحوٍ يثير السخرية.

لعل امرأةً مثلي توجد في مكانٍ ما، تخبئ مفتاحاً سرياً في علبةٍ مكياجها وتتسلّل إلى حياته وتخرج منها عندما تسمح لها الظروف بذلك. لن أكنّ له ضغينةً إن حدث ذلك بالفعل. ليس لأنّه كان يحرص على الكتمان في أمور كهذه، فالرجل فوق أيّ محاسبة.

ظَلَلْتُ أَمْنِي نَفْسِي أَنْ يَبَادِرَ هُوَ وَيُنْهِيَ خَطُوبَتَنَا . أَنْ يَجِدَ امْرَأَةً
تَنَاسِبُهُ أَكْثَرَ أَوْ أَنْ يُقَرَّ بِبَسَاطَةِ أَنْتَا لَنْ نَكُونَ سَعِيدَيْنِ مَعاً . لَكِنْ
لَمْ عَسَاهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ فَهُوَ لَنْ يَخْسِرَ شَيْئاً بِالزَّوْاجِ بِي . أَمَّا أَنَا
فَسَأُخْسِرُ كُلَّ شَيْءٍ . لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ أَكُونَ أَنَا مَنْ يُنْهِي هَذَا الْأَمْرَ .
وَهَذَا مَا سَأَفْعَلُهُ .

إلى الأبد وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 50 إلى 56)

عاد تيدي أخيراً.

التقينا مرتين كان الجو خلالهما غريباً، إذ بدا أنه أقل حماسةً لرؤيتي ممّا كنتُ أنا. أدركت أنه لن يعارض كثيراً عندما أخبره أنني غيرتُ رأي. ما يخيفني هو غضب والدي. أحتاج إلى أن أكون معك كحاجتي إلى نفسي التالي، لكنّ فكرة عصيان والدي تدبُّ الرعب في قلبي. لذا لم أفعل شيئاً.

ازداد نفاذ صبرك وتزعزعت ثقتك بي. لم تقل ذلك صراحةً، لكنني أدرك احتدام الخلاف الخفيّ بيننا، والملاحظات العابرة، والسكوت الكئيب حين يفرض نطق اسم تيدي نفسه علينا. لا تفهم تردّدي، ولا ألومك على ذلك. بالكاد أفهمه أنا أيضاً، سوى أنّ الخوف يكبلّني.

عصر ذات يوم، لا بد أنك تذكره جيداً، أفرغنا كل ما في جعبتنا.

قضينا مدّة ما بعد الظهيرة بحميمية وشغف. وحان بعدها وقت مغادرتي فهناك عشاءٌ في منزلنا وستحضره أنت بوصفك ضيف والدي. أحتاج إلى الوقت لأنتقي ملابسِي وسيكون تيدي حاضراً هناك إلى جانبي. لم تكن تلك أول مرة نضطر فيها أنا وأنت إلى المناورة في ليلة كهذه، فقد نجحنا في ذلك قبلاً. ولكنك كنت مكتئباً طوال مدّة بعد الظهر، وأحسستُ بالجمر يتقد وأنا أجمع ملابسِي وأبدأ ارتدائها.

- بقيت مستلقياً في الفراش مستنداً إلى مرفق واحد وتراقبني في المرأة بوجهٍ عابس.
- «أنا آسفة. أعلم أن الليلة ستكون غريبة»، قلتُ لانعكاسك في المرأة.
- «أتظنين ذلك؟ أنها ستكون غريبةً فحسب؟ أن المرأة التي أحبها، المرأة التي تقاسمت معها للتو أجمل لحظات الحب، تتكئ إلى ذراع رجلٍ آخر وتجيب عن أسئلةٍ محرجةٍ عن موعد زفافها؟».
- استدرتُ صوبك لأكلمك وجهاً لوجه: «أعلم يا هيمي، أعلم ذلك جيداً وأعدك أن...».
- قاطعتني وأنت تهض عن السرير وترتدي سروالك: «لا يا بيل، لا تعديني بأي شيء. نعلم كلانا أنها مجرد كلمات. هذه الليلة هي الأخيرة. لقد سئمت اللعبة التي تلعبينها أياً كانت».
- اخترقتني كلماتك كالسهم. كنت أتوقع رد فعلٍ من نوع ما، لكن ليس بهذه الطريقة.
- «أتظن أنني أستمتع بمعاملتك كشخصٍ غريبٍ في منزل أبي؟ أن أبتسم ببراءةٍ مُصطنعة وأسألك إن كنتَ ترغب في تجديد مشرويك؟ دعني أذكرك أنك كذبتَ عليّ لتتمكن من الوصول إلى والدي. والآن، بعد أن نلت ما تصبو إليه بالضبط، بات الأمر خطئي أنا؟».
- «لا تضعي اللوم عليّ وحدي يا بيل. تعرفين أنني أستطيع الانسحاب من دائرة والدك دون أن أفكر مرتين».
- «ولمَ لم تفعل؟».

- «لماذا يجب عليّ أن أراجع أما أنتِ فلا؟ لم تتخلّي عن شيءٍ يُذكر من أجلي».
- «الأمر ليس بهذه البساطة يا هيمي وأنت تعلم ذلك جيداً».
- «لكنه كذلك يا بيل. تخبرين والدك أنك لن تتزوجي بتيدي وتغادرين. سنرحل عن نيويورك، سنغادر هذه البلاد كلها إن أردت. لكن عليك أن تبادري يا بيل، وهذا ما تمتعين عنه. لأنك تقارنين ما ستكسبينه وما ستخسرينه. وفي هذه المعادلة، أنا الخاسر».
- «أتظن حقاً أن ما يمنعني إلى الآن هو المال؟».
- «ليس المال وحده. لكنك معتادةٌ عيشَ حياةٍ لا أستطيع توفيرها لك. وكلما طال أمد علاقتنا، أدركتِ ذلك جيداً».
- جفلتُ من كلامك ورحت أحقق إليك بغضبٍ مع أنني لا أملك الحق في الغضب: «أدركت ماذا؟».
- «أن المغامرة انتهت فصولها. لقد كانت مثيرةً في بدايتها، مثيرةً بتفرّدها وبالخطر المحقق بكشف أمرها. لكن الإثارة بدأت تتلاشى، وكلّ ما تبقى لكِ شقّةٌ قذرةٌ ورجلٌ بأفاق محدودة».
- وهكذا أصبح غضبي منه مبرراً: «هل تعتقد أنني كنت أجري نوعاً من التجارب أو ألعب لعبةً ما؟».
- «لم أقل ذلك».
- «بل قلت. لقد قلتَ ذلك بالضبط»، قلت وأنا أصوب نيران كلامي عليك.

أدرتْ ظهري وتابعت ارتداء ملابسي. بعد لحظات، سمعت صوت ارتدائك بنطالك وخروجك من الغرفة. لسعت الدموع عينيّ لكنني حاولت كبتها، فجرحي أعزّ من أن أسمح لك برؤيته. إنّ اتّهامك إياي هكذا يذكرني مرةً أخرى بقلّة معرفتك بي، وبقلّة معرفتي بك أنا أيضاً.

لم أخبرك قبلاً كيف وصلتُ إلى قاعة الرقص في فندق سانت ريجيس ليلة لقائنا الأول، لكنني سأخبرك الآن لتفهم. ولو أنّني كنت أكثر انتباهاً، ربما كنتُ قد رأيتُ ما سيحدث، ومع ذلك، لا أعلم بعد ما الذي كان بإمكانني فعله لمنعهِ.

بدأ الأمر بعشاءٍ وتخطيطٍ مُحكَم كما بدأت كثيرٌ من أشياءِ عالمنا قبل سقوط والدي من عليائه. ذات ليلة، وبِبراءةٍ مُصطنعة، نزلتُ إلى الصالة لأجدَ تيدي ووالديه بين ضيوف والدي على العشاء. رفع تيدي كأسه حين دخلتُ الغرفة، ملقياً التحية بابتسامةٍ خفيفة كأنما يشوبها اعتذار. نشأنا في البيئة ذاتها تقريباً لكن بوجود مسافاتٍ بيننا. رقصنا في بعض الحفلات وذهبنا إلى السينما مرةً أو اثنتين حين كان يعود من دراسته. تبادلنا قبلات عادية على الخد عند نهاية أي لقاء، ولم يتجاوز الأمر هذا الحد أبداً. كان وسيماً لكنه طائش يفتقد إلى الذكاء كما قلتُ أنتَ نفسك. فضلاً عن أنه لم يُظهر أي اهتمام خاصٍ بي قبلاً. كان والدانا هما مَنْ تربطهما علاقة وثيقة، فقد كانا شريكين في عدد من المشروعات التجارية الكبيرة وينتسبان إلى الأنديّة ذاتها.

لحظة نزولي الدرج، لمحني والدي وأشار إليّ للانضمام إليهم. علت وجهه ابتسامة عريضة مشرقة وهو يقدّمني إلى والدتي تيدي

التي لم تُدعَ إلى منزلنا قبل هذه الليلة. حييتها بانحناءٍ مهذبة وصافحتها، وشعرت حينها باضطراب في معدتي لأنني أدركت على الفور ما كان يجري. لكن لا نية لي في الزواج بتيدي. وفي اللحظة التي انتهى فيها العشاء، تحججتُ بألم في رأسي واعتذرت عن استكمال بقية الأمسية معهم، ما أثار ذعر أختي. دفعت صباح اليوم التالي ثمن حماقتي، وانهال عليّ اللوم والتقريع لأنني كنت فظةً مع ضيوفي. لم يُسرَّ أبي حين قلت له إن تيدي ووالديه لم يكونوا ضيوفي بل ضيوفه هو. كما أعلمته أيضاً أن لا نية لديّ في الزواج بأحدٍ على الإطلاق، وأنتي سأرتاد الجامعة لأدرس الفنون أو التربية. طويت منديلي ووضعتُه جانِباً ونهضت. نهض والدي أيضاً وشفعني بقوةٍ حتى سقطتُ على الكرسي مجدداً.

لم يسبق له أن ضرّني يوماً. لذا تراجع خطوةً إلى الوراء وكأنه صُدِمَ بنفسه. حذرني بصوتٍ فولاذي صلبٍ قائلاً: «حذارِ يا فتاة. ورثتِ عن أمك كثيراً من التفاهات. أنت غبية وعاطفية إلى درجةٍ قد تؤذيك. كوني أكثر ليونة فقد وفّر هذا على أختك كثيراً من الألم».

- «هل من الغباء أن أحب الرجل الذي سأتزوج به أولاً؟».
- «لا أهمية لرغباتك في أمرٍ كهذا. إنّ عليك واجباً تجاه هذه العائلة، وستؤدّينه لو كنت تعلمين مصلحتك. انتهى النقاش». لكنه لم ينتهِ حقاً. اندفع مني فجأة السؤال الذي لطالما أردت أن أسأله: «ألهذا تزوجتُ بأمي؟ بدافع الواجب فقط؟».

كنت أعلم أنني أسير على حافةٍ منحدرٍ خطر، لكنني لم أستطع كبح جماح لساني. خَفْتُ حدة نظراته وأنصرفْتُ عني لتستقرَّ على الطرف الآخر من المائدة حيث اعتادت أُمِّي أن تجلس. لكنَّ اللين تلاشى سريعاً كما طراً، ليحلَّ محله شيءٌ مشؤومٌ وعنيف.

- «إياكِ أن تتحدثي عن أمكِ أمامي مجدداً. أفهمت؟ إياكِ»، نفض فتات الخبزِ عن سترته وتابع قائلاً: «أما بالنسبة إلى نقاشنا فقد حُسِم الأمر. يعتزم والدا خطيبك المستقبلي إقامة حفلٍ عشاءٍ على شرفكما الأسبوع المقبل. لن تكون هناك آلام في الرأس، ولا أيّ نوع من الدراما. ستكونين حاضرة بكل سحرك وأناقتك، وستسلِّين والدتي تيدي المغفلة وأنا وزوجها نناقش بعض الأعمال. لا أريد أن أضطر إلى إقناعك بأسلوبي لكنني سأفعل إذا أجبرتني على ذلك. هل هذا واضح؟».

حدقت إليه مذهولةً. أهذا ما تمثله حياتي ومستقبلي بالنسبة إليه؟ مجرد صفقة تجارية؟ تكدست في داخلي ألف كلمةٍ كنتُ أتحرَّقُ لأن أردَّ عليه بها. لكنني اكتفيت بأن أومأت برأسي وأشحت بنظري عنه.

تابع قائلاً بنبرةٍ لطيفةٍ سموحةٍ تقريباً، بنبرة رجلٍ أدرك أنه المنتصر: «أنا ربُّ هذا البيت. لكلِّ منا دورٌ يؤديه في هذه العائلة. دوركِ أن تتزوجي بالرجل الذي اختاره لك، وقد اخترتُ تيدي. إنه شخصٌ ناجح، وسيكون أولادكما كذلك».

كنت على وشك أن أحتجَّ عندما رمقتني سيسي بنظرةٍ حادة ووجهت لي تحذيراً صامتاً. عضضتُ شفتي ولم أتفوه بحرف. كنت أشعل غضباً حتى استدار والدي وخرج من الغرفة.

حين صرنا وحدنا، مدّت سيسي يدها نحو إبريق القهوة وأعادت ملء فنجانها، ووضعت فيه قطعتي سكر. قالت بشرود وهي تحرك القهوة: «لم يكن الأمر صعباً، أليس كذلك؟».

كتمت تهيدةً أحرقتني، فنبرتها المتعالية تفوق طاقتي: «ألا تملّين من أخذ صفه أبداً؟».

- «إنه الصف الوحيد الذي يمكن أخذه في هذا البيت. كنت أظن أنك أدركت ذلك».

- «لن أصبح مثلك أبداً، لن أصبح دمية يشد أبي خيوطها كلما أراد تحريكها».

رشفت سيسي قهوتها ببرودٍ يثير الأعصاب، ثم أعادت الفنجان بهدوءٍ إلى صحنه: «أخشى أنك مقبلة على صدمةٍ قاسيةٍ يا أختي العزيزة. ستنتهي بك الحال مثلي تماماً. لقد سمعته بنفسك، لا أهميةً لرغباتك. كلّ ما يهمّه ما يمكنك أن تقدّمي له. تعتقدين أنك تفهين حقيقةً ما يجري هنا، وأن الأمر برمّته يتعلّق بالمال والعقارات، بإمبراطوريةٍ والدنا، لكنّه أكبرُ من ذلك بكثير. لذا، راقبي خطواتك جيداً».

- «هل من المفترض أن يخيفني كلامك؟».

رفعت كتفها متجاهلةً سؤالي وهي تدهن قطعة خبزٍ محمّص بالمربى بتكاسلٍ مُصطنع: «لقد كان محقاً. أنت تشبهينها كثيراً وستصبحين مثلها تماماً إن لم تحذري. لم الاستمرار في تذكيره بها وأنت تعلمين أنّه لا يريد سماع اسمها؟».

- «يبدو كأنّه يحاول التظاهر بأنها لم توجد قط. وكأنّه يريد محوها من الوجود. ألا يزعجك هذا؟».

- «ماذا تتوقعين منه أن يفعل؟ أن يُعيد إحياءها من الموت كل حين؟ أن يتظاهر أنها لم تُلحق العار بهذه العائلة بمسرحياتها الهزلية؟».

- «لقد كانت مريضة؟».

قلبت سيسى عينيها وهي تلقي ببقايا خبزها المحمص على طبقها: «كيف يمكنك أن تكوني ساذجةً إلى هذا الحد؟ هناك طريقةٌ تسير وفقها الأمور في العالم الحقيقي. طريقةٌ قاسية ربما، ولكن بمجرد أن تقبليها، تصبح الأمور... أسهل. هذا ما قصده والدنا عندما استخدم كلمةً ليئة العريكة. تقبلي كيفية سير الأمور فحسب».

- «أي أمورٍ تقصدين؟».

- «يسير كل شيءٍ في الحياة وفق ترتيبٍ هرميٍّ. الأقوى يعتلي قمة الهرم، ويضطرُّ الضعيفُ إلى النزول إلى الدرك الأسفل. كانت هيلين ضعيفة».

أثار ردّها الجليدي الخالي من أيّ عاطفةٍ اشمئزازي: «تسمينها هيلين؟ وكأنّها غريبة كانت تقطن يوماً منزلنا؟ لقد كانت أمّنا».

هزّت سيسى رأسها بضيقٍ ونظرت نحو السقف: «بصراحةٍ تامة، أنت لا تتعلمين شيئاً على الإطلاق. العائلات، مثل عائلتنا، تتحمّل مسؤوليةً تجاه الأجيال القادمة، مسؤولية الحفاظ على أسلوب حياتنا، وعلى هويتنا، وعلى ما بنينا. لدى والدنا خطةٌ لنا. لنا جميعاً».

- «وماذا إن رفضتُ أن أكون جزءاً من خطته؟».

- «ألم تصغي جيداً؟ لا خيار أمامنا. نحن مجرد بيادق على رقعة شطرنج، أنا وأنت. لا أكثر من ذلك. سيحرّكنا حيثما يشاء وبأيّ طريقة يرتئها، ولن يتوقف حتى يسيطر على البيادق كلّها»، تحركت مبتعدةً عن الطاولة ثم توقفت. ترددت لحظة وألقت عليّ نظرةً جليديةً ثاقبة: «اعلمي أيضاً أنه في بعض الأحيان، تختفي بعض البيادق. بيادقٌ مُزعجة لم يكن يهتمّ بها أحد على الإطلاق. لا تظنّي لحظة أنه سيتوانى عن فعل الأمر ذاته معك».

غادرتُ بعدئذٍ تاركةً إيّاي أتأمل تحذيرها. التقيتُ بك بعد شهرٍ في فندق سانت ريجيس. أنتِ بابتسامتك المتقنة وبدلتك المُستأجرة. حتى ذلك الحين، كنتَ تنتقدني، وتتساءل كيف سمحتُ للأمر بالوصول إلى هذه الحال. كنتُ أتساءل أنا أيضاً.

الفصل التاسع

آشليين

«أن تغرق في صفحات كتاب يعني أنك تأخذ نفساً جديداً».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

7 أكتوبر 1984

راي، نيوها مبيشير.

خففت آشليين سرعة سيارتها وانعطفت نحو شارع هاربر، وهو شريط ضيق مرصوف بالحصى والأصداف المتكسرة، يمتد باتجاه الميناء المفتوح. ظهر أمامها جسرٌ خشبي صغير تبعثرت خلفه بعض السطوح، إحداها يعود إلى منزل إيثان هيلارد.

عبرت الجسر متجاوزةً زوجين يركبان دراجتين وشرعت تبحث عن أرقام المنازل. امتدَّ الطريق أطول مما توقعت، وراح يتلوى على طول الشاطئ المكسو بالصخور أكثر من ميل. كانت جميع المنازل تقع على يمينها بأحجام وأشكال متنوعة، لكنها تشترك جميعاً في إطلالةٍ تخطف الأنفاس على الميناء.

تخيلت آشليين الاستيقاظ كل صباح في هذه البقعة الساحرة. سماءٌ زرقاء وبحرٌ فضي، وشعاعٌ يرقص على أجنحة طيور بيضاء ناصعة. كم يبدو العالم مختلفاً في عيون أولئك الذين يستيقظون على مثل هذه المناظر! كم هو عالمٌ جميل ونقي وهادئ!

انتابها فجأة شعورٌ بالغربة وكأنها دخيلة على هذا المجتمع الشاطئي البديع، وفكرت في أن تقود سيارتها وتعود أدراجها. لم

تتلق شيئاً من إثبان منذ رسالتها الهاتفية الأخيرة قبل أسبوع، فما الذي تأمل تحقيقه بمفاجأته في منزله؟ لكن من ناحية أخرى، ماذا لديها تخسره؟

بعدما تجاوزت منعطفاً واسعاً، لمحت صندوق بريدٍ يحمل الرقم 58 على جانبه. خففت سرعتها وترددت لحظة قبل أن تدخل بسيارتها الممرّ المؤدي إلى المنزل.

كان المنزل فخماً مهيباً. تحفة كلاسيكية من طابقين بسقف جملونيّ وشرفة في المنتصف وقبة تطلّ على الميناء. بدا كل شيء كأنه قد طلي للتوّ بالرماديّ والأبيض الناصع، باستثناء الباب الأماميّ بلونه الليموني الغريب المبهج.

يقع على يسار الممر مرأبٌ منفصل له ثلاثة أبواب، لكن لم يكن هناك أثر لأي سيارة في أيّ مكان. أخرجت آشليّن كتاب «إلى الأبد وأكاذيب أخرى» من حقيبتها، وراحت تطالع الملاحظات الصفراء اللاصقة التي تطلّ برؤوسها من بين صفحات الكتاب. لقد أمضت ساعات هذا الصباح في كتابة كلّ سؤالٍ على حدة، ثمّ إلصاقه على الصفحة الملائمة. وبعد الانتهاء من ذلك، كتبت مذكرةً مهذّبة تطلب فيها مساعدته مرة أخرى، ثمّ وضعت الكتاب والمذكرة معاً في غلافٍ بلاستيكي واط.

لم يتبقّ لها الآن سوى وضع الكتاب بين يديه، ما يعني التخلي المؤقت عن ملكيته. لم يكن قرار التخلي عن الكتاب، حتى مؤقتاً، قراراً سهلاً، لكن إثبان كان قد أوضح جلياً أنه لا يرغب في الاحتفاظ بأيّ من الكتابين لنفسه، وعليها أن تثق به.

ليست الثقة من نقاط قوتها حقاً، لكن لا خيار آخر أمامها إن كانت تتشد مساعدة إيثان. وقبل أن تغير رأيها، صعدت الدرجات الحجرية وضغطت زر الجرس. بعد ثلاث محاولاتٍ دون إجابة، لجأت مكرهةً إلى خطتها البديلة بترك الكتاب في صندوق البريد.

ألقت نظرةً خاطفة خلفها وهي تستدير عائدةً عبر الممر، مدركة أنها، وبوصفها غريبة على هذا المجتمع الثري الصغير، قد يُساء الظنُّ بها إن وُجدت تتطفل على صندوق بريد إيثان هيلارد.

عندما تأكدت من خلوّ المكان، فتحت صندوق البريد لتجده مملوءاً بالبريد الرديء ودعايات الصحف. ربما لم يكن يتجاهلها على الإطلاق. وربما كان خارج المدينة ببساطة.

حدقت إلى المنزل مجدداً مركّزة انتباهها على الباب الخارجي الشفاف. إن لم يكن مقفلاً، ستمكن من إدخال الكتاب بينه وبين الباب الداخلي. وبذلك سيكون محمياً من تقلبات الطقس بفضل غلافه البلاستيكي، ولن يستطيع إيثان تجاهله حين يعود إلى المنزل، لأنه سيضطرّ إلى تجاوزه للدخول.

دست الكتاب تحت ذراعها وعادت صوب المنزل. جرّبت الباب الخارجي فلم يكن مقفلاً. همّت بفتحه تماماً بعدما ألقت نظرة خلفها مرةً أخرى، وإذ بالباب الأمامي الفعلي يُفتح على مصراعيه.

- «ماذا تفعلين؟».

أخاف ظهور إيثان المفاجئ آشليين إلى درجة أن الكتاب كاد ينزلق من تحت ذراعها ويسقط على الدرج.

- «كنتُ فقط... لم أظنّك في المنزل. لقد رننت الجرس لكن لم يفتح أحد».
- «فظننت أنك تستطيعين الدخول بمفردك؟».
- «لا»، رفعت آشلين الكتاب دفاعاً عن نفسها وتابعت القول: «كنت سأتركه داخل الباب الخارجي، ثم أتصل وأترك لك رسالة عند عودتي إلى المتجر. لقد حاولت استخدام صندوق البريد، لكنّه مملوء عن آخره».
- نظر إيثان إلى الكتاب ثمّ إليها وعلى وجهه امتعاضٌ ظاهر: «فتح صندوق بريد شخص آخر يعدّ مخالفةً للقانون».
- نظرت إليه آشلين مرتبكة: «حقاً؟ لم أكن أنوي أخذ أيّ شيءٍ على الإطلاق. كنت سأترك الكتاب فحسب».
- «لماذا؟».
- تجلى توتر آشلين على شكل ابتسامة، إذ لم تكن الأمور تجري كما تمنّت: «لديّ بعض الأسئلة. وقد حصلت على معلوماتٍ جديدة منذ الليلة التي أتيتَ فيها إلى المتجر. لقد تركتُ لك رسائل عدة لكنني لم أتلّق رداً».
- «فجئتُ إلى منزلي».
- بدا الأمر سيئاً جداً حين صاغه إيثان بتلك الكلمات. بدا تطفلاً مزعجاً، بل ومخيفاً قليلاً ربما. «لم آت لرؤيتك بالضبط. في الواقع، كان يجب أن أراك حتماً، لكن لم تكن لدي نية إزعاجك. لقد كتبت أسئلتني على أوراق لاصقةٍ وألصقتها على صفحات الكتاب لتتمكن من مراجعتها عندما يتوفر لديك الوقت. لو كنت أعلم أنك هنا، لما كنت...»، تركت آشلين كلماتها معلّقةً

في الهواء. بدا إيثان مُتعباً ومنزعجاً، وكأنها قاطعته وهو في خضمّ أمرٍ ما.

- «أنا آسفة. يبدو أنني اخترت توقيتاً غير مناسب».

كانت على وشك نزول الدرج والعودة عندما أوقفها قائلاً: «لقد سحبتُ مقبس الهاتف منذ أيام، لذا لم أتلّق أياً من رسائلك أو مكالماتك. ولم أدرك يوماً مرّ. لقد فقدت إحساسي بالوقت خلال هذه المدة»، توقف قليلاً ومرّر يده بين خصلات شعره. «في أي يوم نحن؟».

- «الأحد».

أوماً برأسه متبرّماً: «يا إلهي أسبوعٌ كامل».

فهمت آشليّن الآن ما يجري وقد لاحظت طول لحيته وملابسه التي بدا أنه يرتديها منذ أيام.

- «هل كنت تكتب؟».

- «لقد وعدتُ محرّري أن ألقى نظرة على الفصول الخمسة الأولى بحلول الأسبوع المقبل، لكنّ الأمور لا تسير على ما يرام. يبدو أنني لا أستطيعُ أن أحرز تقدماً الآن»، حكّ رأسه بقوة تاركاً شعره منتصباً. «آسفٌ على فظاظتي. طبعي سيئٌ عندما لا أنام جيداً».

- «أنا من يجب أن أعتذر. ما كان ينبغي أن أقاطعك وأنت تعمل».

كانت آشليّن تنتظر رداً عندما أدركت أنّ انتباه إيثان قد تشتت. استدارت لتتظر إلى حيث ينظر، فرأت امرأةً ممثلةً الجسم ترتدي بدلة رياضية بلونٍ بنفسجي تقف عند نهاية الممر مع كلب ممثليّ

الحجم أيضاً. يظن المرء أول وهلة أنها تعاني في السيطرة على الكلب، لكن انتباهها في الحقيقة كان مركزاً عليهما.

- «إنها السيِّدة وارين»، قال إيثنان. «عضو لجنة مراقبة الحيِّ المكوَّنة من نفسها فقط». ابتسم ابتسامة مقتضبة، ولوَّح للمرأة بطريقة هزلية. «كنت أسرق المخللات من حديقة منزلها الخلفية عندما كنت طفلاً. كنتُ أسرق مرطباناتٍ بأكملها من على الطاولة في الحديقة. قالت لأمي إنني سأزجَّ في السجن. وهي تراقبني منذ عودتي إلى الحيِّ، تنتظرُ أن أرتكب خطأً ما. من الأفضل أن تدخلني قبل أن تصنّفك على أنك شريكتي في الجريمة. أنا متأكد أنها حفظت أرقام لوحة سيارتك».

تفاجأت آشلين بالدعوة لكنها تبعتهُ بسرورٍ إلى الداخل. وفي اللحظة الأخيرة، استدارت عند المدخل لتلقي تحيةً على السيِّدة وارين.

هزَّ إيثنان رأسه ساخراً وهو يفلق الباب وراءهما: «سيصبح هذا حديث الناس بحلول الصباح لا محالة».

- «الأشخاص الفضوليون يصيبونني بالجنون. إنهم يحبُّون التلصّص من خلف الستائر، لكن أكثرهم لن يحرك ساكناً حتى لو هبت النار في منزلك».

رفع إيثنان حاجبيه متسائلاً: «أهذا صوت التجربة يتكلم؟».

- «شيء من هذا القبيل».

وقفوا في بهو صالٍ رحبة ذات أرضية من الباركيه المصقول ومرآة عملاقة تعكس ضوءَ قنديلٍ معلقٍ مصنوع من البرونز

والزجاج. وخلف ممر مقنطر، لمحت آشليين غرفة جلوسٍ واسعةٍ مطلية بتدرجاتٍ خفيفةٍ من الألوانِ الكريمةِ والرماديةِ.

- «يا لها من غرفةٍ رائعةٍ».

- «أترغبين في جولةٍ؟».

أومأت برأسها بخجل: «بالتأكيد، إن كان لديك وقتٌ كافٍ».

لم يُكثر إيثان من الكلام وهو يريها غرف المنزل، مشيراً فحسب إلى تفصيلٍ هنا وهناك، لكنّه ترك الغرف تتحدّث عن نفسها. كان المنزل تحفةً فنيةً من الرقيِّ والأناقة والبساطة في آن. ورق جدرانٍ أنيق وأقمشة ذات ألوانٍ باردة وهادئة، وأثاثٌ مُختارٌ من أجل الراحة بدل التباهي.

- «إنه جميلٌ جداً. يشبه المنازل الفخمة التي تراها في المجلات لكنه لا يزال دافئاً ومرحّباً». قالت وهما يعودان إلى المطبخ.

- «شكراً لك. هذا صنيعٌ والدتي. عندما علمتُ بمرضها، قررت أن تعيد ترتيب المكان وتزينه بأكمله. أرادت أن يكون كلّ شيءٍ بأبهى حلّةٍ من أجل والدي ومن أجلي أيضاً بعد وفاته. لطالما كانت تُؤثر الآخرين على نفسها. لقد أرهقت نفسها من أجل إنجاز كل شيءٍ بالشكل الأمثل. كانت تخشى ألا تتمكن من إنهائه قبل أن تحين ساعتها».

استعادت آشليين صورة الصناديق التي عانت وهي تفرغها قبل أن تقع على كتاب «ندم على بيل»، والأصدقاء التي التقطتها عن غير قصد. كانت أصدقاء تخصّ شخصاً مريضاً يخشى نفاد الوقت. أدركت الآن أنّ تلك الأصدقاء كانت لوالدة إيثان.

قالت آشليْن متأثرة: «آسفة لسماع ذلك. ما كان اسمها؟».

- «كاثرين».

- «يبدو أنها كانت أمّاً رائعة».

ابتسم إيثان ابتسامة مشوبة بالحزن: «كانت كذلك فعلاً. وكانت مقاتلة حقيقية أيضاً. أمهلوها عاماً واحداً عندما شخصوا حالتها، لكنّها صمدت ثلاثة أعوام».

- «وقد أمضتْ تلك الأعوام وهي حريصة أنّ كل شيء سيكون أسهل عليك وعلى والدك بعد رحيلها».

- «تماماً. وضعت عشرات القوائم بأرقام هواتف الجيران كلهم، ومن يجب الاتصال به لإصلاح هذا الغرض أو ذاك، وأين تحتفظ بالأوراق المهمة. حتى أنّها جعلت المُدبّرة تقسم على البقاء والعناية بوالدي. وها هي ذي تعتي بي اليوم. أو تحاول على الأقل».

تمكنت آشليْن من رسم ابتسامةٍ على وجهها، لكنها لم تستطع منع نفسها من مقارنة القرارات التي اتخذتها والدتها بعد تشخيص حالتها بتلك التي اتخذتها كاثرين هيلارد. كاثرين التي فعلت كلّ ما في وسعها لضمان رعاية من تحبّهم. لقد اختارت البقاء والقتال.

سارا عائدين إلى المطبخ. أشار إيثان إلى قِدرٍ كبيرٍ على الموقد وقال: «ما رأيك بطبقٍ من حساء المأكولات البحرية؟».

- «أعددتَ حساءً؟».

- «هل يبدو أمراً مستحيلاً؟».

- «لم أقصد ذلك. كان دانييل عديم النفع تماماً في المطبخ. أشكّ أنه كان يستطيع العثور على مغرفةٍ للحساء، ناهيك بصنع حساءٍ حقيقي».
- «دانييل زوجك السابق؟».
- «السابق تقريباً»، صحتت آشلين. «لقد توفي قبل أن يصبح طلاقنا نهائياً».
- «أكان حادثاً؟».
- أشاحت آشلين بنظرها بعيداً. لقد كرهت هذا السؤال لأنها لم تعرف قط كيف تجيب عنه إجابة صحيحة: «لقد صدمته سيارة. شاحنةٌ في الواقع، منذ أربع سنوات».
- «يا إلهي. أنا آسف».
- «لا بأس».
- خيّم صمتٌ ثقيلٌ مع مرور الثواني. تقدّم إيثنان نحو الموقد ورفع غطاءَ قدر الحساء مطّلعاً على محتوياته: «في سبيل الكشف الكامل عن الحقيقة، لم أصنع حساء المأكولات البحرية بنفسي في الواقع. لقد جلبتهُ بيني، مُدبرتي التي ورثتها، هذا الصباح. إنها مقتتعة أنني سأموت جوعاً إن لم تطعمني مرتين على الأقل في الأسبوع، وقد توقفتُ عن محاولة إقناعها بأنها مخطئة. حساء المأكولات البحرية الذي تعدّه أسطوريٌّ حقاً، وهناك دائماً ما يكفي منه جيشاً كاملاً»، توقف لحظة ثم تابع: «يسعدني أن أشاركه معك».
- «أشكرك حقاً لكنني لم آتِ لأكون ثقيلة عليك»، سحبتُ آشلين الكتاب من تحت ذراعها ووضعتَه على طاولة المطبخ.

«سأتركه هنا إن كان ذلك لا يضايقك. ربما تستطيع أن تلقي نظرة على الصفحات التي علّمتها والأسئلة التي دوّنتها».

نظر إيثان إلى الكتاب والقصاصات الصفراء التي برزت منه: «ما نوع الأسئلة؟».

- «معظمها عن غولدي سبنسر؟».
- «حدثيني عنها مجدداً».
- «ذكرتها عندما جئتني في متجري، لكن لم أكن أعرف سوى لقبها حينها. اسمها الحقيقي جيرالدين سبنسر. ورثت عن والدها سلسلة صحف وهي في الحادية والعشرين من عمرها فقط، واستخدمتها لكشف الفساد في البلاد. كان هيمي يعمل لديها، لكن يتكشف لي الآن أنّ علاقتهما كان أعمق من ذلك. وهناك اسمٌ جديد أمل أن يكون مألوفاً لك. ستيفن شواب. دونت كل شيء على الأوراق اللاصقة وطابقتها مع الصفحات. وهناك بعض النسخ المصوّرة في الخلف، وصورُ شخصية أتمنى أن تكون مألوفة لديك».

نزع إيثان الغلاف الواقي عن الكتاب ومَرَّرَ إبهامه برفقٍ على الأوراق اللاصقة البارزة: «إنها ملاحظات كثيرة».

- «أعلم ذلك. وأعلم أيضاً أنك لا تهتم بالكتابين كثيراً. ما أرجوه أن تتمكّن من توضيح بعض الأشياء التي اكتشفتها».
- «حسناً»، قال إيثان متذمراً. «سألقي نظرة، لكنني سأتناول الحساء أولاً. أنا جائع جداً. يمكننا التحدث ونحن نأكل. هل يمكنكِ تحضير سلطة؟ الخضروات الورقية موجودة في درج الخضار الطازجة، لكنك قد تضطرين إلى خلع سترتك».

أومات آشليين برأسها وهي تنزع سترتها ثم توجهت صوب
الثلاجة.

أشعل إيثنان الموقد وأخرج ملعقة خشبيّة من درج قريب. «قلت
إنّ لديك أسئلة حول بعض المعلومات الجديدة التي وصلتكَ. ما
نوع المعلومات التي نتحدّث عنها هنا؟».

استحضرت آشليين قائمة الأسئلة في ذهنها. كانت كثيرةً
إلى درجة أنّها لم تدرِ حقاً من أين تبدأ: «ذكرت ماريان أنّها
كانت تكتب الشعر عندما كانت صغيرة. أتساءلُ إذا كانت أي من
قصائدها لا تزال موجودة. كنتُ أملُ أيضاً أن تكون قادراً على
العثور على صورةٍ قديمة أو اثنتين».

هزّ إيثنان كتفيه: «لا أعلم شيئاً عن أي قصائد. لم تكن ماريان
ضمن دائرة اهتماماتي عندما كنتُ صغيراً، ولكن قد تكون هناك
بعض الصور في مكانٍ ما. لكنني فضولي بشأن وريثة الصحف،
المُصلحة الاجتماعية تلك. قلتُ إن اسمها غولدي أليس كذلك؟».

- «هذا هو الاسم الذي كانت تُعرف به. لقد كانت امرأةً مثيرة
للجدل على ما يبدو. خالفت القواعد كلها ولم تعتذر عن أيٍّ
منها على الإطلاق. وقد تكون أيضاً السبب في انفصال بيل
وهيمي. وهذا ما يقودنا إلى ستيفن شواب».

أخرج إيثنان طبقيين من خزانةٍ قريبة ووضعهما بجوار الموقد.

- «من هذا ستيفن شواب؟».

- «قد يكون الرجل الذي حطّم قلبَ جدتك، وقد لا يكون كذلك.
إنها قصةٌ طويلة».

- «من الأفضل إذن أن نفتح زجاجة شراب. ماذا تفضلين؟».

- «لا يهَمّ. اختر أنت».

ما الذي يحدث؟ جاءت آشلي لتعطيه كتاباً، وها هو ذا الآن يفتح زجاجة شرابٍ وهي تعدّ السلطة. مع ذلك، راودها شعور جميل، شعور بالراحة تقريباً على الرغم من محيطها الغريب عنها. لعله سعيدٌ فحسب بالانشغال عن روتينه اليومي. أياً كان السبب، فقد استحوذت على اهتمامه، وخططت للاستفادة القصوى منه.

الفصل العاشر

آشليين

«تحتاج القطع النادرة إلى لمسة عناية وإصلاح، فإهمالها المزمّن يؤدي إلى ضعفها وهشاشتها وظهور عيوب دائمة فيها».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

جلسا إلى طاولة المطبخ جنباً إلى جنب لتناول الطعام، وانكبّا على مسودات المقالات الصحفية التي جمعتها روث، بما فيها المقالة التي تحمل صورة ستيفن شواب. شرحت آشليين شكوكها بالتفصيل حول تورّط هيمي وغولدي عاطفياً، وكذلك أسبابها التي جعلتها تشكّ في أنّ هيمي وستيفن شواب هما الشخص ذاته.

أصغى إيثان باهتمام مقاطعاً آشليين بين الفينة والأخرى ليسأل عن تفصيلٍ ما. شكّل اهتمامه مفاجأةً سارة لها، لكن مع نقاشهما تفاصيل أكثر تعقيداً، ذكّرت نفسها بأن تتحلّى بالحدّز. مارتن مانينغ كان جزءاً من ماضي إيثان ومن عائلته. والعائلة تبقى عائلة بغض النظر عما يحاول إيثان التظاهر به. «أكره أن أسأل عن هذا الأمر، لكن هل تتذكر إن كان والدك قد ذكر يوماً أن مارتن ربما يكون متورطاً في أشياء...»، توقفت لتبحث عن طريقة لطيفة لقول ذلك، «... مشبوهة؟».

عبس إيثان: «لا، لكن لم يكن ذلك ليصدمني. هل نتحدث عن ذوي الياقات البيضاء؟»⁽¹⁾.

- «بل عن أشياء مثل تهريب الخمر خلال مدة الحظر. ألمح هيمي بذلك لبيل وشعرتُ بأنها كانت تعلم بالفعل. لا أعتقد أنه حوسِبَ بسبب ذلك قطّ، ولكن يبدو أن لجديك الأكبر ماضياً مثيراً للاهتمام، فقد كانت هناك أشياء أخرى، أشياء تتعلق بالحرب».

- «أشياء مثل ماذا؟».

- «أشياء مثل وقوفه إلى جانب الطرف الخاطيء».

قطّب إيثان جبينه قائلاً: «لم أسمع بهذا قطّ، ولا بشيء عن تهريب الخمر. لكن الأمر لن يفاجئني. أعلم أن فضيحة مدوية هزّت سمعته في وقت ما، ودمرته عملياً. لا أملك أيّ فكرة عن تفاصيلها، فقد كان والدي شديد التكتّم على أمور كهذه. أما والدتي فكانت أكثر انفتاحاً في آرائها. تذكرتُ مرة قولها إنّ مارتن كان شخصاً ملتويّاً إلى درجةٍ ستُضطّهرهم إلى دفنه ملتفاً عندما يموت».

- «يبدو أن المودة لم تعرف مكاناً بينهما».

- «على الإطلاق. وهناك سببٌ وجيه لذلك. كان مارتن يعارض بشدة زواج والديّ. وقفّت كورين إلى جانبه بالطبع، فتأمّرا

(1) الجرائم التي يرتكبها أشخاص ذوو مكانة اجتماعية عالية، عادة ما تكون جرائم غير عنيفة تتعلق بالتجارة والأعمال، مثل التهريب الضريبي والاحتيال. يستخدم مصطلح الياقات البيضاء لتمييز هذه الجرائم عن جرائم «الياقات الزرقاء» التي يرتكبها العمال ذوو الدخل المنخفض.

- على والدي. قالوا له إنه يجب أن يختار إما والدي وإما العائلة، لذا فقد اختار».
- «وهذا ما يفسر قلة معرفتك بهم».
- «في الوقت الذي أصبحت فيه كبيراً بما يكفي لفهم أي شيء مما حدث، كانت الصلة قد انقطعت بين والدي وماريان. حاولت والدي أن تُصلح الأمور بينهما لأنها كانت تحب ماريان، وعلى ما يبدو أن الشعور كان متبادلاً. في الحقيقة، أخبرت ماريان والدي أن يهرب ويتزوج بأمي في المرة الأولى التي التقيا فيها»، هز إيثان رأسه مبتسماً وتابع قائلاً: «كانت أمي تقسم. أن ماريان فعلت ذلك لإغاضة مارتن وكورين».
- «ربما كانت محقة. لقد وُضعت بيل أمام خيارٍ مشابه، مع أنني أشك في أن الخيار كان حقيقياً في حالتها، لأن مارتن كان شخصاً مستبدّاً».
- أوماً إيثان برأسه موافقاً: «هناك إجماعٌ على هذا الرأي».
- «كان لدى بيل شقيقٌ أيضاً. إرنست، هل سمعت به قبلاً؟».
- «الصبي الذي غرق، أجل سمعت به. إنها قصة محزنة»، أجاب إيثان متأثراً.
- «أمه، والدة ماريان، لم تتعاف قطّ من الخسارة. ألقت اللائمة على نفسها وانتهى بها المطاف في مصحة نفسية. ماتت هناك عندما كانت ماريان مجرد طفلة».
- «أجل، لقد ذكرت شيئاً من هذا القبيل. لكن لا أعتقد أنني سمعت والدي يتحدث عن هذا الأمر قبلاً. كل ما أعرفه أنها ماتت قبل ولادة أبي»، توقف إيثان لحظة وفرك ذقنه بيده.

«أعلمين ما المضحك في الأمر؟ كنتُ لأراهن بأموالي كلها أنني لا أعرف شيئاً تقريباً عن تاريخ عائلتي هيلارد ومانينغ، لكنني بدأتُ أدرك أنني أعرف أكثر مما كنتُ أعتقد بكثير. نشأت مع والدي فقط، أما الباقون فقد كانوا... أشباحاً. أكره أن أعترف بذلك، لكنني في الواقع أشعر بالفضول لمعرفة ما لا أعرفه بعد».

ابتسمت آشيلن بمرح خفي فالفضول علامة جيدة: «عليك أن تقرأ الكتابين إذن. أقله كتاب بيل. لكنني أود حقاً لو أعرف رأيك في وجهة نظر هيمي أيضاً، من وجهة نظر رجل».

نهض إيثان وبدأ يجمع الأطباق: «هل هناك وجهة نظر رجل مقابل وجهة نظر امرأة، أم أنها مجرد مسألة اتخاذ موقف بناءً على الجنس؟».

نزلت آشيلن عن الكرسي وتبعته إلى المغسلة حاملةً بقية الأطباق: «ليس هذا ما قصدته. ما أقصده أنني أرغب في سماع رأي شخصٍ محايد، شخص يخبرني إذا ما كنتُ أقرأ أشياء في القصة ليست موجودة بالفعل. عندما يتعلق الأمر بالحب، أعجز عن تقييم الأمور تقييماً موضوعياً. فلنسمّها مشكلات في الثقة». أغلق إيثان صنبور المياه وتناول منشفة لتجفيف يديه: «هل خانك زوجك السابق؟».

أومأت آشيلن بالإيجاب.

- «وأنا أيضاً».

لم يخطر على بالها قط أنه كان متزوجاً يوماً.

- «كنت متزوجاً؟».

- «ليست مدةً طويلة، لكنها كانت كافية».

- «أسفة».

رفع إيثنان كتفيه بلا مبالاة وقال بابتسامةٍ خفيفة: «مجرد مقطع آخر من أغنية الظلم التي تحدثنا عنها مرة، أليس كذلك؟ كنت أظن أن لا قواسم مشتركة تجمعنا».

ابتسمت آشلين بارتباك، ورأت في تلك اللحظة فرصةً للضغط عليه مرة أخرى: «هل ستقرؤهما؟».

تتهد إيثنان، ثم قال: «لن تستسلمي، أليس كذلك؟»، انتهى من تجفيف يديه ومدّ يده نحو كتاب «إلى الأبد وأكاذيب أخرى» ذي القصصات الصفراء البارزة. «سأقرأ كتاب بيل وسأحاول الإجابة عن أسئلتك. ما الذي لم نغطه بعد؟».

استحضرت آشلين قائمتها مرةً أخرى، لقد ناقشا أغلب الموضوعات فعلاً. ولكن لا تزال هناك أشياء تثير فضولها، وقد لا تتاح لها الفرصة ليكون متعاوناً بهذا الشكل مرة أخرى. «أود لو أعرف مزيداً عن أطفال ماريان. أين هم الآن؟ وماذا يفعلون؟». جلس إيثنان من جديد على كرسيه، ومد يده نحو كأس شرابه: «لا أستطيع مساعدتك في هذا الأمر. لم أقابلهم سوى مرة واحدة عندما كنتُ طفلاً. اضطرت ماريان إلى حضور مؤتمر في بوسطن، فأقاموا عطلة نهاية الأسبوع معنا. لا أتذكر الأحداث جيداً لكن الصبي، لا أتذكر اسمه، كان يتحدث عن احتفالٍ أقاموه بمناسبة وصوله سن البلوغ، ويتفاخر بالهدايا الكثيرة التي حصل عليها. قلتُ لوالدتي إنني أريد حفل بلوغ أيضاً، لكنها شرحت لي أن الكاثوليك لا يحتفلون بسنّ البلوغ. أتذكر أنني تضايقت كثيراً حينها».

علتِ الدهشة وجه آشليين التي قالت: «لم أكن أعلم أن ماريان يهودية».

- «لم تكن كذلك، لكنّ طفلها كانا يهوديين، لذا تحولت إلى اليهودية. أذكر أن الصحف أحدثت ضجة كبيرة حول هذا الموضوع»، تجمّد إيثان فجأة. «بالمناسبة...»، نهض فجأة وابتعد عن الكرسي قائلاً: «تعالى معي».

- «إلى أين؟».

- «إلى مكتب والدي».

تبعته آشليين وهو يصعد سلماً مغطى بالسجاد إلى الطابق الثاني، ثم عبرا رواقاً طويلاً مطلياً بألوان مائية ناعمة. كان آخر باب جهة اليسار مفتوحاً. ترددت عندما دخل إيثان، وفضلت التوقف عند المدخل. كانت الغرفة غرفة رجل، بأرضية داكنة وأثاث ثقيل ورفوف مكتظة بالكتب. وسط الغرفة، مقابل نافذة كبيرة بجوانب بارزة، كان هناك مكتب جميل مزخرف، تكدست فوقه مستندات قانونية وكثيرٌ من الصفحات المجمعة. بالإضافة إلى آلة كتابة قديمة أزيحت جانباً، مع ورقة بيضاء ذابلة فوق لوحة المفاتيح.

- «هنا تكتب إذن»، قالت آشليين.

- «هنا أحاول الكتابة. وهنا كان والدي يكتب».

- «كان والدك كاتباً أيضاً؟ يا للروعة، مثل هيمي ووالده».

انحنى إيثان أمام خزانة قديمة وراح يبحث بين محتوياتها بعناية، ثم أخرج بعض الصناديق البيضاء: «كان والدي أستاذاً، لكن موهبته الحقيقية تمثلت في الكلمات. لقد امتلك قدرة فريدة

- على تسليط الضوء على الأمور التي يتجنب الناس الكلام عنها. كيف باعت حكومتنا أخلاقها مقابل الريح المادي، وكيف تتآكل إنسانيتنا شيئاً فشيئاً. عدا عن انتشار التعصب العرقي في أمريكا الحديثة. لقد كتب عن هذه الأشياء كلها وحثر منها».
- «أعتقد أنه وغولدي سبنسر كانا ليصبحا صديقين مقربين».
- رفع إيثان رأسه عن الصناديق وقال مبتسماً: «ربما».
- تقدمت آشيلن قليلاً إلى داخل الغرفة: «عمّ تبحث؟».
- هز إيثان كتفيه: «لا شيء على الأرجح. لكن والدي كان يحتفظ بكل ما من شأنه أن يثير استياء والدتي. لقد تخلصتُ من كثيرٍ من الأشياء، لكن لم تتح لي الفرصة لتفقد هذه الخزانة. كنت أخشى ذلك في الحقيقة. لكن ربما يكون ذلك أمراً جيداً».
- «لماذا؟».
- «عندما كنت أحدثك قبل قليل عن ابن ماريان، تذكرت والدي واقفين في المطبخ يتحدثان عن مقالة صحفية أرسلتها لهما، وكيف غضبت كورين لأنها لم تدرِ إلا من الصحف أن أختها قد تبنت طفلين يهوديين».
- تسارع نبض آشيلن: «أتظن أن المقالة لا تزال موجودة؟».
- رفع غطاء أحد الصناديق ثم أغلقه ووضعها جانباً: «لا أعتقد ذلك. قد تكون أُمي تخلصت منها في أثناء عملية تجديد المنزل. لقد رحلت كمية أغراض هائلة. لكن الأمر يستحق المحاولة. من الواضح أنها سمحت له بالاحتفاظ بجزءٍ من كنوزه».
- نظرت آشيلن إلى كومة الصناديق وقالت بنبرة شك: «هل تعرف حتى ما الذي تبحث عنه؟».

- «دفتر مذكراتٍ ربما. لكنني لم أره إلا مرات قليلة. لم يكن والدائي يشعران بالحنين إلى الماضي عندما يتعلق الأمر بعائلة أبي، لكنني أتذكر أنه كان يظهر بين الحين والآخر. كان من الجلد الأخضر أو الأزرق ربما وله زوايا معدنية. ستكون معجزةً لو أنه لا يزال موجوداً».

- «هل يمكنني المساعدة؟».

- «خذي صندوقاً وابدئي البحث. قد نمضي الليل كله هنا».

لم يزعج ذلك آشليين على الإطلاق فلديها الوقت كله. أمسكت بصندوقٍ من الكومة وجثت على ركبتها ورفعت الغطاء. وجدت داخل الصندوق كومة من السجلات القانونية البالية، ونصف دزينة من دفاتر الحسابات الحمراء والسوداء، لكن لا أثر لدفتر مذكرات. أتت محتويات الصندوق التالي بنتائج مماثلة. كانت على وشك أن تمد يدها إلى صندوقٍ ثالث عندما صرخ إيثان فجأة: «أخيراً».

- «هل وجدته؟».

- «أجل، لقد وجدته»، رفع إيثان الدفتر عالياً لتراه. كان أخضر داكناً مع زوايا معدنية، تماماً كما وصفه. «إذا كانت المقالة موجودة في أي مكان، فستكون هنا».

حبست آشليين أنفاسها وهو يقلّب الصفحات بعد أن وضع الدفتر على ركبتيه. عندما اقترب من الصفحة الأخيرة توقف فجأة.

- «ها هي ذي»، قال بنبرة انتصار مشيراً إلى قصاصة صغيرة أخذت من جريدة وثُبَّت أسفل الصفحة. كانت القصاصة

مطويةً عند المنتصف وقد اصفرّت بفعل الزمن، وألصقت بشريط لاصق أصبح لزجاً بلون بني.

قرأ إيثان بصوتٍ عالٍ: «السابع من فبراير 1950. وريثة عائلة مانينغ تعود إلى الولايات المتحدة بصحبة طفلين من أيتام الحرب». أشار إلى المقتطف ثم أعطى آشلين دفتر المذكرات. - «هذه هي».

اضطربت دقات قلب آشلين وهي تجد نفسها تنظر أول مرة إلى وجه ماريان مانينغ. كانت صورةً بالأبيض والأسود من النوع الذي يلتقطه مصور محترف. صورة جانبية تُظهر الوجه والكتفين. سبق لآشلين أن رأت صوراً مشابهة تعود إلى الحقبة ذاتها لأشخاص بدوا رزينين بوجوه بريئة ونظراتٍ متكلّفة، لكنّ ماريان لا تشبه أياً من هؤلاء. حدقت إلى عدسة الكاميرا كأنها تحقق إلى عيني إنسان، بثقة لا تُقهر وجاذبية ساحرة. لا عجب أنّ كيان هيمي اهتز ليلة رآها أول مرة في فندق سانت ريجيس.

مررت آشلين أصابعها على الصورة، فشعرت بترابطٍ فوري وكأنهما التقيتا في حياة أخرى، وهو ما حدث بطريقة ما: «أشعر بأنني أعرفها».

نظرت إلى الصورة مرةً أخرى. بيل... ماريان... باتت شخصاً بوجهٍ وملامح الآن. وجه بتقاسيم جميلة تخطف الأنفاس، ومسارٌ جديدٌ في رحلتها. أمّ تحولت إلى اليهودية. خياراتٌ اتخذتها بعد أن فقدت هيمي، ربما لملء الفراغ الذي تركه فقدانه. أعادت انتباهها إلى المقالة وراحت تقرأ بصوت عالٍ.

7 فبراير 1970، نيويورك. شهدت مدينة نيويورك هذا الأسبوع مفاجأة كبيرة بعودة الأنسة ماريان مانينغ غير المعلنة إلى الولايات المتحدة برفقة طفلين من أيتام الحرب تبنتهما حديثاً، وهما أخ وأخت يبلغان من العمر 7 أعوام و5 أعوام، دون الكشف عن اسميهما حتى الآن. ووفقاً لمصدرٍ مطلعٍ رفض الكشف عن اسمه، فقد تفاجأت عائلتها بهذا الخبر إذ لم تخبر أحداً من عائلتها بخطتها. غادرت الأنسة مانينغ الولايات المتحدة بعد الحرب وأمضت السنوات الثلاث الماضية في فرنسا، حيث عملت ناشطة في قضية الأطفال المهجرين في أنحاء أوروبا كلها، الذين فقد كثيرون منهم عائلاتهم بأكملها في معسكرات الموت النازية. وعند سؤالها عن قرارها بالتبني رغم أنها غير متزوجة، أجابت أنها تأمل لفت الانتباه إلى آلاف الأطفال الذين لا يزالون ينتظرون إيجاد مأوى، وأنها تأمل أن تحذو أسر أمريكية أخرى حذوها. كما طالبت مانينغ بالخصوصية في أثناء توطين أطفالها في الولايات المتحدة وتعهدت بمواصلة عملها من أجل أيتام الحرب في أرجاء العالم كله.

- «لقد قدمت مثلاً يحتذى به. ما أكرمه من تصرفٍ وما أروع إثارها!»، قالت آشلين بعدما أنهت القراءة.

- «بالفعل، وإن كنتُ أظن أنه كان القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة إلى مارتين. لا بد أنه تضايق من استغفاله على هذا النحو، الأمر الذي بتّ أشك أنه أسعد ماريان أيتها سعادة. كما أتوقع أنه السبب وراء استبعادها من الوصية ومنعها من دخول المنزل، مع أنها كانت تعلم أنها تحرق سفنها كلها خلفها».

- «وهذا ما زادها روعة. تحدّث والدها وهي تعلم التداعيات. لقد كانت شجاعة».
- «أعتقد أنه السبب الكامن خلف انسجامها ووالدي، فقد سار كلاهما عكس التيار»، أخذ إيثان الكتاب من يد آشلين وتابع قائلاً: «لنرَ ماذا يوجد أيضاً».
- كانت هناك صورٌ عدة مبعثرة بين الصفحات، إذ لم يعد الشريط اللاصق الذي كان يُثبتها في مكانها فعالاً. أمعن إيثان النظر إلى كل صورة على حدة ثم قال: «لا أعرف أياً من هؤلاء الأشخاص. أعمام وعمات وأبناء عمومة على ما أعتقد. كان والدي واحداً من أربعة أشقاء».
- «هل بقي أحدٌ من أشقائه على قيد الحياة؟».
- «ربما. ما أعلمه أن روبرت قُتل في فيتنام خلال هجوم تيت⁽¹⁾، وأن إحدى شقيقاته توفيت قبل بضع سنوات. هذا كل ما أعرفه. لم يكونوا جزءاً من حياتنا يوماً».
- دسّ إيثان الصور بين الصفحات مجدداً، وراح يقلّب متجاوزاً صوراً وقصاصات من الجرائد لا تحمل أي معنى بالنسبة إليه. توقف فجأة وأشار إلى صورة تظهر فيها امرأة بوجه متجهّم، لها غرة كثيفة من الشعر تتسدل على جبينها. يقف إلى جانبها رجلٌ طويل القامة ذو وجه برزت عظمتا وجنتيه وعينين صغيرتين داكنتين، وملامح متجهمة أيضاً.

(1) هجوم عسكري واسع النطاق شنّه الشيوعيون في شمال فيتنام على قوات الولايات المتحدة وحلفائها خلال رأس السنة الفيتنامية (تيت)، في يناير من عام 1968. (المترجمة)

- «أظنّ أنها كورين وزوجها. لا أعرف اسمه. لقد توفي عندما كان أبي صغيراً. مشكلات في الرئة على ما أظن».
- «كان اسمه جورج»، عقيبت آشلين بالقول.
- حرك إيثن حاجبه متفاجئاً: «من الغريب أن تعرفي هذه المعلومة وأنا أجهلها».
- «اسمه هو كل ما أعرفه. لم يُذكر كثيراً في أي من الكتابين. ماذا عن مارتين؟ متى مات؟».
- «مات بعد مدّة قصيرة من ولادتي. لا أعرف كيف مات، لكن ما أعرفه أن كورين ورثت عرشه بعد وفاته».
- حدقت آشلين إلى صورة كورين، أو كما عرفتُها باسم سي سي. لم تكن تتمتع بجمال أختها. في الواقع، كان الشبه بينهما ضئيلاً. لكن من الظلم القول إنها لم تكن جذابة نوعاً ما. تميز وجهها بشكله الدائري وعينييه الواسعتين، إضافةً إلى شفتين مكتنزتين. ولكنه بدا جامداً بطريقة ما. وجهٌ أنشبت فيه التعاسة مخالباها.
- «لا تشبه ماريان كثيراً»، قالت آشلين.
- «إنها تبدو تماماً كما تخيلُتها»، قال إيثن وهو يقلب الصفحة الأخيرة. «مهلاً! هؤلاء طفلاها، طفلاً ماريان. لم تكن لدي أدنى فكرة أن والدي يحتفظ بصورتها. لا بد أن ماريان من أرسلتها»، مرر برفق إبهامه على طول حافات الصورة، ثم رفعها بحذر عن الصفحة وقلبها. «زاكاري وإيليز على الشاطئ. 11 يوليو 1952».
- «هل هذان هما حقاً؟».

- «أجل. إنها في الصورة أصغر سناً مما كانا عندما التقيت بهما. تذكرتُ زاكاري، ذاك المهرج الصغير، يقهقه بلا انقطاع ولا يهدأ ثانية. وكانت إيليز على النقيض تماماً، تظل غارقةً في كتبها، وبالكاد تتحدث طوال عطلة نهاية الأسبوع».
- في تلك اللحظة، أحست آشلين بموجةٍ من التعاطف تغمرها تجاه الفتاة في الصورة. فهمتُ حاجتها إلى الاحتماء خلف صفحات الكتاب لبناء جدارٍ يحجب عنها قسوة العالم. قضت آشلين سنواتٍ تفعل الشيء نفسه، تبحث عن ملاذٍ في قصص الآخرين.
- تأملت آشلين الطفلين باهتمام أكبر. كانت الفتاة إيليز شاحبة البشرة نحيلة القوام، تشي ملامحها أنها في الثامنة أو التاسعة من عمرها. أما زاكاري فقد كان من الواضح أنه أكبر منها سناً. طويل القامة وذو ابتسامة عريضة تُظهر أسنانه، وفي وجهه ملامح الفتى الوسيم الذي لا شك سيصيره يوماً.
- «إنهما مختلفان تماماً، أليس كذلك؟»، علّقت آشلين. «إيليز شاحبة للغاية، وتبدو هشةً تقريباً. أما الصبي فهو ساحر حقيقي. من المؤسف أنك فقدت الاتصال بهما».
- «لا أدري إن كان يصحّ القول إننا كنا على تواصل من الأساس. كلاهما أكبر مني وبالكاد أتذكرهما».
- «هل تعرف أين استقرت ماريان عندما عادت إلى الولايات المتحدة؟ هل عادت إلى نيويورك؟».
- «ليست لدي أي فكرة، لكنني أشك في ذلك. لا أظن أنها أرادت أن تكون بالقرب من مارتن بأي حال من الأحوال».
- «ألم تتواصل معك حين رحل والدك؟».

- «لا. وبكل صراحة، لا أعلم إن كانت على قيد الحياة أم لا. وحتى لو كانت كذلك، فهناك احتمالٌ كبير أنها لا تعلم بوفاته»، توقف قليلاً وأغلق دفتر المذكرات ووضعها جانباً. «لماذا تسألين؟».

- «من باب الفضول فحسب».

سألها وقد ضاقت عيناه: «تريدين أن تحاولي العثور عليها أليس كذلك؟».

لم تكلف آشلين نفسها عناء إخفاء حماستها: «هل تعتقد أن ذلك سيكون ممكناً؟».

نظر إيثان إليها بريبة واضحة ثم قال: «ليس هذا هو السؤال الذي يجب طرحه. السؤال الحقيقي هو إن كانت ترغب في أن يُعثر عليها. شخصان غريبان يظهران في حياتها بغتةً للسؤال عن ماضيها والبحث فيه. أترضين أنت بذلك؟».

- «أنت لست غريباً. أنت حفيدها».

- «بل أنا حفيد أختها، ولم أرَ هذه المرأة يوماً قط. وهذا ما يجعلني غريباً».

- «حسناً، قد تكون غريباً. ولكن إذا كانت على قيد الحياة، فهي لم تتس هيمني. وسترغب في استعادة الكتب».

- «وما أدراك؟».

أشاحت آشلين بنظرها بعيداً. راودتها الرغبة لحظةً في إخباره عن الأصدقاء، ثم أدركت مدى غرابة الأمر، وكم ستبدو غريبة هي نفسها. لا يمكنها أن تخاطر بإخافته. ليس بعد أن قطعت معه هذا الشوط.

- «لا تتسى المرأة رجلاً حطم كيائها يا إيثان. لا تتساه أبداً».
 - «وهذا سببٌ أكبر لصرف النظر عن الموضوع. لقد قالت ما لديها عندما كتبت الكتاب ويجب أن نكتفي بذلك».
- راقبت آشليين إيثان وهو يجمع الأوراق والكتب المتناثرة ويعيدها إلى الصندوق. على الرغم من امتعاضها، لكن لم يكن في وسعها إلا الاعتراف بصحة كلامه. في حين كان العثور على كتاب ماريان مصادفةً بحتة، فإنّ البحث عنها ككلب صيدٍ يُعدّ أمراً مختلفاً تماماً. هل من حقها أن تتكأ جرح امرأة غريبة؟ وهل كانت ستقبل هي بالأمر ذاته لو حدث معها؟
- نهضت آشليين على مضض مدركةً اقتراب نهاية الأمسية: «أعتقد أنك على حق. ولكن شكراً لك لأنك أريتني تلك الصور. باتت لديّ الآن على الأقل وجوهٌ تتماشى مع الأسماء. هل أساعدك في إعادة هذه الأغراض إلى الخزانة؟».
- ألقى إيثان نظرةً سريعة على الغرفة ثم هز رأسه بالنفي: «لا. وما دمتُ أخرجت كل شيء، فقد أضطر إلى مراجعته على أي حال ولكن ليس الليلة. أنا منهك ولدي محاضرةٌ صباحاً».
- «إجابة نهائية؟».
 - «أجل. لقد حان وقت ترتيب هذه الأشياء كلها. سأوصلك إلى الأسفل».

عندما وصلا الطابق السفلي، ارتدت آشليين سترتها وشكرته على العشاء وهما يمشيان باتجاه الباب: «لم تكن لدي أي نية للتطفّل عليك حقاً، أو التسبب في إثارة ضجة بين جيرانك. لا بد أن السيدة وارين قد غادرت الآن».

فتح إيثان الباب وألقى نظرةً صوب الطريق وقال متهمكاً: «لن أستغرب لو وجدتُها مختبئةً بين الشجيرات، تتحقق إذا ما كانت سيارتك لا تزال في الممر. لو كنتُ مكانك لأخذتُ حذري. سأعيد كتاب بيل إلى المتجر عندما أنتهي منه».

- «أو أمرّ بك وأخذه حتى لا تتكبد عناء الذهاب إلى بورتسموث». وقفّا عند عتبة الباب وعبق البحر يلفهما مع الهواء الرطب ليلاً. شابت اللحظة بعض الغرابة وكأنها نهاية موعدٍ غرامي أول، على الرغم أنه لم يكن كذلك على الإطلاق. تحسست آشلين جيوبها بحثاً عن مفاتيحها وأردفت قائلة: «أعدك ألا أثقل عليك وأبقى طوال المساء».

- «لقد استمتعت حقاً بالابتعاد عن كل شيء. كان من اللطيف وجود شخص أتناول العشاء معه. أعترف أن سلوكي في تلك الليلة الأولى لم يكن لطيفاً، وأنا سعيدٌ لأن الفرصة أتاحت لي لتصحيح ذلك الانطباع».

هزت آشلين رأسها ضاحكة: «لا يمكنني لومك. لم تكن تعرفني على الإطلاق، وفكرة بحثنا بحد ذاتها تبدو غريبة. على أي حال، حان وقت مغادرتي. هناك كثيرٌ من القراءة تنتظرني».

- «دعيني أضمن. كتاب هيمي؟».

- «عندما توقفت عن القراءة، كانت الأمور قد بدأت تتعقد قليلاً. آمل أن يتحسن الوضع بينهما».

- «لكننا نعلم أن ذلك لن يحدث».

وافقته آشلين بأسى: «أجل، نعلم ذلك بالتأكيد. أياً كان، حظاً سعيداً في كتابتك».

كانت قد قطعت نصف الممر المؤدي إلى سيارتها عندما استدارت وسألته: «هل فتح صندوق بريد شخص آخر مخالفاً للقانون حقاً؟».

- «لا فكرة لدي، لكنها حجةٌ بدت مقنعة حينها».

- «هل كنت لتتصل بالشرطة حقاً لتلقي القبض عليّ؟».

صاح وقد خفتت ضحكته مع ابتعادها: «لا يمكنني التصرف نيابةً عن السيدة وارين».

انطلقت آشليين بسيارتها خارج الممر وواصلت القيادة على طريق هاربر، وقد شغل تفكيرها هيمي وبيل والنقاش الذي دار بينهما حول تردد بيل في مواجهة والدها. هل كانت تلك بداية النهاية بالنسبة إليهما، وأول صدع في علاقتهما المأساوية؟ أم تراهما تصالحا ليفترقا مرة أخرى لاحقاً؟ السبيل الوحيد لمعرفة ذلك هو الاستمرار في القراءة. لكن أصبح لديها هذه المرة وجه تربط به الكلمات.

21 نوفمبر 1941

نيويورك.

انتهيت من تحضير القهوة للتو حين سمعت صوت مفتاحك يدخل قفل الباب. جهزتُ فنجاناً آخر ووضعتَه على الطاولة إلى جانب جريدة الصباح وانتظرتُ.

فوجئتُ حين اتصلتِ لتخبريني أنك في طريقك إلى هنا. لم أظن أن لديك الجرأة للنظر في عيني. لكن لعلها كانت الخطة طوال الوقت، وسيلة لإخباري دون أن تتطقي فعلياً. ربما خشيتُ أن أثير المشكلات، وأتوسل وأصرخ بأنني لن أسمح لك بالمغادرة. لا داعي للقلق، لن ألحقك. إذا كنت مصممةً على بيع نفسك لرجل لا يستحقك، ويبدو أنك كذلك، فلترحلي إذن.

دخلتِ المطبخ أخيراً بهيئةً تجسّدُ الكمال. بدوتِ كلوحةً فنيةً أسرةً في ملابسك الأنيقة وقبعتك الجديدة. تساقطتِ الثلوج متقطعةً طوال الصباح، ولا تزال بضعة نُدفٍ تلتصق بياقتك، تاركةً بقعاً سوداءً من الماء وهي تذوب. كنتِ مثاليةً كاملةً كالعادة.

ندمتُ لحظةً لعدم ارتدائي قميصاً أو حذاءً. كيف تبدو هيئتي وأنا واقفٌ هنا لا أرتدي سوى سروال وقميص داخلي، وشعري لا يزال رطباً من الاستحمام؟ ثم فكرتُ، لا. من المناسب أن تتذكريني بهذه الهيئة، دليلاً على صواب اختيارك في النهاية. وقفتُ قرب الباب مباشرةً ثابتةً دون حراك، وكأنك في حيرةٍ

من عدم ترحيبي بك. تمرّنتُ على كلماتي الأولى أكثر من ساعة، لكن بطريقةٍ ما لا أستطيع أن أجبر نفسي على قولها. لطالما خشيتُ هذا اليوم، منذ المرة الأولى التي قبّلتكِ فيها، والآن وقد حلّ، لم أكن مستعداً.

- «قولي شيئاً»، قلتُ أخيراً.

أجبتِ عابسةً: «ماذا أقول؟».

- «أظن أنك جئتِ لتخبريني أمراً ما. إلَيّ به».

- «لا... لم آتِ لأقول شيئاً. ما بك؟».

- «كان بإمكانك إخباري عبر الهاتف، وتوفير أجرة ركن السيارة في الموقف».

ألقيتُ عليّ نظرةً فاحصة من أعلى إلى أسفل وكأنني غريب لا تعرفينه: «هيمي، ما بك؟».

مشيتُ نحو الطاولة وأمسكت بجريدة الصباح. قفزت منها صورتك أنت وتيدي في وجهي، إلى جانب العنوان الرئيس: حفل زفاف الموسم المقرر في يونيو. لقد حفظتُ التفاصيل عن ظهر قلب. كنيسة سانت بول وسانت أندرو... فندق والدورف أستوريا... وفستان من تصميم مصمم الأزياء الإنجليزي الأمريكي تشارلز جيمس.

- «مبارك»، قلتُ وأنا ألقى الجريدة نحوك. «عروس يونيو وحفل استقبال في والدورف. يا للروعة!».

حدقتُ إلى الجريدة ثم إلَيّ: «هيمي... أنا لم... لا علاقة لي بهذا الأمر على الإطلاق».

صعدت الحرارة إلى وجنتيك وشابتهما حمرة متقطعة، عزوتها إلى شعورك بالخزي من نفسك أكثر من شعورك بالغضب. «هل تقولين إن صحيفة نيويورك تايمز نشرت قصة عن زفافك القادم دون علمك؟».

- «أجل».

- «وإنهم اختلقوا موعداً ومكاناً؟».

تلعثمت شفطاك وأنت تحاولين إيجاد كلمات للرد، ووجهك يزداد حمرةً وحنقاً مع كل لحظة تمرّ: «أقسم لك يا هيمي أن لا علم لي بذلك». نظرت إلى الخبر في الجريدة ثم رفعت نظرك إليّ وقلت: «رائحة سيّسي تفوح من هذا الخبر. إنها تضايقني منذ أسابيع. تظنّ أنها إن أعطتهم موعداً ونُشر الخبر فلن أتمكن من التراجع. سأقتلها».

نظرتُ إليك وأنا أشبك ذراعيّ مشككاً في مدى غضبك: «ما شأن أختك بموعد زواجك؟».

- «أنت مصرٌّ على ألا تفهم. لا علاقة لي بهذا كله. الأمر يتعلق بصفقةٍ يحاول والدي عقدها مع والد تيدي. لكن والديّ تيدي قلقان. يبدو أنهما أدليا ببعض التعليقات حول ترددي».

- «وتيدي؟ أهو قلقٌ أيضاً؟».

- «تيدي؟».

بدا كأن السؤال أربكك، وكأنك نسيت أمره تماماً في خضم هذا كله. «خطيبك» ذكركِ بكل برود.

أغمضت عينيك وأطلقت تهيدة ضجرة مرهقة: «بالكاد رأيته منذ عودته ووالده من السفر، وذلك في رغبةٍ منه لا تقلّ عن

- رغبتي ولو أنه لم يقل ذلك صراحةً. ولا أظنه متحمسٌ لترديد نذور الزواج. والدانا هما من يلحّان على إتمام هذا الزواج».
- «ويبدو أنهما سيحققان رغبتهما».
- ألقيت نظرة على المقالة مرةً أخرى، ثم رميتِ الجريدة على الطاولة: «كلا، لن ينالا مرادهما».
- «هذا ما عكفتِ على ترديده».
- «هيمي...».
- «أتتخيلن شعوري وأنا أفتح الجريدة هذا الصباح وأقرأ الخبر، وأدرك أنك تماطلين طوال هذا الوقت؟».
- «أعدك يا هيمي أن...».
- «أنت لا تكفين عن إطلاق الوعود يا بيل؟».
- «لأنني أعنيها حقاً».
- «اتصلي بالجريدة الآن إذن».
- «ماذا؟».
- «اتصلي بجريدة التايمز وأخبرهم أن الخبر غير صحيح. اطلبيني منهم نشر تصحيح ولينشروا اقتباساً من كلامك أنت».
- اتسعت عيناك وقد أخذتك الدهشة، وكأنني طلبتُ منك أن تسيري في الجادة الخامسة عارية: «لا أستطيع فعل ذلك الآن، ليس بعد. أنا بحاجة إلى مزيدٍ من الوقت».
- انطلقت الكلمات من فمي قبل أن أتمكن من كبج جماحها، وترددت أصداؤها على جدران المطبخ: «وقتٌ من أجل ماذا؟ ومتى سيحين هذا الوقت؟ في منتصف مراسم الزواج؟».
- «هذا ظلم».

- «ظلمَ لمن؟ لتيدي؟ لأبيك؟ وماذا عني أنا يا بيل؟ كم يفترض بي الانتظار؟ لقد ضقت ذرعاً بلعب دور الأحمق. حاولت الابتعاد لأمنحك مخرجاً، لكنك ما تتفكين تعيدينني إليك. كم مرة يفترض بي أن أصدق وعودك؟».

غمرت الدموع عينيك، وأشحت بنظرك بعيداً عني، وقلت بصوت يرتجف: «ماذا تريد مني؟».

فجأة، أدركت مدى التأثير الذي يُخلفه هذا الضغط كله عليك. لقد أصبحت الجائزة في لعبة شدّ حبال عاطفية، وقد كنت مشغولاً جداً في إرضاء غروري إلى درجة أعمتني عن رؤية تدهورك النفسي.

أمسكت بك وضممتك إلى صدري: «أريدك أن تتزوجي بي يا بيل. أريدك أن تبتعدي عن كل شيء، أريد أن نبتعد معاً ونحيا في خيمة إذا كان هذا كل ما نستطيع تأمينه، ونعيش على الشطائر والبيض. لكنّ الأهم من ذلك كله، لا أريدك أن تخافي بعد الآن». كنت تبكين بهدوء وقد استسلم ثقل جسدك كله عليّ: «ليس الأمر بهذه البساطة».

- «بل هو كذلك»، همست بروية. «سنرحل هكذا ببساطة. غداً أو الآن حتى. ما عليك سوى الموافقة».

عندما رفعت عينيك لتلتقيا بعيني، رأيت ومضة أمل تلمع فيهما: «وماذا عن التحقيق الصحفي الكبير الذي تعمل عليه؟».

- «فليذهب التحقيق إلى الجحيم. في الوقت الذي يُنشر فيه، سنكون قد ابتعدنا تماماً».

- «إلى أين؟».

- «من يدري؟ ومن يبالي؟ وافقي فحسب».

- «موافقة»، قلتِ بابتسامةٍ أحسست معها بأن صدري سينفجر.
«سأهرب معك ونعيش في خيمة». مكتبة سُرْمَن قرأ



شرعنا بعد أسبوعٍ نرسم الخطط. حددنا موعد المغادرة ليتزامن مع رحلة والدك المخططة إلى بوسطن، ما يمنحك بضعة أسابيع للاستعداد. رتبْتُ أمر التذاكر، وحجزت عربة نوم فاخرة على قطار برودواي. سنتوقف في شيكاغو حيث سنجد قاضياً لإتمام الزواج، ثم سنقضي بضعة أيام هناك كأى عروسين حقيقيين، قبل أن نتابع رحلتنا نحو كاليفورنيا.

تحدثنا عن الذهاب إلى إنجلترا بعد انتهاء الحرب والعودة إلى مسقط رأسي. لكنّ الوضع هناك غير آمنٍ في الوقت الحالي. سيكون هناك متسع للسفر لاحقاً، سيكون لدينا متسعٌ لكل شيء. وإلى حينها، سنكتفي بسحر سان فرانسيسكو، وهي أبعد نقطة عن والدك استطعتُ تأمينها في الوقت الحالي.

سرّنا هذا شهيّ جداً. صممنا على عدم كشف خططنا، وحاول كلُّ منا المضي في حياته وكأن شيئاً لم يتغير. لكنني في داخلي أشعر بأنني على وشك الانفجار. أشعر بأنني طالب مدرسة لا يستطيع التركيز على أي شيء أكثر من عشر دقائق متصلة، علماً أننا سنغادر قريباً، نحن الاثنان فقط، لنبدأ حياة جديدة معاً.

لم أخبر غولدي بأي شيء. ستثور ثائرتها عندما أغادر دون سابق إنذار، ودون كلمة شكر. كانت خير صديقةٍ لي، وأتاحت

لي الفرصة لأثبت نفسي. لكن بدأ الشك يساورني مؤخراً في أنها بدأت تفقد موضوعيتها، ولا أدري إن كانت لدي القدرة على تحمّل ما هو قادم. فالتحقيق الذي عكفت عليه أخذ منحى غير متوقع في الأيام الأخيرة، منحى مقلقاً إلى حد ما، وعلى الرغم من تأكيد مصادرنا صحة المعلومات، لكنها قد تكون في النهاية خدعة محكمة. مؤامرة من عدو لوالدك يسعى إلى تصفية حسابات قديمة معه. لا شك أن والدك جلب لنفسه عداوات على مر السنين.

لا تزال أمامي بضعة أسابيع لاتخاذ قرار بشأن كيفية إخبارك بذلك، أو إذا ما كنت سأخبرك. لديك كثير مما يشغلك الآن، وقد لا يفضي أمر التحقيق إلى شيء. بل كدت أتمنى ألا يفضي إلى شيء. تشابك خيطا الولاء المهني والشخصي في داخلي حتى عجزت عن حلّهما. وهذا بالضبط ما حذرتني منه غولدي ليلة خلافتنا وفي اليوم التالي عندما انتقلت إلى مكان آخر. لقد شددت على ضرورة الحذر من أن تعوقنا التشابكات الشخصية عن الوصول إلى الحقيقة. وأنا يجب أن نتذكر دائماً المصلحة العامة. كانت تلك عبارتها التي تُردها عليّ باستمرار. ولكن، من المستفيد من هذه المصلحة العامة؟

أنا الآن رجلٌ وضع نصب عينيه هدفاً واحداً؛ أن أوصلك إلى ذلك القطار وأخرجك من قبضة والدك. أعلم كم يؤلم هذا الكتمان. لكنني رجلٌ ماهرٌ في الخداع بحكم طبيعة عملي. التمويه، والتظاهر، وحتى الكذب الصريح عند الحاجة، كلها أدوات أستخدمها في عملي. أما أنت، فالأمر مختلفٌ عندك. غرسوا في رأسك منذ نشأتك قيم الولاء لأبيك وللعائلة. لكنك تجدين نفسك

الآن تخططين للخيانة الكبرى. لا رسالة، ولا مكالمة هاتفية، لا كلمة على الإطلاق. ستخفين معي فحسب.

لستُ أحمق لأظن أن عزيمة قد لا تهتز، فأنا مدركٌ تماماً قصر يدي. ومدركٌ أيضاً أنك قد تشكين في حكمة ما أنت مُقدمةٌ عليه، وكمّ التضحيات التي ستقدمينها. لكنكِ أكدي لي أنك ستتخلين عن هذا كله. وهكذا، أوصل عدّ الأيام حتى نبتعد عن هذه المدينة بأزقتها البائسة وبريقها الزائف حيث سنكون وحدنا أخيراً.

أتساءل؛ هل ستفتقدينها يوماً؟

تسللت الأفكار إلى رأسي في ساعة متأخرة من الليل، وأنا وحيدٌ مُلقًى على ظهري في العتمة، أتساءل أين أنتِ ومع من. فزعتُ وأضأت الأنوار لأبدد الشكوك، وحاولت الجلوس أمام آلتِي الكتابة، مذكراً نفسي بأنكِ وعدتِ بأن تعيشي معي في خيمةٍ لو اضطر الأمر.



يا لي من أحمقٍ علّق آماله كلها على حقيبة سفر. تذكرين تلك الحقيبة أليس كذلك؟ حقيبةٌ جلدية كبيرة اشتريتها خصوصاً لرحلتنا. لقد طبعتُ عليها حروف اسمكِ الجديد بالذهب. بكيكِ عندما رأيتهما ورحبتِ تمررين أصابعكِ على الحروف. تحدثنا عن الأماكن التي سنزورها، وعن المغامرات التي سنخوضها عند انتهاء الحرب. باريس وروما وبرشلونة. هل تتذكرين ذلك يا بيل؟

تلك الخطط والوعود؟

هل تتذكريننا؟

ندمٌ على بيل

(الصفحات من 73 إلى 86)

5 ديسمبر 1941

نيويورك.

ها نحن ذا، وصلت الأمور إلى نهايتها. نهاية قصتنا أو ما يقارب النهاية ربما. لطالما شعرتُ بأن السحر الذي عشناه خلال تلك الأسابيع القليلة المُفعمة بالهناء سيتبدد لا محالة، وأن اليوم الذي تُضطرين فيه إلى الاختيار بين الولاء لعائلتك وبين حياةٍ تعيشينها معي سيأتي. لكنني لم أتخيل يوماً أنك بعد وصولك هذه النقطة، ستتمكنين من الابتعاد بهذه البساطة. لكن الزمن يفعل أشياء عجيبة في الذاكرة، يلويها لتتناسب مع ما نريد ويرسمها بشكل معوج. لذا، سأعيد رسم المشهد، في حال تلاشت بعض التفاصيل من ذهنك.

إنه اليوم الذي يسبق يوم رحيلنا. أخذت سيارة أجرةٍ وتوجهت إلى مبنى الصحيفة لأفعل الشيء الذي كنتُ أخشاه. كنت أقارع ضميري مدةً، لكنني لم أحسم قراري إلا الليلة الماضية. راودتني فكرة إنهاء الأمر عبر الهاتف، ولكن الأخبار السيئة أفضل ما تُقال وجهاً لوجه، والأخبار التي عليّ إيصالها اليوم سيئة جداً في الواقع.

كانت غولدي جالسةً خلف مكتبها تقرأ إحدى المسودات، وتعض قلم رصاص. رفعت رأسها مُتفاجئةً، ولاقتني بواحدة من ابتساماتها العريضة جداً: «ها هو ذا مراسلنا النجم. قل لي إنك

- أتيت لتخبرني بانتهاء التحقيق الصحفي. لا أطيق صبراً لرؤية ذلك الوغد يتلوى تحت وطأة الفضيحة». تلاشت ابتسامتها فجأة ليحل محلها تجهّم عميق حين استوعبت جدية تعايري.
- «يا إلهي، لا تقل لي أرجوك إن هناك مشكلة في إنجاز التحقيق».
- «المشكلة تخصني أنا يا غولدي».
- نظرت إليّ بحيرة وبشيء من الراحة: «لماذا؟ ماذا جرى؟».
- «سأستقيل من عملي في الصحيفة وسأغادر نيويورك كلها».
- حدقت إلى مصعوقة: «ماذا؟».
- «ليس هذا ما أريده حقاً. ولا أعتقد أنه ما كنت أطمح إليه على الإطلاق. أتمنى لو أدركت ذلك في وقتٍ سابق، لكنني أدركته الآن».
- نهضت غولدي على قدميها ونظرت إلي بوجه كالحٍ مصدوم: «قل لي إنك تمزح».
- «لست أمزح. سأسافر غداً إلى شيكاغو ومنها إلى كاليفورنيا».
- ساد صمت مفاجئ ومرت لحظة من الهدوء المريب وهي تحديق إليّ: «إذا كانت هذه محاولة للضغط من أجل مزيدٍ من المال...».
- «ليست محاولة لأي شيء يا غولدي. لم أعد أستطيع البقاء فحسب».
- «أنت على وشك أن تكشف عن أهم قصةٍ خلال هذا العقد. لا يمكنك الهروب هكذا! ماذا عن التحقيق؟ هل انتهى؟».
- «لا، ولن ينتهي».

- «قلت إن مصادرك موثوقة، وإن كل شيء كان مؤكداً. ما الذي حدث إذن؟».
- «لم يحدث شيء. لقد قررت ببساطة أنني لا أستطيع المضي قدماً. حتى لو تمكنتُ يقيناً من إثبات ما قيل لي، وهو أمرٌ مستبعدٌ، فمن الخطأ نشره. إن الخوض في ماضي امرأةٍ مسكينة وفي مرضها، ووضع عائلةٍ بأكملها تحت المجهر جرّاء أمرٍ حدث أو ربما لم يحدث منذ أكثر من عقدٍ من الزمان، ليس خبراً صحفياً. إنها تكهناتٌ بشعةٌ تهدف إلى تحطيم رجل وكسر شوكرته، وبغض النظر عن مدى احتقاري ذلك الرجل، فقد قررتُ أنني لا أريد أن أكون جزءاً من ذلك».
- «الأمر يتعلق بها، أليس كذلك؟ بيل فتاتك الجميلة التي تلاعبت بك بنظراتها فانصهرت كقطعة حلوى. لقد كنتُ أشك في أنك تتحين الفرصة لها، لكني لم أتوقع قط أن تكون رجلاً تسيّره غريزته. كيف يمكن أن تكون بهذه السذاجة وأنت تعلم ما على المحك؟ والدها رجل خطر، ووباء لكل ما يُفترض أن تمثله هذه البلاد، وهو يطمحُ إلى مقعدٍ في الكونغرس. تحقيقك الصحفي سيميت تلك الطموحات في مهدها».
- «لا أجادلُ في أيِّ مما تقولينه، وأشاركك بُغضي الشديد نحوه، ولكن سيتعيّن عليك إيجاد طريقةٍ أخرى لإدانة ذاك الرجل، لأنني لا أستطيع أن أضع اسمي على مثل هذا التحقيق الذي تأملين نشره. عندما عرضتِ عليّ العمل معك، أخبرتكِ أنني لستُ مهتماً بكتابة إثارةٍ رخيصة، وهذا بالضبط ما تحول

إليه هذا التحقيق، وهذا بالضبط السبب الذي دفعني إلى التخلي عنه».

ابتسمت بسخرية وهي تحقق إليّ من خلف مكتبها، وقد بسطت يديها على الورق الموضوع أمامهما: «لقد بدا اهتمامك بها كبيراً عندما قابلتها. دخلت بينهم وتوددت إليهم جميعاً بسهولة. أين كانت تحفظاتك الأخلاقية حينها؟».

أصابتي كلماتها في الصميم فلزمت الصمت. في كلامها حقيقة لا يمكن إنكارها. لقد توددتُ إليك يا بيل. أقنعتُ نفسي بأن ذلك كان في سبيل الحقيقة، وبأنني أخدم هدفاً صحفياً نبيلاً، لكن الأكذوبة انهارت تماماً لحظة قبْلْتُك.

- «لا أفاخر بأي من ذلك»، أجبتها بصوت خفيض. «لكن عندما بدأ كل شيء، ظننتُ أنكِ ترغبين في إعداد تحقيقٍ مشروع لكشف مؤامرات رجلٍ ذي طموحات سياسية مشبوهة. لكن بدلاً من ذلك، تحول الأمرُ إلى حملة تشويهٍ ملأى باللمز والتفاصيل المُبتذلة التي لن يستطيع أحدٌ إثباتها على الأرجح».

ضحكتُ بسخريةٍ قائلة: «لا تخبرني أنكِ أصبتَ بداءِ الضمير فجأة. أملُ ألا يكون الأمر كذلك، من أجلكِ بالطبع. فهذا المرض يمكن أن يكون قاتلاً في هذه المهنة». ضاقت عيناها فجأة ولمعتا ببريقٍ شرس وهي تنظر إليّ: «أم لعلك أصبتَ بشيءٍ آخر؟ شيء له ساقان طويلتان وحسابٌ مصرفي ضخمة؟».

تغاضيت عن ملاحظتها رافضاً الانجرار إلى فخها: «هذا شأن يخصني».

- «والصحيفة شأني أنا. هذه ليست محكمة بل مكاتب صحفية. وظيفتي، ووظيفتك أيضاً، هي نشر الأخبار أينما وجدناها. ما يقرر الجمهور والشرطة فعله حيالها، فهذا شأنهم».
 - «لم يعد هذا عملي بعد الآن. وهذا ما جئت لأخبرك إياه».
- تصلبت ملامح وجهها فجأة وقالت: «حسناً، أظنني بت أعرف أخيراً من أجل من كنت تدخر نفسك. لم يكن لدي شك في ذلك».
- «غولدي...».

علت وجهها ملامح ساخطة كطفلة حُرمت من لعبة ليست ملكها أصلاً: «أخرج من هنا. خذ أغراضك من مكتبك وغادر المكان. لن يصعب عليّ إيجاد بديل منك. وعندما أجده، وهو ما لن يستغرق سوى خمس دقائق، سيكون شخصاً يفهم طبيعة العمل حقاً. اذهب إلى كاليفورنيا واكتب روايتك اللعينة. ولكن من الأفضل أن تكون رواية جيدة، لأن بإمكانك عدّ مستقبلك المهني انتهى للتو».

بينما كنت متجهاً إلى مكتبي، سمعتُ اسمي يعلو من بين الضجيج. التفتُ فرأيتها تقفُ بباب مكتبها حيث صاحت قائلة: «اترك الملاحظات المتعلقة بالتحقيق كلها. مصادرك واتصالاتك وكل قصاصة ورقية».

- «إنه تحقيقي أنا».

- «وهذه صحيفتي أنا. دفعتُ ثمن الملاحظات، والحبر الذي كُتِبَ به، والورق الذي كُتِبَ عليه. وبالطبع، الكلمات نفسها التي كتبتها بها. لقد دفعتُ ثمن كل حرفٍ منها».

نظرتُ إليها باشمئزاز، فبعد كل ما قلته للتو، لا تزال تخطط للمضي قدماً في نشر التحقيق. لقد فرضت عليّ احترامها يوماً، واعتنقتُ المبادئ التي ظننتُ أنها تدافع عنها، لكنها باتت مشغولة جداً بإسقاط رجلٍ واحد حتى أنها لا تبالي بمن تؤذي في هذه المعصنة. أدركتُ أيضاً أنها إذا نجحت في إعادة تجميع خيوط التحقيق، ستكون بصماتي في كل مكان. شعرتُ بارتياح كبيرٍ لأنني احتفظتُ بالتفاصيل الأكثر قتامة لنفسي. لا يمكنني منعها من إعادة التقيب عنها كلها عندما أغادر، لكنني لن أساعدها على فعل ذلك.

- «آسف. لقد مزقتها ورميتها في القمامة».

استدرتُ وانصرفتُ بعدها متوجهاً إلى القاعة الرئيسة ومكاتبها المتراسة المتناثرة. كنتُ أشعرُ بالأعين مثبتهً عليّ وأنا أفتش مكتبي كيفما اتفق. ألقيتُ بعضاً من محتوياته في كيسٍ ورقي صغير، وأخرى في سلة المهملات بقوةٍ مبالغ فيها. سوف يفلق الزملاء رهاناتهم بشأن رحيلي في اللحظة التي أغادر فيها. لقد تفوّقتُ على المرشح الأخير، ولكنني لم ألحق بأولئك الذين كانوا قبله. أعلمُ ماذا كانوا يفكرون عندما جئتُ للعمل هنا، وأعلمُ ماذا سيفكرون وأنا أغادر. لا يحدثُ ذلك فرقاً عندي على الإطلاق. غداً سأبدأ من جديد، نظيفاً من كل شيء، معك.

لم أتوقع أن أجدك في الشقة عند عودتي، لكنك كنتَ هناك جالسةً على الأريكة، وفي قبضتك مجموعة من الأوراق. لم تتبسي ببنتِ شفة، بل جلستَ هناك بوجهٍ شاحبٍ جامد. استغرقتُ لحظةً لأدرك ما حدث. لقد وجدتُ ملاحظات التحقيق الذي أعمل عليه،

تلك التي أخبرتُ غولدي أنني تخلصتُ منها.

- «أنت من كتب هذا»، قلتُ وأنتِ تلوّحين بالأوراق بيدٍ مرتجفة.
«أنت من كتب هذه القذارة؟».

لا شيء لأقوله، ولا سبيل لتفسير ما تحملينه بيدكِ دون أن
أبدو كاذباً. لم يُفترض بكِ أن تري هذا. ليس بهذه الطريقة.
- «أجل».

رمقتني بنظراتٍ تقطر سماً، وكل ما استطعتُ فعله هو ألا
أشيح بنظري عنكِ لأن ذلك سيكون بمنزلة إقرارٍ بالذنب. وقفتُ
ساكناً وسمحت لكِ بأن تثبتيني في مكاني بتلك العينين العسليتين
الهشتين. قلتُ بهدوء: «كنت سأخبرك الليلة وأشرح كل شيء».

نهضتُ عن الأريكة غاضبةً وقذفت الأوراق نحوي. تطايرتُ في
الهواء كسحابةٍ من أجنحةٍ غاضبة قبل أن تسقط متناثرةً عند
قدمي: «ألهذا تظن أنني غاضبة؟ لأنني اكتشفت الأمر؟ الأشياء
التي أخبرتك بها... في كل مرةٍ تحدثنا فيها... كنتِ تكتبُ كل
شيء؟ تستدرجُ التفاصيل مني لتُشوِّهها إلى شيءٍ قذرٍ؟ كيف تكتبُ
هذه الأكاذيب؟ لماذا تكتبها أصلاً».

- «لم أحوّر كلمةً واحدة يا بيل. لقد علمتُ بعض الأشياء...
أشياء لم تكوني على علمٍ بها. لم أردُ قطُ أن تكتشفها بهذه
الطريقة، لكنني أقسم إنها صحيحة كلها».

- «لا يمكنني لومك»، خرجت كلماتي ثقيلةً خرقاء، كالتماس رجلٍ
وقع في شركٍ نصبها هو. تدربت طوال الطريق إلى المنزل
على كيفية إخبارك وعلى الكلمات التي سأستخدمها وكيف

- ومتى أبدأ الحديث. لكن لا يمكنني تذكر أيٍّ منها فأنا... أنا غير مستعدٍ لقوة غضبك.
- «اسمحي لي بأن أشرح»، قلتُ بصوتٍ خافت. «فلنجلس على...».
- «تقول إن أمي كانت يهودية، وإن أبي... إنه...».
- «أجل كانت يهودية، وأبوك فعل فعلته»، قلتُ بهدوء. أخذتك الصدمة والذهول واتسعت عيناك المشوشتان وأنت تحاولين استيعاب ما قلتُه. «أدرك مدى صعوبة سماع ذلك يا بيل ولكن هذا ما حدث. لقد أودع والدك أمك المصحّة العقلية ليست لأنها كانت مريضة، بل لأنه كان يخجل منها. لقد بدأ تكوين صداقات جديدة، أصدقاء سياسيين، ولم يُرد لهم أن يعلموا أنه متزوجٌ بيهودية».
- «لا»، رحتِ تهزين رأسك بانفعالٍ وكأن كلماتي سربٌ من النحل تحاولين طردها. «كانت أمي فرنسية».
- «أجل كانت فرنسية. ويهودية أيضاً. كان اسمها قبل الزواج تريف. والدها جوليان، الابن الأكبر لتاجر مشروباتٍ ثري من بيرجيراك. أما والدتها سيمون، فكانت ابنة رجل دين. كانت لها أختٌ أيضاً تُدعى أغنيس، تصغر هيلين بثلاث سنوات. هل تحدثت أمك يوماً عن عائلتها؟».
- بقيت متسمّرة دون أن ترمش عيناك حتى.
- «بيل؟».
- «أجل»، قلتُ وأنت ذاهلة تماماً. «كانت هناك صور. ألبومٌ مملوءٌ صوراً. لكنها لم تقل شيئاً قط. لم يكن أحد يعلم».

- «كان والدك يعلم يا بيل».
- ازدادت نظراتك حدّة فجأة وسألتني: «منذ متى وأنت تعلم؟».
- «القصة تتفاعل... منذ مدة».
- «قبل أن نلتقي أم بعد ذلك؟».
- فهمت تماماً إلّا أنّ ترمين لكن لا يمكنني الكذب. «قبل، جزء من المعلومات عرفتُها قبل لقائنا».
- «فهمت».
- «لا لم تفهمي. الأمر ليس كما يبدو. أقسم إنني لم أملك أيّ فكرة إلى أين سيؤدي هذا الأمر عندما انخرطت في هذا الجزء منه».
- «وكيف... انخرطت؟».
- «بدأ الأمر بمكالمة هاتفية من إحدى صديقات أمك».
- «من؟».
- «لا يمكنني إخبارك».
- «لا يمكنك أم أنك لا تريد؟».
- «كلاهما».

مكتبة

t.me/soramnqraa

- «ومن المفترض أن أسلم بما تقول؟».
- «الكشف عن المصادر أمرٌ مرهون بقواعد معينة، لكن يمكنني أن أخبرك أن الأشياء التي أخبرتنا بها جاءت على لسان والدتك. تحدثت كيف أجبرها والدك على قطع كل صلة بعائلتها، وكيف مُنعت من التحدث بكلمة واحدة باليديشية⁽¹⁾».

(1) لغة يهود أوروبا. (الترجمة)

أو حتى الفرنسية على الإطلاق، وعن التهديدات التي وجهها لها إذا تطرّقت ولو بكلمةٍ عن أصولها لك أو لأختك. لكنها وجدت طريقةً لإخبارك على أي حال. تلك القصص التي كانت ترويها لك. الكلمات التي لم تكن كلماتٍ حقيقية. أتذكرين أنك أخبرتي عنها، الأغاني والصلوات؟ لقد كانت كلمات عبرية يا بيل. صلوات باللغة العبرية. كانت طريقته في مشاركة إيمانها وتراثها معك دون علم والدك».

سالت على وجنتيك دمعتان. أغلقت عينيك لاستيعاب هذا الألم كله. بحثت عن شيء أقوله، شيء يريحك ويبرئ ذمتي، لكن لا يوجد في الأبجدية كلها ما تعبّر عن هذا الموقف.

- «آسف يا بيل».

لكنك لست مهتمةً بأسفي. أصبح وجهك جامداً وخالياً من التعابير: «وماذا عما تبقى مما هو مكتوب عن يوم وفاة والدتي والطريقة التي ماتت بها؟ لا يمكن لصديقتها أن تكون قد علمت بذلك».

- «لا، لم تزرّ الصديقة أمك في كريج هاوس، لكن كانت لديها أسبابٌ لتشك في أبيك. قبل انهيارها بمدةٍ وجيزة، أقرّت هيلين بأنها أصبحت تخشى والدك. ولسوء الحظ، ازدادت مزاعمها غرابةً، إلى أن استحلّفت تلك المرأة بأن تذهب إلى الشرطة إذا حدث لها أي شيء، وتخبرهم أن والدك هو الفاعل. بدأت المرأة تشك في كل ما قالته والدتك لها. وبدا الأمر وكأنها مؤامرةٌ في فيلم من أفلام هيتشكوك. بعد ذلك بأسابيع قليلة، عانت هيلين انهياراً عصبياً ونُقلت إلى كريج

هاوس. كان رد فعل المرأة الأول هو الارتياح، إذ ستحصل والدتك أخيراً على الرعاية التي تحتاج إليها، ولكن بعد أقل من عام بقليل، سمعتُ المرأة....».

- «أنّ حادثة وقعت».

طريقة نطقك هذه العبارة، بذاك الجمود والذهول، هزت كياني. غصت الكلمات في حلقك وأنت تشيحين بنظرك بعيداً عني. لم أتخيل يوماً أن أخبرك بهذه الطريقة، لكنك كنت ستعرفين الحقيقة عاجلاً أم آجلاً، وأني أنا من سيحملها إليك. لكنني لم أتخيل قط أن يكون المشهد بهذا السواد والقتامة.

- «أجل»، قلتُ بلطفٍ كمن يهدئ طفله بعد كابوسٍ مزعج. «قالوا إنها كانت حادثة، لكنك أخبرتي بنفسك أنها لم تكن كذلك. ادّعى المستشفى أنها سقطت وهي تمسكُ بسكين، وعندما وجدوها كان الأوان قد فات. لكن هذا ليس ما حدث. كانت هناك سكين، لكن والدتك لم تسقط. لقد حاولت إنهاء حياتها مرتين من قبل. الأولى بإلقاء نفسها من على الدرج، ثم بمحاولة جرح الشريان في معصمها بسكين الزبدة التي يحضرونها مع إفطارها. عثروا عليها وضمدوا جروحها، ولكن بعد أسابيع قليلة، حاولت مرة ثالثة ونجحت. لأن والدك دفع المال لأحد الحراس هناك ليضع سكيناً أخرى في غرفتها، من تلك التي تُستخدم في التقطيع. أراد أن يتأكد أنها ستتجح في المرة القادمة. لأنه كان يعلم أن هناك مرة قادمة».

انكمشتُ على الأريكة مجدداً، ونشيج مكتوم يتصاعد من حلقك. تقدمتُ نحوكِ لكنكِ مددتِ يدك ومنعتني من الاقتراب.

- لفنا صمتٌ كثيف لا يطاق. رفعتِ عينيكِ نحوي أخيراً وسألتني: «لماذا الآن؟ إذا كان كل هذا صحيحاً، لماذا تكتشفه الآن؟».
- «لأن أحدهم بدأ يطرح الأسئلة. لم تكن رواية المستشفى للأحداث منطقية البتة. فمن المستبعد أن تُترك سكينٌ حادة داخل غرفة مريضة. وكان هناك همزٌ ولمزٌ عندما جاء والدك في زيارة غير مُجدولة في اليوم السابق وتحدث قليلاً كما يبدو مع أحد الحراس في طابق والدتك. لكن لم يجرؤ أحدٌ على قول ما يفكر فيه الجميع، أن «حادثة» هيلين المزعومة قد تكون في الواقع ستاراً لشيءٍ أشدَّ شراً. لسوء الحظ، يحمل اسم والدك ثقلًا هائلاً كافياً لإسكات الهمسات. ومصححةٌ عقليةٌ تتقاضى آلاف الدولارات شهرياً لن ترغب في إحداث بلبلة. فالأفضل أن يقال حادثةٌ لا انتحار. أو ما هو أسوأ».
- رمقتني بنظرة متحجرة دون إظهار أي إشارةٍ على استيعابكِ ما قلته للتو: «لم تجب عن سؤالٍ بعد. لماذا استغرق الأمر من تلك الصديقة المزعومة ثلاث عشرة سنة لإخبار أحدهم؟ وكيف صادف أن يكون ذلك الشخص أنت؟».
- «كان زوجها من معارف والدك. عندما شاركته شكوكها، منعها من قول أي شيء. قبل بضع سنوات، تُوفي زوجها، فأصبحت حرةً في البوح بما لديها. ولكن بعد مرور كثيرٍ من الوقت، تعاظم نفوذ والدك، لم تكن تعتقد أن أي نفعٍ سيأتي من الكلام».

- «وبعد ذلك قبل بضعة أشهر، تغير رأيها هكذا على حين غرة؟».
- لم تقتنعي بعدُ وحاولتِ إيجاد ثغراتٍ في قصتي. لكنك تطرحين الأسئلة على الأقل. إذا استطعتُ فقط إبقاءك تتحدثين وإبقاءك مصغيةً إليّ، فيمكنني إصلاح هذا الأمر.
- «هذا ما حدث فعلاً. عندما ذهب لينديبرغ إلى ولاية آيوا وصرّح بما صرّح به. وعندما قرأتُ تعليقاته في الصحيفة في لوم اليهود على تدخل روزفلت في الحرب، تذكرت شيئاً قاله زوجها ذات مرة. قال إن والدك كان يُمجّد هتلر ويصفه بأنه صاحب رؤية، ويتبأ بأن الولايات المتحدة ستحذو حذو ألمانيا في أن اليهودي الجيد هو اليهودي الميت. عرفتُ حينها أنها يجب أن تفي بوعدھا لأملك. شعرت بأن الجمهور يجب أن يعلم أي نوع من الرجال والدك».
- «والحارس ذاك، الذي يزعم أنه تلقى رشوةً لترك السكين في غرفة والدتي، هل اعترف بذلك؟».
- لقد وصلنا إلى جزء من القصة حيث تصبح الأمور غامضة. لن يفيدني كثيراً الاعتراف بذلك، لكنني لن أخفي أي شيء. يجب أن أخبرك بكل شيء: «لا يمكنه الاعتراف بأي شيء لأنه مات. طُردَ بهدوء بعد أسبوع من وفاة والدتك، لكن سمعه اثنان من الموظفين يتفاخر وهو يغادر. سمعه ممرض وحارس آخر يتفاخر بأنه استغل السيدة الفرنسية».
- اختلط الرعب والذهول في نظراتك إليّ: «إذن فقد كنت تعدّ تحقيقاً تتهم فيه والدي... لا أعرف حتى كيف أسميها، بناءً على

- مقولات رجلٍ ميت؟ وقد علمت بهذا كله لأن امرأة تدّعي أنها صديقة والدتي قررت أن ترفع الهاتف وتتصل بك بدل الشرطة؟».
- «لم تدّع أنها كانت صديقة والدتك. لقد كانت صديقتها بالفعل. لقد تحقّقتُ من الأمر. ولم تتصل بي، بل اتصلت بغولدي. لم تظن أن الشرطة ستأخذها على محمل الجد. ليس بعد هذه السنوات كلها. لكنها اعتقدت أن الجريدة قد تفعل ذلك. أو على الأقل ستجري بعض التحريات».
- «أو ربما اخترقت أنت وغولدي هذه القصة كلها لزيادة مبيعات الصحيفة».
- تُسمّى في الملاكمة الضربة القاضية. تلك التي لا يتوقعها المرء. جاءتني كلماتك موجعة مؤلمة كضربة تحت الحزام.
- «أهذا ظنك بي؟ أنني مجرد صحفي رخيص يكتب الأخبار الصفراء؟».
- «لا أظن أنه اليوم المناسب لسؤالي عن رأيي بك».
- «أرجوك يا بيل...».
- «أصمت».
- «لقد قمتُ بعملٍ شاقٍ فعلاً، وتحقّقتُ من كل خيطٍ أمسكتُ بطرفه. لأنني حتى أنا اعتقدتُ أن القصة لا تُصدق. ولكن هذا ما جرى حقاً يا بيل وأنا متأكدٌ من ذلك».
- «هذا كنت ما تسمي خلفه إذن. منذ تلك الليلة الأولى في فندق سانت ريجيس. كان الأمر يدور حول هذه القصة؟».
- «جزئياً أجل»، أجبتُ بهدوء. «لم أكن أعلم كل شيء حينها. تلقت غولدي المكالمات من صديقة أمك وأرشدتني أين يجب

- أن أبحث. لم تكن لدي أدنى فكرة أنني سأصل إلى ما وصلتُ إليه، وعندما علمتُ كل شيء...».
- «جاريَت الأمور».
- «اعتقدتُ أنني أنجز عملاً مهماً. ولكن الآن... لقد خرجتُ لتوي من مكتب غولدي. أخبرتها أنني لن أنهي التحقيق، وأ أنني رميتُ جميع ملاحظاتي وأوراقي في سلة المهملات».
- انسحبت نظراتك صوب الأوراق المتساقطة على الأرض: «كذبةٌ أخرى وجدتها للتو على المكتب إلى جانب آلتك الكاتبة».
- «كنت سأمزقها عندما أصل المنزل وفي نيتي إخبارك كل شيء، كل شيء تماماً. لم يخطر على بالي أنك قد تكونين هنا عند عودتي».
- «لا تزال مصراً ألا تفهم. لا يتعلق الأمر برفضك إكمال القصة، بل بحقيقة أنك كنت على استعدادٍ لاستغلال مرض والدتي للترقي في حياتك المهنية، مع أنك تعلم مدى صعوبة خسارتها بالنسبة إلي. تدّعي أنك تحبني، لكنك خنت ثقتي من أجل بيع الصحف».
- «كنت تعلمين أنني أعمل على مقالةٍ تتحدث عن والدك».
- «عن صفقاته التجارية وليس عن مرض أُمي».
- «لم أستطع التخلي عن التحقيق يا بيل. ليس عندما يتعلق الأمر برجلٍ قويٍ مثل والدك. يحق للعامة معرفة الحقيقة».
- «ولأذهب أنا إلى الجحيم، أليس كذلك؟».
- «لم أقل ذلك».

نهضت فجأة وقد أحكمت قبضتيك ثم قلت: «لو كنت مهتماً بالعامّة فعلاً، لماذا لم تسلّم الأوراق إلى الشرطة؟ سأخبرك أنا لماذا. لأنك بذلك لن تبيع جرائم بقدر قصة الرعب هذه إذا ما نُشرت. هل هذه هي الطريقة التي تعمل بها الصحف الإنجليزية؟ تنشر ما تريد؟ تنشر أشياء لا تستطيع حتى إثباتها، ثم تجلس وتشاهد قرّاءك ينهشون لحم الضحية؟».

نظرتُ إليك والألم يعتصرني. خلال معاناتي كلها حول كيفية سير هذه المحادثة والبدء بها، لم أَسْتَعِد لهذا قطّ. لم أَسْتَعِد لدفاعك عنه، لرؤيتك إياه ضحيةً في كل هذا. أجبْتُ بهدوء: «أفهم أنك غاضبة وأفهم سبب غضبك. ما لا أفهمه هو أنك بعد كل ما أخبرتك به، تقفين وتدافعين عنه».

- «لا يتعلق الأمر بوالدي، بل بنا نحن وبعجزي الآن عن الوثوق بك أو تصديق كل كلمةٍ قلّتها لي. قلت إنك كنت تتوي إخباري؟ متى؟ بعد أن أَسْلَل من منزل والدي وأسْتَقِل القطار معك إلى شيكاغو؟ هل تدرك كيف كان سيُنظر إليّ؟ سيُنظر إليّ وكأنني شريكك، وكأنني زودتك بالمعلومات لتطيح بوالدي».

- «أهذا ما يزعجك؟ رأي الآخرين؟ لقد تركتُ للتو تحقيقاً صحفياً أعمل عليه منذ شهورٍ من أجلك. أنا الصحفي نكثت بوعدِي وأضرمتُ النار في مستقبلِي بالعمل في الصحافة من أجلك. ألا يعني هذا لك شيئاً؟».

حدقتُ إليّ بعينين خاويتين وقلت: «ماذا تريدني أن أقول؟ إنني لا أهتم أن تستخدم أُمي مادةً في أحد تحقيقاتك، أو إنك استغفلتني؟ أن أقول إنك في استماتك لإثبات نزاهتك الصحفية،

- لم تُدمر كل شيء؟ أنا آسفة لا أستطيع. لأنك دمرت كل شيء».
- «لا تعنين ما تقولين، أليس كذلك؟ خلال أقل من أربع وعشرين ساعة، ستكون هذه المدينة وكل ما فيها مجرد ذكرى بالنسبة إلينا. الحياة التي خططنا لها وكل شيء تحدثنا عنه، يبدأ لحظة صعودنا على متن ذلك القطار. ولا شيء آخر يهم».
- تحدقين إليّ وكأنني تفوهتُ بكلام لا يفهم: «كيف يمكنني أن أستقلّ ذلك القطار الآن، عندما يكون كل ما يدور في ذهني هو ما الذي قد تكون كذبتَ بشأنه أيضاً، وما الذي قد تكذب بشأنه بعد ذلك. كل ما سأفعله هو أن أستبدل بعائلةٍ لا أستطيعُ الثقة بها رجالاً لا أستطيعُ الثقة به».
- لأول مرةٍ يخطر على بالي أنني قد أخسرك بسبب هذا. «بيل... أقسم لك...» كان وجهك صلباً، خالياً تماماً من أي تعبير، حتى أن الكلمات جفّت في حلقي. كنتُ أفضل أن تصرخي في وجهي، أو تثوري عليّ، أو تضربي. لكنك بدل ذلك، تقفين هناك، ساكنةً وشاحبةً، هادئةً كالجليد.
- «ألا ترى؟»، قلتُ أخيراً. «لا يهم ما تقسم عليه الآن، ولن يهم أبداً. لأنني لن أصدقك. قلتُ إنك تحبني، لكنك لم تفعل. ليس إذا كنت قادراً على فعل شيء كهذا. اعتقدتُ أنني أعرفك، لكنني لا أعرف الرجل الذي كان بإمكانه أن يفعل ما كنت تتوي فعله. ولا أريد أن أعرفه».
- «ماذا تقولين يا بيل؟».
- «أقول إنني ارتكبت خطأ يا هيمي. نحن مختلفان جداً. الطريقة التي نشأنا بها، الأشياء التي تهمنا، إحساسنا

- بالصواب والخطأ، مختلفة كلها. والهرب لن يغير ذلك. ما كان يجب أن أدعك تدخل حياتي. جزءٌ مني كان يعلم ذلك. كنت تعلم بشأن تيدي ومع ذلك تقربتُ مني لأنني كنت أملك شيئاً تريده. وقد حصلت عليه أيضاً لأنني خففتُ حذري. أرى الآن أنك لا تختلف عن والدي. أنت تؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة، وأن لا شيء يهم ما دمتَ تحصل على ما تريد».
- «هذا ظلم».
 - «إنه كذلك».
 - «بيل أرجوك».
 - «عليّ أن أذهب».
- أخذتِ حقيبتك من على ذراع الأريكة واتجهتِ نحو الباب. ألقيتِ خلفك نظرة قبل أن تمدي يدك إلى المقبض. حبستُ أنفاسي منتظراً أن تقولي شيئاً، لكنكِ وقفتِ هناك تحديقين إليّ بصمت.
- «لا يمكنكِ المغادرة هكذا يا بيل، يجب أن نتحدث».
 - «عليّ أن أذهب»، قلتِ مجدداً وكأنكِ لم تسمعي ما قلت.
 - «هل ستأتين غداً إلى محطة القطار؟».
- كتمتُ أنفاسي منتظراً... ثم رحلتِ.

الفصل الحادي عشر

آشليين

«الإهمال جرحٌ مؤلمٌ يُنقص قيمة ما نهمله، لكنَّ الجرح المتعمَّد أشدَّ وأقسى، فهو يخلِّف ندوباً عميقة لا تُمحي».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

14 أكتوبر 1984

راي، نيوهامبشير.

قرعت آشليين الجرس ثم ألقت نظرة سريعة خلفها، لترى إن كانت السيدة وارن وكلبها السمين يتلصصان غير بعيدين. آخر مكانٍ كانت تتوقع أن تجد نفسها فيه عصرَ هذا الأحد البارد هو منزل إيثان، لكن ها هي ذي تقف على درجات منزله الأمامية وتحاول خفض سقف توقعاتها.

كانت آشليين تعمل في الورشة عندما اتصل إيثان بها، يدعوها إلى تناول بعض الطعام الحار. مثلت الدعوة مفاجأة سارة، لكنَّ ما استهوها أكثر هو تلميحه إلى اكتشافٍ ما. طلب منها أيضاً أن تجلب كتاب «ندمٌ على بيل» حتى يتبادلا النسخ. أراد أن يقرأ رواية هيمي للأحداث أيضاً. يبدو أنها لم تكن الوحيدة التي انغمست في قصة بيل وهيمي.

فتح إيثان الباب مبتسماً. كان يرتدي سروال جينز وكنزة ذات ياقة مهترئة تحمل شعار فريق نيو إنجلاند بايرتس. ابتسم ابتسامة عريضة عندما رآها تنظر إلى الياقة وقال: «لا تسخري من كنزتي الجالبة للحظ، أنا أرتديها منذ أيام الجامعة».

- رمقته آشلين بنظرة تشكيكٍ فائلة: «هل أنت متأكد أنها تجلب الحظ؟ لم يحقق الباييرتس أي بطولة في السنوات الأخيرة».
- اتسعت ابتسامته حتى غدت ضحكةً عريضةً: «ربما، لكنها مسألة وقتٍ فقط. سيتعاقدون ذات يوم مع الرجل المناسب في الوسط. وعندها، سيفوزون بعدد كبير من بطولات السوبر بول حتى أن الهلاد كلها ستكرههم»، أفسح إيثان المجال ودعاها للدخول. «ادخلي. البرد لاسع في الخارج، كما كان يقول والدي». في المطبخ، خلعت آشلين سترتها ووشاحها. كان هناك قدرٌ كبيرٌ يغلي على الموقد، ورائحة اللحم والتوابل تعبق في الهواء.
- «هل أنت جائعة؟».
 - «أتضور جوعاً».
 - «وأنا أيضاً. أدركت التلفاز في الغرفة المجاورة على القناة الرياضية حتى أتابع النتيجة. هل أنت من محبي كرة القدم؟».
 - «أستطيع التمييز بين رميات الوسط ورميات الخط الخارجي إن كان هذا ما تقصده».
- رفع إيثان حاجبيه مُتفاجئاً: «جميلٌ جداً. لم تكن كريستين من محبي كرة القدم، حتى أنها وجدت إدماني الخفيف على الرياضة مزعجاً جداً. كان زوجك السابق محظوظاً».
- لم يكن «محظوظاً» تماماً، لكنها قررت تجاهل هذا الجزء من الملاحظة. «في الواقع، لم يكن دانييل من محبي الرياضة. لقد قرأتُ عن كرة القدم عندما كنت طفلةً لأنني اعتقدتُ أنها ستجذب انتباه والدي».
- «هل نجحت؟».

- «لا».

- «كان والدي يشجّع الباتريوتس، لكنّه لم يكن يوماً مغرمّاً بكرة القدم. كان يعشق البيسبول. أحبّ فريق ريد سوكس كثيراً، واعتاد اصطحابي إلى ملعب فينواي عندما كنتُ طفلاً. كنتُ أعشق مدد ما بعد الظهر تلك. عندما سُخِصت إصابته بالمرض وأخبرنا الأطباء أنه لا...»، نظر إيثان بعيداً ثم تابع: «أردتُ الحرص على عودتنا إلى الملعب وهو لا يزال يملك القدرة على الاستمتاع بالمشاهدة».

- «من الرائع أنك بنيتَ تلك الذكريات كلها».

- «أجل. كانت أياماً جميلة. هل لا يزال والدك على قيد الحياة؟».

راود آشليّن شعور بالانزعاج وأجابت: «لا، توفي عندما كان عمري ستة عشر عاماً. بعد وقتٍ قصير من وفاة أمي». علّت وجه إيثان ملامح رقيقة لطيفة: «آسف لسماع ذلك. إنه لأمر قاسٍ أن تفقدي والديك في سنٍّ صغيرة كهذه. هل لديك عائلة أخرى؟ أشقاء أو أعمام أو خالات؟».

- «لا، أنا وكتبي فقط».

- «أنا أيضاً».

طالت لحظة الصمت المريبِ بينهما وهما واقفان ينظر أحدهما إلى الآخر عبر الطاولة. حوّل إيثان نظره أخيراً واتجه صوب الموقد وراح يحرك الطعام داخل القدر: «سأسخنه فحسب، وإلى أن يصبح جاهزاً، أترغبين في تناول مشروب؟».

- «الصودا ستكون رائعة الآن. هل يمكنني المساعدة في شيء هنا؟»
- «راقبي اليخنة الحارة واحرصي على ألا تلتصق».
- رفعت آشلين الغطاء عن القدر فانطلقت سحابة من البخار ذي الرائحة الزكية، ثم أخذت الملعقة الخشبية وراحت تحرك.
- «هل صنعتَ هذا حقاً؟ من الصفر؟».
- «نعم، لقد قطعْتُ الخضار كلها بنفسي. لكنّ الفاصولياء كانت معلبة. لم أبدأ تحضيرها إلا في وقتٍ متأخر، لذلك اضطررتُ إلى اختصار بعض الخطوات».
- «رائحتها مذهلة. لم أتناول اليخنة الحارة منذ...»، توقفت عن الكلام فجأة وأفلتت الملعقة بقوة.
- «ماذا حدث؟ هل أحرقتِ نفسك؟».
- «لا، الأمر بسيط»، قالت وهي تحرك أصابعها. «أنا بخير».
- «دعيني أرى»، وقف جانبها ومدّ يده ليتفقد يدها.
- «لا بأس. إنها مجرد ندبة قديمة، تنتفض أحياناً كوخز الإبر».
- أمسك إيثان بيدها وفرد أصابعها برفق. عبس وهو ينظر إلى راحة يدها قائلاً: «يا للهول، إنها ندبة رهيبة. ماذا حدث؟».
- انكمشت آشلين تحت نظراته. لم ترد التحدث عن الندبة أو عن اليوم الذي حضرت فيه لها مكاناً في راحة يدها. لا تزال جراح الماضي حارقة، تُضرم نار الحزن مع كلّ لمسة.
- بعد أسابيع من تجاهل مكالماته الهاتفية، وافقت آشلين أخيراً على لقاء دانييل لاحتساء الشراب معاً. كان قد ألحّ بدايةً ليتناولوا العشاء على أمل أن يمارس سحره عليها ويجعلها تتراجع عن

الطلاق. لكن هدفها من اللقاء كان تحديد مصير الأريكة وأقراص الأغاني التي يمتلكانها معاً. لم يسر الأمر على ما يرام، وانتهى بها المطاف إلى الخروج غاضبة.

بالكاد عبرت الشارع عائدةً إلى متجرها عندما سمعت اسمها فاستدارت. وقف دانييل على الرصيف المقابل وملامح وجهه تقول «لم تنتهِ بعد». بدا الوقت وكأنه يتباطأ وهو ينزل عن الرصيف. ثم ظهرت شاحنة نقل بيضاء، فتعالت أصوات صرير الإطارات البغيضة، ثم صوت ارتطام قوي رمى جسد دانييل على غطاء محرك الشاحنة قبل أن يسقط ثانيةً على الرصيف. تطايرت شظايا الزجاج لتملأ الهواء ثم تساقطت في الشارع كالمطر الغزير.

بالكاد لاحظت الجرح. كانت حواسها خدرةً تماماً إلى درجة تمنعها من الشعور بأي شيء، وهي ترى بركة الدم الداكنة الآخذة بالاتساع تحت رأس دانيال، وتشوهات يديه ورجليه. «مات على الفور»، هذا ما جاء في تقرير الطب الشرعي. إنها رحمةٌ صغيرة، لكن صوت تحطم الزجاج لا يزال يوقظها بين الحين والآخر، إلى جانب كلمات دانييل الأخيرة لها. كلمات لم تقلها لأحد قط، ولا حتى معالجتها النفسية.

- «حدث ذلك ليلة وفاة دانييل»، أجابت أخيراً وهي تشعر بالضيق أن إثبات لم يفلت يدها بعد. «كانت هناك شاحنة نقل تحمل لوحاً زجاجياً ضخماً. عندما صدمته، تناثر الزجاج في كل مكان. وفي لحظةٍ ما جرحت نفسي. لم أكن أشعر بذلك حتى لاحظ أحد المسعفين الدم يسيل من يدي».

- «أنا آسف».
- «لا بأس»، سحبت آشليين يدها وأخفتها عن ناظريهما. «دعنا نأكل. يمكنك أن تخبرني إلى أين وصلت في كتاب بيل، وسأطلعك على آخر مستجدات كتاب هيمي. لقد حدثت بعض التطورات المهمة منذ تحدثنا. بالإضافة إلى ذلك، هناك بعض الأشياء عن عائلتك، عن مارتن تحديداً، يجب أن أحذرك بشأنها قبل أن تبدأ القراءة. إنها أشياء... ليست لطيفة فننقل».
- أوما إيثان برأسه بجدية: «بصراحة، سأصدم إن كانت أشياء لطيفة. لكنني أعتقد أنني أفضل أن أقرأ بنفسي. ليس الأمر أنني مرتبط عاطفياً بأي شيء من هذا. إنهم غريباء بالنسبة إليّ في الأساس».
- ترددت آشليين قليلاً، فمعرفتك أن جدك الأكبر كان متمراً في الصغر مثلاً أمرٌ مختلف تماماً عن معرفة أنه ربما كان متورطاً في وفاة زوجته.
- «هل أنت متأكد؟ نحن نتحدث هنا عن أشياء مزعجة حقاً».
- «أجل أنا متأكد. فلنأكل الآن، وبعد أن ننتهي هناك شيءٌ أريد أن أريك إياه».



تبعث آشليين إيثان إلى الطابق العلوي وهي تشعر بالإثارة وكأنه صباح العيد. لقد أمسكت نفسها في أثناء تناول الطعام وتجنببت استجوابه عما وجد رغم صعوبة الأمر. تحدثا بدل ذلك

عن تجليد الكتب والمناهج الدراسية التي يطورها إيثان من أجل صفٍ يطمح إلى تدريسه العام المقبل. والآن، ستُكافأ على صبرها.

أضواء إيثان الغرفة عند دخولهما قائلًا: «آسف على الفوضى. اعتقدتُ أنني سأنهي كل شيء خلال ساعتين، لكن شغلتي أشياء أخرى».

وقفت آشليْن وسط الغرفة تنظر إلى هذ الفوضى. ثمانية صناديق من الملفات المتنوعة والمقتنيات مبعثرة على شكل نصف دائرة، إلى جانبها عددٌ من أكياس القمامة الممتلئة جزئياً. «لم تكن تمزح عندما قلتُ إن والدك كان مهووساً بتجميع الأشياء وتكديسها».

انحنى إيثان والتقط شيئاً عن السجادة. كانت كرة زجاجية شفافة، تخفي في قلبها دمعاً زرقاء. حدق إليها وهو يدحرجها بين يديه: «استطاع والدي أن يخلق سبباً للاحتفاظ بأي شيء، وأياً كان هذا الشيء، يجد مبرراً للاحتفاظ به. وهذا ما كان يثير جنون أمي. لكن في هذه الحالة، كان هوسه نافعا».

أشار إليها كي تقترب من المكتب حيث لا تزال آلة الكتابة القديمة هناك، والورقة البيضاء الباهتة ذاتها لا تزال متدلية فوقها، لكن الأوراق المكومة التي كانت تملأ الأرضية اختفت. مدّ يده وفتح الدرج الأوسط، وأخرج حزمة صغيرة من الأوراق: «وجدتُ هذه في آخر صندوقٍ مربوطةً بشريط».

- «ما هذه الأوراق؟»

- «رسائل وبطاقات وصور من ماريان إلى والدي».

شعرت آشليين بإثارةٍ خفيفةٍ وهي تجلس على الكرسي الذي جرّه إيثان. أمسكت بكومة المراسلات لكن لسوء الحظ، بدا أن جميع الظروف مفقودة، ما يعني عدم وجود عناوين من المرسل. رفعت أول قطعة من المجموعة. كانت بطاقة عيد ميلاد عليها صورة مجموعة من مضارب الغولف على الوجه الأمامي، وكُتب على الوجه الآخر عيد ميلاد سعيد يا ابن أختي. كانت مؤرخة في عام 1956، وموقعة ببساطة باسم ماريان فحسب. كما كتبت عبارة قصيرة بأحرف موصولة تقول فيها أفكر فيك وفي كاثرين. الأولاد بخير، مع محبتنا.

كانت هناك بطاقات أخرى عدة أكثرها بطاقات أعياد ميلاد. لكن كانت هناك أيضاً بطاقة زرقاء وفضية كُتب عليها نتمنى لك السلام والنور. حملت كل بطاقة عباراتٍ موجزة، أكثرها عن الأطفال، لكن لم يكن هناك أي شيء صادم بشأن أي منها. قرأت بعدها حفنةً من الرسائل. كانت ملأى بالأخبار ولكنها تفتقر إلى الإثارة. أحاديث عن الطقس، والرحلات التي قامت بها مؤخراً، والعمل الذي تواصله من أجل الأطفال المشردين حول العالم. تضمّنت إحدى الرسائل صورتين. نظرت آشليين إلى ظهر الصورتين حيث كُتب إيليز 11 عاماً، وزاكارى 13 عاماً.

مجدداً، بدت إيليز عابسةً وجدية، وابتسم زاكارى ببراءةٍ أمام الكاميرا. كان وسيماً في بدلته الداكنة وربطة عنقه، وهو يمسك بالكمان والقوس في قبضته، بالطريقة التي قد يحمل بها المرء قطعة نافقة من ذيلها وعلى مسافةٍ بعيدةٍ قليلاً عن الجسد.

أعادت آشليين الصورتين إلى الرسالة ونظرت إلى إيثنان قائلة:
«هل باقي المقتنيات على شاكلة هذه الرسائل؟ مجرد رسائل
إخبارية وصور مدرسية؟ كنتُ آمل شيئاً أكثر... فائدة».

- «تابعي البحث. لقد اقتريت كثيراً».

كانت الورقة التالية رسالة مؤرخة في عام 1967.

عزيزي ديكى:

أتمنى أن تصل إليك هذه الرسالة وأنت بخير. لقد مرَّ وقتٌ
طويلٌ منذ آخر رسالةٍ أرسلتها إليك. الولدان بخير، مع أنني
لست متأكدةً أن عليّ أن أسميهما أولاداً بعد الآن. زاكاري على
وشك إنهاء دراساته العليا في كلية بيركلي للموسيقا. وإيليز لا
تزال لامعةً ذكيةً كمهدها دائماً، وتبحث عن برامج لنيل درجة
الماجستير. آملُ أن تلتحق إما بجامعة ييل وإما بجامعة برينستون،
لكنها تميل نحو بار إيلان، وهي كلية استثنائية ولكنها بعيدة جداً.
أعتقد أن جميع الأمهات يشعرن بهذا الشعور عندما يحين وقت
خروج فراخهن من العشِّ. وبالحديث عن الفراخ، لقد سررتُ أيما
سرور عندما تلقيتُ صورةً ابنك الرائع ببذلة عيد الفصح. إنه
يكبر بسرعة كبيرة. اعتنِ به جيداً ما دام بين ذراعيك.

أعتذر إن بدا كلامي كئيباً. لقد زارني الحزن مؤخراً إذ احتلَّ
الفراغ المنزل. العائلة تسيطر على أفكارى. هل من احتمالٍ أنك
تعرف ماذا حلَّ بألبوم الصور الذي كانت تحتفظ به أمك كورين
بين أغراضها؟ ذاك الذي يحمل أحرفاً ذهبية على الغلاف؟ لقد
كان ملكاً لجديتك هيلين ويحمل ذكرياتٍ عزيزةً جداً على قلبي.
تزعم والدتك أنها تخلصت منه، لكنَّ لديَّ أسباباً تدفعني إلى

الاعتقاد أنها لم تفعل. لا أشعر نهائياً بأن عليها الاحتفاظ به، فهي لم تُكنّ أي ودٍّ لوالدتها. فإذا كانت هناك أيّ طريقةٍ لاكتشاف مكانه، سأكون ممتنةً.

حدثت بيني وبينك خلافاتٌ على مرّ السنين. خلافات حول القرارات التي اتخذتها وطريقتي في عيش حياتي، لكنني آمل أن تعرف كم أحبك وكم أنا نادمةٌ على الأوقات التي سمحنا فيها للكلام الجارح أن يفرّق بيننا يا ابن أختي. سأنهي رسالتي الآن فأنا ذاهبةٌ إلى حفل غداء. أتمنى أن نتمكن من اللقاء عندما يصبح الجو دافئاً. أنت وكاثرين مرحّبٌ بكما لزيارتنا في أي وقت، مع أنني أقترح الانتظار حتى ينتهي موسم الطين والوحل، فالطرق هنا قد تكون خطيرةً في الربيع.

حبي للجميع.

ماريان.

رفعت آشليين عينيها نحو إيثان والأسئلة تتدافع في ذهنها: «تذكرتوتراً بينهما حول قراراتٍ اتخذتها. أظن أن الأمر يتعلق بتيدي. لحظة... هل وجدتَ الألبوم الذي سألتُ والدك عنه؟» - «كلا».

غاصت آشليين في كرسيها مجدداً وقالت بنبرةٍ متضايقة: «كنتُ آمل اكتشافاً كبيراً، لكن لا شيء هنا يقرينا أكثر من ماريان أو من هيمي».

أشار إيثان إلى الأرض حيث انزلقت قطعة ورق مطوية من حضنها وسقطت على السجادة. - «ربما يجب أن تنظري إلى تلك الورقة».

- التقطت آشليين الورقة وفتحتها . كانت برنامج حفلاتٍ موسيقية
وجزء من الشرح محاطٌ باللون الأحمر.
- أوركسترا بوسطن السمفونية
- 4 أغسطس 1964. يُسعدنا استضافة عازف الكمان الموهوب
زاكاري مانينغ في أول ظهور له في بوسطن مع أوركسترا
بوسطن السيمفونية العريقة. سيقدم مانينغ مجموعة من القطع
الموسيقية الصغيرة في عطلة نهاية هذا الأسبوع بعد أن لفت
بأسلوبه الأنيق وتقنياته الرائعة أنظار بعض أهم قادة الأوركسترا
في عصرنا. يُعرف مانينغ بشغفه بالموسيقا وترجمته المبتكرة
للألحان وإحساسه الفني المرهف.
- رفعت آشليين رأسها وسألت بنبرة حائرة: «هل يفوتني شيءٌ
ما هنا؟».
- «ابن ماريان أصبح عازف كمان مشهوراً على ما يبدو. فكرتُ
أننا إذا استطعنا العثور عليه، يمكننا على الأقل معرفة إذا ما
كانت ماريان لا تزال على قيد الحياة».
- أعادت آشليين قراءة الصفحة مرة أخرى بنظراتٍ مشككة:
«الإعلان يعود إلى عام 1969. ما احتمالية أنه يعزف حتى اليوم؟
وإن كان كذلك، ما احتمالية أن نجده؟».
- ابتسم إيثان ابتسامةً عريضةً قائلاً: «لقد وجدته فعلاً».
- «ماذا تقول؟ كيف ذلك؟».
- «اتصلت بصديق لي في جامعة نيوهامبشير. أستاذ موسيقا
كنت أَلعب معه في فريق البيسبول في وقت الفراغ، وطلبت
منه التحقق من الأمر».

- «ثم؟».
- «ثم اتصل بي هذا الصباح. زاكاري مانينغ يعيش في شيكاغو ويعزف حالياً مع أوركسترا شيكاغو السيمفونية».
- حدثت آشليين إلى إيثان بذهول. إنه الرجل ذاته الذي لم يبال في أول لقاءٍ بينهما بقصة أخت جدته، ها هو ذا الآن يتميز ويثبت جدارته. لم يكن هناك ما يضمن قدرة زاكاري مانينغ على مساعدتهما في العثور على بيل، أو حتى رغبته في ذلك، لكنها على الأقل خطوة في الاتجاه الصحيح.
- «وجدته حقاً؟»، قالت وهي تطالع الإعلان مجدداً.
- «أجل».
- «وماذا الآن؟».
- «هذا ما يجب أن نفكر فيه. لا أظن أن الاتصال به هاتفياً والقول، "مرحباً زاك، هل تذكرني؟ هل أمك لا تزال على قيد الحياة؟" ستكون طريقةً مقبولة».
- رمقته آشليين بنظرة جانبية سريعة وقالت: «لن يجدي ذلك نفعاً بالتأكيد».
- «لا أدري كيف أبدأ الحديث معه. لقد التقينا مرةً واحدة فقط حين كان في الخامسة عشرة وكنت أنا في الخامسة. كيف أشرح له سبب البحث عنه الآن بعد هذه السنين كلها؟».
- «ربما تستطيع استخدام وفاة والدك. يمكنك أن تخبره أنك كنت تتفقد أغراضه بعد وفاته وأنت وجدت بعض الرسائل والصور القديمة التي توّد إعادتها إلى جدتك، أو خالة أبيك لنقل، إن هو ذلك على طريقة الاتصال بها».

- «فكرة ذكية، كما أنها ليست كذبة في الحقيقة. إذا كانت على قيد الحياة، فسترغب بالتأكيد في استعادتها. لكن ماذا أقول لها بعد ذلك؟».

فاجأها اندفاع إيثان الذي بدا جدياً تماماً. «اعتقدت أنك تعارض محاولة العثور عليها».

أوماً إيثان برأسه قائلاً: «كنت كذلك، لكن بعد أن بدأت القراءة وجدت أنك محقة. لا يمكنها أن تتسى هيمي أبداً. وأعتقد أيضاً أنها سترغب في استعادة الكتابين، ولو للتأكد أنها لن تقع في أيدي أي شخصٍ آخر. السؤال الآن هو كيفية تحقيق ذلك بأسلوب لطيف».

حاولت آشلين أن تتخيل شعور تلقّي مكالمة هاتفية من شخص غريب يعرف أدق تفاصيل ماضيها وأكثرها حميمية. لم تكن فكرةً سارة على الإطلاق. «أعتقد أنه يمكنك تأجيل التفكير في رد فعلها إلى حين حدوثه. المهمة الأولى هي معرفة إذا ما كانت لا تزال على قيد الحياة، ثم محاولة الحصول على رقم هاتفها». راح إيثان يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً، محاولاً التفكير في أفضل طريقة للتعامل مع زاكاري. كانت آشلين تبحث عن رسالة ماريان حول ألبوم صور هيلين عندما لاحظت كتاب «عالم جديد شجاع» للكاتب الدوس هاكسلي على طرف المكتب.

لم يكن موجوداً الأسبوع الماضي، كانت لتتذكره لو كان كذلك، ولكنه ظهر أمامها الآن. وباعترافه هو، لم يكن إيثان يقرأ الروايات، ما يعني أنه على الأرجح يخص والده. مررت آشلين إصبعها على الغلاف الرمادي برسمه الغريب لرجل مقطوع الرأس. شعرت به

على الفور، بأصدائه التي تسحبها كتيار جارف تحت الماء. أمسكت بالكتاب غير قادرة على مقاومته. أخذت شهيقاً ثم زفيراً ثم شهيقاً آخر وانتظرت. لكنّ الأصداء رفضت أن تتلاشى كنغم شاذ يضرب على أعصابها. أصداء حملت شكوكاً عميقة وصرعاً داخلياً لرجلٍ ضلّ طريقه ويرغب بشدة في العثور عليه مرة أخرى. رجل يبحث عن هدف، رجل يبحث عن ذاته.

إنه كتاب إيثنان، وتلك أصداء إيثنان. فتحت الكتاب على صفحة العنوان ووجدت ما كانت تبحث عنه.

بنّي الحبيب إيثنان:

كن شجاعاً واجتهد في مسعاك، وافعل ذلك بطريقتك الخاصة.
العالم يحتاج إلى صوتك.

والدك.

- «كان هديةً من والدي».

خالج أشلين شعورٌ بالذنب. لم تسمع صوت خطواته وهو يقترب حتى صار وراءها. أغلقت الكتاب وأعادته إلى المكتب، متذكراً الإهداء الذي وجدته في النسخة القديمة من رواية «بقايا اليوم». لقد ذكر هو الآخر الشجاعة.

- «كن شجاعاً. إهداءً جميلٌ حقاً».

- «كانت الشجاعة بالنسبة إلى والدي بمنزلة مبدأ توجيهي. كنت أمر بمدة صعبة عندما أعطاني هذا الكتاب، وأحاول معرفة ما أريد فعله في حياتي وعملي».

- «ألم تُرد أن تكون كاتباً؟».

- «بلى، لكنني لم أكن متأكداً عما أريد أن أكتب. كان لدي صديق أيام الجامعة سبق له أن نشر روايتين. ظن أن إرسال مسودة من كتاباتي إلى محرره دون علمي سيكون مضحكاً. ذات يوم، تلقيت فجأة اتصالاً من رجلٍ لم أسمع باسمه من قبل، يعرض عليّ صفقة لنشر ثلاثة كتب بناءً على المسودة التي أرسلها له صديقي. كانت سلسلة روايات تشويقية ذات موضوعات سياسية».
- أعطت آشلي نفسها الوقت لتستوعب كلماته. صفقة لنشر ثلاثة كتب فجأة أمرٌ لا يحدث إلا في الأفلام وليس الواقع.
- «هذا رائع. لكن ظننتُ أنك لا تكتب الروايات».
- «هذا صحيح. لكن راهنني صديقي على أنني لا أستطيع كتابة رواية من أربعمئة صفحة في غضون عام، ففعلتُ ذلك. كنتُ أمزح فقط، وأحاول الفوز بالرهان وإسكاته. لم أكن أحلم قط بأن يقرأها أحد».
- «إنه حلم كل كاتب؛ أن تُكتشف موهبته».
- «ربما. لكنني لم أرغب في أن تُكتشف موهبتي. أعلم أن كلامي قد يبدو غروراً، ولكنني لم أكن أرغب في كتابة ذلك النوع من الروايات. لكن هذا ما أرادت زوجتي أن أكتبه. كان المبلغ المقدم مُغرياً، لكن كل ما كانت تفكر فيه هو الدولارات وحقوق تحويل الرواية إلى فيلم. لقد كانت تخطط لإطلاقها على السجادة الحمراء عندما أخبرتها أنني لن أقبل العرض».
- «أظن أنها لم تتقبّل الأمر جيداً».

- «لقد استشاطت غضباً. سبق لها أن حاولت بعد زواجنا أن تقنعني بالمصالحة مع عائلتي. اعتقدت أنني إذا استعدتُ علاقتي مع جدتي كورين، فسأعود بطريقة سحرية إلى الوصية. لقد جنّ جنونها عندما رفضتُ. لذا عندما حدثت صفقة الكتاب، كانت مصممة على تحقيق ما تريد».

- «لكنها فشلت».

قال إيثان بحدة: «لذا وجدتُ ضالّتها في طوني مدرّبتها الشخصي، لكن ليس قبل أن تديقني المرّ بسبب تلك الصفقة. حينها أعطاني والدي الكتاب، ولهذا السبب كتبَ ما كتبَه. عَلِمَ أن لدي أشياء أريد قولها، وأنتي إذا استسلمت لكريستين، فلن أتمكن من قولها أبداً».

- «إذن رفضتَ عرضاً بمبلغ مكون من ستة أرقام مقابل ثلاثة كتب، وأنت تعلم أن زوجتك ستثور غضباً».

- «أجل».

ابتسمت آشليين قائلة: «لقد كنت شجاعاً فعلاً».

- «أو غيباً».

- «لا يمكن للشجاعة أن تكون غباءً أبداً».

- «حسناً. لم يُحسَم أمر الشجاعة من الغباء بعد. بالنسبة إليّ على الأقل».

تأملت آشليين إيثان ملياً. كانت تلك أول مرة تلاحظ فيها الغيمة الداكنة التي تحوم فوقه. لقد وقف في وجه زوجته، وجعل والده فخوراً. لكن يبدو أن هناك شيئاً يضطرب في داخله، شيئاً ما يعوقه.

- «لم أفعل شيئاً شجاعاً في حياتي على الإطلاق. كان الاستسلام وتلبية توقعات الناس أسهل. يجب أن تكون فخوراً لأنك لم تفعل ذلك»، اعترفت آشليين بهدوء.

رفع إيثان كتفيه بلا مبالاة، ثم ألقي نفسه على الكرسي الجلدي وقال: «هذه هي قصتي الحزينة الصغيرة. ماذا عنك؟ ماذا حدث مع دانييل؟ ذكرت أنك كنت في خضم الطلاق عندما تُوفي».

جالت آشليين بنظرها في أرجاء الغرفة، تبحث عن أي شيء يصرف انتباهها. لم ترغب في التحدث عن دانييل، لكنها شعرت بأن الرفض سيكون وقاحةً بعد أن شاركها قصته الخاصة. لم تجلس إلى جانبه، واختارت بدلاً من ذلك حافة منضدة صغيرة وجلست قبالة. لم يكن عليها أن تروي قصتها كلها لكنها كانت مدينة له بجزءٍ منها على الأقل.

- «لقد التقينا في جامعة نيوهامبشير. كنت طالبة في أحد صفوفه وبدأنا نلتقي سراً. وفجأة، وجدنا نفسي متزوجين، وسرعان ما خرج زواجنا عن المسار الصحيح. مع ذلك بقيت معه، لم أكن شجاعة».

- «هل هو من قرر الانفصال؟».

- «بل أنا».

- «ما الذي أفضى إلى ذلك؟».

- «عدت إلى المنزل في الثالثة بعد الظهر لأجد امرأة تدعى ماريبيث في مطبخي، وهي ترتدي رداء الاستحمام الخاص بزوجي».

- «يا إلهي».
- «غادرتُ المنزل في الليلة ذاتها، وشعرت بأنني مغفلة كبيرة. لقد سمعتُ الشائعات. كانت كلية الآداب برمتها تعرف حقيقته. لكنني كنت مأخوذةً به بحيث بُتُ صمًا عنها. لقد كان ذكياً وموهوباً جداً. لم أستطع رؤية كم كان شخصاً متلاعباً، وحتى عندما عرفتُ ذلك، بقيتُ معه. إلى أن دخلت ماريبيث حياتنا. لم أستطع تجاهل هذا المشهد حينها».
- «كان مدرّساً في جامعة نيوهامبشير؟».
- «أجل. كان يدرّس مادة الكتابة الإبداعية».
- «دانييل سترابير كان زوجك؟».
- شعرت آشلين بالندم لأنها جلست قبالة.
- «هل تعرفه؟».
- قل لا أرجوك. كررت آشلين في رأسها.
- «لا، لكنني سمعت باسمه قبلاً. لقد فُصل من الجامعة في الشهر الذي سبق قدومي. بسبب بعض النشاطات التي لا تتعلق بالدراسة مع إحدى الطالبات. هل كنتِ أنت من أوقع به؟».
- «لا، لم أكن أنا، لكنه ظن أنني الفاعلة كعادته دائماً في إلقاء اللوم عليّ عندما ي فشل في أي شيء يفعله. التقينا يوم وفاته لحسم بعض الأمور المتعلقة بالامتلاكات. لم يكن اللقاء سلساً. وبعدها، عندما غادرنا...»، أغمضت عينيها لتجنب استرجاع الذكريات، ثم فتحتهما مجدداً عندما شعرت بلمسة إيثان.

- «وبعدها حصل هذا»، قال بهدوء وهو يأخذ يدها ويفتح راحتها.
- ابتلعت آشلين ريقها، وشعرت فجأة بأنها تفقد توازنها.
- «نعم».
- «هل لا يزال الجرح يؤلمك؟».
- كان صوته هادئاً هدوءاً يبعث الاضطراب، والغرفة دافئة أكثر من اللازم.
- «لا. لم يعد يؤلمني».
- «يسعدني ذلك».
- ما الذي يحدث. شعرت آشلين بأن قلبها يرقص تحت ضلوعها، إضافة إلى صعوبة التنفس فجأة. لم يدخل أحد حياتها منذ رحيل دانييل، ولم يكن هناك أحد قبله. وبالتأكيد لم يكن هناك من يجعلها تشعر بالطريقة التي تشعر بها الآن.
- «هل أنت بخير؟».
- حدقت إليه وهي تدرك أنها ظلت صامتة مدة طويلة: «أجل... أنا...».
- أفلت إيثان يدها فجأة وقال: «آسف. لم أقصد مضايقتك».
- «لم تضايقني... لقد مرّ وقت طويل منذ... لم أعتد هذا الشعور... لم يكن يراودني قبلاً أصلاً... أعني...».
- حدثت آشلين نفسها: يا إلهي كفي عن الكلام يا آشلين. لقد لمس يدك فحسب. لم يدعك إلى غرفته.
- افترت شفتا إيثان عن ابتسامة خفيفة: «فهمت. الحال من بعضه. الطلاق دمّرني، ثم جاء مرض والدي. لم يكن هناك متسع

كبير للحياة الاجتماعية. وبصراحة، لم أكن بارعاً قطّ في هذا الجانب. أقصد مسألة التودد وملاحظة الإشارات والتعاملات الاجتماعية. أنا آسف إذا تجاوزتُ الحدود».

حان دور آشلين لتبتسم. لم يكن الانطباع الذي خلفه عند زيارته الأولى حقيقياً. إنه ساحرٌ ومضحك ولطيف. «أنت رائع، من حيث التودد أقصد»، قالت بخجل.

- «يمكننا أن نأخذ الأمور ببطء»، قال.

شعرت بسحابة سعادةٍ تكللها عندما التقت نظراتهما.

- «وهو الأفضل».

الفصل الثاني عشر

أشليين

«الكتب ضلوع وعمود فقري. الكتب دَمٌ وحبر. هي مادة الأحلام التي نحلم بها والحياة التي نعيشها. صفحة واحدة، ويوم واحد، ورحلة واحدة في كل مرة».

- أشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

17 أكتوبر 1984

بورتسموث، نيوهامبشير.

ألقيت أشليين نظرة على دفتر الملاحظات المفتوح على ركبتيها، مسرورةً بالملاحظات التي دونتها من أجل النشرة الإخبارية السنوية للعطلة الخاصة بالمتجر. كانت تعمل في السرير، وتكتب باستخدام قلم حبر كوندكسين المفضل لدى فرانك آتواتر. ستطبع النص لاحقاً حتى يتمكن عامل الطباعة من قراءته، لكن هناك متعة خاصة في عملية الخلق بالقلم والحبر، كأنها خط مباشر يمتد بين العقل واليد.

جرت العادة أن تكون النشرات كلها جاهزة بحلول هذا الوقت من العام. لكن مع الجهد المبذول لإنجاز كتب نانسي درو التي أحضرتها جيرترود، وإغراء الانغماس في عالم كتابي هيمي وبيل، نسيت أمر النشرات تماماً. لذا، كان عليها أن تسرع الخطأ لتلحق بالموعد النهائي للمطبعة، ثم تضطلع بمهمة وضع العناوين عليها وإرسالها بالبريد.

بالكاد وضعت القلم من يدها ممنيةً نفسها بكوب شاي ساخن حتى رنّ جرس الهاتف. ألقت نظرة على الساعة. من يجروُ على الاتصال في العاشرة ليلاً؟

- «مرحباً».

- «هل الوقت متأخر؟».

- «إيثان؟».

أثار صوته لديها دهشة ممزوجة بسرور خفي. فقد اتصل يوم الاثنين ليخبرها أنه ترك رسالة مع مساعد زاكاري. لم يشر أي منهما إلى اللحظة المحرجة من الليلة السابقة. ومع ذلك، راودها ذلك المشهد مراراً خلال اليوم، تصاحبه في كل مرة حرارة غامضة تنتشر على وجنتيها.

- «أجل إنه أنا. هل أيقظتك؟».

- «لا. كنت أنهي النشرة الإخبارية الخاصة بعطلة المحل. هل تتصل لتخبرني أنك تحدثت للتو مع زاكاري؟».

- «لا، لم ألقَ رداً منه بعد».

- «لا بأس. لم يمرّ سوى بضعة أيام فحسب».

- «أجل».

بدا صوت إيثان مشتتاً وبعيداً.

- «تبدو مضطرباً. ما الأمر؟».

- «كنتُ أقرأ».

- «إلى أين وصلت؟».

«الجزء الذي يتحدث عن هيلين والمصححة... يا إلهي».

- «أجل، جزءٌ مأساوي. هل أنت بخير؟».

- «نوعاً ما... أحاول استيعاب أن...». ساد صمت قصير وأخذ نفساً عميقاً ثم أطلقه ببطء.
- «جدتي الكبرى يهودية تزوجت بشخصٍ متعاطف مع النازية. حبسها هذا الشخص لإخفائها عن أصدقائه المعجبين بالنازية. كيف لي أن أجهل هذا كله؟ إننا يهود، جزئياً على الأقل، ولم ينطق أحدٌ حرفاً عن الموضوع. هل عرف والدي ذلك؟ وإن كان الأمر كذلك، فلم يحتفظ بالسِر؟ ثم هناك ماريان كذلك، وكيفية اكتشافها الأمر بهذه الطريقة. يا إلهي...».
- بدا إيثان متضايقاً فعلاً وغازباً نوعاً ما.
- «هل أنت متأكد أنك بخير؟».
- «أجل. لكنّ الشعور بحد ذاته غريب. لم أصنف يوماً عائلة مانينغ على أنها عائلة أمريكية مثالية، لكن الوضع هنا أسوأ بكثير مما كنت أتخيله».
- تذكرت آشلين والديها. تذكرت أمها التي لم تكلف نفسها عناء إنقاذ نفسها حتى. وأباها الذي صعد إلى العلية ووضع بندقية صيد تحت ذقنه لأنه أراد أن يرفع قبضته ساخطاً في وجه القدر.
- «لا يوجد ما يُسمى العائلة الأمريكية المثالية يا إيثان. إنها مجرد وهم».
- «أنت محقة. هل انتهيتِ من قراءة إلى الأبد وأكاذيب أخرى؟».
- «تقريباً. ولا يبدو أن الأمور تسير على نحو جيد هنا أيضاً».
- «لهذا السبب توقفتُ عن القراءة. كنت بحاجة إلى استراحة».

أطلق إيثان تهيدة عميقة تحمل ما تحمله من إرهاقٍ أو
اشمئزاز، أو كليهما ربما.

- «أظن أننا نعرف ما سيحدث بعد ذلك، وعلى من يقع اللوم
في النهاية».

تأملت آشليين كلماته ملياً. راودتها الفكرة ذاتها في البداية.
لكن الآن لم تعد متأكدة تماماً. لم تستطع نسيان الأصدقاء التي
استشعرتها أول مرة عندما لامست الكتابين، ذاك المزيج المخيف
بين المرارة والحزن. الناس يكذبون. الأصدقاء لا تكذب. بدا أن
كلاً من بيل وهيمي يعتقدان بصدق أنهما الطرف المظلوم، وهو
ما يوحي بأن هناك ما هو أكثر مما تعلمه هي وإيثان حالياً في
القصة. ربما أكثر مما سيعرفانه على الإطلاق. لكنها لم تستطع
أن تقول لإيثان أيّاً من هذا.

- «أو ربما نظن أننا نعرف الحقيقة لكنّ الواقع أمر مختلف
تماماً».

- «هل تعتقدين أن شيئاً آخر قادم؟».

- «أشعر بأن القصة لم تتكشف كاملةً بعد. لقد أحبّ هيمي
بيل يا إيثان. أحبها بما يكفي للتخلي عن التحقيق الصحفي
الذي آمن بصحة كل حرف فيه. ربما أكون مخطئة. وربما كان
ذلك كافياً لجعل بيل تترك كل شيء خلف ظهرها. لقد كانت
غاضبةً بالتأكيد، لكنني أظن أن هناك شيئاً آخر».

- «ما الذي يدفعك إلى هذا الاعتقاد؟».

ترددت آشليين وهي تفكر في كيفية الرد: «هل تؤمن بما يسمى
حدس المرأة؟».

- «نعم، أظن ذلك».
 - «حسناً، سنسير مبدئياً على هذا الأساس».
 - «لأكون صريحاً، أعتقد أنني عرفت كل ما أريد معرفته».
- استشعرت أشلين الحسم في صوته، وتعاطف جزء منها معه. لم يرد الانخراط في الأمر منذ البداية، والآن عرف أشياء عن عائلته تجعل أي شخص يتردد في الغوص أعمق.
- «أتفهم ذلك. راودني شيء من هذا القبيل أيضاً. أعلم أنه لن تكون هناك نهاية سعيدة، فكلاهما يوضح ذلك صراحة منذ البداية. ومع ذلك أجد نفسي أتوانى خشية ما هو قادم. أعني... أعرف بالفعل ما سيحدث... لكن لا أعرف كيف سيحدث بالضبط. من آذى الآخر؟ وماذا حدث بعد ذلك؟ ولكنني سأقرأ حتى النهاية، فأنا لا أستطيع منع نفسي من معرفة كل شيء. ليس بعد أن وصلنا إلى هنا».
- تتهد إيثان قائلاً: «أعتقد أنني يجب أن أنهي كتاب بيل».
- «أو ربما يمكننا قراءتهما معاً»، اندفعت الكلمات من فم أشلين فجأة.
 - «معاً؟ كيف ذلك؟».
 - «حسناً، ليس بالمعنى الحرفي للكلمة. يمكننا أن نفعل ذلك عبر الهاتف. لم تبقَ صفحات كثيرة في أي من الكتابين. يمكننا أن نتناوب، أنا أقرأ من كتاب "إلى الأبد وأكاذيب أخرى" وأنت تقرأ "ندم على بيل". يمكننا تحديد مواعيد للقراءة. ليست مواعيد غرامية، ولكنها تحديد وقت منتظم. ربما ساعة أو أقل إذا أردت. إلا إذا لم يكن لديك وقت، أو كنت مشغولاً في

الكتابة. انسَ الأمر، إنها فكرة سخيفة».

- «حسناً، فلن فعل ذلك»، قال إيثن بعد أن سككت آشلين.

- «حقاً».

- «إن كنا سنحسبها موعداً، أجل».

موعد.

أطلق وقع الكلمة على مسمع آشلين جرس إنذار خافت. هل عليها توضيح غايتها؟ هل يجب أن تخبره أنها لم تقصد ذلك بالضبط؟ وهل يهم ذلك على أي حال؟ سيكون مجرد اتصال هاتفي، ما الخطر في ذلك أصلاً؟

- «حسناً، موعد قراءة إذن. هل أدرج ذلك في جدولي مساء الغد؟».

- «أفكر في الواقع إن كان في وسعنا البدء الليلة إن لم تمنعني. لست مستعداً لإنهاء هذه المكالمات بعد».

- «لا بأس، قد تكون طريقة جيدة للاسترخاء».

- «كقصص ما قبل النوم مثلاً. تلك القصص التي لم تفلح معي قط. كانت أُمِّي تقرأ لي وأنا صغير، لكنني كنت أقاوم النوم لأستمع بقراءتها».

أحبّت آشلين أنها سمعت ابتسامته من خلال صوته. وضعت الدفتر والقلم جانباً واتكأت على الوسائد وسألتها: «هل تعتقد أن والدتك قد قرأت كتابي بيل وهيمي؟».

- «لا أعلم على وجه اليقين، ولكن يصعب عليّ تخيل أنها لم تقرأهما. لا بد أن والدي قد أراها الكتابين. لقد كانا يتحدثان عن كل شيء ولا أسرار بينهما».

- رددت آشليين بحزن: «لا أسرار بينهما؟ كيف تكون العلاقة دون أسرار؟ وأن تشارك كل شيء مع أحدٍ آخر؟ لم يكن والدائي من هواة الحديث ما لم يكن ذلك يشمل صراخ أحدهما على الآخر. ثم مع دانييل... كان هو المتحدث أكثر الوقت في علاقتنا. كان الطرف الذكي وأنا الطرف الذي يُتوقع منه أن يفعل ما يُطلب منه. المحزن في الأمر أنني واطببت على ذلك طوال سنوات. لقد كنتُ...»، توقفت فجأة. «آسفة. لقد بالغتُ في سرد التفاصيل».
- «على العكس. يسرني أنك تشعرين بالراحة لمشاركتي هذه الأشياء. وأفهم ما تقصدينه. ما زلت أحاول أن أفهم كيف اجتمعتُ أنا وكريستين معاً. الأمر أشبه بمشاهدة قطارين يصطدمان بحركة بطيئة، لكن أحدهما هو أنت. عرف والدائي حقيقتها منذ اللحظة الأولى التي قابلها فيها. لقد رأيا ما لم أستطع رؤيته، أو ما لم أرغب في رؤيته».
- «آسفة».
- «حكمة كبار السن كما يقولون. لكن يسهل على المرء أن يخاف الارتباط عاطفياً بعد أن يُستزَف تماماً، ويخشى الوثوق بآرائه. يواصل أصدقائي محاولة إيجاد شريكة لي ولكن...»، توقف إيثان لحظةً سادها صمتٌ قصير. «ألم يدخل حياتك أحدٌ حقاً بعد دانييل؟».
- «لا».
- «لا أحد على مدار أربع سنوات؟».
- «كما أخبرتك، أنا لستُ شجاعة».

- ضحك إيثان قائلاً: «هل يتطلّب الأمر شجاعة حتى تسمح لي لرجلٍ بأن يأخذك إلى العشاء؟».
- «بالنسبة إليّ، أجل».
- «لكن القراءة على الهاتف آمنة ولا بأس بها، صحيح؟».
- هل كانا يتغازلان؟ لم تستطع الجزم. لقد شعرت ببعض الخطورة، لكنه كان شعوراً جميلاً أيضاً. قالت وهي تضحك: «أعتقد ذلك، نعم».
- «حسناً إذن، سأدعك تبدئين القراءة إذا كان ذلك يرضيك. أعتقد أنني أفضل الاستماع فقط الليلة».
- سمعت آشليين مرة أخرى نبرة الإرهاق في صوته. لقد كان مضطرباً، ومحبطاً قليلاً ربما، على الرغم من كل لا مبالاته المصطنعة تجاه أصول عائلته. «حسناً. لا بأس».
- مدت يدها إلى نسخة كتاب «إلى الأبد، وأكاذيب أخرى» الموضوعة على طاولة السرير، وفتحته على الصفحة التي سبق أن علّمتها بشريط أزرق اللون، ثم استندت إلى الوسائد وبدأت القراءة.

إلى الأبد وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 57 إلى 69)

5 ديسمبر 1941

نيويورك.

عدتُ إلى المنزل تمزقني مشاعر الغضب والخذلان. لقد حطّم حجبك الحقيقة عني، مع نيتك نشر كل كلمةٍ منها بملء إرادتك، ما اعتقدتُ أنه يجمعنا. لكن ما تزعم معرفته عن والدي قد طغى مؤقتاً على آلام خيانتك إياي.

حاولتُ طوال الطريق إلى المنزل أن أقنع نفسي بأنك كنت تكذب حين كتبتَ تلك الأشياء البغيضة، وأنتك اخترعتها من العدم لإرضاء غولدي. لكن لم أستطع أن أجبر نفسي على التصديق، ثم تذكرت تحذير سييسي عن والدي، وكيف أنه يرانا جميعاً ببادق على رقعة شطرنج، وأن القطع المزعجة تختفي أحياناً. أدركتُ أنها تقصد أننا التي أصبح مرضها ويهوديتها مصدر إزعاج، لذلك جعل أننا تختفي، ليس فقط في المصحة، بل إلى الأبد. رحّت أجوب الغرف بحثاً عن أختي والإجابات. وجدتُها في مكتب والدي تتفحص كومةً من الرسائل. بدت ضئيلةً خلف مكتبه، محدودةً بمقعدٍ جلدي واسع. رفعتُ رأسها حين دخلتُ الغرفة، ثم عادت إلى كومة الظروف المكومة على المنضدة. لم يكن والدي موجوداً في المنزل، فقد سافر إلى بوسطن استعداداً لحضور أحد المؤتمرات، لكن حضوره خيم علينا. رائحةٌ سجاثره، ومثبت الشعر برائحة الليمون الذي يستخدمه،

- والشراب المعتق الفاخر الذي يقدمه لأصدقائه، كانت كلها تملأ الهواء، محسوسةً ومزعجةً بشكل غامض.
- جفّ حلقي فجأة. تمرنتُ على ما سأقوله في أثناء عودتي بالسيارة، لكن الآن وقد رفعت أختي عينيها نحوي، التصقت الكلمات في حلقي. قلتُ أخيراً بصوتٍ مرتجف: «منذ متى تعرفين أن أنا يهودية؟».
- رفعت سيسي رأسها مجدداً وتجمدت يداها تماماً: «ماذا؟».
- «يهودية»، كررتُ بوضوح. «منذ متى تعرفين أن أنا كانت يهودية؟».
- قفزت عيناها نحو الباب المفتوح في الحال: «أخفزي صوتك بحق السماء».
- أخبرني الذعر في عينيها بكل ما أحتاج إلى معرفته.
- «أجيبني عن السؤال».
- أخذت رسالةً من الكومة متصنّعة الهدوء، واستخدمت مشروطاً فضي اللون لفتح الظرف. لم تكن على عجلةٍ من أمرها وهي تخرج المحتويات وتفحصها. أخيراً، وضعت الرسالة جانباً ونظرت إليّ قائلة: «مع من كنت تتحدثين؟».
- «هذه ليست إجابة».
- «ليست إجابة، لكنني سأسألك مجدداً: مع من كنت تتحدثين؟».
- «لا يهم».
- «أعتقد أنه مهم جداً. هل أخمن من هو؟»، ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة وهي تقول ذلك، ما أضاف على الحديث تأثيراً يبعث قشعريرة خفيفة. «لعله صديقك

الصحفي من الجريدة. ذاك الذي كنتِ على علاقة ودية معه مؤخراً؟».

حاولت تحويل مسار المحادثة ووضعني في موقف الدفاع. «إذن فأنتِ لن تحاولي حتى إنكار معرفة ما سألتك عنه؟».

قالت وكأنها أحرزت نقطة ضدي: «ولا يبدو أنك تحاولين ذلك أنتِ أيضاً».

- «هل كنتِ تعلمين أنّ السبب وراء إبعاد والدي إياها هو خجله من... يهوديتها؟»، خرجت الكلمات من فمي جافةً وقبيحة، ولكن ما أتهم به والدي أكثر قبحاً.

ضمتُ سيسي يديها ووضعتهما على المنضدة: «لقد خجل منها لأنها أخرجته أمام أصدقائه».

- «لقد كانت مريضة»، قلت.

- «لقد كانت ضعيفة».

ها قد نطقْتُ بالتأكيد الذي ما عدتُ بحاجةٍ إليه. «قلتِ ذات مرة إن والدي يُخفي بعض قطع الشطرنج أحياناً. هذا ما كنتِ تتحدثين عنه؟ كانت أُمي قطعة الشطرنج المزعجة؟».

أخذت سيسي نفساً عميقاً ثم عدلت جلستها: «تعرفين كيف كانت حالها. كنتِ هناك تلك الليلة. لقد رأيتِ وسمعتِ الأشياء ذاتها التي سمعتها أنا، والتي سمعها الجميع. كانت تتحب وتثرثر كالمجنونة. إلى متى كان يُفترضُ به أن يتحمل نوبات غضبها؟ كان عليه أن يبعدها».

- «وماذا عن الحادثة؟ وعن طريقة وفاتها؟».

- «ماذا عنها؟».

- «هناك من يعتقد أنها لم تكن حادثة»، ترددت لحظة غير متأكدة إذا ما كنت أستطيع بالفعل قول الباقي بصوت عالٍ. فبمجرد أن أفعل ذلك، لن تكون هناك عودة إلى الوراء. لكنني بحاجة إلى القول، لأرى وجهها عندما أقولها. «يعتقدون أن أحدهم تلقى رشوة لوضع سكين في غرفتها. يعتقدون أن والدي دفع مالاً لأحدهم ليضع سكيناً في غرفتها».

حدقت إليّ بذهول: «لا تكوني سخيفة».

غمرني مظهر الرعب على وجهها بشعور ارتياح غريب. «لم تكوني على علم بذلك؟».
- «على علم بـ؟ أنت تهذين».
- «حقاً؟»، أمنتُ النظر إليها من أعلى إلى أسفل، بمظهرها المضطرب ووقفها المتباعدة. «لا أظن ذلك. وأعتقد أنك تعلمين ذلك أيضاً. لم تمت أُمي بالطريقة التي قالوها يا سيدي. لم يكن الأمر حادثاً».
- رأيتُ حاجتها إلى إنكار ذلك، إلى رفضه وعدّه مستحيلاً، حتى أنني كدتُ أشفق عليها تقريباً. فكرة أن بطلها، الأب الذي قدّسته وسعت دائماً إلى إرضائه، يمكن أن يكون قادراً على ارتكاب شيء مروع وببرودة أعصاب قد هزّت كيائها تماماً.
- «بالطبع لم يكن حادثاً أيتها الحمقاء الصغيرة. نعرف كلنا ما فعلته ولماذا. لقد قلت ذلك بنفسك. كانت مريضة. ولكن لم يكن أحد ليستفيد من خروج الحقيقة إلى العلن، خاصة إذا تسرب نبأ محاولتها الانتحار مرتين من قبل. الانتحار كلمة قبيحة. لقد جملوها بالطبع».

رمقتها بنظرات شكٍّ وريبة. لم تُذكر الكلمة أمامي مرةً قط، لكن من الواضح أنها ذُكرت أمامها. «هل كنتِ تعلمين بالمحاولتين السابقتين؟».

- «ليس عند حدوثهما... بل لاحقاً عندما بدأت شركة التأمين تطرح الأسئلة. ارتأى والدي أنني يجب أن أعرف».

- «وماذا عني أنا؟».

- «كنتِ طفلةً صغيرة»، صرخت سيسي قبل أن تخفض صوتها. «لا فكرة لديك عن سوء وضعها وطبعها». لمحتُ في عينيها نظرات توسل ورغبة في أن تجذبني إلى صفها وإلى صفه.

- «كانت الصحافة لتستمتع بنوباتها الدرامية. كان الوضع كله قدراً و... فوضوياً».

- «تحدثين وكأن ما جرى كان خطأها. وكأنها استحققت ما حدث لها».

- «ماذا تريدني أن أقول؟ لقد كانت مأساة مروعة، ولكنها حتمية أيضاً. لهذا السبب أرسلها والدي إلى هناك في المقام الأول. لم يكن يعرف ماذا يفعل غير ذلك. لقد كانت خارج السيطرة، وحالها تتدهور أكثر فأكثر. ولم يكن الأمر سوى مسألة وقت».

استمعتُ إليها وهي تبرر ما جرى وتسوِّغه، وتحملُ أمنا المسؤولية. أدركتُ أنها برّاته بالفعل. «لا يهملك الأمر، أليس كذلك؟ سواء أرتكب ما يقولون أم لم يرتكب. لا يهملك».

- «كرمى لله! أسمعين ما تقولين؟ كلامك غاية في السخف»، احتدّت نظراتها وراحت تقيّمني بعينين جامدتين. «وفي حال

كانت لديك أي أفكار مجنونة، ستكون فكرة سيئة جداً أن تكرر كلمة واحدة منها على مسامع أي شخص آخر». لا مجال لتقويت مغزى كلامها. غمرتني موجة اشمئزاز ونفور لإدراكي كم أنها تشبهه تماماً، ولمحاولتها دفعي إلى التراجع بتلميحات تهديد مبطن.

- «أنا التالية إذن؟ قطعة شطرنج أخرى يجب التخلص منها؟ من يدري؟ ربما سأعرض لحادث أنا الأخرى».
- رمقتني بنظرات قاسية كأنها تتعامل مع طفلة عنيدة: «كنت لأحذر لو كنت مكانك». قالت وهي تجمع كومة الرسائل من على المنضدة وتضعها تحت ذراعها مشيرة أن المحادثة قد انتهت.
- «وتجنّبي الأفكار المتهورة. مسألة تيدي حُسمت وستتزوجين به كما هو مخطط. وإلى أن يحدث ذلك، ستبقين قريبة من المنزل».
- «لا يمكنك تهبيبي لأتزوج بـرجل لا أريده».
- «بالطبع يمكننا ذلك. وأنتِ تتظرين إلى الدليل أمامك. هل تعتقدين أنني أردتُ الزواج بجورج وإنجاب هؤلاء الأطفال كلهم؟ هل ظننت أن منتهى طموحي كان أن أصبح زوجة أحدهم؟ ولكن ها أنا ذي، أرقص على أنغام الآخرين من أجل مصلحة العائلة. وسرعان ما سيأتي دورك».
- رفعت رأسي وقلت دون أن أرمش: «وماذا إن كانت لديّ خطط أخرى؟».

حدقت إليّ سيسي بثبات يثير الغضب، ك لاعبة ماهرة تعلم أنها تحمل الورقة الراجعة: «هذه الخطط الخاصة بك، هل تشتمل بأي حال من الأحوال على صحفي بعينه؟ صحفي لديه شقة صغيرة

قذرة في شارع 37». ابترست مُشبعةً بالرضا عن نفسها عندما رأت صدمتي: «هل كنتِ تعتقدين حقاً أنني لن أكتشف الأمر؟ أنتِ لستِ ذكيةً كما تظنين».

حولتُ نظري بعيداً وشعرت بالحرارة تسري في وجنتي. تفرست عيناها في وجهي وهي تواصل حديثها: «أنا أعلم كم مرة تخرجين بالسيارة، وإلى أين تذهبين، وكم تظلين خارج المنزل. أنا أعلم بشأن البقالة والشراب وما أشبهه في أنه عشاء دافئ جداً. أنا أعلم كل شيء».

- «أكنتِ تراقبينني؟»

- «شككتُ في أمركما منذ المرة الأولى التي جاء فيها. رأيته تراقبينه ورأيتَه يراقبكِ كهزتين جائعتين. لم يهم الأمر حينها، ما دمتِ لم تفسدي الصفقة مع يدي. كما أنّ وجود صديق يعمل في مجال الصحافة يمكن أن يكون مفيداً جداً». توقفتُ لحظة مطلقاً ابتسامة وحشية: «أنبأني حدسي أنه بارع جداً. ربما يفتقر إلى اللباقة قليلاً ولكن هذا ما يمكن أن يكون ميزة إضافية. يقولون إن من الممتع خوض تجارب حميمة مع الرعاع بين الحين والآخر. هل هذا صحيح؟».

تردد صدى صفعتي على خدها في أرجاء المكتب قبل أن أتمكن من كبح جماحي. تراجعست سيسي إلى الخلف، لكنّ ابتسامتها تلك ظلت معلقةً على شفيتها. شعرتُ برضا عارم وأنا أرى علامات يدي على وجهها.

- «حسناً»، قالت بإيماءة باردة. «هذا ما ظننته».

- «أفترض أن والدي يعلم إذن».

- «لا. ليس مني على الأقل. لأنني قررتُ أنك ما دمتِ تتحلين بالسرية، فلن أتدخل. لكنني ظننت أنك ستكونين قد أنهيت علاقتك به الآن. بدلاً من ذلك، ها أنتِ ذي تقفين هنا، جاهزة للتخلي عن تيدي المسكين من أجل صبي الجرائد».
- «هيمي يساوي عشرة من تيدي».
- «يا إلهي... لقد وقعت في غرامه بالفعل! صحفي قذرٌ وضع يلفق قصصاً مشينةً عن عائلتك مقابل المال. ورجاء لا تتظاهري بأن ما عرفته لم يأت منه. تتحدثين كطالبة مدرسة حساسة. حسناً، أعترف أنه اختار فريسته بحكمة». لسعني كل حرفٍ من كلماتها. ربما لأنها قاربت الحقيقة. لقد اخترت بحكمة فعلاً. مع ذلك، أجد نفسي مضطرةً إلى الدفاع عنك، ويمنعني كبريائي من الاعتراف بأنها على حق. أخذتني الحيرة وأنا واقفةٌ أمامها؛ أود تبرير ما فعلت أو تبرير دوافعك على الأقل، لكن بَمَ أختلف حينها عن أختي إذا كنتُ على استعدادٍ لفضّ الطرف عن الخيانة لمجرد أنني لا أستطيع احتمال الحقيقة؟ مع ذلك، لا يمكنني السماح لها بهذا الانتصار التافه.
- أجبتها بثبات: «أنتِ مخطئة بشأنه، ولقد كنت مخطئة منذ البداية. لم يكن ليميل إلى صفك قط. ظننت أنك تستطيعين شراءه، واستخدامه لخلق رواية بطولية عن نفسك، لكنه لم يكن ليقدم على ذلك على الإطلاق. إنه لا يُشترى».
- «لا يُشترى؟»، قالت مطلقةً ضحكةً ساخرة. «أيتها المسكينة. لم تتوقعي ما يريده منك صحيح؟ أنتِ وريثة ثرية مخطوبة لأحد أكثر الرجال أهلية في الولاية. ومع ذلك، حاول التقرب

منكِ. أغواكِ بوجهه الوسيم ولهجته الأنيقة. ثم بعد أن أوقعكِ في شباكه، بدأ باستخراج المعلومات منك واحدةً تلو الأخرى. أراد معرفة كل شيء عنكِ، كيف نشأت، وما شعوركِ وأنتِ ابنة رجل مهم كهذا. لقد جهز عشَّ حبٍّ صغيراً حتى تكونا بمفردكما، بعيداً عن العالم الكبير الشرير لتلعبا لعبة الحياة الزوجية معاً. ذلك كله بعد أن تمكن من دعوة نفسه إلى هذا المنزل واختراقه دائرة والدي الداخلية. ألم يخطر على بالك مرةً أن تسألي نفسك عما يأمل تحقيقه من هذا الحب كله؟ أو ماذا سيحدث بمجرد حصوله على ما يريد؟».

بدا كل شيء واضحاً عندما ربطت سيسي الأحداث هكذا، فقد رتبت ونظمت كل شيء ببراعة. وهذا ما جرى فعلاً منذ تلك الدعوة الأولى إلى العشاء والمشادة التي تلتها بيننا. كنت تؤدي دوركِ ببراعة تلك الليلة؛ تبسم وتومئ برأسكِ وأختي تستعرضكِ في أرجاء المكان، وتعرفكِ إلى أشخاص ما كنتِ لتلتقي بهم لو لم أدعُكِ. لم يكن أي من هذا جديداً فقد اعترفتَ به كله اليوم، لكن معرفة أنها تعرف أيضاً، وإدراك مدى حماقتي، جعل الموقف أكثر مرارة.

غطت عينيّ غشاوةً من الدمع. حاولتُ طردها بالرمش المتكرر لكن سيسي لاحظتها فقالت وقد ضاقت ذرعاً: «أيتها الغبية الساذجة، لا يملك هذا الرجل فلسين في جيبه، وكنتِ على استعداد للتخلي عن حياتكِ كلها من أجله لتعيشي على... الحب على ما أفترض. وفي الوقت نفسه، ماذا قدمتِ له أنتِ؟»، جالت بنظرها على جسدي ببطء وإدراك. «أراهن أنكِ أعطيتِه شيئاً لا يمكنكِ استعادته».

- «لم أعطه فلساً واحداً».

تجاوزتني دون أن تكلف نفسها عناء النظر إليّ وقالت: «لم أكن أتحدث عن المال».



ساعاتٌ مرت والحيرة تلازمني بشأن ما سيحدث لاحقاً. شرعتُ أكتب رسالة، بل رسالتين في الواقع، رغم أنني لستُ متأكدةً من امتلاكي القوة لإنهاء أيّ منهما. لا أستطيع الكفّ عن البكاء، لكن عليّ اتخاذ قرار. عشتُ صراعاً مع الكلمات، مع الخيار المستحيل بين قلبي وعقلي. ولكن كيف لي أن أختار؟ أشعر بأنني قد أُلقيتُ في عرض البحر ولا سبيل إلى العودة إليك. لا سبيل إلى العودة إلى أيّ شيء. ولكن عليّ الاختيار، وبسرعة.

لكن كيف يمكنني أن أوصل الرسالتين بعد كتابتهما؟ ربما يُمكنني الاتصال هاتفياً بدلاً من ذلك. إذ يبدو التكتّم بلا معنى الآن بعد أن انكشف سرنا. لكن الحقيقة أنني أكتب كل شيء على الورق لأنني أعلم أنني لن أكون شجاعةً بما يكفي لأقول ما يجب قوله، ليس بعد أن أسمع صوتك. ومع ذلك، يجب أن أقوله، أليس كذلك؟
الوداع.

كلام سيّسي لم يجانب الصواب، فقد كنت ساذجةً في أمور كثيرة. عشتُ وهماً جميلاً خيّل إليّ فيه أنني أميرة القصر التي تغادر مع الفقير الوسيم نحو حياةٍ ورديةٍ وبعيداً عن أعين الملك الشرير. لكن الحياة لا تسير على هذا النحو، فوراء مظهر الفقير يكمن شخصٌ آخر، والملك هو الأقوى في النهاية. لا توجد حياة وردية والأميرة مغفلة.

كنت منكبةً على أوراقِي عندما دخلت سيسي الغرفة دون أن تطرق الباب. أجفنتي دخولها وأغضبني شعورها باستحقاق دخول غرفتي دون استئذان. كما أنني لا أريد أن تراني على هذه الحال. جلستُ متصلِّبةً وهي تدخل غرفتي بخفة. ألقِ نظرةً خاطفةً من فوق كتفي على الورقة الزرقاء أمامي.

- «تكتبين رسالة؟»

سألتني بلهجةٍ عادية وكأننا لم نخضْ للتوّ جدالاً عنيفاً. طويت الورقة ووضعتُ يديّ فوقها: «بل قصيدة. قصيدة أعكف على كتابتها منذ أسابيع»، كذبتُ قائلة.

- «لم أكن أعلم أنكِ تكتبين مجدداً»، حاولت أن تبتسم، ثم تخلت عن محاولتها عندما أدركت أنني لستُ في مزاجٍ يناسب الابتسامات. «هل يمكنني أن أراها؟».

- «لم تهتمّي بالشعر يوماً، خاصة الشعر الذي أكتبه. بل أتذكر كيف هرعتِ إلى والدي ذات مرة بدفتر ملاحظاتِي وأوقعتي في مشكلةٍ كبيرة».

تهتدت بسأمِ قائلة: «هل سنستعرض سجل خطاياي كاملاً الآن؟».

- «إذا أردتِ».

نهضتُ وابتعدت عن المكتب، مستعدة لخوض معركةٍ أخرى. لكن بدلاً من ذلك، فاجأتني سيسي عندما أخرجت منديلاً نظيفاً مكوياً من جيبها وأعطتني إياه. أخذته بحذرٍ ومسحت به عينيّ الدامعتين.

توجهت صوب سريرى وجلست عليه بثاقلٍ وقالت: «ما كان ينبغي أن نتشاجر».

لزمْتُ الصمت غير رغبةٍ في الأخذ والرد مع حمامة السلام.

- «حسناً، أنا آسفة على الكلمات التي تفوّهتُ بها قبلاً. لم أكن أدرك مدى جدية علاقتكما، وقد فاجأني رد فعلك. لطالما كنتِ الأخت الصغيرة، وعندما أراكِ تخطينَ باتجاه المتاعب، أشعر بالحاجة إلى حمايتك».

لم أصدق ما سمعته أذناي: «عفواً؟ منذ متى تحمينني أصلاً؟».

أطرقت سيسي رأسها وتابعت القول: «أعلم أننا لم نكن مقرّبتين، لكن هذا لا يعني أنني لا أهتم لأمركِ. نحن عائلةٌ في النهاية».

تقرستُ في وجهها، وفي عينيها الواسعتين الوادعتين وفمها الخجول، وتساءلتُ من هذه الغريبة الجالسة على سريرى؟ ليست ممن عرفتَهنَّ قبلاً بالتأكيد. بدت متعبةً ومهزوزةً حتى. جلستُ إلى جوارها صامتةً جامدة.

تابعتُ بهدوء: «ترين أنني قاسية. وأظن أنني كذلك بالفعل. بدافع الحاجة أحياناً، وبدافع العادة في أحيان أخرى. لقد حملت مسؤوليات كثيرة منذ... منذ وفاة والدتي. وكان هناك دائماً فارق السن الكبير بيننا. لم أعرف قطّ كيف أتعامل معكِ. كيف أتجاوز الخط الفاصل بين الأم والأخت. لكنكِ كبرت الآن وأصبحت امرأة لا طفلة. يجب أن نكون صديقتين».

نظرت إلى منديلها الذي كان مكوياً منذ لحظات والذي تحول إلى كرةٍ رطبة الآن. بالكاد كنّا أختين، فكيف أصبح صديقتين الآن؟! الثقة عمود الصداقة، وأنا لا أثق بأي أحد بعد الآن.

قرّيت وجهها من وجهي، ومنحتني ابتسامةً مرتجفةً: «أظنّين أن بوسعنا أن نكون صديقتين؟ أن ننسى تلك القسوة كلها؟»، مدت يدها صوب يدي وراحت تلامس أصابعي برفق. «أرجوك؟». تلك اللحظة العاطفية غير المتوقعة والغريبة تماماً، جلبت معها موجة جديدة من الدموع. حاولت منعها لكن عبثاً. استندتُ إليها وأجهشتُ بالبكاء.

تمتت بكلماتٍ حانيةٍ وهي تطبطب على ظهري: «لا بأس يا حبيبتي المسكينة. لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء»، استندتُ إليها كطفلةٍ تتألم بعد سقوطٍ حاد. رحت أبكي وأنا أرتجف وأتمسك بها، مستميتةٌ لأجد شيئاً ما يمكنني التعلق به بقوة. فجأة، شعرتُ بالتعب الشديد.

قالت بصوتٍ ناعمٍ أشبه بصوت الأم: «إننا شخصيتان مختلفتان لدينا أدوارٌ مختلفةٌ نؤديها. لكننا عائلة، وسنظلّ كذلك دوماً. قد أكون أهملتكِ وأبعدتكِ عني. لكن السبب أنني لم أعرف كيف أعتني بكِ على الوجه الصحيح. كنتِ مختلفةً عني كثيراً عندما كنتِ طفلة، وتشبهين... هيلين كثيراً».

ارتجف صوتها وكأنّ مجرد ذكر اسم أمي يسبب لها الألم. «لم نكن أنا وهي مقرّبتين كما كنتما. لطالما كنتِ المفضلة لديها. وأظن أنني كنت أغار منك، ثمّ مرضت ولم يبق سوى والدي. كنت مستميتةٌ لأنال رضاه. قلت وفعلت كلّ ما أرادته مني، لكنني آذيتك وسط ذلك كله. هل يمكنك أن تغفري لي؟».

لطالما هفوتُ شوقاً إلى حب أختي. وعندما غابتُ أمي وتركتني وحيدةً في هذا المنزل البارد الضخم، تاقّت نفسي إلى

ذلك اللطف الذي تُقدِّمه لي الآن. لكن بعد كلِّ ما علَّمته اليوم، كيف لي أن أفكر حتى في مسامحتها؟ مع ذلك، ثمة رغبةٌ خفيةٌ تحرك مشاعري، إغراءٌ يدفعني إلى فكِّ قيودي واستقبال ما تُقدِّمه. ولكنني منهكةٌ جداً ولا أحتمل التفكير الآن. فارغةٌ جداً، ومحطمةٌ جداً.

وضعت يدها برفقٍ على يدي وكأنَّ قراراً ما قد اتُّخذ: «أنتِ الآن في حيرةٍ وألمٍ كبيرين. تعتقدين أنكِ لا تستطيعين العيش دون هذا الرجل، وأنَّه ليلكِ ونهاركِ وعالمكِ بأسره. لكن الحقيقة هي أنكِ بالكاد تعرفينه. كلُّ ما تعلمينه هو ما أخبركِ إيَّاه وما يريدكِ أن تصدِّقيه. لكن الرجل الذي يحاول أن يؤلِّبكِ على عائلتكِ لن يُسعدكِ أبداً. إنه لا يفهم طريقة حياتنا. أنتِ تستحقين رجلاً يهتمُّ بالأشياء التي تهَمُّكِ، ويستطيع أن يمنحكِ نوع الحياة الذي اعتدته. وكذلك أطفالكِ. من الضروري أن تفكري في أطفالكِ، وفي نوع العالم الذي سيتعرعون فيه».

اكتفيت بالإيماءِ دون أن أستوعب كلماتها حقَّ الاستيعاب. أرغبُ فقط في أن أكون وحدي، لأستوعب كلَّ ما حدث، كلَّ ما قيل لي وكلَّ ما خَفي عني. تسللت نظراتي إلى الورقة الزرقاء الصغيرة التي بالكاد تظهر تحتَ دفترتي، الرسالة التي كتبتُ نصفها تنتظرُ إكمالها. تذكرتُ ملامح وجهكِ عندما دخلتِ وأدركتُ أنني وجدتُ ملاحظاتكِ. ملامح الذنب والهلع، ومحاولة تبرير نفسك على عجل. سألتني وأنا أغادر هل سأكون موجودةً غداً. لم أجبُ لأنني لم أكن أعلم. وما زلتُ لا أعلم.

- «شكراً لك»، قلت وأنا أعيد منديل سيسي إليها. «أودُّ لو أكون وحدي بعض الوقت. رأسي يؤلمني جداً».
- «بالطبع. استلقي الآن وأغمضي عينيك. لكن أحضري أولاً قطعة قماشٍ مبللةٍ لتسكين جفونك المتعبة. أو تناولي مسحوق الأعشاب المسكّنة. أو يمكننا أن نرسل أحداً إلى الصيدلية لإحضار شيءٍ أقوى، شيء يساعذك على النوم. وسترين كيف سيبدو كل شيءٍ أفضل بعد قسطٍ من الراحة. اذهبي الآن. سأرتب أغظيتك وأنت تحضرين قطعة القماش».
- تناولتُ المسحوق في الحمام على جرعتين وكدت أتقيأ الأخيرة. وقفتُ أمام المغسلة تفشاني الحيرة من شكل انعكاسي في المرآة. حدقتُ إليّ أُمي لحظةً من خلال انعكاسي، بعينين خامدتين محمّرتين وشعرٍ داكنٍ أشعث، ووجنتين شاحبتين حفرت فيهما الدموع مساراتٍ لها. المظهر ذاته الذي رأيته عليه آخر مرة.
- غسلت ما تبقى من مساحيق التجميل على وجهي وعدتُ حاملةً المنشفة إلى السرير. دُهِشتُ لرؤية سيسي تتحرك في الغرفة وتردّ غطاء السرير وتجمع المناديل المكومة.
- «ها نحن ذا»، قالت بابتسامةٍ متسامحة. «هذا أفضل. ولكن عديني أن لا مزيد من الشعر اليوم. أيتها المسكينة، تبدين في حال سيئة جداً. حاولي أن ترتاحي إن استطعت. سأرسل لك الشاي بعد قليل، وسنتحدثُ مجدداً عندما تشعرين بتحسّن». انتظرت حتى خرجت وأقفلت الباب خلفها، ثمّ عدتُ إلى مكتبي ورسائلي غير المكتملة.

ندم على بيل

(الصفحات من 87 إلى 92)

6 ديسمبر 1952

لندن، إنجلترا.

أحد عشر عاماً مضى، ولا تزال خيوط الذكرى تتسج لوحة ذلك اليوم أمام عينيّ. جرح لم يبرأ وندبة لم تختف. ذلك اليوم الذي اختفيت فيه من حياتي. هل أشاركك حكاية ذلك اليوم؟ وكيف شعرت حينها؟ أجل سأفعل. لأنّ ذاكرتي لا ينبغي أن تكون السجل الوحيد لتلك اللحظات المؤلمة.

اخترقت أشعة الشمس ستائر الغرفة في موعدها المعتاد. نهضت من سريري وأنا لا أزال أرتدي ملابسني. لقد سهرت طوال الليل أنتظر رنين الهاتف. وأصغيت بانتباه إلى أيّ حفيف عند الباب، عسى أن يكون صوت مفتاحك في القفل. لكنّ لا رنين ولا حفيف. رحت أقنع نفسي بأنّ هذا يُعدّ فألاً حسناً. فلو لأنك لا تخططين للحاق بي في المحطة، لكنتِ على الأقلّ قد تحلّيت باللياقة لتتصلي وتخبريني، دون أن تتركيني أقف وحيداً على رصيف المحطة.

وصلتُ إلى محطة بنسلفانيا قبل ساعتين من موعد لقائنا. خبّأت تذكرتي السفر في جيبني، وحملتُ حقيبتين بيدٍ وآلة والدي الكاتبة باليد الأخرى. دخلتُ المحطة من البوابة السابعة، ماراً برواق المحلات الصغيرة الأنيقة التي تبيع القبعات والأوشحة والعطور، ومتّجهاً نحو مطعم الوجبات الخفيفة حيث اتفقنا على اللقاء.

ابتلعني صخب الصالة الرئيسة عندما دخلتها. مساحة هائلة تزينها شبكة معقدة من أقواس الحديد المطروق وألواح الزجاج البراقة المعلقة في الأعلى. تذكرني الساعات الضخمة المعلقة أن هناك انتظاراً طويلاً مزعجاً ينتظرني.

توجهت صوب قاعة الانتظار؛ حجرة كهفية ذات أعمدة حجرية وسقف عالٍ، وصفوف من مقاعد خشبية تبدو كأنها مقاعد في كنيسة. المكان هنا أقل ازدحاماً وأكثر هدوءاً. حلّ عليّ شعور بالسكينة أشبه بسكينة الأماكن المقدسة. ربما لأنني أتلو صلاة صامته منذ أن وطئت قدمي هذا المكان.

وجدتُ لنفسي مكاناً إلى جوار امرأة ترتدي قبعة غريبة من الريش، وتحمل عدداً من الحقائق يكفي للذهاب في رحلة بحرية. ألقت عليّ نظرة باردة، ثم أومأت برأسها. أومأت برأسي أنا أيضاً وتجهّزت لقضاء الساعة التالية. دققتُ النظر في بحر الوجوه وهي تتحرك بسرعة أمامي. لا يُحتمل أن يكون أيّ منها وجهك، فالوقت لا يزال باكراً، ولكنني أنظرُ على أي حال، على أمل ضئيل بأن تكوني أنتِ أيضاً قد وصلتِ باكراً.

كل امرأة ذات شعرٍ داكنٍ تعتمر قبعةً أنيقة وحذاءً ذا كعبٍ عالٍ ترسل دقات قلبي إلى عنان السماء. وقفتُ مرات عدة متأكداً أنني رأيتكِ بين الحشود، لكنني أعود وأجلس مجدداً على مقعدي، وأنا أشعر بامتعاض المرأة الجالسة إلى جانبي يزداد شيئاً فشيئاً. لكنني لم أهتم، فأنا منهك ومتوتر وأنظرُ إلى ساعتني كلّ ثلاث دقائق، أتوسّل عقاربها أن تتحرك بسرعة أكبر وتخلّصني من عذابي. حان الوقت أخيراً. عدتُ إلى مطعم الوجبات الخفيفة

حاملاً حقائبنا ووقفت بالقرب من الباب منتظراً.

بحلول الساعة الثالثة إلا ربعاً، عرفتُ أنك لن تأتي.

مع ذلك، نزلتُ الدرج متجهاً إلى رصيف انطلاقنا، تحسباً لتأخركِ وذهابكِ مباشرةً إلى القطار. وضعتُ الحقائب ورحتُ أذرع المكان جيئةً وذهاباً، بعنقٍ مشربٍ بحثاً عن وميضك وسط زحمة المسافرين.

تمام الثالثة وأربع دقائق عصراً، غادر القطار الرصيف. وقفت أتأمله وأحدق إلى كل نافذةٍ وهو يمضي، على أمل حدوث نوعٍ من اللبسٍ حول مكان لقائنا. ثم تذكرتُ أن تذكرتي السفر في جيب سترتي، وأدركتُ أن القطار سيصل شيكاغو صباح غدٍ بعربة نوم فارغة.

كان حرياً بي أن أرى النذر منذ البداية. تلك الأعذار الواهية والمماطلة. لكنني أقنعتُ نفسي بأننا تجاوزنا ذلك كله. حتى أنني كرهتُ نفسي على شكوكي، على التفكير في أنكِ تبحثين عن مبررٍ للعودة إلى عائلتك وخطيبك السخيف. ولكن في النهاية، قدّمتُ لكِ بنفسِي ما كنتِ تبحثين عنه بالضبط. مع ذلك، كان بإمكانك أن توفري عليّ مشقةً المجيء إلى المحطة.



أخذتني حالةٌ من الخدر والذهول عندما عدتُ إلى شقتي. أدخلتُ المفتاح في القفل، وأنا أعلم قبل أن أخطو إلى الداخل أنني لن أجديكِ بانتظاري. رميتُ الحقائب وتكومت على الأريكة، لم أكلف نفسي عناء خلع القبعة والمعطف. ظللتُ على هذه الحال حتى رأيت شيئاً ينسلّ أسفل الباب.

استغرقتُ ثواني معدودة حتى أدركت ما أرى؛ ظرفٌ يحملُ اسمي مكتوباً بحبرٍ أسود. قفزتُ مسرعاً نحو الباب، وتعثّرتُ بحقيبتِي، وكدتُ أهوي خارجاً إلى الرواق.

- «بيل».

تردّد اسمك في الرواق الضيق. ولكن بدل أن أراك، رأيتُ فتىً نحيلاً يعتمر قبعةً ويرتدي معطفاً أخضر يهرع لينزل السلم. استدارَ نحوي بعينين واسعتين وتجمد مكانه. وجهه مألوف. لقد عرفته، إنه ابن أختك سيّسي، الفتى الهادئ ريتشارد الذي اعتدتِ مناداته «ديكي». فتحَ فمه، لكن لم يصدر عنه أيّ صوت.

- «أين خالتك؟»، سألتَه بهدوء بقدر ما استطعت. «هل هي معك؟».

أغلق فمه وأوماً برأسه بالنفي.

- «أنت هنا وحدك؟».

أوماً بالإيجاب صامتاً أيضاً. راقبته وأنا أنحني لألتقط الظرف وسألتَه: «كيف وصلتَ إلى هنا؟».

- «على دراجتي. يجب أن أغادر الآن. ليس من المفترض أن أتحدث إليك».

- «هي من قالت ذلك؟».

اتسعت عيناه وقال بصوتٍ مهزوز: «تقتضي مهمتي أن أدس الرسالة تحت الباب وأعود على الفور».

- «هل تُبلغ خالتك بشيءٍ نيابةً عني؟».

هز رأسه رافضاً وقال: «ليس من المفترض أن أتحدّث إليك».

استدار بعدها وانطلق مسرعاً نحو السلاالم. حملتُ الرسالة إلى الأريكة، وأخرجتها من الظرف. ورقةٌ واحدة زرقاء أنيقة. حدّقتُ إلى الصفحة بخطّها الأنيق. كلماتٌ جميلة تهدف إلى تبرئتك، لكنّ لم تكوني مضطرةً إلى ذلك، لأنه لن يغير في الأمر شيئاً.

سمعتُ أشخاصاً يقولون إنهم في أشدّ لحظات حياتهم قتامةً، يشعرون بأنّ الأرض تبتلعهم. لطالما اعتقدتُ أنها مجرد مبالغة لغوية. عرفتُ الآن أنها حقيقة. تلك اللحظة على الرصيف، عندما تحرك القطار وتُركتُ واقفاً مع الحقائق، شعرتُ بأنّني أُلقيتُ في هاويةٍ لا قرار لها. كلّ أيامي التي تلت كانت سوداء فارغة. يستحيلُ نسيان لحظةٍ كهذه، فلا غفران. بالنسبة إلى علاقتنا، حُسم الأمر لحظةً مفادرةٍ قطار الثالثة عصر ذلك اليوم دوننا. كوّرتُ الورقة وأُلقيتُ بها بعيداً. توجهت صوب المطبخ لأخرج من سلة القمامة زجاجة الشراب التي أُلقيتها فيها قبل مغادرتي. سكبتُ كأساً وشربت نصفه دفعةً واحدة، مرحباً بنيرانه التي تشق طريقها نحو أحشائي، وبالوخز الخفيف الذي يصيبني لحظة وصوله معدتي.

بالكاد ملأت كأسي مجدداً عندما رنّ جرس الهاتف. رحت أحدّق إليه وقلبي يكاد ينفجر تحت ضلوعي. لا أتحمّل سماع صوتك مرة أخرى. ليس إذا كنت ستكررين الكلام ذاته في الرسالة. أو الأسوأ، أن تقولي إنك آسفة. فتركته يرنّ ويرنّ. لكن ما الذي غير رأيك. رفعت السماعة يحركني الفضول قائلاً: «هيمي».

- «لا أصدق أنك لم تتصل بي أيها اللعين».

لم تكن أنت، بل غولدي.

شعرت بصدري ينسحق تحت وطأة صوتها. إنها الضربة القاضية. حدثت نفسي أن أقفل الخط في وجهها، لكن يدي لم تطاوع رغبتني. فوقفت هناك ممسكاً بكأسي وأسمع زعيقها.

- «كنت متأكدة أنك ستعود زاحفاً عندما تدرك كم أنك مغفل. أن يتخلى صحفي عن تحقيق يحلم به كل صحفي محترف لهو فضيحة مدوية. ومن أجل من؟ من أجل إرضاء فتاة متأنفة؟ لم أظنك غيباً إلى هذا الحد، لكني أعتقد أنك كذلك. لذا، يبدو أن عليّ أن أكون الأقوى هنا. ولو كنت مكانك، لفكرت ملياً».

حروفها الساكنة ثقيلة ومتداخلة، تماماً كما تتحدث عندما تفرط في الشرب. ومع ذلك، تابعت حديثها.

- «سأمنحك فرصة أخيرة لتكون نجماً أيها القرد البريطاني. ليس لأنك تستحقها، ولكن لأثبت لك جدّيتي. سأسمح لك بتحديد ثمنك، بل سأدعك تكتب العناوين بنفسك. لكن هذا العرض محدودٌ بموعد نهائي. لديك أربع وعشرون ساعة لتتخذ قرارك وتعود إلى مكتبك، وإلا فسأجعل شخصاً آخر نجماً».

شربت بقية الشراب وضربت بالكأس الفارغة على الطاولة:

«لا أحتاج إلى أربع وعشرين ساعة».

إلى الأبد وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 70 إلى 76)

7 ديسمبر 1941

نيويورك.

تسلّلتُ خارج المنزل قبل موعد الفطور، لا أحمل شيئاً سوى حقيبة يدي. تسلّلتُ عبر الباب الخلفي، ثم سرتُ على طول الممر الخلفي المؤدي إلى المرأب. لم يكن بانكس قد وصل بعد، فوالدي مسافرٌ والمرأب هادئ. سحبتُ مفتاح السيارة من اللوحة المعلقة على الحائط، وقفزت خلف عجلة القيادة. كدتُ أدوخ من الفرع عندما هدر المحرّك. أتاني خيالك وأنت تتظرني في الطرف الآخر من المدينة، تذرع المكان جيئةً وذهاباً وأنت تراقب الساعة بفارغ الصبر مثلي لبدء حياتنا الجديدة.

ذهبت تذكركم القطار اللتان اشتريتهما أمس سدى. كم تمنيتُ لو اتخذتُ القرارَ قبلاً وغادرتُ في الوقت المناسب للحاق بذلك القطار. كنا الآن في شيكاغو، وربما في طريقنا إلى مكتب تسجيل الزواج. لكننا سنشتري تذكرتين جديدتين عندما نصل المحطة، ونلوح أخيراً بيد الوداع لنيويورك. صحيح أنه بعد يوم واحد ممّا خططنا له، لكن ما قيمة يوم واحد مقارنةً بحياةٍ بأكملها؟

قد يبدو تصرفي متهوراً؛ أن أمنحك ثقتي مجدداً بعد كلّ ما علمته. لكن بعد دموعي وصراعاتي كلها، أدركتُ أنني لا أحتمل فقدانك. ومع مراقبة سيسي اللصيقة تحركاتي، لم أستطع الاعتماد على الهاتف. لذلك أعطيت ابنها ديكي دولاراً ليُوصل

رسالتى إليك وهو في طريقه إلى الصيدلية. عندما جعلته يقسم على السرية، رمقني بنظرة متردة، لذلك لم أكن متأكدة تماماً أنه سينفذ المهمة. ولكن في وقت لاحق، طرق بابي وأخبرني أن المهمة أنجزت. بالكاد استطاع أن ينظر إلى عيني. المسكين لم يُخلق للمكائد والدسائس.

لم أترك لسياسي رسالة. ستعرف قريباً أين ذهبت على أي حال. وإلى حينها، أكون قد أفلتت من الشبكة إلى الأبد، ولن تطأ قدمي منزل والدي مرة أخرى. أبقىْتُ عيني على مرآة الرؤية الخلفية وأنا أقود السيارة، مستذكراً اعتراف سياسي الفخور بأنها كانت تراقب تحركاتي. لا يمكنني أن أتحمّل حدوث خطب ما الآن. اضطررتُ إلى ركن السيارة على بعد مبنى ونصف من بنايتك. صعدتُ مجموعة الدرجات الضيقة إلى الطابق الثاني. وشعرت بدوار خفيف عندما وصلت. توقعت أن أجداك تحوم في الرواق، لكنك لم تكن هناك. ازدادت دهشتي أكثر عندما أدركتُ المقبض ووجدت الباب مغلقاً. أخرجتُ مفتاحي ودخلت بنفسي، وكدتُ أتعثر بحقيبتى الموضوعة إلى جانب الباب مباشرةً.

تجولت في الغرف بهدوءٍ تحول إلى هلع وأنا أبحث عنك وعن حقيبتك. كانت خزانة غرفة النوم فارغةً والسرير لا يزال مرتباً. كذلك الحمام كان فارغاً من أغراضك كلها. أقنعت نفسي أنه أمرٌ طبيعي وأنا أحاول كبح شعورٍ متزايد بالقلق. فتحنا مسافرين وقد وضبت كل شيء ولهذا يبدو المكان فارغاً وهادئاً هدوءاً مقلقاً.

بحثت عن رسالةٍ لعلك تركتها لكنني لم أجد شيئاً. لم أجد سوى زجاجة شراب فارغة في المغسلة. اختفى كل أثر لك. بدأت أشعر

بالغرفة تدور وتترنح، فأغمضت عينيّ حتى يتلاشى هذا الدوار. وعندما فتحتهما مجدداً، لمحتُ ظرفاً أزرق ملقئ على الأرض قرب الأريكة واسمك مكتوب عليه. كان الظرف مفتوحاً وفارغاً.

كنت أصدق إلى الظرف عندما ظهر رجلٌ يرتدي قميصاً مجمداً متسخاً: «ماذا تفعلين هنا؟».

- «أبحث عن الرجل الذي يعيش هنا».

- «لا أحد يعيش هنا»، قال متضايقاً. «غادر المستأجر العش ليلة أمس».

قلت وقد أخذتني الصدمة والذهول: «غادر العش؟».

- «أجل يا سيدتي. طرق بابي عند موعد العشاء ليخبرني أنه يخلي المكان وأنه سيفادر لتغطية أخبار الحرب. لم أكن أعلم أنه لا يزال بإمكان المرء الذهاب إلى هناك، ولكن ربّما لديه معارف، فلدى هذا النوع من الأشخاص معارف كثيرون».

فجأة، لم يعد هناك ما يكفي من الهواء في الغرفة، وشعرت بأنني أوشك أن أسقط أرضاً. استندتُ إلى ذراع الأريكة بالكاد أستوعب تعابير وجه صاحب المكان المذعورة.

- «هل أنت مريضة؟»، تفحصني بعينيه الضيقتين من أعلى إلى أسفل. «الآن تذكرتك. كنت تأتين في أوقات غريبة ولا تمكثين طويلاً».

زحف الاحمرار إلى وجنتي مع تغير تعابير وجه الرجل. فكرتُ في الإنكار والقول إن الأمر اشتبه عليه، لكن ما أهمية ذلك الآن؟ استقممتُ في وقفتي وسوّيت شعري وسألته: «هل ترك عنوان بريد جديد؟».

- «لم يترك شيئاً»، قال وقد أطبق شفثيه وكأنه أدرك الموقف الآن. «لقد تركك وحيدة أليس كذلك؟».
- أشحتُ بنظري بعيداً وأجبت: «يبدو الأمر كذلك، أجل».
- «خيبة أمل كبيرة لا شك. لكن قد يكون ذلك في مصلحتك، فأني رجل يتركك ليلهو في الحرب، مجنون حقاً».
- حدثت إليه والكلمات تحتشد في حلقي عاجزاً عن الخروج.
- «إن كنتِ تبحثين عن شقةٍ يا حلوة، فهذه الشقة متاحة. يمكنني أن أعرض عليك صفقة جيدة لأن حبيبك دفع إيجار الشهر مقدماً».
- فكرةٌ رغبتني في العيش في هذه الشقة سخيفة جداً، لكنني فطنتُ فجأةً بأنني لا أملك أيَّ خطةٍ بديلة. لم يخطر على بالي قط أنك لن تكون هنا، وأن حساباتي كانت خاطئة تماماً. كما أن فكرة العودة إلى منزل والدي، وإلى ابتسامة أختي الشامتة، تفوق قدرتي على التحمّل.
- «هل أنتِ بخير؟ تبدين بحالٍ غير جيدة».
- أومأت برأسي وتوجهت صوب الباب.
- خطا نحوي وكأنه يسدّ طريقي، ثم أشار إلى الحقيبة الملقاة كيفما اتفق إلى جانب الباب وسألني: «أهذه لك؟».
- ألقيتُ نظرةً خاطفةً على الحقيبة، متذكّرةً الأسابيع التي قضيتها في ملئها بعناية. كنت تسميها مازحاً جهاز العروس.
- «أجل إنها لي؟».
- «ألن تأخذها معك؟».
- «لا».

نزلت الدرجَ بصعوبةٍ وتمكنت من العودة إلى السيارة قبل أن
أنهار. أسندتُ رأسي إلى عجلة القيادة الجليدية، وضجيج المرور
والازدحام مكتومٌ خلف نوافذ السيارة. وأخيراً، انفجرتُ بالبكاء.
كيف تستطيع فعل ذلك يا هيمي؟ بعد كل ما مررنا به كيف
تستطيع أن تفعل ذلك وأنت تعلم أنني قادمة؟

بالكاد أستطيع تذكرَ رحلة العودة إلى منزل والدي أو ترك
السيارة في المرأب. كانت سيّسي واقفةً في الرواق الداخلي
ومنهمكةً في ترتيب مزهرية الورود عندما دخلت. راحت تتأمل
وجهي ملياً. كانت عيناها منتفختين وجافتين وكأنني قضيتُ مدة
ما بعد الظهر في غرفةٍ مكتظة بالدخان.

توقعتُ أن تهاجمني سيّسي بأسئلتها عن مكان ذهابي أو من
رأيت، لكنّها واصلت ترتيب زهورها دون أن تلتفت إليّ. شعرتُ
براحةٍ غامرة إلى درجة أنني كدتُ أبكي. لم أكن أرغب في خوض
نقاشٍ آخر معها في هذه اللحظة. اتجهتُ نحو الدرج وصعدتُ
خائفة القوى حتى وصلتُ إلى غرفتي. غمرني إرهاقٌ شديد وكان
آخر قطرةٍ من طاقتي استنزفت تماماً.

وصلت أخيراً إلى غرفتي وانزويت على نفسي خلف بابها
المقفول. غسلتُ وجهي وتناولت حبوباً منومة من تلك التي
أحضرتها ديكى من الصيدلية. ارتيمتُ على السرير لا أشتي
سوى النسيان التام. غداً سأفكر فيما يجب فعله. غداً سأضع
الخطط.



لا أدري كم كانت الساعة ولا كم نمتُ حينَ سمعتُ سيّسي خارجَ غرفتي، تصيح وتضرب الباب بعنفٍ، وتحاول تحريك المقبض بعصبية.

- «افتحي الباب كرمي لله، شيءٌ ما حدث».

لا تزال غشاوة النعاس تَغشى بصري، لكنّ كلماتها اخترقت وعيي أخيراً. حدث شيءٌ ما. تداخلت السيناريوهات في رأسي وأنا أحوال النهوض. لعلكَ غيرتَ رأيك وعدتَ. ربما علمَ والدي بخططنا وقطع رحلته للتعاملِ معي. أو ربما يكونُ قد تعامل معكَ بالفعل. بعث هذا الاحتمال القشعريرة في جسدي. قفزت من سريري وأسرعتُ نحو الباب وفتحته.

اقتحمت سيّسي الغرفة بوجهٍ متجهّم وهي تلهث: «لقد قصف اليابانيون القاعدة البحرية في بيرل هاربور، وسيطروا على البث الإذاعي هناك ووضعوا مراسليهم في محطة البث. يمكنكِ سماع أصوات القنابل وهي تنفجر في الخلفية، أشياء تنفجّر. يبدو الأمر بالغ السوء».

احتاج دماغي إلى بعض الوقت لتغيير مجرى تفكيره، فالأمر لا يتعلق بك أو بأبي، بل باليابانيين. «كيف حدث ذلك؟».

- «هجومٌ غادرٌ كما يقولون. طائراتٌ أسقطت وسفنٌ احترقت. وحده الله يعلم عدد القتلى. يعتقدون أنّ مانيلا قُصفت أيضاً. سيحصل روزفلت على حربه الآن. ولعله يشرب الشمبانيا ونحن نتحدث».

حدقتُ إليها مصعوقة. أهذا ما تفكر فيه في هذه اللحظة العصبية؟ لا غضب على موت رجالٍ، ولا حزن على أرامل وأيتام.

- بل مجرد استياءٍ مبررٍ لأنَّ قضيةَ أبي الثمينه، هدية حياد الولايات المتحدة إلى هتلر، قد فُقدتْ على الأرجح.
- «هل تحدث الرئيس؟»
- «لا، ولكنّه سيتحدث لا محالة. هذا بالضبط ما كان يصلي من أجله».
- «تعتقدين أنَّ رئيس الولايات المتحدة كان يصلي لكي يهاجمونا ويُقتل مئات الأشخاص؟»
- «لا يزال فهمك قاصراً. من يحبك الخيوط؟ ولماذا؟ لم يكن هذا هجوماً عشوائياً. لقد حيكَتْ خيوطُهُ ببراعة ليجرونا إلى حربهم. يريد اليهود والشيوعيون منا أن نستزف أموالنا ومواردنا لخوضِ حربهم بدلاً منهم. لماذا يجب علينا ذلك؟ فليشكلوا جيوشهم ويدافعوا عن أنفسهم».
- نزلت عليّ كلمات سيسي كالصاعقة. «الناس الذين يتحدثون عنهم... كانت أمّنا واحدةً منهم. دُمّها... الدّمُ اليهوديّ... يجري في عروقي وعروقك. إنهم... نحنُ».
- «لا تتفوهي بهذا الكلام مرةً أخرى، لا في هذا المنزل ولا في أي مكان آخر».
- رمقتني بنظرات جليدية وهي تتحدث، نظرات أعادتني بالذاكرة إلى تلك الليلة التي انهارت فيها أمي. استعدتُ ذكرى تلك اللحظة على الدرج. ابتسامة سيسي الغريبة وكلماتها الغامضة التي لم أفهمها. "سنرى... الآن سنرى". تسللتُ بعدها إلى غرفة أمي وأزالت كلَّ أثرٍ لها بشكل مدروس.

- «هذا ما صنعه بك»، قلتُ وأنا أرى حقيقتها الآن واضحةً وضوح الشمس. «لقد غرس في قلبك السم ضدها، جرعة جرعة. ثم كافأك على ذلك. لقد علّمك أن تخجلي منها، أن تخجلي من نفسك. لأنك تشبهينها. كلتانا نشبهها».
- «أنا لا أشبهها»، صرخت سيسي. «أنا أمريكية. أمريكية حقيقية، وأبنائي كذلك. لدي واجبٌ أؤديه في حماية اسمنا وطريقة عيشنا، واجب أن أبقّيها نقيّة».
- رأيت أبي يحدّق إليّ من خلال عينيّ سيسي، بالقسوة ذاتها والكراهية ذاتها والتعالّي ذاته. رأيت ذلك كله متجسداً في أختي. «كان هيمي محقاً بشأنكما. لقد اكتشف حقيقتكما منذ البداية». ابتسمت وقالت بسخرية لاذعة: «صحيح، صبي الجرائد ذاك. بالحديث عنه، لماذا لستِ معه الآن تتناولين الغداء في شقته الصغيرة. أصبحت ابتسامتها أكثر قسوة حين قالت: «أم أنكِ أخطأت الحساب مجدداً؟».
- شعرتُ بكلماتها تلسع جلدي. أردتُ أن أنكر كلامها، لكن كيف لي أن أفعل ذلك وأنا التي كنت غافلةً تماماً عن كلّ شيء؟
- أمالت رأسها إلى الجانب قليلاً وارتدت قناع العبوس المصطنع: «مسيكة. هل اكتفى منك أخيراً؟ لو كنتِ مكانكِ، لعددتُ نفسي محظوظة لأنني تمكنتُ من الفرار دون أن يصيبني أذى يُذكر». رفعت حاجبيها لمزيد من السخرية وأضافت: «على افتراض أنك أنت من فرّ بالطبع».
- «اخرجي من هنا».

استدارت متجهةً صوب الباب ثم ألقت نظرةً خاطفةً نحوي:
«لستُ متأكدةً من موعد عودة أبي إلى المنزل، لكنه لن يتأخر
كثيراً على أي حال، وعلى الأرجح لن يكون في مزاج جيد عندما
يصل. لذا أنصحك بأن تفكري ملياً قبل أن تذكرني اسم هيلين أو
صبي الجرائد. أعدك حينها أن الأمر لن ينتهي على خير».

إلى الأبد وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 77 إلى 80)

10 ديسمبر 1941

نيويورك.

عشت أياماً ثلاثة بلون الكحل. ثلاثة أيام ذقت فيها عذابات أشد وطأة مما يمكن أن يتحمّله إنسان. لكنني كنت مخطئة، فالأسوأ لم يأت بعد.

هل أروي لك قصة عذابي؟ كيف شعرت؟ هذا ما سأفعله، لعلّ العدالة تتحقق.

بقيتُ أتجنّب أختي وألزم غرفتي كلما عرفتُ أنها في المنزل. ليس لديّ ما أقوله لها، لكنني أعرف أن في جعبتها وجعة والدي كثيراً مما سيقولانه لي عنك وعن تيدي وعن واجبي تجاه العائلة. في النهاية، يرتبط كل شيء لديهما بمفهوم الواجب. ليست لديهما فكرة عما قدمته وأنا التي جنبتهما فضيحةً مجلجلة.

أكره سيسى لأنها كانت محقةً بشأنك. وأكره نفسي لأنني وقعت ضحية خداعك بسهولة. أجد نفسي أعيد استرجاع كل لحظة قضيناها. كل كلمة وكل قبلة وكل لمسة، عسى أن أرى شيئاً كنت قد غفلتُ عنه. ربما كانت سيسى محقةً بالفعل في أنني نجوتُ من كارثة. قد يتطلّب مني تصديق كلامها أعواماً كثيرة، مئةً ربما، لكن شعوري الآن يختلف تماماً.

انتظرت وصول البريد كل يوم، على أمل أن يصل شيءٌ منك. رسالةٌ تخبرني عن مكانك، أو تطلب إليّ المجيء إليك. أو على

الأقل رسالة تفسر فيها لماذا فعلت ما فعلت. ولكن لم يصل شيء بالطبع، ولن يصل على الأرجح. جزءٌ مني يعلم ذلك يقيناً. لكن وصلت برقيةً من أبي. برقية حرصت سيسي على وضعها على مائدة الفطور هذا الصباح. يبدو أنّ الاجتماع المزمع عقده في بوسطن قد ألغي، ومع ذلك، يخطط والدي للبقاء هناك أسبوعاً آخر. فمنذ الهجوم على بيرل هاربور، أخذت حركة «أمريكا أولاً» العزيزة على قلب تشارلز لينديبيرغ بالتفكك، ويأمل والدي وأصدقاؤه الحفاظ عليها موحدة. أما السطر الأخير من البرقية فقد كان أمراً يقضي بمراقبتي إلى حين عودته إلى المنزل والتعامل معي بالطريقة المناسبة.

أختي تتلاعب بي وتهددني بعودته. لكنني لا أكثرث، فأنا أرفض أن أتعرض للترهيب أو البقاء في هذا المنزل المملوء بالكراهية والأسرار. سيحرمني بلا شك من الميراث، لكن لديّ بعض المال الخاص بي، من الصندوق الائتماني الذي تركته لي أمي عندما توفيت. ليس مبلغاً كبيراً وفقاً لمعايير والدي، لكنه يكفي لعيش حياة مريحة وفقاً لمعايير سائر الناس الآخرين.

أمرٌ رحيلي حُسم ولم يبق لي سوى تحديد الوجهة. كنت قد علقت آمالي كلها على كاليفورنيا، لكنّ ذلك حين كنا معاً. لا أظن أنني أستطيع تحمّل الذهاب إلى هناك الآن. يفترض بي أن أكرهك، بل إنني أكرهك حقاً. ولكن لا أستطيع منع نفسي من التساؤل عن مكانك الآن وماذا تفعل، وهل يزورك طيفي ولو لحظة عابرة. ليس لي أن أكثرث بشأنك، فأنت لا تستحق دموعي. لكنني أكثرث، وكنت تعرف ذلك حق المعرفة عندما غادرت.

اندلعت الحربُ بكلِّ ضراوتها. بدأت أمريكا باليابان الآن، لكنها مسألة وقت فقط قبل أن يعلن روزفلت الحربَ على ألمانيا أيضاً. فكرتُ فيك، وفي خطاباتك الملهبة حول مسؤوليتنا الأخلاقية للانضمام إلى الأوروبيين في قتالهم ضدَّ النازيين. كنتَ على حقٍ في كلِّ كلمةٍ قلتَها، لكن كلَّ ما أستطيع التفكير فيه هو أهوال الحرب هذه. الدماء والموت والبشاعة. وأنت... في مكانٍ ما تدوّن كلَّ شيءٍ من أجل التاريخ.

ألقي رحيلك ظلاله الكئيبة على روحي وغلّف أيامي بلون الحزن. أعيش أيامي خائرة القوى وبعينين أحرقهما السهر. عجزت عن استعادة توازني، والأيام تمضي بسرعة. يجب أن أضع خططتي، لكنني عاجزة عن التفكير. ليس ذلك ممكناً وهذه الجدران تضيق عليّ وتخنقني.

ألقيتُ عني رداء النوم ولبست أول قطعة ملابس أمسكت بها من الخزانة. حبستُ أنفاسي وتسللت خارج الغرفة متوقّعةً افتتاحٍ أمري في أي لحظة وإعادتي إلى غرفتي. لكنني لم أجد أثراً لسيسي وأنا أنزل الدرج.

في الخارج، لفحني هواءٌ باردٌ لاذع. توجهت إلى جادة بارك ورحت أسير لا ألوي على شيء، ولا مكان محدد أقصده سوى رغبتني في الابتعاد عن الأماكن التي قد يعرفني فيها أحدهم. آخرُ ما أبتغيه هو أن أصادفَ شخصاً أعرفه، فأضطرّ إلى رسم ابتسامةٍ مصطنعةٍ والثرثرة في أمور تافهة.

سرت بخطا سريعةٍ حاسرة الرأس حتى تجاوزتُ مباني عدة. تغير المشهد تدريجياً، فحلّت محلّ الأبنية الفخمة أبنية

من الحجر البني الداكن، ثم مساكن ضخمة من الطوب الأحمر تصطف في طوابقها السفلى محالّ تجارية صغيرة بنوافذ مُزَيَّنة استعداداً لأعياد الميلاد. هناك صيدلية ومحلّ لتصليح الأحذية ومتجر موسيقا يعرض في واجهته آلات كلارينيت وآلات كمان مستعملة. تفحصتُ وجوه المارة المقبلين نحوي، كلٌّ منهم منهمكٌ في شؤونه بحيث لا يلقي لي بالاً. شعرت بالراحة في أن أكون مجهولة، وأنا أتأمل الوجوه واحداً تلو الآخر دون خوف أن أعرف. ثم أدركت فجأةً ماذا أفعل. أنا أبحث عنك، عن وجهك، وكثفك، وخطواتك الواسعة. أبحث عنك في مكانٍ ما وسط نهر الوجوه البشرية هذا.

غمرتني موجةٌ من الأمل السخيف، السخيف إلى درجةٍ كادت تفيضُ معها عيناى بالدموع. كدتُ على وشك الاصطدام بامرأةٍ تحمل أكياساً عدة في يديها قبل أن أنتبه وأغير مساري. شيءٌ ما فيها بدا مألوفاً، فمها الصغير وأنفها الحادّ الذي يشبه منقار طائر. ليزا، تذكرتُ اسمها فجأةً. لا، ليزا خياطة تعمل في أحد متاجر الملابس التي دأبت على ارتيادها.

ابتعدتُ عن طريقها وانزويت خلف كشك صحفٍ قريب متظاهرةً بتصفح الجرائد والمجلات. ثم رأيته هناك. أطلت من الصفحة الأولى لجريدة ريفيو صورة قديمة باهتة من زفاف والديّ مرفقةً بعنوانٍ صارخ يقول: موتٌ غامضٌ في مصحة نفسية يثير التساؤلات من جديد.

خارت ركبتيّ وشعرت بأنني سأنقيا وسط الشارع. انتظرت حتى تلاشى هذا الشعور ثمّ مددتُ يدي وأخذت نسخة. سرت

القشعريرة في جسدي بأكمله والكلمات تتراقص وتتشوه أمام عيني وأنا أقرأ. لكن القصة مألوفة تماماً.

محاولات انتحار متعددة، وسكين لم يُكشف سرّها، وإيحاء خفيّ بأن ما صُنّف على أنه حادثٌ عرضي في السابق، قد لا يكون كذلك على الإطلاق. ثمّة مزيد على الصفحة الثانية. قائمةٌ طويلة بأسماء جماعاتٍ معاديةٍ للسامية ومؤيدةٍ للنازية يُزعمُ أن والدي ينتمي إليها، قائمةٌ أطول مما كنت أعلم، وأخيراً، إيحاءٌ خفيّ آخر بأنه ربّما لجأ إلى أساليب دنيئة لإخفاء أصول زوجته اليهودية. وفي أسفل الصفحة الثانية، صورتان إضافيتان: إحداهما لي والأخرى لسيسي، وقد كُتبَ اسم كلٍّ منّا تحتها. لم توفر أي شيء، ولا حتى أنا.

- «اشترىها أو أعيدتها يا سيدتي. هذه ليست مكتبة».

رفعت رأسي لأرى رجلاً جلدت الريح خديه، وقد غطّتهما لحية عمرها يومٌ واحد. أغلقتُ الصحيفة وألقيتها. كنت في حالٍ من الخدر الشديد إلى درجة أنني لم أشعر بالراحة أنه لم يعرفني. على الأقل ليس الآن. سيعرفني غداً لا محالة. سيعرفني الجميع لا محالة.

إلى الأبد وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 81 إلى 83)

18 ديسمبر 1941

نيويورك.

لن يكون هناك حفل زفاف في يونيو.

أعلن والدا تيدي النبأ رسمياً معبرين عن صدمتهما واستيائهما إزاء ما كشفته صحيفة ريفيو مؤخراً. ليس لدي أدنى شك في أنهما لن يضيّعاً وقتاً قبل الإسراع في ترتيب صفقة زواج أخرى. ففي النهاية، هناك وجوه يجب إنقاذ ماء وجهها، وما أفضل من طمس ذكرى خطوبة ابنتهما الفاشلة تلك - وإن كانت قصيرة الأمد - سوى تزويجه بعروس جديدة نقية من نسل صافٍ لا تشوبه شائبة على الإطلاق؟

لكن لن يُحفظ ماء وجهي أنا.

أنا المنبوذة التي أصبحت بلا قيمة على ضوء الفضيحة التي لوثت عائلتي، وهو أمر يبدو منصفاً فقط بالنظر إلى ذنوبي. أشعر بالراحة نوعاً ما لأنني لم أعد سلعةً ثمينة يتداولها أو يتاجر بها، لكن ذلك جعلني غير مرئية على نحو غريب. لم يُكلف والدي نفسه عناء التحدث إليّ منذ عودته من بوسطن. فهو مشغول الآن، يحاول إنقاذ مصالحه التجارية التي يبدو أنها في حالة سقوطٍ حرّ. أكاد أجزم أنّ اضطراره إلى الظهور العلني هو ما منعه من التصرف وفقاً لموجة غضبه الأولى، التي كانت على الأرجح ستقضي بإرسالني إلى أحد الأماكن الملعونة. تماماً كما فعل مع أمي.

وبهذه الطريقة، وقر لي كشفك القدر بعض الحماية.
استغرق الأمر أياماً عدة حتى تمكنت التفاصيل الأكثر إثارة
للشهوة من شق طريقها بين أخبار الحرب. وباتت الصحف
الأخرى تتناقل الخبر الآن أيضاً كما توقعت تماماً. يمكنني تخيل
مدى فخرك بنفسك الآن.

أعداء والدي يدقون أجراس الفرع ويرفعون كؤوس الشراب
احتفالاً بسقوطه. وهو يهدد برفع دعوى تشهير، لكن محاميه
حذره من أن المحاكمة لن تؤدي إلا إلى إطالة عمر القضية
وإجباره على الإجابة عن أسئلة محرجة علناً وتحت القسم.
كما يرون أن من الحكمة إنكار الاتهامات جملة وتفصيلاً وترك
القضية حتى تموت موتاً طبيعياً.

وإذا بنا جميعاً أسرى الفضيحة. هاتف المنزل لا يهدأ ليلاً
ولا نهاراً. وجعلت الصحافة من أمام منزلنا مكاناً للتخيم تترىص
بكل داخل وخارج، محولة إيانا جميعاً إلى أسرى افتراضيين.
لم يعد يهمني أي من هذا كله، لكنّ مشاعر سيّسي تتأرجح بين
الحزن والغضب العارم، إذ يختلق أصدقاؤها تباعاً الأعذار لإلغاء
الغداء وحفلات الشاي ولعب الورق. وتلك الدعوات المعتادة
لحفلات الأعياد لم تصل، وقد طُلبت منها الاستقالة من عدد من
نوادي السيدات التي تنتسب إليها.

أشعر بالأسف على أطفالها حقاً، فقد أُخرجوا من المدرسة
وسُلموا إلى مجموعة من المعلمين الخصوصيين الذين يأتون إلى
المنزل ثلاثة أيام في الأسبوع عبر مدخل المطبخ. يبدو أنني
تسببت في فوضى عارمة للجميع، حين سمحت لأفعى أن تتسلل
بين ظهرانينا.

مسكينٌ ديكى، إنه يتألم أكثر الجميع. يتجنب التقاء نظراتنا كلما صادفته على الدرج أو في الممر. أظن أنه يشعر بالاستياء لاضطراره إلى تسليم رسالتي تلك الليلة، ولأنه يرى أنه كان شريكاً غافلاً في انهيار عائلته. أودّ لو أشرح له أن لا صلة لما كتبه بما يحدث الآن، لأن الضرر كان قد وقع، ومن فعل يدك أنت يا هيمي. لكنّ سيسي تمنعني من التحدث إلى أيّ منهم. ليس بالأمر الجلل على كل حال، إذ لم يوليني أحدهم اهتماماً يوماً إلا ديكى. أنا نادمةٌ على خسارتي مشاعره حقاً. إنه صبيٌّ بريءٌ لطيف على عكسنا كلنا.

أما الآن، فسأنتظر الفرصة السانحة لأرتب شؤوني. عليّ أن أغرس نفسي في مكانٍ ما، وأمدّ جذوري في أعماقه، وأبني حياةً من نوعٍ ما. لست أدري كيف سيبدو شكل تلك الحياة، فلم أخطّط لشيءٍ أبعد من كونك إلى جانبي. لم أتخيل قط أنني سأضطّر إلى ذلك. إنه خطئي أنا.

أتساءل بين الحين والآخر إن كنت تفكر فيّ؟ هل ترى وجهي، وتسمع صوتي، وتشعرُ بلمستي حين تغمض عينيك؟ أم أنني أصبحت جزءاً من ماضيك الآن؟ مجرد ظلٍّ عابرٍ مرّ على دربك حتى صار غامضاً ومشوشاً؟

أتساءل: كم ستطول بي الحال حتى أتحرر من قيود ذكراك؟ وكيف سيكون شعوري حينئذٍ؟ لا أستطيع تخيل هذا الشعور حقاً. أنظرُ إلى أعماقي ولا أجدُك ساكناً في جنباتِ روحي، وكأن قطعةً مني بُترت.

لعلي من الأفضل أن أعدّ نفسي محظوظة، وأن أشعر بالامتنان
لأنّني كشفتُ حقيقتك قبل أن تتعقد الأمور أكثر. ولكن لا، لا أعتقد
أنني سأتركك تنجو بسهولةٍ هكذا.

ندمٌ على بيل

(الصفحات من 93 إلى 95)

31 ديسمبر 1953

لندن. إنجلترا.

مضى عامٌ آخر، وكأنه ساعةٌ عابرة.

لقد حان الوقتُ، كما أظنُّ، أنْ نسطّر خاتمةَ حكايتنا الأليمة، ونكتب نهاية هذا الكتاب الحزين. كنتُ أأمل حين شرعتُ أكتبه أنْ أجد فيه نوعاً من تطهير النفس، لكنّ ربما تكون عبارة «طرده الأرواح الشريرة» أقرب إلى ما طمحتُ إليه؛ أن أتحرر من ذنوبي، ومن ذنوبك أنتِ أيضاً.

قلتُ لنفسِي بضعة صفحاتٍ وينتهي الأمر. سأترك الدماء تسيل مني إلى أن يتوقّف النزيف، حتى أخلو منك تماماً. كم كنتُ غافلاً لأظنّ أن الأمر بهذه البساطة! لكن لا تزال هناك بعضُ الكلمات التي تلجّ عليّ أن أقولها.

سأبدأ بالتحقيق الذي نُشر في الجريدة بعد مغادرتي الولايات المتحدة بوقت قصير. لم أعرف عنه إلّا مصادفةً، بعد عامين كاملين تقريباً من نشره. لا شك أن احتواء هذا التحقيق على حقائق كنتُ على درايةٍ بها دفعك إلى استنتاج مساهمتي في نشره بطريقة ما، ولكنّ للتاريخ، الاسم المرفق بالتحقيق ليس اسمي أنا. لقد أعطيتُك كلمتي ذلك اليوم في شقتي، في آخر مرّة رأيتك فيها أنني لن أفعل ذلك. وإذا كنتِ تجهلينني إلى هذا الحدّ بعد كلّ ما مرّ بيننا، فلا جدوى من محاولة تبرئة نفسي.

والآن، وحرصاً على الكشف التام، سأجتهد في ملء بعض الفجوات الصارخة في روايتي، ورسم صورة للحياة التي عشتها منذ فقدتك.

تزوجتُ مرةً واحدة. كانت امرأةٌ تدعى لورا بشعرٍ داكن وعينين عسليتين. كانت تشبهك، لكنها لم تكن أنتِ، ولم أستطع أن أغفر لها ذلك. استحققتُ أفضلَ مما قدَّمتهُ لها، كما قلتُ لها ليلةَ رحيلها. استحققتُ أن تكونَ سعيدةً وأن تسعدَ شخصاً آخر، لكن لم يكن ذلك الشخص أنا على الإطلاق. أنتِ من حال دون ذلك.

منذ تلك الليلة الأولى في فندق سانت ريجيس، استحوذتِ على تفكيري وأفكاري، ولم تتركي مجالاً لأحدٍ غيركِ. حتى مع المحيط الفاصل بيننا، كنتُ أشعرُ بكِ، كوجع مكانٍ طرفٍ مبتور. ولمدةٍ لا بأس بها، كانت الحربُ شغلي ومشغلي. قصصُ تنتظر من يرويها، وجرائمُ تنتظرُ من يكشفها سواء أراد العالمُ أن يراها أم لم يُرد. جوعٌ قاتل وغرفُ غاز وبشرٍ يستحيلون رماداً. ثم تحريرُ المعتقلات. كان لا بدَّ على أحدهم أن يغطِّي ذلك أيضاً، ليعلم العالم ما جرى ولا يسمحَ بحدوثه مرةً أخرى. ولكن بعد الحرب، حلَّ صمتٌ لا يُطاق، وفراغٌ امتلأ جروحاً لا علاقة لها بالرصاص وساحات المعارك.

ثم ظهرت لورا فجأةً. رأيتهَا تجلس قبالي في حفل عشاء ذات ليلة، كشبحٍ يقدم فرصةً ثانية. تزوجنا بعد أربعة أسابيع. نويتُ الماضيَ قدماً كي ألأمَّ الجروحَ النازفة التي خلفتها وراءكِ، ولكن في كل مرةٍ كنتُ أنظرُ إليها، أشعرُ بالخنجرِ يلتوي، ويعاود النزيفُ

مجرأه. لم تدرك لورا سبب فشل الزواج قطً. لم تسمع باسمك قط، ولم تعلم بوجودك حتى. لكنك كنتِ دوماً هناك بيننا. المرأة الأخرى...

المرأة الوحيدة الواحدة.

كدتُ أرجع إليك مرةً في لحظة جنون ربما، رافقتها جرعة عالية من المشروب. ظننتُ أنني لو رأيت وجهك مرة أخرى، لربما أستطيع متابعة حياتي والتحرر من قيود الماضي. كنت سأغلق قبو الذكريات وأمضي في حياتي أخيراً. في الصباح، استعدت صوابي طبعاً، أو ربما نفذ المشروب ببساطة. لا أستطيع التذكر بالضبط. ألقِ نظرةً قُبْتُه

بدلاً من ذلك، جررتُ نفسي نحو الآلة الكاتبة، وطوّعتُ أزرارها لأكتب كتابين عن الحرب. لاقى الكتابان استحساناً كبيراً ونالا جوائز قيّمة. لكنهما كانا باردَيْن وتحليليَيْن، مجرد تشريح أكاديمي خالٍ من الحياة. لقد كرهتهما.

أرهقتني الحرب بتكتيكاتها وتفصيلها وسياساتها كلها. كنت أتحرق لكتابة شيءٍ مفعم بالحياة، شيءٍ له نبض. لكنني لم أستطع البدء. كم من محاولةٍ فاشلة! وكم من ورقةٍ كوَّرتها وألقيتها في سلات المهملات التي فاضت بياسٍ ساخر أسابيع متواصلة! ثم استيقظت في إحدى الليالي المظلمة، فكنتِ أنتِ هناك، ألم طرفٍ مبتورٍ ينبضُ بقوة الانتقام. النبض الذي كنتِ أبحث عنه. سألت الكلمات كالسم وهي تكتب قصتنا. يا وجع قلبي يا بيل الحبيبة! قصة بلا نهاية سعيدة، بلا نهاية في الأصل، سوى هذه الأسطر القليلة المريرة. إذن، ومع موت العام القديم وبزوغ

عام جديد، سأضعُ حداً لهذه الحكاية القاسية التي تجمعننا.
سأجلدها وأجعل منها هديةً لك. هدية تذكارية أو غنيمة حرب.
أترك القرار لك.

بالمناسبة، قد يثير ذهشتك أنني أجدُ نفسي بين الحين
والآخر أفكرُ في تلك الحقيقة. أتساءلُ هل استخدمها أحدٌ بعدي،
أم تُراها حبيسةً عليّ أو قبوٍ في مكانٍ ما؟ كانت ملأى بأشياءك.
لا يهم الأمر على أيِّ حال. أنى له أن يكون مهماً بعد هذه السنين
كلها؟

مع ذلك، فلا ينفكُ الفضولُ يراودني.

H.

الفصل الثالث عشر

آشليين

«تنشأ علاقة خاصة بيننا وبين كتبنا المفضلة، تتجاوز كونها مجرد أوراق مطبوعة. نلمسها ونستشق رائحتها ونسمع حفيف صفحاتها، فتستحضر ذكريات عزيزة على قلوبنا، حتى أصبحنا نراها كائنات حية تتنفس».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

21 أكتوبر 1984

راي، نيوهامبشير.

ضممت آشليين ذراعيها بقوة حول جسدها اتقاءً لنسيم المرفأ البارد. شعرت بالخيبة وهي تشاهد إثان يغلق كتاب «ندم على بيل» ويضعه على الطاولة بين كرسييهما. بدا الأمر وكأنه نهاية فيلم ما، إذ تظهر شارة النهاية ويعود المشاهد إلى عالم الواقع. كانت تعلم ذلك بالطبع، لكنها مع ذلك، أحست أن هناك خللاً ما، وكأن شيئاً ما ينقص القصة.

- «لا أصدق أنها النهاية».

- «بالنسبة إلى هيمي أجل. لكن لا يزال هناك جزء أخير من

كتاب بيل إن أردت المتابعة»، أجاب إثان.

هزت آشليين رأسها نافية: «لا، ليس الآن. وكأننا لا نعرف كيف

ستنتهي القصة».

- «تبدين حزينة».

- «أجل قليلاً. أظنني اعتدتُ الكتب ذات النهايات السعيدة. أعلم أنّ هذه الرواية لن تنتهي بموسيقا جميلة، لكنني أشعر أن هناك شيئاً ناقصاً، ولا أدري سبب ذلك. فبعد كل ما جرى لم يتوقف عن حبّها يوماً».
- «أو عن كرهها على ما يبدو».
- «لم يكرهها يوماً يا إيثان».
- «ماذا تسمّين ذلك إذن؟».
- «اليأس»، قالت آشليين بهدوء. «كان قلبه ممزقاً حزناً على شخص فقدّه. وكذلك بيل. لقد ادّعى كراهية بعضهما بعضاً ادعاءً. لأن ذلك بدا أكثر أماناً وقوة».
- هزّ إيثان كتفيه قائلاً: «ربما. لكن امتناعها عن الذهاب إلى المحطة كان أمراً بالغ القسوة. كان بإمكانها أن تُعلمه أنّها لن تأتي، لكنها بدل ذلك انسحبت وتركته معلقاً».
- كان ينبغي أن يفاجئها ردّ إيثان، لكنها لم تتفاجأ. لقد لاحظت ذلك مراتٍ عدة هذا الأسبوع. ذاك الاحتكاك الخفيف الملموس الذي بدأ يتسلّل إلى محادثاتها، وكأنّهما دخلا القصة دون وعي وتقمّصا دوريهما. وقد اختارا دون قصدٍ منهما جانبيين متعارضين.
- «لم تتركه معلقاً يا إيثان. لقد أرسلت إليه رسالةً تخبره فيها أنها قادمة. إن كان هناك من انسحب فهو هيمي. هل يمكنك أن تتخيّل شعورها وهي تدخل تلك الشقة الفارغة؟».
- «لا يختلف عن شعوره عندما وجد نفسه وحيداً على رصيف المحطة. في النهاية، لا نملك إلا تخمينات حول محتوى الرسالة، وكلّ ما نعرفه هو ما قالته بيل. لكننا رأينا رد فعل

هيمي بعد قراءتها. ذهب مباشرةً إلى زجاجة الشراب. ومن الواضح أنه لم يكن يحتسي الشراب احتفالاً. لا ألومه على اختفائه. لقد كانت تماطل أسابيع كثيرة. كم مرة يُفترض به أن يمنحها فرصةً أخرى؟ في مرحلةٍ ما، يجب أن يضع حداً للأمر، أليس كذلك؟».

- «ربما. ولكنّ هناك شيئاً غامضاً وغير مفهوم. كما قلتَ أنت، نحن لا نعرف ما جاء في الرسالة تماماً. أنت تستنتج من رد فعل هيمي أنها كانت رسالة وداع، ولكن لماذا ستأتي بيل إلى شقته بعد أن تركته؟ ولماذا كانت تتوقع أن تراه في الشقة ينتظرها؟».

- «يحتمل النقاشُ الوجهَين. إذا كان هيمي يعتقد فعلاً أنها قادمة وأن كل شيء قد غُفِر، فلمَ يختفي؟ التفسير المنطقي الوحيد هو أنّ الرسالة كانت وداعاً مهذباً».

- «ولكي يردّ الصاع ينشر التحقيق بعد أن امتنع عن ذلك قبلاً؟».

- «لا أقول إن تصرّف صائب. لكن في تلك اللحظة بالذات، ما كان لديه يخسره؟».

- «لقد نفى أي صلة له بنشر التحقيق».

أوماً إثبات برأسه غير مقتنع تماماً: «أجل، لكن لا يمكن أن تكون كلتا القصتين صحيحةً أليس كذلك؟ يعيد الناس كتابة التاريخ يا آشليين، وينظّفون الأوساخ التي خلّفوها برميها أكثر الأوقات خلف سياج شخصٍ آخر. أنا متأكّد أنّ هذا ما كنا نقرؤه. شخصان يحاولان ترتيب انفصالٍ بشع».

رفعت آشليين رأسها تنظر إلى السماء والغيوم التي بعثرتها
الريح. ربما كان إيثنان محققاً. وربما كان كلاهما مُلاماً ويأملُ تبرئة
نفسه من خلال إعادة كتابة السرد. ولعلّ كلاهما صدّق روايته
الخاصة للأحداث مع مرور الوقت. فالكذبة إذا تكرّرت بما فيه
الكفاية تصبح في النهاية حقيقة. هذا ما تعلّمته من دانييل. مع
ذلك، استمرّت التناقضات بين روايتي بيل وهيمي في إزعاجها.
حدّقت آشليين إلى عيني إيثنان وسألته غير مستعدةً للتراجع
عن موقفها: «هل يبدو لك هيمي من النوع الذي ينكث بوعده
بدافع الحقد؟».

اتكأ إيثنان على الدرايزين ونظر صوب المرفأ وأجاب: «في
ظلّ الظروف العادية، لا. لكنّ غولدي لوّحت بحفنة المال في
اللحظة المناسبة تماماً، ويبدو أنّ هيمي، الذي استخدم اسم
ستيفن شواب، قبل عرضها».

كان ذلك صحيحاً. ومع أنّ آشليين كرهت الاعتراف بذلك، كانت
لدى هيمي الوسيلة والدافع، وكان من الصعب إنكار الأدلة التي
تشير إلى أنّه هو وستيفن شواب شخصٌ واحد. «اتصلتُ بروث
قبل بضعة أيام وطلبت منها محاولة العثور على القصة الحقيقية.
لسوء الحظ، لا توجد معلومات وافية عنها في جريدة ريفيو، فقد
أغلقت الصحيفة أبوابها في عام 1946. لكن ربما تكون المقالة لا
تزال موجودةً على شريط تصوير في مكانٍ ما».

- «ثم ماذا؟ نفترض أنّنا وجدنا القصّة الحقيقية. ماذا نكون
قد أثبتنا حينها؟ وبالحديث عن الإثبات، لماذا نحتاج إلى
إثبات أي شيء؟ الحقيقة أنّنا لن نتمكن أبداً من معرفة من

أذى منهما الآخر، ولا يهم ذلك. سواء أعلمنا الحقيقة أم لم نعلمها فلن يتغير شيء. أعلم أنك لا تريد سماع هذا الكلام، لكنني أعتقد أن الوقت حان للاعتراف بأننا وصلنا إلى نهاية الطريق».

أجابت آشليين بإيماء متردة: «لا يفارقني شعور أننا فوتنا أمراً ما. لقد أحب أحدهما الآخر إلى درجة جعلتهما يتخليا عن كل شيء ليكونا معاً، ثم حدث خطأ ما. شيء لم يكن ينبغي أن يحدث. ألا تجد غرابة في أنهما يشعران بالمرارة الشديدة، وأن كليهما مقتنع بأنه الضحية الحقيقية؟».

قال إيثنان بنبرة متذمرة: «هل سبق لك أن عرفت زوجين انفصلا ولم يعتقد كل طرف منهما أنه الضحية الحقيقية؟ بالنسبة إليّ، يحاول كل منهما أن يبيّض صفحته».

- «لا أصدق ذلك»، ردّت آشليين بحدة. «لا أعتقد أنهما كانا يحاولان خلق نسخة بديلة من التاريخ. لقد صدّقا كل كلمة كتباها».

- «مجرّد الرغبة في أن يكون شيء ما صحيحاً لا يجعله كذلك يا آشليين».

- «أعرف ذلك».

- «حقاً؟».

- «أجل. وهذه ليست مجرّد رغبة مني في أن يكون صحيحاً يا إيثنان. إنه صحيح بالفعل، وأنا متأكدة من ذلك».

نظر إليها إيثنان نظرة المرتاب قائلاً: «متأكدة؟».

عضّت آشليين شفّتها كبحاً لرغبتها في أن تبوح بالسبب الذي يجعلها متأكدة. لكنه لم يكن ليفهم. ومن جهة أخرى، كيف له أن يفهم إن لم تخبره كل شيء؟

كان إيثنان ينظر إليها منتظراً رداً: «آشليين؟».

مدت يدها نحو كأس شرابها وشربت نصفه تقريباً. هل تفكر آشليين في إخباره حقاً؟ هل تكشف له سرّاً لم تشعر بالأمان قط لمشاركته حتى مع دانييل، لمجرد إثبات وجهة نظرها، والمخاطرة بأي شيء قد يكون بينهما؟

قالت بصوت هادئ خفيض: «هل يمكنني أن أخبرك شيئاً ما؟ شيئاً قد يبدو غريباً بعض الشيء، بل غريباً جداً في الواقع». استقام إيثنان في جلسته وكأنّه يشعر بأنّ مسار المحادثة على وشك التغيّر: «بالتأكيد».

- «لدي تلك القدرة... أو فلنقل الهبة. هبة تحمل اسم "علم نفس الأشياء". يعتقد أكثر الناس أنها من نسج الخيال، لكنها حقيقةٌ تماماً. بالنسبة إليّ على الأقل»، توقفت وأخذت رشفةً أخرى من الكأس وتابعت: «يمكنني... الشعور بالأشياء. أسميها أصداء».

عقد إيثنان حاجبيه وقد أخذته الحيرة تماماً: «أصداء؟».

- «إنها ما يتبقّى منك بعد أن تلمس شيئاً ما. أنا وأنت والجميع يتركون أصداءً. نتركها على الأشياء التي نلمسها وكأنّها بقايانا. وكلما كانت مشاعرنا أقوى عند لمس شيءٍ ما، كانت الأصداء أقوى. يمكنني قراءتها بيديّ وبكل كياني».

صمتت آشليين وهي تحاول أن تستشف رد فعله. كان بوسعها أن تراه وهو يحاول استيعاب الأمر ويقيس ما سمعه للتوّ على مقياس تفكيره العملي.

- تجعد جبين إيثان الذي قال أخيراً: «تقولين إن كل شيء تلمسينه تصدر منه... أصداء؟».
- أطلقت آشليين الزفير الذي كانت تحبسه. كان سؤالاً جيداً: «ليس كل شيء. ليس بالنسبة إلى مقدرتي أنا على الأقل. فأنا أشعر بالكتب فقط».
- «الكتب؟».
- «أجل».
- حدّق إليها بوجهٍ خلا من أي تعبيرٍ وهو يحاول استيعاب ما سمع للتو: «واتّفق أنك تملكين متجر كتب؟».
- «مصادفةٌ غريبة، أليست كذلك؟».
- «كيف... متى...»، هز رأسه قائلاً: «لا أعرف حتى ماذا أسأل. كيف تشعرين عندما يحدث ذلك؟ هل يحدث طوال اليوم؟ وكل يوم؟ وأنت محاطة بكتبٍ تتحدث إليك؟ هل تسمعين نفسك وسط هذه الضوضاء؟».
- لم تستطع آشليين منع نفسها من الابتسام عند وصفه: «ليس الأمر كذلك. إنها ليست كلمات، بل مشاعر. أحاسيس تصل على شكل اهتزازاتٍ صغيرة. لكنها تحدث فقط عندما ألمس كتاباً. أستطيع الشعور بما شعر به المالك عندما كان يقرؤه، أو في حالة هيمي وبيل، عندما كانا يكتبان الكتّابين. ولهذا السبب أنا متأكدةٌ أن هناك شيئاً آخر حدث مع هيمي وبيل. لأنني أشعر به عندما ألمس الكتب. إحساس الفقد والخيانة صادرٌ من كليهما، واليقين ذاته أن الآخر قد خان».

هزَّ إيثان رأسه وهو يكافح بوضوح لاستيعاب الأمر: «آسف، ما زلتُ أحاول استيعاب هذا كله. تقولين إنَّكِ تستطيعين قراءة مشاعر بيل وهيمي بلمسةٍ من يدك وبعد هذه السنوات كلها؟ كيف يكون ذلك ممكناً؟».

- «لا أدري. إنها مقدرةٌ أمتلكها فحسب. لكن هذين الكتابين مختلفان عن أي شيءٍ صادفته من قبل. المشاعر في كلا الجانبين قويةٌ جداً ومتشابهةٌ جداً. إنها معكوسةٌ فحسب، مثل صورٍ في مرآة. أعلم أن ما أقوله يبدو جنونياً، وأنني ربما أبالغ قليلاً، لكن هذه الأصداء ليست مجرد خيالٍ رومانسي انغمستُ فيه. بل أشعر بها حتى عظامي. هناك سببٌ لاعتقاد كليهما أن الآخر هو من غدر. شعرت به في المرة الأولى التي لمستُ فيها الكتابين، ولا زلتُ أشعر به». شعرت آشليين بالراحة عندما لم يُبدِ إيثان أيَّ علامةٍ على استهجان ما سمعه، رغم أنَّه استغرقَ بعض الوقت لاستيعابه. «هل كنتِ قادرةً على فعل ذلك دائماً؟»، سأل أخيراً.

- «بدأ الأمر عندما كنتُ في الثانية عشرة. ظننتُ في البداية أن الجميع يستطيعون فعل ذلك، ثمَّ قرأتُ بعض الأشياء عنه». صمتت وحدثت إلى الكأس في يدها ثم تابعت: «اتضح أنني غريبة أطوار نوعاً ما».

- «أو لعلك أكثر انسجاماً مع محيطك من بقية الناس». ضاقت إحدى عينيها وهي تنظر إليه: «ألا تظن أنني غريبة الأطوار إذن؟».

- «جداً. لكنني أعتقد أنها مقدرةٌ مذهلةٌ أيضاً».

غصت آشلين بكلماتها وتجمعت الدموع في عينيها وقالت: «شكراً لك».

- «على وصفك بغريبة الأطوار؟»، قال مبتسماً.
- «لأنك أخذتني على محمل الجد»، أغمضت آشلين عينيها وأدارت وجهها بعيداً. «أنا لا أتحدث عن ذلك كثيراً. لا أتحدثُ عنه نهائياً في الواقع. عندما أخبرتُ أمي، جعلتني أقسم ألا أبوح بكلمةٍ أمام أحد، خاصةً أمام والدي الذي سيقول إنه من عمل الشيطان. الشخص الوحيد الذي أخبرته كان فرانك آتواتر الرجل الذي كان يملك المتجر... والآن أنت».

اقترب إيثنان منها ووقف إلى جانبها، وظلاً برهةً متجاورين، يراقبان زوجاً من النوارس يحلق فوق سطح الميناء الفضي. كان المدُّ في طريقه إلى الانحسار، وفي غضون ساعاتٍ قليلة، ستراجع المياه تماماً لتكشف عن مساحة من الوحل الرمادي الباهت التي ستشكل وليمةً حقيقيةً للنوارس والطيور الجائعة.
- «ألم تخبري دانييل بذلك؟»، سألها إيثنان أخيراً.
- «لم أثق به يوماً حتى آمنه على سرِّ كهذا، أن أعطيه سلاحاً يستخدمه ضدي».

تفحصها إيثنان لحظةً وقد بدت على وجهه ملامح التفكير العميق فقال: «لكنك وثقتِ بي؟».
- «أجل».

- «أرجو ألا تسيئي فهمي. أنا سعيدٌ جداً لنفقتك، لكن لماذا؟».
أخفضت آشلين رأسها خجلاً وقالت: «أخبرتني ليلةً لقائنا الأول أنك غير مهتمٍ بتاريخ عائلتك. لكنك كنت رائعاً في السماح لي

بالاستفسار، وصبوراً جداً في الإجابة عن أسئلتها كلها. أخبرتك سري لأنتي أردت منك أن تفهم لماذا يمسنني الأمر شخصياً».

حدّق إيثان إلى يديه المتشبّثتين بالدرابزين، ورنّا إلى الصمت مرةً أخرى، وهبّ نسيمٌ رفع شعره عن جبينه إلى أن قال أخيراً: «في السابق...»، بدأ كلامه متلعثماً ومُحرجاً، «لم أقصد الاستهانة بمشاعرك. أفهم الآن سبب انغماسك في هذه القصة. لكن الأمر مختلفٌ بالنسبة إلي. لست متأكداً حتى كيف انغمست أنا أيضاً. في مثل هذا الوقت عادةً أكون في الطابق العلوي أكتب، أو على الأقل أعمل على امتحانات نهاية الفصل. لكنني بدل ذلك، أجد نفسي غارقاً حتى أذنيّ في لغز رومانسي لا أملك عنه أدنى فكرة باستثناء أنه... أعطاني حجةً لأراك دائماً».

ارتبكت آشلي من كلماته الأخيرة: «هل تعتقد أنك تحتاج إلى عذرة؟».

- «ألا أحتاج إلى واحد؟».

بعث السؤال احمراراً دافئاً في وجنتيها: «في البداية... ربما».

مدّ يده برفق ليُبعد خصلةً من شعرها عن عينيها: «والآن».

في تلك اللحظة، شعرت أن من الطبيعي أن ترتمي في حضنه، أن تذوبَ داخل دائرة ذراعيه، وأن تستسلمَ عندما لامست شفتاه شفتيها. كانت تلك الحالة طبيعيةً ومخيفةً في آن. مرّ وقتٌ طويلٌ منذ أن سمحت لنفسها بالاستسلام لأيّ شيءٍ، ومنذ أن راودتها أي مشاعر. الآن، ومع لمسةٍ واحدة، غمرتها تلك المشاعر المكبوتة كلها، مثل خطواتٍ رقصةٍ مهجورةٍ منذ زمنٍ طويل. التفافَ يديه في شعرها، وخُشونةُ أنفاسه على خدّها، والإدراك المُذهل لانهايار الحواجز.

وهكذا بدأ كل شيء. هكذا بدأ تماماً.

تصلبت آشليين بين ذراعيه عندما بدأت أجراس الإنذار تدق في داخلها. راودتها ذكريات قبلة أولى سابقة وما تلاها. لقد كانت منغمسة تماماً، وتواقئة إلى أن تُحب، إلى درجة أنها نسيت أن تحمي نفسها. والآن، هي على وشك أن تكرر الأمر نفسه. لا بد أن إثنان لاحظ ترددها المفاجئ، فأرخی عنقه قليلاً وعلامات الارتباك والحيرة بادية عليه: «أتذكر أنني قلت شيئاً عن التآني. هل عليّ أن أعتذر؟».

أحسّت آشليين باختلال توازنها وشعرت بالندم والارتياح في الوقت ذاته عندما نظرت إليه.

- «هل أنت آسف؟».

- «لا، ولا أريدك أن تكوني كذلك أيضاً».

لمست بأصابعها شفّتها وتذكرت دفء القبلة. لم تكن آسفة، لكنها لم تكن متأكدة أن ما حدث للتو كان فكرة جيدة لأيّ منهما.

- «إيثان....».

أنزل ذراعيه وتراجع إلى الخلف قائلاً: «أعرف».

كادت أن تمدّ يدها نحوه، ثم رأت أن ذلك سيبيث رسائل مختلطة.

- «لست نادمة على ما حدث للتو. في الواقع، يتساءل جزء مني لماذا استغرقنا وقتاً طويلاً، لكنني لست متأكدة من....».

رفع يده قائلاً: «لا بأس. فهمت».

- «لا. لم تفهم. أشعر بما تشعر به أنت أيضاً. ولكن هناك سبباً لعدم وجود أي شخص في حياتي بعد دانييل. بل أسباب كثيرة في الواقع. أنا أفضل حالاً وحدي».

- «لا يمكنك التأكد إن لم تجرّبي شخصاً آخر».
- «أنا متأكدة يا إيثان. لديّ كثيرٌ من رواسب الماضي التي قد تثقل كاهل أيّ علاقةٍ جديدة. وعندما أقول ماضي، فأنا أتحدّث عن تراكمات عميقة. وأنت تستحقّ أفضل من ذلك». أطارق إيثان رأسه قائلاً: «أنا لا أعرض الزواج يا آشليين. جلّ ما أطلبه هو أن تُبقي الباب مفتوحاً، وأن تسمح لي بمساعدتك على التخلص من تلك الرواسب التي تثقلك، ودون ضغوطٍ أو قيود». مدّ يده نحوها وتابع القول: «لا داعي حتى لأن تعطيني إجابة. ابقِ معي مدةً كافيةً لإعطائي فرصة».
- قاطع الصمتَ رنينُ هاتف المنزل فأفلت إيثان يدها مستاءً: «يجب أن أرد على الهاتف. زوجة أحد الأساتذة تلدُ في المستشفى وأخبرته أنني سأغطي مكانه إذا احتاج إلى ذلك. قال إنه سيتصل بي الليلة».
- «اذهب»، قالت آشليين وهي تشعر بالراحة لأن الهاتف منحها فرصةً لتأجيل إجابتها.
- «سأتبعك إلى الداخل خلال دقيقة».
- «لن تتسللي وتغادري المكان وأنا في الداخل، أليس كذلك؟ ستكونين هنا عندما أعود صحيح؟».
- علت وجه آشليين ابتسامة عريضة وهي تقول: «سأتبعك خلال دقيقة. اذهب وأجب على الهاتف».
- راقبته يدخل عبر الباب، ثم رأت ضوء المطبخ يُضاء. أخذت وقتها في جمع الزجاجات الفارغة وتعديل الكراسي. كانت تحتاج إلى بضع دقائق قبل أن تدخل لاستيعاب ما حدث للتو.

هل كانت مستعدةً للسماح لإيثان بدخول حياتها؟ للمخاطرة بالحب والخسارة مرةً أخرى؟ لا يمكنها إنكار أنها فكّرت في الأمر. منذ تلك اللحظة الأولى الغريبة في مكتبه. أول إشارة مضطربة إلى أن شيئاً ما يعتمل بينهما. لكن شيئاً لم يحدث بعدها، بل دخلاً في علاقة شراكة وتعاون أكثر من كونها علاقة غرامية. وهنا أقنعت آشلين نفسها أن ذلك أفضل لكليهما.

فجأةً تصاعدت الأمور بينهما وتسارعت. لقد فتحت الباب وسمحت له بالدخول، وشاركته جزءاً من نفسها لم تشاركه حتى مع دانييل، لأنها وثقت به. لكن الثقة خطيرةٌ كما الحب. وجدت نفسها متوجهةً إلى قلب هذا المكان الخطر لو لم تتمهل. هل كانت مستعدةً لخوض هذه التجربة مجدداً؟ لتمنح شخصاً آخر القدرة على تحطيم الحياة الصغيرة والحذرة التي تمكنت من إعادة بنائها لنفسها؟

ثم إن هناك أمراً آخر يجب أن يوضع في الحسبان، ماذا إن كان ما شعرا به مجرد عَرَضٍ جانبي لانغماسهما في الكتابين؟ وماذا إن انجرفا ببساطة في قصة بيل وهيمي، وشعرا بأشياء من المحتمل أن تتلاشى بسرعة كما اشتعلت؟

لم تملك آشلين أي إجابة. كانت الشمس على وشك الغروب، ودرجة الحرارة تتخفض بسرعة، ونسائم الميناء تلسع وجنتيها. بالكاد خطت خطوةً نحو الداخل عندما سمعت صوت الباب يُفتح. استدارت لتجد إيثان واقفاً في المدخل. انتظرت لحظةً متوقعةً أن يتكلم، لكنه بقي واقفاً هناك ووجهه في الظل.

- «هل رُزق بصبي أم فتاة؟».

- «لا هذا ولا ذاك. إنه زاكاري».
- أحست آشلين بانقباضٍ في معدتها لدى سماع اسمه.
- «أكمل».
- «وماريان على قيد الحياة وبصحةٍ جيدة وتعيش في ما ساتشوستس».

الفصل الرابع عشر

آشليين

«في أيام سعادتي، كانت كتبي رفيقاً يشاركني فرحي، وفي ليالي حزني، كانت صديقاً يواسيني».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

25 أكتوبر 1984

راي، نيوها مبشير.

بينما فتح إيثان زجاجتين من الشراب، راحت آشليين تفتح عُلب لفائف سرطان البحر والبطاطا المقلية التي جلبتها معها. تفاجأت حين اتصل بها مُقترحاً تناول العشاء، إذ لم يتصل بها سوى مرتين طوال الأسبوع. فزميل إيثان أصبح أباً، ما ضاعف عدد الدروس التي يُدرّسها. وعندما لا يكون في الجامعة، يبقى حبيس مكتبه ليراجع الفصول التي وعد بها محرّره.

أو لعلّ إيثان قرر بعد معادشتها يوم الأحد أن يعطيها بعض المساحة. أحست بالراحة عندما لم يبادر إلى ذكر القبلية في المكالمتين. بدلاً من ذلك، ركّزاً على أنّ أياماً عدّة مرّت منذ أن وافق زاكاري على الاتصال بماريان وتوصيل رسالة من حفيد أختها.

مرت أربعة أيام.

لم تكن المدة دليلاً إيجابياً. إذ يبدو أنّ ماريان لا تمتلك الرغبة في إعادة التواصل. ولإنصاف، أخبر زاكاري إيثان أنّ

احتمال معاودة الاتصال ضعيف نوعاً ما، لأن والدته امرأة شديدة الخصوصية. مع ذلك، كانت آشليين تأمل أن عاطفة ماريان تجاه ريتشارد هيلارد، والد إيثان، قد ترجح كفة الميزان لمصلحتهما. لكن يبدو أنها بالغت في تفاؤلها. اتفق إيثان وآشليين في النهاية على الانتظار أسبوعاً كاملاً، ثم المحاولة مرة أخرى قبل الاستسلام. بعد ذلك، لن يبقى لديهما خياراً آخر سوى تعقب المرأة.

أعطاهما إيثان زجاجة الشراب، ثم تسلل من خلفها ليأخذ قطعة بطاطا مقلية من إحدى عبوات الطعام الجاهز.

- «كيف تسير أمور النشرة الإخبارية؟»

رفعت آشليين زجاجتها وقالت بلهجة الانتصار: «لقد انتهيت منها وأرسلتها إلى المطبعة صباح اليوم. اضطررت إلى التوسل قليلاً، لكن يجب أن أستلمها قبل عيد الشكر. ماذا عن محاضراتك الجديدة؟ هل يخلّف دخول صفٍ جديد في منتصف العام الدراسي شعوراً غريباً؟»

أخذ إيثان قطعة بطاطا أخرى أتبعها بحلقة بصل مقلية ثم قال: «غريبٌ قليلاً أجل. تظنين أن طلاب الجامعة سيتصرفون بجدية عند وجود أستاذٍ بديل، لكنهم يثبتون أنهم لم ينضجوا بعد». توقف عن الكلام ونظر إلى لفائف سرطان البحر التي أخرجتها آشليين للتو من الكيس: «تبدو لذيذة جداً. النار في المدفأة الكبيرة مشتعلةٌ إذا أردت تناول الطعام في الغرفة الكبيرة. أو يمكننا الجلوس هنا على المنضدة».

- «تبدو فكرة النار جيدة».

- «حسناً. أحضري الشراب وبعض المناديل وسأحضر أنا الطعام. بالكاد حمل عُلب الطعام من على المنضدة عندما رنّ جرس الهاتف. تجمّد كلاهما في مكانه ثم نظرا إلى الهاتف ثم أحدهما إلى الآخر. حبست آشلين أنفاسها حين رفع إيثنان السماعه، منتظرة إشارة ما على أنها المكالمه المنشوده.
- «أجل. أنا إيثنان».

ظلّ مصغياً لحظة ثم نظر إلى آشلين وأوماً برأسه. ضغط زرّ مكبر الصوت ووضع السماعه على المنضدة. غطّت آشلين فمها بكلتا يديها، لتكتم شهقة مفاجئة عندما ملأ صوتُ امرأةٍ المطبخ فجأةً، منخفضاً ودافئاً، تماماً كما وصفه هيمي.

- «أخبرني ابني أنّ لديك بعض الرسائل والبطاقات. أشياء أرسلتها إلى والدك على مر السنين».

- «أجل. كما أنّني عثرتُ على بعض الصور وأنا أرتب مكتبه. فكرتُ في أنّك قد ترغبين في استعادتها».

قالت ماريان دون تردد: «أجل، أرغب في استعادتها. أنا آسفةٌ لأنني لم أتمكن من رؤية والدك قبل أن... قبل أن يموت. لقد كنتُ أحبّه جداً»، ساد الصمتُ برهةً ثم تابعت: «لعلك عثرتَ على أشياء أخرى غيرها؟».

تبادل إيثنان وآشلين النظرات.

- «أتقصدين الكتابين؟».

- «أجل».

بدت هذه الكلمة الوحيدة مع الصمت الطويل الذي حلّ بعدها كأنها اعترافٌ من نوع ما. اعتراف يحمل نَفْس التردد والذنب. «أجل. لقد وجدتهما في مكتب أبي أيضاً»، أجاب إيثنان.

- «كلاهما؟».
- «أجل».
- «أحسب أنك قرأتها إذن».
- تردد إيثان ونظر إلى آشليين التي أومأت بالإيجاب. بدا الكذب عديم النفع حينها: «أجل. لقد قرأناهما... لكننا لم نكن متأكدين من طبيعتهما».
- سألت ماريان بصوت حذر: «تقول قرأناهما؟ هل أنت متزوج؟».
- «لا، لست متزوجاً. إنها... إنها صديقتي. وهي من عثرت على الكتابين، فقرأناهما معاً».
- «من الأفضل أن تأتيا إلى هنا إذن؟».
- «نأتي إلى هنا؟».
- «إلى ماربلهيد. أنا متأكدة أن لديكما أسئلة كثيرة. هل يمكنك أن تأتي السبت؟ أنت و... صديقتك؟».
- نظر إيثان إلى آشليين مستفسراً.
- أومأت آشليين برأسها بعنف. سيعني ذلك إغلاق المتجر نصف يوم، لكن يستحيل أن تدع فرصة كهذه تفلت من يدها. همست قائلة: «في مدة ما بعد الظهر».
- «أجل»، قال إيثان. «يمكننا القدوم عصراً».
- «تعالا في الثالثة وأحضرا الرسائل معكما. العنوان 11 شارع هاثواي. إنه مكانٌ بعيدٌ جداً لذا احرصا على إحضار خريطة واضحة، وامنحا نفسيكما متسعاً من الوقت».
- سمعا صوت نقرة تلاها صمتٌ مطبق. أغلق إيثان السماعه وتلاقت نظراتهما في ذهول وصدمة.

- «يا إلهي»، قال إيثان أخيراً. «لقد اتصلت حقاً. أقنعني زاكاري أنها لن تتصل».
- «تبدو... حذرة».
- «أجل، لكن هل يمكنكِ لومها؟ أشك في أنها تخيلت يوماً أنها ستتعامل مع هذا بعد أربعين عاماً».
- «لاحظتُ أنها لم تطلب منك إحضار الكتابين. طلبت الرسائل فقط دون أن تأتي على ذكر الكتابين».
- «لعلها لا تريدهما بعد مرور هذا الوقت كله. لو كنت مكانها لا أظن أنني سأرغب في استعادتهما».
- «سنأخذهما معنا على كل حال. إنهما ملكها».
- هز إيثان رأسه موافقاً واتجه صوب الثلاثة: «هل تستطيعين القيام بهذه الرحلة يوم السبت؟ ماذا عن المتجر؟».
- «سأغلقه عند الواحدة وسأعلق لوحةً على الواجهة. يستطيع زبائني تدبّر أمرهم دوني نصف يوم».
- «حسناً إذن. رحلة برية بعد غد. تعرفين ما يعني ذلك، صحيح؟».
- «أنك ستحتاج إلى خريطة واضحة».
- «طبعاً، لكنني أتحدث هنا عن الكتابين. إذا كنا سنعيدهما يوم السبت، فقد تكون هذه فرصتنا الأخيرة لقراءة الصفحات الأخيرة من كتاب بيل. ما رأيك؟ هل أنت مستعدة لجلسة قراءة بعد العشاء؟».

مكتبة

t.me/soramnqraa

إلى الأبد وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 84 إلى 85)

19 ديسمبر 1941

نيويورك.

وضعتُ خططي. خططي التي لا يعلم أحدٌ بها بعد، رغم أنني أشكُّ في أنّ أحداً سيحاول تثبيتي عنها لو علم بها. أنا منبوذة الآن، مهندسة سقوط عائلتي، ومثالٌ صارخٌ لما يحدث عندما تتبع المرأة شغفها بدل القواعد.

استقرّ قراري على كاليفورنيا في النهاية. على بلدةٍ صغيرة على الساحل الشمالي تُسمّى خليج نصف القمر. لم يسمع أحدٌ بهذا المكان من قبل، ولكن خلال مدة الحظر، جعلتها سواحلها الوعرة المغمورة بالضباب مكاناً مفضلاً للمهربين الكنديين. تعجبني المفارقة هنا، فأنا أهرب إليها من عائلتي لبعدها عنهم، فضلاً عن أنها مكانٌ مناسبٌ لانتظار انتهاء الحرب. سأغادر بعد غدٍ. لن يفتقدني أحد، ولن أفتقد أحداً، باستثناءك. لكنك تحولت بعد ذلك إلى مجرد خيالٍ عابر يمرّ في ذاكرتي.

مع ذلك أنا أدين لك بواحدة. لولاك أنت وغاليتك غولدي، ما كنت لأعرف إرث أمي الذي بات إرثي الآن. لهذا ولهذا فقط، أنا ممتة لك.

زرتُ مصحة كريج في بيكون لأرى المكان الذي فارقت فيه أمي الحياة. لم أجرؤ على الدخول مع أنني كنت أرغب في ذلك. لكن كان لزاماً عليّ أن أرى ذاك المكان بنفسي، أن أتجول في محيطه

وأشعر بحضورها هناك. بدا المنزل تماماً كما في الصورة التي نُشرت في جريدة ريفيو، مكاناً كثيباً على الرغم من مهابته القديمة. قررتُ ألا أتذكرها هناك، بل أن أتمسك بالذكريات التي صنعناها معاً في غرفتها، حيث كنا نغني ونحكي القصص.

حاولتُ العثور على ألبوم الصور الذي كانت تحتفظ به أمي. ذاك الذي كانت تروي لي قصصها من خلاله. وددتُ لو أحمل معي شيئاً يخصها، لكنّ سيسي زعمت أنها تخلصت منه. من الأفضل ربما أن أسافر بحقيبة خفيفة. فهناك القليل النادر مما أرغب في تذكره من هذا الجزء من حياتي.

عدتُ أيضاً إلى المزرعة في روز هولو. لا أعلم لماذا ذهبتُ إلى هناك. المكانُ مغلقٌ الآن، وقد انتقلت الخيول والمدرّبون كلهم إلى ساراتوغا. المنزل والإصطبلات مغلقةٌ جميعها حتى الربيع. فتحتُ قفل الإصطبل ودخلتُ. وقفتُ حيث وقفنا أول مرة قبلتني فيها، وحاولتُ أن أتذكر ما قلته أو فعلته لتُعيني تماماً. لكنني لن أنزلق إلى هذا المستوى من الحماسة مرة أخرى على الأرجح. لقد علّمتني كثيراً.

تراجعتُ في النهاية حدةُ الضوء المُسلّط على عائلتنا، وبدأت الصحافة تتسحب تدريجياً، باحثةً عن فريسة جديدة تتغذى عليها. سيسهل ذلك عملية انشغالي، إذ لم يعد هناك صحفيون يتسكعون على الأرصفة، ولا أسئلة مُحرّجة تبطئ حركتي. الوقت هو الأساس الآن.

يجب أن أصنع مستقبلي، وأن أبني حياةً خاليةً منك. لن تكون الحياة التي حلمتُ بها يوماً، لكنها بطريقةٍ أو بأخرى، ستكون الحياة التي اخترتها.

إلى الأبد وأكاذيب أخرى

(الصفحات من 86 إلى 99)

14 يونيو 1955

ماريلهيد، ماساتشوستس.

استجمعتُ قواي أخيراً لأكتب هذا الفصل الختاميّ. أعترف أنني أجبرت نفسي على ذلك لأن الرغبة في الامتناع لاحقتني بإصرار. بدت الكتابة عبثية الآن، كأن تحرث أرضاً محروثة أصلاً، أو أن تُقلق راحة الأموات بدل تركهم يهنؤون في رقادهم. مع ذلك، أنا أجلس والشمس تتساب نحو الداخل، ولم يتبق سوى وضع الشاهدة على القبر كما يُقال.

لم أجد لذة في هذه المهمة، فالكلمات مملكتك أنت لا مملكتي. لكنني شعرتُ بواجب يدفعني إلى تصحيح الأخطاء الكثيرة في روايتك لعلاقتنا البائسة. أمل أن تغفر هفواتي الفنية، فقد مرّ زمنٌ طويلٌ منذ آخر مرة حاولتُ فيها ترجمةً شاعري على الورق. لقد بذلتُ أقصى جهدي، وسأرسل الكتاب إليك فور تجليده ليتناسق مع تجليد كتابك. سأرسله عبر وسيطنا المعتاد بالطبع. وسأعيد إليك أيضاً النسخة المشوّهة التي أرسلتها إليّ، فأنا لا أريدها البتة.

أتمنى أن تكون هذه آخر خدمةٍ نطلبها من ابن أختي فيما يخصنا. ديكي المسكين؛ بالكاد عرف ماذا يفعل بطردك الغامض عندما وصل. في الواقع، كاد أن يلقيه في القمامة، ويا ليتَه فعل. كنت قد نسيْتُ أمرك إلى أن وصل الطرد حاملاً كتابك، أو هذا ما ظننته.

والآن، سأضيف لمسةً أخيرة تضع الأمور في نصابها الصحيح. لا لأنك تستحق كلمةً مني، بل لأستمتع قليلاً في إخبارك أنني تمكّنتُ من بناء حياةٍ لنفسِي وبِنفسي. حياةٌ جيّدةٌ في معظمها، بعد أن أعدتُ جميع شتاتي.

كان الوضع مزرياً بعد رحيلك. فقدانك بهذه الطريقة ودون وداعٍ حقيقي كان لا يُطاق. فكرتُ في ملاحقتك، وإحداثِ مشهدٍ مأساوي حتى تتوسّل إليّ وتطلب غفراني. ثم نُشر التحقيق ويات الغفران مستحيلاً.

لم يستغرق الأمر سوى أيام قلائل. صحيحٌ أنّ لا حديثَ على لسان الجميع سوى إعلان ألمانيا وإيطاليا الحرب على أمريكا، لكنّ الصحف الأخرى تلقفت الخبر واشتعلت النيران في عائلتنا. في غضون أسبوعين، انهار عالم والدي من حوله، وطُرد من شراكاته التجارية ومُنِع من دخول ناديه، ثم فقد ما تبقى من ثروته وهي يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه. تجنّب الرجال ذاتهم الذين حاباهم وراضاهم على مرّ السنين. فإذا كانت تلك غايتك، فقد نجحت بما يفوق أعنف أحلامك.

لم أشعر بذرة ندم على دوري في سقوط عائلة مانينغ، بل صعدتُ على متن قطارٍ متجهٍ غرباً، متعطشةً إلى الاختفاء وإخفاء هويتي. وهذا ما فعلته باستخدام اسم عائلة أمي. في ذلك الوقت، كان بإمكان المرء الذهاب إلى مكانٍ جديدٍ وإعادة اختراع نفسه. لم يطلب أحدٌ حينها أيّ إثباتٍ على أيّ شيء. كنتَ تمنحهم اسماً، ويصبح ذلك الاسم هويتك.

عَشْتُ هناك حياةً هادئةً، وكونْتُ صداقاتَ عدة. تعرَّفْتُ إلى صديقةٍ مميزةٍ جداً سَلِبَتْ منها الحربُ كلَّ شيءٍ. كانت لطيفةً معي حين توقفتُ عن الإيمان باللطف، وباركتني بعطيةٍ سأبقى ممتنةً لها ما حييت. ولكنَّ هذه أمورٌ شخصيةٌ، ذكرياتٌ لا حقٌّ لك فيها. لذا سأنتقل إلى الجزء التالي.

وأول مرةٍ في حياتي، شعرتُ بأن للعائلة، العائلة الحقيقية، أهميةً بالغة. بعد انتهاء الحرب، شرعتُ أكتب الرسائل، محاولةً تحديد مكان عائلة أُمي. رحل الرجال جميعهم، إما دُفِنوا وإما تشتتوا بسبب الحرب. لكنني تمكَّنتُ من العثور على أخت أُمي، أغنيس، وعلى عددٍ من الأقارب الذين فرَّوا عبر الحدود إلى سويسرا هرباً من الاحتلال. وعندما تحررت فرنسا، عادوا إلى مزرعة الكروم الخاصة بهم. تواصلت مع خالتي بالرسائل. كانت الرسائل تصل بوتيرة بطيئة جداً، كانت صعبة القراءة لدى وصولها. لقد خسروا كثيراً. فالأرض باتت خراباً، والمنزل مجرد جدرانٍ عارية، لكنهم كانوا مصممين على إحياء مزرعة الكروم. علمتُ حينها أنني بحاجةٍ إلى الذهاب إلى هناك.

كنتُ أحتاج إلى أن أنتمي إليهم، إلى أن أكون جزءاً من حكاياتهم، وهذا ما جرى بلمح البصر. كان الوجود هناك، في المنزل الذي نشأت فيه أُمي، مُحاطةً بالأشخاص الذين أحببتهم، أشبه باستعادة جزءٍ منها. تعلَّمتُ الصلوات التي مُنعت من ترديدها، وعرفتُ الأسماء التي أُمِرت بنسيانها. باتت تقاليدها التي أُجبرت على التخلي عنها تقاليدي، ولغتها لغتي، وإيمانها إيماني. الآن، وبعد مرور سنواتٍ طويلة، حافظتُ على ذكراها حيَّةً، وكرَّمتُ المرأة التي لوَّثت ذكراها بروايتك.

عندما كنت في فرنسا، سمعت عن منظمات وجمعيات تُعنى بأطفال الحرب الذين باتوا مشردين بلا مأوى. كان عددهم هائلاً وقد خسروا كل شيء. كان مشهداً يدمي القلب. وتذكيراً بأن هناك أشياء أسوأ من حب ضائع. وهكذا بدأ العمل الذي كرست له حياتي.

قلت ذات مرة شيئاً لم أنسه قط. قلت إن أمثالي لا يفعلون شيئاً ذا مغزى لأننا لسنا مضطرين إلى ذلك، وإن ما هو مطلوب منا أن نرتدي ملابس أنيقة ونقيم حفلات راقية. لقد آلمتني تلك الكلمات حينها، لأنني علمت أنك كنت تمزح جزئياً فقط. حسناً، لقد فعلت شيئاً ذا مغزى. ليس لأنني اضطررت إلى فعله، بل لأنني اخترت ذلك. وعندما توفيت خالتي وعدت إلى الولايات المتحدة، واصلت العمل ذاته.

أما بالنسبة إلى الزواج، فلم يكن أمراً مطروحاً على الإطلاق. ولا يعني هذا أنني كنت وحيدة. بالعكس تماماً، كانت حياتي ملأى بالعطاء والاكتفاء. لم أفكر قط في محاولة العثور عليك. ليس بجدية على الأقل. لقد مات ذلك الجزء مني الذي آمن يوماً بمثل هذه الأشياء؛ الأبطال، وغروب الشمس، والنهايات السعيدة، مات في اليوم الذي نُشر فيه تحقيقك في تلك الصحيفة الصفراء.

قد تظنني حاقدة. في الواقع، كنت كذلك مدةً من الزمن. شعرت بأنني دفعت ثمناً باهظاً لطيشنا أكثر مما دفعت أنت، كحال المرأة دائماً، فأردتُ معاقبتك. لكن لا طائل من ذلك بعد الآن لقد مضينا في حياتنا، وأحصينا مكاسبنا وخسائرنا. لا شك أنك ارتكبت أخطاءً، وارتكبتُ أنا أخطائي أيضاً. كنتُ

أول أخطائي، لكن كانت هناك أخطاء أخرى. استطعتُ مسامحة نفسي على بعضها. أما البقية، فأنا ما زلتُ أكفّر عنها. لكنني تعلّمت درساً يقول: في كلِّ جرحٍ عطية، حتى الجروح التي نُحدثها بأيدينا.

تركتني حطاماً عندما رحلت. شظيت قلبي وكسرتَه. لكنَّ يدِ القدر لملمتني من جديد. وتعلّمتُ أنّ بإمكانني أن أتحمّل ذكرى وجهك في النهاية. لن أتحرر تماماً منك أبداً، من صوتك، من ابتسامتك. وحتى ذلك الشقّ الصغير في ذقنك لم يفارق أفكاري. أنت عذابي وعزائي. يمكنني القول إنني لم أرحل خالية اليدين. أما الحقيقة، فلا أملك أي فكرةٍ عن مصيرها. ربما باعها صاحب الشقة التي كنتَ تقطنها، أو ربما أعطى محتوياتها لزوجته. لم أفكر في أمرها كثيراً. ربما لأنها لم تكن أشياء حقاً. لقد كانت تخص امرأةً أخرى، بيل، المرأة التي تركتها وراءك. لكنَّ تلك المرأة لم تعد موجودة. لقد تحوّلت إلى شخصٍ آخر في ذلك اليوم، وواصلت حياتها.

M

الفصل الخامس عشر

آشليين

«مع كلِّ كتابٍ نقرأه قصةٌ جديدةٌ تُضاف إلى سجلنا الوجودي،
فليست الكتب التي نقرأها سوى حيواتٍ أخرى نعيشها».
- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

27 أكتوبر 1984

ماربلهيد، ماساتشوستس.

تسللت شمسُ الخريف الدافئة من بين أوراق الشجر الذهبية
في يوم مثاليٍّ لقيادة السيارة. كان الجوُّ بارداً وصافياً، تشوبه
نسمةٌ خفيفةٌ منعشة. أغلقت آشليين المتجرَ عند الواحدة ظهراً،
وتناولت شطيرةً في السيَّارة وهي في طريقها إلى منزل إيثان.
اتَّفقا على أن يقود سيَّارته من نوع أودي، ما أعفاها من القيادة.
كانت ماريان محقةً بشأن حاجتهما إلى خريطةٍ واضحة. لقد
استغرقت الرحلةُ إلى ماربلهيد ساعةً وأكثر، ولكن ما إن وصلا،
حتى وجدا نفسيهما أمام طرقٍ متشابكةٍ وضيقةٍ وشوارعٍ ساحليةٍ
أضيق، ما جعل التنقل صعباً. لم تُجدِ لافتات المرور نفعا، فهي
إمَّا مُغطاةٌ بأوراق الشجر، وإمَّا متأكلة حتى أنها غير مقروءة،
وإمَّا مفقودة تماماً. لكن في النهاية، تمكَّنَّا من العثور على طريق
هاثاواي، الذي يمتد على طول خليجٍ صخريٍّ هلالِيٍّ الشكل، ويطلُّ
على مشهد البحر الفضّي الخلاب.

انتصب المنزل فوق قمة هضبة مرتفعة، ليشكل تحفة معمارية كلاسيكية من ثلاثة طوابق. كان أشبه بلوحة فنية رسمها الزمن بألوان رمادية وبيضاء ناعمة. تصدر الواجهة رواقٌ مُعمدٌ ومجموعة من مداخن الطوب الأحمر. وكمثل عينيّن بارزتين، توجّحت واجهته نافذتان علويتان أضفتا مظهراً يشبه الوجه إلى حدٍّ ما.

ضمت آشليّن حقيبتها إلى صدرها عندما أوقف إيثان السيارة في الممر. وضعت الكتائب داخل غلافين بلاستيكيين شفافين وغطتهما بأمان. أحزنتها فكرة التخلي عنهما اليوم. لكنهما مُلك ماريان إذا أرادت استرجاعهما. وسواء أأرادتهما أم لم تُردهما، فإن آشليّن شعرت بأنها تفعل الصواب بإعادتهما إلى حيث ينتميان. أطفأ إيثان محرك السيارة وفتح بابه، فانساب صوت البحر إلى داخلها مع النسيم ومع هدير الأمواج المتلاطمة على صخور الشاطئ.

- «مستعدة؟»

- «مستعدة».

بالكاد قرعا الجرس حتى فتحت ماريان الباب وكأنها تتحيّن وصولهما بفارغ الصبر. ابتسمت آشليّن بخجلٍ حين فُتح الباب، لكن الابتسامة لم تُقابل بمثلاً، ما أعادها إلى الواقع وذكرها بأن تطفلها على حياة ماريان، رغم دعوتها، قد لا يكون مرحّباً به. بدت طويلة القامة خفيفة الحركة، ترتدي بدلة نسائية من الحرير الرمادي، فوق قميصٍ أصفر بلون النرجس، ووشاحٍ معقودٍ بأناقة عند عنقها، ما منحها مظهراً أنيقاً. اكتفت بلمساتٍ خفيفة من المكياج على وجهها، وقرطيين من اللؤلؤ، وشعرٍ مرفوعٍ أكمل

إطلاقتها الراقية. بدت ماريان كأنها تجسّد للثراء. أو على الأقل، هكذا تخيلت آشليّن مظهر الثراء. أنيقة وجميلة، وكأن الزمن لم يؤثر في بهائها وجمالها رغم تجاوزها الستين عاماً.

خطت ماريان خطوتين إلى الخلف وأشارت بإيماءة أشبه بالاستسلام للأمر الواقع: «تفضلاً بالدخول واخضعاً معطفيكما. أعتقد أنكما ستبقيان هنا بعض الوقت».

استقبلتهما فور دخولهما رائحة زيت الليمون وشمع العسل الزكية. كان المدخل طويلاً ذا سقفٍ منخفض يتزيّن بعوارض خشبية عتيقة، وعلى الجانبين جدران تغلفهما ألواح من الخشب تلمع بفعل الطلاء. يتوسّط قاعة الدخول درج عريض يصل الطابق الأعلى، يُحيط به درابزين ثقيل، وتزيّن الجدران باللوحات الفنية المهيبة وإطاراتها الفخمة التي جعلت المكان أشبه بمتحف.

علّقت ماريان معطفيهما ثم قادتهما عبر ردهةٍ تعجّ بمجموعة من التحف الرائعة التي تعود إلى القرن الثامن عشر، والتي صُقلت بدقة أضفت عليها لمعاناً مذهلاً. كانت الغرفة جميلة ورحبة، ورغم ألوان أثاثها الغامقة، بدت مشرقةً على نحوٍ غريب. أمّا البيانو الصغير المترجّع في إحدى زوايا الغرفة، فقد كان أشبه بالقطعة التي تكمل الأحجية.

حدقت آشليّن محاولةً قراءة الحروف المذهبة المنقوشة على البيانو أعلى المفاتيح. «Sauter». لم يكن الاسم مألوفاً، لكن من الواضح أنها آلة باهظة الثمن.

- «يا لجمال هذا البيانو!»، قالت آشليّن.

- «إنَّه لزاكاري». لانت ملامح ماريان وهي تذكر اسمه. «اشتريته حين بلغ العاشرة. وفي العام التالي، اكتشف شغفه بالكمان، وبقي البيانو منذ ذلك الحين مهجوراً. لا أحتمل التخلص منه، وأظلل أُمْنِي النفس بتعلُّم العزف يوماً، لكن الأمر لا يعدو كونه كلاماً في الهواء. ومع ذلك، فهو مفيد لعرض الصور». أشارت إلى مجموعة صغيرة من الصور المؤطرة التي انعكست على سطح البيانو الأسود اللامع. وأضافت: «هذه صورته ضمن الإطار الأسود، التقطت قبل ثلاثة أو أربعة أعوام مضت».
- أمعنت آشلين النظر إلى وجه الشاب في الصورة. ملامحه حادة ووسامته طاغية. له عيان زرقاوان ونظرات ثاقبة، وأنفٌ مستقيمٌ رفيع، وشعرٌ داكنٌ كثيفٌ مرفوع عن جبينه. لكنَّ فمه المكتنز الحسيّ الناعم هو ما استحوذ انتباهها. ربما بسبب الابتسامة التي كان يُحاول كبثها، كما في الصورة التي رأتها وهو طفل. حتى في ذلك الحين، تمتع زاكاري بابتسامةٍ معدية.
- «إنَّه وسيم»، قالت آشلين قبل أن تضيف: «وعيناه جميلتان».
- «لطالما كان جماله ساحراً. هذه أخته إيليز في الإطار الأحمر».
- استعادت آشلين في ذاكرتها صورة إيليز وهي طفلة. العيان المشرقتان ذاتهما، والشعر الأشقر المائل إلى الحمرة، واللامح الحادة ذات التعبير الجامد. كان رأسها مائلاً بعض الشيء، لكن نظرتها إلى الكاميرا كانت واضحة وعنيدة، تكاد تكون وقحة.
- «إنها فتاةٌ جادة، لكنها تملك قلباً كالنار»، قالت ماريان بحنو.
- «يمكنني رؤية ذلك»، علّقت آشلين مبتسمةً.

- «كنتُ على وشك إعداد إبريقٍ من الشاي عندما وصلتُما. ظننتُ أننا سنخرج إلى الشرفة للتحدث لكنَّ الجو بارد». عبروا صالة طعام رسمية طُليت جدرانها بالأحمر الداكن، تتوسطها طاولةٌ طويلةٌ تتسع لعشرة ضيوف، وخزانةٌ جانبية عتيقة تزينها أطباق وجرار ملونة زاهية. بدا المكان كأنه أُخذ من صفحات مجلةٍ راقية، إذ كان كل شيء يلمع ويسرُّ الناظرين. لم يكن المطبخ مجرد غرفة طهو، بل مساحة رحبة يغمرها إشراق مذهل. امتدَّت على أحد جدرانه نوافذ عريضة تطلُّ على شاطئٍ مرصوفٍ بالحصى الناعمة يشكِّل جزءاً من خليج صغير. وخلف الخليج الهادئ، يمتدُّ البحر بلونه الرمادي المزرق نحو الأفق كأنه قطعةٌ من السماء، متألئاً ومتموجاً تحت أشعة شمس الخريف. استقرت تحت النافذة طاولةٌ مصنوعة من خشب الصنوبر المصقول، يزينها إناء زهور دوار الشمس. وعلى الجدار المقابل، خزانةٌ حائطية تستريح فيها جرار فخارية، تضيء على الغرفة طابع الريف الفرنسي، في تناقضٍ صارخ مع طراز غرفتي المعيشة والاستقبال.
- «أنت إثان إذن»، قالت ماريان وهي تتفحصه بدقةٍ بعينيها العسليتين.
- «أجل».
- «إنك تشبه والدك. لطالما كان جذاباً، لكنَّك تفوقه طولاً. أخبرني زاكاري أنك تُحاضر في جامعة نيوهامبشير، وأنَّ لديك كتباً ومؤلفات كثيرة. كان ديكي ليفخر بك كثيراً، فقد سرتَ على خطاه وغدوتَ معلماً وكاتباً».

- «لا أذكر أنني حدثت زاكاري عن عملي»، قال إيثنان عابساً.
 - «صحيح. لكن زاكاري أجرى بعض التحريات بعد اتصاله بك للتأكد من أنك... حسن السمعة والنية. لقد وصفك بأنك رجلٌ عادي جداً في الثانية والثلاثين من العمر. أستاذٌ جامعي، وكاتب ومطلّق وليس لديك أطفال».
 - «ألم يطلع على السجل الائتماني الخاص بي أيضاً؟».
- ارتسمت على شفّتي ماريان ابتسامة خفيفة: «لا تتزعج من زاكاري. فعل ذلك بقصد حمايتي ليس إلا. ثم إن من المنصف بعد أن عرفت أسراري كلها، أن أعرف بعض التفاصيل الخاصة بك لتتساوى الأمور بيننا، أليس كذلك؟»، قالت ذلك ثم ألقت نظرة باردة على آشلين. «وأنتِ الصديقة التي عثرت على الكتّابين».
- «أجل»، أجابت آشلين متلعثمة. «اسمي آشلين. آشلين غرير».
- ثم تذكرت الكتّابين وأخرجتهما من حقيبتها بعد قليل من التعثر والارتباك في إخراجهما.
- نظرت ماريان إلى الكتّابين بحذر ويداها متصلبتان مضمومتان، وكأنها تخشى لمسهما. قالت أخيراً: «ضعيهما هناك. في الخزانة الجدارية».
- فعلت آشلين ما طُلب منها، ووضعت الكتّابين إلى جوار وعاء خزفي ملون بالأزرق والأبيض، ثم أخرجت حزمة البطاقات والرسائل ووضعتها فوق الكتّابين. بينما تبادلت مع إيثنان نظرات قلقة شرعت ماريان تحضر الشاي. وضعت الفناجين والصحون في صينية خشبية، بالإضافة إلى طبق من الكعك المرشوش

بالسكر. راح التوتر يتصاعد مع مرور الدقائق بصمت تام لا يعكر صفوه سوى دقات عقارب ساعة الحائط المنتظمة.

عندما أصبح الشاي جاهزاً، رفعت ماريان الصينية وأومات برأسها نحو الباب قائلة: «هلاً أغلق أحكما الباب؟ الجو بارد جداً ولا يسمح بالجلوس على الشرفة الأمامية. لكن الشرفة الخلفية لا تقلّ جمالاً ودفئاً».

كانت الشرفة الخلفية التي امتدت على طول المنزل تقريباً مُقَرَّزَةً بألواح زجاجية وكأنها دفيئة. تسمّرت آشليْن في مكانها مأخوذةً بمنظرٍ خلّاب يجمع البحر والسماء. لم تدرك من قبل أن الجزء الخلفي للمنزل يطل على البحر. أصابها دوار خفيف من جمال المشهد وقالت بذهول واضح: «يا له من مشهدٍ يحبس الأنفاس، وكأنني أقف على حافة العالم!».

افترت شفتا ماريان عن نصف ابتسامة وقالت: «لهذا اشتريت هذا المنزل. لقد حولتُ الشرفة الخلفية إلى غرفةٍ زجاجية لأستمتع بهذا المنظر على مدار العام».

جلس الثلاثة حول طاولة بيضاء مصنوعة من الخيزران، يغلف كراسيها قماشٌ ورديّ. ملأت ماريان ثلاثة فناجين بالشاي، ووزعتها بلطف قائلة: «تفضلاً. يمكنكما إضافة الكريمة والسكر، والاستمتاع بالكعك الذي لا يزال محتفظاً بدفء الفرن. لقد أحضرته للتو من مخبز وسط المدينة».

ساد صمتٌ غريب مرةً أخرى، كسره صوت تحريك الملاعق في فناجين الشاي. كانت آشليْن تهَمّ بأخذ كعكة عندما وضعت ماريان ملعقتها ووجهت نظرها نحو إيثان.

- «أنا متأسفة جداً لغيابي عن جنازتي والديك. لقد تصدعت علاقتي مع ديكى قبل مرض والدتك، ولو علمتُ بذلك لوقفتُ إلى جانبه حتماً، ثم ألمّ به المرض هو الآخر. كنتُ خارج البلاد حين وفاته. ولم أعلم إلا بعد عودتي حين أخبرني صديقٌ أنه رأى النبأ في الجريدة. لو لم أكن متعنتةً هكذا... لكنّ تعرفتُ إليك قبلاً. لكنني حزنت حزناً شديداً عندما سمعتُ الخبر. كان يجب أن أتصل على الأقل».
- «لقد كنتُ مقصراً بالقدر ذاته. ولأكون صريحاً، لم أفكر قطّ في التواصل معك. عندما كنتُ طفلاً، كنتُ مجرد اسم يتردد على مسمعي، لكنني علمتُ أن علاقةً وطيدة جمعتك بوالدي مدةً من الزمن».
- «هذا صحيح»، تنهدتُ بحزنٍ كأن الذكرى أوجعتها. «لطالما كنّا مقربين. كان أفضل الجميع حتى وهو صبي. كان شخصاً يمكن الاعتماد عليه. لذا سارعتُ إلى الاتصال به فور عودتي من فرنسا. احتجتُ إلى خدمة، لذا بحثتُ عنه».
- «أي نوع من الخدمات؟».
- «كانت هناك لوحة لوالدتي معلقة في غرفة الطعام. كانت ترتدي ثوباً أزرق غامقاً، وبعض الزنابق مثبتة على كتفها، وقد رُبط شعرها بعناية. اختفت اللوحة بعد مدة وجيزة من إرسال أمي إلى المصحة. ادّعت أختي أنها لا تعرف ماذا حلّ بها، لكنني لم أصدقها. أزعجتني فكرة أنها قد تكون خبأتها في مكان ما. لذلك طلبت منه أن يبحث هنا وهناك لكنه لم يعثر عليها قط. اتصل والدك بعد أسابيع قليلة، ليطلب مني

- خدمة. كان على وشك التخرج من الكلية عندما التقى بفتاة افْتَتِنَ بها. لكن أختي رفضت تماماً».
- «التقى بأمي»، قال إيثنان بهدوء.
- «أجل، كاثرين. كان ديكي المسكين مولعاً بها، لكن أمه كانت قد رسمت له مستقبلاً آخر، مستقبلاً مع فتاة أكثر... ملائمة. كنت الوحيدة في دائرته التي تجرأت يوماً على مجابهة العائلة، الأمر الذي جعله يفكر في استشارتي، عسى أن تكون لديّ حكمة أو نصيحة قد تساعد على التعامل مع هذا الموقف الذي لا يُحسد عليه».
- «وهل ساعدته؟».
- «نصحتُه بالرحيل، بل بالهرب إن اقتضى الأمر. الهرب من العائلة، ومن المال، ومن أيّ قيود تُكبّل روحه. أخبرته بأن يرفض ما تُمليه عائلة مانينغ عليه، وأن يتحرر من أغلالهم ويتبع قلبه، فهو الوحيد بيننا الذي لا يزال محتفظاً بدفء قلبه ومشاعره. لقد عثر على إكسير سعادته. غمرني الفرح حيال ذلك، فالسعادة هبة سماوية، وقليلون من يحظون بها».
- التزمت آشليين الصمت مكتفيةً بالمراقبة، لكن تعليق ماريان الأخير أثار حفيظتها. لم يكن ريتشارد وحده من عائلة مانينغ من يمتلك إحساساً مرهفاً. لا تزال آشليين تذكر أصداء مشاعر بيل الرقيقة التي لمستها في صفحات كتاب «إلى الأبد وأكاذيب أخرى». كان حزن بيل عميقاً إلى درجة صعبت على آشليين حمل الكتاب. لكن لم يكن من اللائق أن تتدخل في الحديث الآن.

بدا إيثنان محرجاً وهو يمسك بفنجان الشاي والصحن أمامه،
يعتريه شعور غير مريح وكأنه دخيل على هذا المكان. رغم ذلك،
نمت ابتسامته عن راحة صادقة وشعورٍ بالدفع.

- «شكراً لك. لطالما ذكركِ والداي بمحبة وفخرٍ كبيرين، لكن
لم يسبق لي أن سمعتُ القصة كاملةً».

تناولت ماريان كعكةً من الطبق وكسرت منها قطعة صغيرة، ثم
نفضت فتات الكعكة عن أصابعها برفق: «زارني بعد أسابيع قليلة
بصحبة كاثرين. كانت لطيفةً وجميلة، ومن الواضح أنها متيمةٌ به.
نصحتُه ألا يرتكب حماقة، وأن الحب الحقيقي لا يحتمل التأجيل،
ولا ينبغي لأي شيء أن يفرّق بينهما».

- «آلمها خلافكِ مع أبي. أمّا أنا، فلم يتسنَّ لي معرفة ما
حصل».

أدارت ماريان وجهها إلى الناحية الأخرى، وقد خيم ظلٌ كثيبٌ
على وجهها: «لقد نكث بوعده قطعته واستبدَّ بي الغضب حينها.
أنا نادمةٌ على ذلك. نادمةٌ جداً. والآن، ما الذي ترغب في معرفته
أيضاً؟».

وضع إيثنان فنجانه على الطاولة واستقام في جلسته وقال:
«أود لو أعرف أمر الكتّابين وكيف انتهى بهما الأمر في مكتب
والدي، وكيف انخرط في هذا الأمر برمته».

- «لقد انخرط المسكين بحكم العادة. ووجد نفسه مضطراً
إلى إسداء خدمة».

- «لم أفهم ما تعنين».

- «كان والدك مشغولاً بشؤونه المعتادة حين وصله طردٌ من لندن. كان كتاباً ملفوفاً بورقٍ بني مصحوباً بملاحظةٍ تطلب منه أن يسلمه إليّ دون فتحه. كاد أن يرميه، فلم يكن يثق بهيمي، خاصة بعد خيانتة عائلة مانينغ. لكنه في النهاية قرر إرسال الطرد».
- «ولماذا أرسل الطرد إلى والدي وليس إليك مباشرة؟».
- «لم يمتلك هيمي أدنى معرفة عن مكان إقامتي. بالكاد عرف أحدٌ مكان إقامتي تلك الأيام. لا سيما أن الفضيحة تُحتم على المرء مضاعفة الخصوصية. كان من الأسهل العثور على ديكي بسبب كتاباته التي ينشرها على ما أعتقد. فضلاً عن التعامل المسبق بين الاثنين».
- «تقصدين الرسالة التي أرسلتها إلى هيمي معه؟».
- اهتز ثبات ماريان وكأن زوبعةً سريعةً كدّرتها: «أجل، الرسالة».
- «هل بلغ من الوقاحة مستوى جعله يفترض بكل بساطة أن والدي سيُنَفَّذ أوامرُه؟».
- «لقد كان نموذجاً للوقاحة»، عَكَرَتْ غمامةٌ عينيها، وبدأ أنها تاهت عن سير الحديث. وعندما رفعت رأسها مجدداً، كانت عيناها صافيتين لكن نظراتها باحت بجراح الذاكرة.
- «آمن بأن الغاية تبرر الوسيلة حتى في علاقته معي. وإلا ما كان ليجرؤ على إرسال ذلك الكتاب المملوء بالأكاذيب. لقد انتهى كلاكما من قراءته كاملاً الآن، أليس كذلك؟».
- «أجل»، أجاب إيثان بهدوء.
- «كان يناديني "بيل". لكنّ بيل التي وصفها في الكتاب لم تكن تشبهني. بل لم تكن إلا وهماً من نسج خياله».

- «لذا كتبت كتابك لسرد الرواية الحقيقية»، قالت آشلين بهدوء.
- ظلت ماريان ذاهلةً تحديقاً إلى نقطةٍ بعيدةٍ في الأفق تتجاوز الجدار الزجاجي بعينين فارغتين جامدتين: «الأشياء التي كتبتها»، قالت أخيراً. «ذلك التزييف وتلك الأكاذيب كلها... ما كنت لأدعه يتذكرها بتلك الصورة. إنه يلومني، لكننا نعلم الحقيقة... كلانا يعلمها».
- رمقت آشلين إيثان بنظرةٍ سريعةٍ مفادها «أخبرتكَ ذلك». إنها بالضبط النقطة التي حاولت إيصالها إلى إيثان عن عدم منطقية ما يجري. فكلما غاصت في القصة أكثر، زادت قناعتها أن أياً منهما لا يعرف الحقيقة.
- عبس إيثان وهو يعضّ شفته السفلى: «ما زلتُ في حيرةٍ بشأن كيفية وصول الكتابين إلى مكتب والدي».
- «لا تستعجل الأمور»، قالت ماريان بحزم ثم أخذت رشفةً من الشاي وأعادت الفنجان إلى صحنه بهدوء. «عندما انتهيت من كتابة "إلى الأبد وأكاذيب أخرى"، أرسلته إلى إحدى تلك المطابع التي تطبع الكتب حسب طلب الزبون. أرسلت كذلك كتاب هيمي وطلبت منهم أن يجعلوا كتابي مثل كتابه تماماً، وقد كلفني ذلك مبلغاً كبيراً. وبمجرّد أن أصبح جاهزاً، أرسلت الكتابين إلى ديكي وطلبت منه إرسالهما إلى هيمي معاً. لا أدري لماذا فعلتُ ذلك. أعتقد أنني أردت أن يعلم أنني قادرةٌ على الرد بالمثل».

- حاولت آشلين أن تتخيل رد فعل هيمي عندما فتح الطرد الذي يضم الكتابين.
- «ما كان رده؟»
- نظرت إليها ماريان بوجهٍ خالٍ من التعابير وقالت: «لم يردّ».
- «ولا حتى بكلمة؟»
- رفعت ماريان كتفيها بلا مبالاة: «لقد أخرج ما في جوفه من غضب، وقد فعلتُ المثل. فما الذي بقي ليُحكى؟».
- عادت الحيرة تكتسي ملامح إيثان مجدداً: «إذا كان والدي قد فعل ما طلبته وأرسل الكتابين إلى هيمي، فكيف عادا إلى مكتبه إذن؟».
- بهتت ملامح ماريان وتلملمت في كرسيها: «بعد بضع سنوات، اتصل هيمي بديكي دون سابق إنذار وسأله عن إذا ما كان يستطيع الالتقاء به. ما كان على ديكي أن يوافق، لكن هذا ما جرى. وكما هو متوقع، فقد تحدّثا عني. أخبر ديكي أننا خططنا للهرب معاً، وأنتي أنا من تراجعتُ في النهاية لأنني كنتُ على درجةٍ من الكبرياء تمنعني من الزواج برجل لا يملك شيئاً. لم يكن ذلك صحيحاً بالطبع. كان ينبغي على ديكي، من بين الناس كلهم، أن يعرف ذلك. كان يعلم أكثر من أي شخصٍ آخر عمق الجرح الذي سببته لي خسارة هيمي»، توقفت وهزت رأسها بحزن ثم أردفت: «كانت نيته حسنة، لطالما كانت كذلك».
- «ثم؟»
- «ثم حنث بوعده».
- سأل إيثان محتاراً: «أيّ وعد؟».

- «عقدتُ أنا ووالدك اتفاقاً بعد شجارٍ عنيفٍ جرى بيننا . كان يضايقني باستمرارٍ بالحديث عن الماضي وعن كيفية انتهاء علاقتي بهيمي . نعتني بالقاسية وأن ما فعلته لا يُعقل . أنا قاسية! تخيل»، توقفت برهةً وحركت رأسها وقد أخذتها الحيرة تماماً: «وبعد ما جرى كله، أصرّ على رأيه بوجود طريقة للعودة وإصلاح الأمور . وكأنني طلبتُ رأيه بهذا الشأن أصلاً . قلت له إنه إذا أراد أن نبقي أصدقاء، فعليه أن يعدني ألا يذكر اسم هيمي أمامي ثانية . ولسوء الحظ، لم يشمل الاتفاق منعه من ذكر /اسمي أمام هيمي» .

- «وعندما اتصل هيمي، زعم ديكى أنه ذكر دون قصد أنني سألقي كلمةً في مؤتمرٍ في بوسطن اليوم التالي، وأنا سننتاول الغداء في أحد المطاعم بعدها . نجح هيمي في انتزاع دعوةٍ من والدك لحضور المؤتمر . كما أنّ والدك أعطاه وعداً أن ينسحب عند وصولي إلى المطعم . أظن أنّ ديكى اعتقد أننا سنجلس لنحتسي الشراب ونتبادل نظرات العشق ونعيش بسعادةٍ بعدها . ذاك الأحق الرومانسي . هكذا يفكر العشاق الحالمون، يظنون أن السعادة تُنثر كالسكر على الجميع . حمداً لله على الأعطال التقنية، وإلا من يدري ما الذي كان من الممكن أن يحدث؟» .

- «ما الذي جرى؟» .

- «تعطّل جهاز العرض الخاص بالفندق وتأخرت انطلاقة المؤتمر . لذا، اتصلتُ بالمطعم لأخبر ديكى الذي سبقني إلى هناك أنني سأتأخر . عندما سألتُ موظفة الاستقبال

على الهاتف إذا ما كان ريتشارد هيلارد قد حضر، أكدت لي وصوله هو ورفيقه. أثارت إجابتها فضولي، فسألتها عن الرجل الآخر. وبكلمات قليلة، وصفت المضيئة ضيف ديكى بأنه رجلٌ بريطاني وسيمٌ وطويل القامة. في تلك اللحظة... فهمتُ كل شيء».

- «طلبتُ منها أن أتحدث مع ديكى عبر الهاتف. رفع السماعة ولم يكلف نفسه عناء إنكار الأمر، بل حاول إقناعي بالحضور. كنتُ أشتعَل غضباً، لم أتوقع مطلقاً أن يخدعني بهذا الشكل وهو يعلم أنني...»، أطبقت ماريان فمها فجأةً، وكأنها باحت بأكثر من اللازم.

راحت تعبت بخاتم العقيق في إصبع يدها اليمنى وتحركه ببطء، ثم قالت بصوتٍ أثقله الألم: «لقد كان يعرف تماماً ما آلت إليه حالي بعد رحيل هيمي. كان على علم بأدق التفاصيل. لذلك صُغِقتُ عندما خان ثقتي وتحايل عليّ بهذا الشكل. لطالما كان يختبرني ويحاول تهئية الأرضية لنوع من المصالحة، لكنني لم أتخيل قط أن يتصرف دون علمي. على كل حال، نجوتُ من مسرحية المطعم تلك».

- «أولم تذهبي؟»، سألتها آشلين.

نزل السؤال عليها كالصاعقة: «ولم أذهب بحق السماء؟ قلت له إنني أتمنى أن يختنقا وهما يتناولان الحساء وأقفلت السماعة. اتصل بي تلك الليلة محاولاً إصلاح الأمور. لربما كنت سأسامحه لو لم يُقحم أنفه في الموضوع مجدداً، ملحاً عليّ لكي أقابل هيمي وأتصل به. لم يتوقف هنا وتشاجرنا مجدداً. اتصل بعد

- أسبوعٍ ليعلمني أن هيمي عاد إلى إنجلترا وأنه ترك الكتابين معه، وطلب من ديكي إيصالهما إليّ. أخبرته أنه يمكنه حرقهما إذا أراد، ثم أغلقت الهاتف. كانت تلك آخر مرة أسمع فيها صوته.»
- «ألهذا السبب انقطع تواصلكما؟ بسبب الكتابين؟»، قال إيثن مذهولاً.
- «لم يتعلق الأمر بالكتابين يا إيثن، بل بالإخلاص والولاء. والدك نصب لي فخاً».
- طوى إيثن منديله بعنايةٍ ووضعهُ على الطاولة: «لقد كان غداءً في مكانٍ عام، وليس في زقاقٍ مظلم في منطقةٍ مشبوهة من المدينة. لا أعتقد أنه رأى في ذلك فخاً».
- «لن تفهم أبداً»، اهتز الفنجان في يدي ماريان المرتجفتين، فوضعتهُ على الصحن بعناية، وأخفضت عينيها. «أن أنظر في عيني هيمي بعد مرور سنوات وبعد كل ما جرى من أكاذيب وخداع...»، تابعت بصوتٍ أقرب إلى الهمس: «...كان أمراً مستحيلاً».
- «تقصدين التحقيق الصحفي؟»، سألتها آшлиن بنبرة لطيفة.
- «أجل بالطبع، ذلك التحقيق هو ما أقصده»، أغمضت ماريان عينيها وكأن استحضار الذكريات يسبب لها ألماً جسدياً. «أقسم هيمي إنه لن ينشره، لكنّه كذب. نُشرت صورة أُمي وصورتِي، وصورنا جميعاً، أسفل ذلك العنوان البشع الذي عَلا الصفحة الأولى. لم أصدق أنه فعل ذلك».
- «زعم في كتابه أنه بريء»، علقت آшлиن بلطف.

- «إنه يزعم أشياء كثيرة. احتوى التحقيق معلومات لا يمكن أن تصدر إلا مني. أشياء تمسني أنا»، كفت عن الكلام وأغمضت عينيها برهة ثم تابعت: «ظن أنه يستطيع الاختباء وراء اسم مستعار، وأنتي لن أعرف أنه الفاعل. لكنني كشفته. «يستحيل أن يكون أحداً سواه».

- «اسمٌ مستعار؟».

- «ستيفن شواب. اختراعٌ آخر من نسج خياله»، قالت ماريان بنبرة جامدة.

ألقت آشليين نظرة خاطفة نحو إيثان متسائلةً عن إذا ما كان يربط خيوط القصة هو الآخر. اعتقدت ماريان أن شواب اسم مستعار... لكن ماريان لا تعرف ستيفن شواب... وهيمي ليس ستيفن شواب.

- «لكنه لم يكن كذلك»، اندفعت آشليين بالقول. «أعني أنه ليس اختراعاً. لقد عمل مع غولدي في مرحلة ما، وظهر معها في صور عدة. يبدو أنهما كانا يعيشان معاً عندما توفيت. ويُقال إنها تركت له قسطاً لا بأس به من ممتلكاتها».

أخذت ماريان لحظة صمت بعد سماع هذه المعلومات الجديدة، محاولةً على الأرجح استيعاب احتمال اتهام هيمي ظلماً سنوات. رفعت رأسها أخيراً ونظرت إلى آشليين وقالت: «كيف عرفت هذا كله؟».

أخفضت آشليين نظرها إلى فنجان الشاي المتوازن على ركبتيها، وشعرت بالدفء يسري في وجنتيها: «كنت مقتنعة أن هيمي وستيفن شواب هما الشخص ذاته بسبب أوجه الشبه

الكثيرة بينهما، فكلاهما عمل في دار سبنسر للنشر، وكلاهما كان روائياً طموحاً. فضلاً عن أنهما عملاً مع غولدي أيضاً. يصعب تخيل أنهما ليسا الشخص ذاته».

- «لا فكرة لدي عن هذا الرجل الذي يُدعى شواب، ولا يهمني حتى لو وُضع اسمه أسفل ذلك التحقيق. هناك شخصٌ واحدٌ فقط يمكنه كتابة تلك الأشياء عني لأنني لم أُبَح بها لغيره. كان اسمه ولا يزال... هيو غاريت».

دخلت آشليين حالةً من الجمود وهي تحاول استيعاب الاسم. استعاد ذهنها على عجلٍ مقتطفات من كتاب "ندم على بيل". أسلوب التعبير والإيقاع الأدبي واختيار الكلمات. أيعقل أنه هيو غاريت؟ لم تصدق ذلك أول وهلة، لكنها أصبحت موقنةً أنه هو فعلاً.

- «أنت تتحدثين عن هيو غاريت... الكاتب؟».

- «بشحمه ولحمه».

راقب إيثنان المشهد وقد تملّكته الحيرة تماماً.

- «إنه روائي»، أوضحت آشليين. «روائيٌّ عبقرِيٌّ ناجح، له أكثر من عشرين كتاباً معظمها من الأكثر مبيعاً. هل كنتِ حقاً مفرمةً بهيو غاريت؟».

- «لم يكن مشهوراً في حينها».

- «يمتلك غاريت اليوم شهرةً طاغية، كما أنه أصدر روايةً جديدة الشهر الماضي. لقد حققت نجاحاً هائلاً واحتلت المرتبة الأولى في قائمة الأكثر مبيعاً كعادة أعماله كلها. هل قرأتِ أياً منها؟».

- حدقت إليها ماريان مدةً طويلةً وقالت: «لم أقرأ إلا ... ذلك الكتاب».
- «أجل بالطبع. كنت أتساءل إن ...».
- «أعرف عمّا تتساءلين، والإجابة هي لا. لم أشعر بالفضول قط. أعرف كل ما أحتاج إلى معرفته. ليست لدي أي فكرة عن هوية هذا الرجل الذي يُدعى شواب، ولا يهمني حتى لو كان اسمه مرتبطاً بذلك التحقيق، لأن هناك شخصاً واحداً فقط كان بإمكانه كتابته».
- لو صدر هذا الكلام من أي شخصٍ آخر، لبدا مستحيلاً. لكنّ ماريان مانينغ جعلت ابن أختها يعدها ألا ينطق اسم هيمي قط. لم يكن من الصعب تخيلها وهي تحصّن نفسها ضدّ أي شيء قد يذكرها به.
- راحت ماريان تتفحص آشلين بكل ما تملكه من تركيزٍ وانتباهٍ ثم قالت: «أظن أن الوقت حان لطرح سؤالٍ مهم. لماذا تستحوذ هذه القصة على اهتمامك وفضولك؟ ما الذي تعنيه تفاصيلُ حياتي العاطفية لك؟».
- مال إيثان إلى الأمام في كرسيه، وشعر بضرورة التدخل الآن: «في الحقيقة، آشلين هي من عثرت على الكتابين. كانت تبحث في بعض الصناديق التي أحضرتها إلى متجر السلع المستعملة عندما وجدت كتاب "ندم على بيل". أما كتابك، فقد عثرت عليه بعد أسبوعٍ في صندوق آخر».
- حدقت إليه ماريان وقالت بلهجةٍ مستكبرة: «أكنت ستتخلص منهما؟».

- «لم أعرف ماهيتهما في ذلك الوقت. كنت بحاجة إلى إخلاء بعض المساحة على الرفوف، لذلك وضّبتُ كل كتاب مصنّف على أنه رواية خيالية. ودون سابق إنذار، تلقيت اتصالاً منها حول كتابين لا يحملان اسم المؤلف. لم أكن أعرف عما تتحدث حينها».

أومأت ماريان برأسها وكأنها قبلت إجابته، ثم عادت إلى آشلين: «ماذا عنكِ يا آنسة غرير؟ لم أنتِ مهتمةٌ بقصتي؟ ولماذا تجشمتِ عناء خوض المتاعب بسببها؟».

شعرتُ آشلين بأنها محاصرةٌ تحت وطأة تلك العينين الواسعتين الكبيرتين. كيف لها أن تجيب بصدقٍ دون ذكر الأصدقاء؟

- «وجدتهما كتابين جميلين ومأساويين. تشبّثتُ بأمل وجود نهايةٍ مختلفة. وشعرتُ بأن هناك حلقةً مفقودة فيها، شيئاً ما بقي طيّ الكتمان».

- «ماذا؟».

جاء ردّ ماريان ذو الكلمة الواحدة مثل الحازوقة، عفواً ومفاجئاً. رشفت آشلين رشفةً من شايبها، ثم تمهلت قليلاً في أخذ رشفةٍ أخرى. هل تُراها لمحت وميضاً من الدهشة في عيني ماريان؟ هل تصلّبت كتفاها لا إرادياً؟ يبدو أنها ودون قصدٍ منها تجاوزت بعض الخطوط.

- «ما قصدته أننا كنّا نأمل لو سارت الأمور بصورةٍ مغايرة».

- «لطالما تمنيتُ ذلك أيضاً، لكن لا يهم ذلك الآن»، ابتسمت ماريان فجأةً ابتسامة عريضة جعلت آشلين تشعر بالتوتر قليلاً. «قلتُ للتو "إننا وكنا". أفترض أنك تشيرين إلى نفسك

وايثان. هل أنتِ وابن ريتشارد مرتبطان؟ لم أستطع أن أتبين حقيقةكما».

أدركت آشلين معنى الابتسامة. إنها حيلةٌ ذكية من ماريان التي قلبت الأدوار وطرحت على آشلين سؤالاً شخصياً لزعزعة راحتها. يا لدهائها! فكرت آشلين التي اعترفت لنفسها بأن الحيلة نجحت، فلم تكن تعرف على الإطلاق كيف تجيب عن هكذا سؤال.

تدخل إيثنان لكسر الصمت المحرج الذي أعقب السؤال: «لا نزال في مرحلة الاستكشاف. التقينا قبل بضعة أسابيع فقط».

- «التقيتما بسبب الكتابين؟»، قالت وقد باتت ابتسامتها أكثر رقة.

- «أجل»، قال إيثنان.

راحت تنتظر مجدداً عبر الزجاج وقالت بصوتٍ خفيض: «يسعدني أن شيئاً جميلاً نجم عن هذه القصة بعد كل ما حملته من ألم وأذية»، ثم نهضت لتضيء مصباحين عند نهاية الشرفة. «يحلّ الظلام باكراً جداً الآن. هلاً بقيتما لتناول العشاء؟ لم أحضر أشياء فاخرة، مجرد يَخَنَة أعددتها هذا الصباح. لكن، لديّ شرابٌ فاخر وخبزٌ طازج من المخبز».

توجه إيثنان إلى آشلين قائلاً: «هل أنت مضطرةٌ إلى العودة الآن؟».

ابتسمت ماريان بترقبٍ ممزوج بالأمل: «لا تتعجلا بالمغادرة أرجوكم. ابقيا قليلاً ودعني أتأملك يا إيثنان. يسرني أن أتذكر ديكى من خلالك. ثم إن هناك كثيراً من الأشياء التي فاتتنا ويجب أن نتحدث عنها. أعدكما أن أجيب عن أسئلتكما كلها إذا بقيتما، أو على بعضها على الأقل».

الفصل السادس عشر

آشليين

«يتجسّد الأعداء في صورٍ كثيرة، ويؤثرون في سني عمرنا وفي سعادتنا، فاحذروا أعداءكم، سواء أكانوا ظاهرين أم كانوا متخفين تحت أثواب الوُدّ الزائف».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

لم تبالغ ماريان بشأن الشراب. يبدو أنها اكتسبت ذوقاً رفيعاً خلال مدة إقامتها في فرنسا، فاقتتت في قبو منزلها مخزون شرابٍ رائع. فتح إيثان زجاجةً ثانيةً قبل أن ينتهوا من تناول الطعام. جلسوا يتسامرون حول الطاولة في مطبخ ماريان الكبير والمشرق، مستمتعين بالشراب في كؤوس فخمة، وماريان تتحدث عن المنظمة غير الربحية التي أسستها منذ نحو ثلاثين عاماً، والعمل الذي يواصلون تأديته في أنحاء العالم كله.

وكما هو متوقع، انتقلت ماريان للحديث عن ابنها وابنتها متباهيةً بإنجازاتها. فقد أصبح زاكاري واحداً من عازفي الكمان الأكثر طلباً في العالم، ويقدم عروضاً أمام رؤساء دول من جميع أنحاء المعمورة، وقد انضم مؤخراً إلى أوركسترا شيكاغو السمفونية بعد جولة أوروبية استمرت خمسة أشهر. يخطط هو وخطيبته للزواج في الربيع. أما إيليز، فهي حالياً أستاذة في دراسات المرأة بجامعة يشيفا في نيويورك وأم لثلاث فتيات جميلات.

- شعرت آشليْن بالسعادة لأجل ماريان التي وجدت طريقها لعيش حياة هائلة بعد كل ما عانتَه من آلام.
- «نخب الجدة الفخورة»، قالت آشليْن وهي ترفع كأسها. «كم عمر حفيداتك؟».
- ليدا تبلغ من العمر ست سنوات، وداليا ثماني سنوات. وميلا، التي أنادياها «فتاتي الكبيرة»، تبلغ من العمر إحدى عشرة سنة. أتمنى لو كنّ يعشن بالقرب مني. أفقدتهنّ منذ أن رحلنّ من هنا. لكن إيليز تأتي بهنّ لزيارتي كلما أتيحت لها الفرصة. على كل حال، سأراهنّ الأسبوع المقبل في بوسطن».
- «ستذهبن إلى بوسطن؟».
- «سيُقام هناك حفلٌ لتوزيع الجوائز، من بينها جائزة الإنجاز مدى الحياة. تتعلق هذه الجائزة بالمنظمة التي أسستها. يدرك المرء في لحظات كهذه أن العمر يمضي وأنتك كبرت حقاً. إنها بادرة لطيفة، لكنني أفضّل أن يُرسلوها لي عبر البريد»، ارتشفت رشفةً من الشراب ثم واصلت: «لا أزور المدن كثيراً هذه الأيام، لكن إيليز والفتيات سيحضرن الحفل. إنهنّ متحمسات بشدة، حتى أنهنّ اشتريْن فساتين جديدة».
- «لم تأتِ على ذكر شقيقتك»، قال إيْشان وهو يملأ كؤوس الشراب مجدداً.
- تلاشت ابتسامة ماريان وهي تقول: «تقصد جدتك».
- «أجل، جدتي كورين. هل لا تزال على قيد الحياة؟».
- «هذا ما أظنه، إذ لم يصلني أي خبرٍ خلاف ذلك، مع أنني أشك في أنهم سيخبرونني أصلاً. لم نتحدث منذ عودتي مع

الطفلين إلى الولايات المتحدة، أي منذ نحو خمسةٍ وثلاثين عاماً».

- «وماذا عن باقي أولادها؟ سمعتُ خبر إسقاط طائرة روبرت ووفاة إحدى بناتها قبل بضع سنوات، لكنني لا أعرف شيئاً عن الآخرين».

- «آن وكريستين»، رفعت ماريان كتفيها بلامبالاة. «ليست لدي أدنى فكرة عن مكان وجودهما. لقد أحرقتُ جسوري كلها خلفي، ولستُ نادمةً على ذلك. عائلتي اليوم هي زاكاري وإيليز وأهل أمي في فرنسا. تعلق زاكاري وإيليز بأقاربنا في فرنسا خلال زيارتنا، وما زالوا على اتصال. أشعر بالسعادة حيال ذلك».

زيارتنا؟ بدت الكلمة مفاجئةً لآشلين التي قالت: «لطالما ظننتُ أنكِ تبنيّ زاكاري وإيليز في أثناء وجودك في فرنسا. لم تذكريهما في كتابك قط».

نظرت ماريان إلى آشلين بامتعاض وقالت: «لم أرَ أيّ داعٍ لذكرهما، ولا علاقة لهما بما جرى في ذلك الوقت. كما أنه لا توجد أيّ صلةٍ تربطهما بهيمي».

- «ما قصدته أنني لم أفهم تماماً التسلسل الزمني للأحداث، لذا ظننتُ أنكِ تبنيّتهما بسبب عملكِ مع منظمات رعاية الأطفال».

خفّت حدة ملامح ماريان، كعادتها حين تتحدّث عن أبنائها وقالت: «بل على العكس تماماً. عملتُ مع المنظمات في أثناء وجودي في الخارج بسبب الأطفال. لقد رأيت بأمّ عيني الخراب

الذي خلّفته الحرب على العائلات قبل أن تطأ قدماي أرض فرنسا بمدةٍ طويلة. روى اللاجئون الأوروبيون، أولئك الذين جاؤوا قبل أن نتوقف عن استقبالهم لاحقاً، قصصاً مروّعة عما كان يحدث في أوطانهم. أصبحت إحداهنّ، وهي امرأة نمساوية حالفها الحظ في الهروب من النازيين، صديقتي عندما كنت أعيش في كاليفورنيا. كان اسمها جوانا مايتتر. انتظري قليلاً... لديّ صورة لها».

غادرت ماريان المطبخ لحظةً، ثم عادت وهي تحمل صورةً داخل إطار فضي بسيط. أعطتها إلى آشليين وقالت: «هذه هي جوانا».

تأملت آشليين الوجه المحدث إليها من خلف المستطيل الزجاجي الصغير. وجهٌ بلامح حادة وعينين حزينتين شاحبتين وشعرٍ أشقر كثيف. لقد كانت جميلة ذات يوم، لكن شيئاً ما، الحرب على الأرجح، عكّر هذا الجمال، وخلف وراءه ملامحٌ تُنبئ بقصة حزينة. استطاعت آشليين كذلك أن تلاحظ استدارة بطنها وانتفاخه قليلاً.

- «هل كانت حُبلى عندما التقطت هذه الصورة؟».

استعادت ماريان الصورة وضمتها إلى صدرها: «أجل، كانت حُبلى». لمعت عيناها وخفّت صوتهما وكأنها تسترجع تفاصيل القصة من مكانٍ مظلم في ذاكرتها. «كان زوجها "يانوش" عازف كمانٍ له صداقات ومعارف مؤثرون. عندما علم بحمل زوجته، استخدم علاقاته لترتيب خروجها مع ابنهما من النمسا إلى الولايات المتحدة. كان من المفترض أن يلحق بها بعد بضع

أسابيع، لكن قُبض عليه بسبب أوراق مزورة واعتُقل. توفّي بعد ذلك بمدة وجيزة في أحد المعتقلات، ولم يتسنّ لها أن تعرف في أيّ معتقل كان، لكن ذلك لم يكن مهماً. لقد رحل، لتبقى وحيدة في بلد غريب تنتظر مولوداً.

- «طفلٌ ثانٍ تعتي به»، أضافت آشليين بأسى.

- «أجل. طفلٌ ثانٍ»، قالت ماريان بهدوء.

- «كيف أصبحتما صديقتين؟».

كانت تسكن في المنزل المجاور لمنزلي، تائهةً ومحطمةً بعد كل ما جرى معها. لم تكن بالطبع في وضعٍ يسمح بإنجاب طفل، لكنّ الأطفال لا يستأذنون عندما يأتون إلى هذه الحياة. كانت بحاجة إلى من يعتني بها، ويطبخ وينظف ويشغل بالها عن الأمور الأخرى. قضيت في منزلها وقتاً أكثر مما قضيته في منزلي. أصبحنا مقرّبتين وكأنا أختان. علمتني الطبخ وتلاوة الصلاة، حتى أصبحنا نحن الثلاثة عائلة واحدة. ثم ولدت إيليز.

غصّت آشليين وهي تقول: «كانت أمّ إيليز؟».

«أجل»، قالت ماريان وقد تجمّعت الدموع في عينيها.

- «ماذا عن زاكاري؟».

- «إنه شقيق إيليز»، ارتجف صوت ماريان وأشاحت بعينيها بعيداً. «توفيت جوانا بعد أيام قليلة من ولادة إيليز. أصيبت بنزيف حاد وخسرت كثيراً من الدماء. علمَ الطبيب أنها لن تتجو، وعلمت هي الأخرى مصيرها. لم تبقَ لديها أي قدرة على المقاومة والتشبث بالحياة. طلبت قلماً وورقة، ثم طلبت مني الاتصال برجل الدين ليشهد على ما ستكتب».

تابعت وقد أضفى الدمع جمالاً إلى عينيها: «طلبت إليّ أن أعتني بإيليز... أن أربيها كأنها ابنتي. لم يخطر على بالي الرفض قط، فلم يكن لدى جوانا أحد غيري. كانت تعلم أنني سأحبّها، سأحبهما، وكأنهما طفلاي الحقيقيان. لطالما كنا عائلة، وسنواصل حياتنا على هذا الأساس. أصرت جوانا على حضور رجل الدين ليكون شاهداً على وصيتها. وعندما وافق، أغمضت عينيها وأسلمت الروح».

وضعت ماريان الصورة جانباً ومسحت دموعها بمنديلها: «أعتذر على بكائي. ما زالت ذكرها تدمي قلبي رغم مرور هذه السنوات كلها».

قاومت آشلي رغبتها في الإمساك بيد ماريان، وقالت بنبرة متعاطفة: «إنه أمرٌ لا أقوى على مجرد التفكير فيه؛ أن تقع على عاتقي مسؤولية تربية طفلين وأنا امرأة عازية. هل كان الأمر صعباً؟ أعني تبنيهما رسمياً؟».

لم يكن الأمر صعباً كما الآن. تتنافس اليوم عائلات كثيرة على رعاية طفلٍ واحد، لكن في تلك الأيام اكتظت دور الأيتام بالأطفال وكان العالم بأسره في حالة حرب. ذهب الرجال للقتال واضطرت النسوة إلى العمل. لم يبحث أحدٌ عن عائلة جاهزة إلا أنا. كانت أكبر عقبة أمامي هي أنني عزباء، لكن رجل الدين أيّدني ودعمني وساعدني على توكيل محامٍ ماهرٍ ساعدني بدوره على تخطي العقوبات القانونية».

- «كم كان عمر زاكاري في ذلك الوقت؟».

- طوت ماريان منديلها بعناية وأجابت: «كان قد بلغ الثانية من عمره».
- «طفلٌ صغيرٌ وأخرى حديثُ الولادة. كيف تدبّرتِ أمر تربيتهما بحق السماء؟».
- «لم يكن الأمر صعباً كما تظنين. لقد ثارت ضجةٌ كبيرة عندما عدنا إلى الولايات المتحدة. وأُعترف أنني ارتكبت خطأً بالعودة إلى نيويورك، ففي كاليفورنيا لم يكن أحد يعرفني. عندما عدتُ إلى نيويورك، لم يُطل الأمر بالصحافة لتعود وتترىص بي. عندما علموا أنني عدت من فرنسا ومعِي طفلان، افترضوا أنني متزوجة. وحين علموا أنني عزباء وأنني أُرعى الطفلين فقط، اختلقوا قصة ذهابي إلى فرنسا خصوصاً لإنقاذ طفلين يتيمين من ويلات الحرب. كانت القصص التي تُنشر في المجلات والجرائد سخيفةً جداً. روت إحداها أنني زحفتُ في الوحل حاملةً حربةً بين أسناني، وقارعت جنوداً نازيين لأحرر الطفلين من معتقل درانسي. عزت الصحافة عملي البطولي ذاك إلى أصول والدتي اليهودية. لقد لفقوا مهرجاناً من الأكاذيب. لكن من الصعب إيقاف القطار بعد أن يكتسب الزخم».
- «لا بدّ أن والدكِ سرّاً أيما سرورٍ بعودتك»، علق إيثان. بالكاد ابتسمت ماريان التي قالت: «كان هو وكورين غاضبين. فبعد أن تراجعت الشائعات حول قصة وفاة والدتي، تصدرتُ عناوين الأخبار مجدداً ومعِي هذه المرة طفلان يتيمان، معيدةٌ إحياء الفضيحة. لم يستطع زاكاري وإيليز فهم سبب هذه الضجة

كلها»، ابتسمت بلطفٍ إذ ذكرتهما، ثم واصلت: «جعلت الصحف الأمر يبدو وكأنني أنقذتهما، لكن الحقيقة أنهما من أنقذاني. كنت تائهةً تماماً بعد ما حدث مع هيمي، لتأتي جوانا مع طفلها مضيفةً المعنى إلى حياتي. لقد منحوني شيئاً أفقده، شيئاً أهتم به إلى جانب آلامي وآلام الحرب».

- «ثم سافرت مع الأطفال إلى فرنسا بعد انتهاء الحرب؟»
سألت آشليين محاولةً ملء فراغات القصة.

رمقتها ماريان بنظرة ثاقبة: «أنت كثيرة الأسئلة؟ أجل ذهبنا إلى فرنسا إلى برجراك. تدهورت صحة خالتي لذا حرصت على زيارتها قبل فوات الأوان. أمضى الطفلان وقتاً طيباً هناك. تعلمنا الفرنسية وبعض اليديشية، وكل شيء عن زراعة العنب. كانت رحلة رائعة أفادتنا جميعاً. فضلاً عن عملي هناك مع المنظمات الخيرية. لقد كان مرهقاً لكنه مجزٍ تماماً».

- «هل يعلم زاكاري وإيليز أنك أمهما بالتبني؟»
أجابت ماريان ممتعةً من السؤال: «بالطبع يعرفان. لقد أخبرتهما الحقيقة عندما وجدتُ أنهما أصبحا كبيرين بما يكفي ليستوعبا. رويتُ لهما... كل شيء».

أمسكت آشليين بصورة جوانا ما يتر مرةً أخرى وراحت تتأملها: «أستطيع أن أرى إيليز في ملامحها. إنها تشبهها كثيراً. أخذت لون البشرة وشكل الوجه النحيل».

ضاقت عينا ماريان وهي تقول بنبرةٍ شابها اضطراب: «لم أكن أعلم أنك تعرفين ابنتي».

- «أنا لا أعرفها، لكن إثان أراني بعض الصور التي احتفظ بها والده، وقد أحضرناها اليوم مع بقية الرسائل والبطاقات».
- هدأت ماريان لدى سماع جواب أشلين: «أعتذر لتوتري، لكن أشخاصاً لم أقابلهم من قبل قط يعرفون أدق تفاصيل حياتي الخاصة. الأمر أشبه بأن يقرأ أحدهم مذكراتك خلسةً، وهو ما أظن أنكما فعلتماه. عندما سطرْتُ مشاعري وبُوحِي ذاك على الورق، كان مخصصاً لهيمي دون غيره. لم أتخيل قط أن يقع الكتاب في أيدي أشخاص آخرين يضعونني موضع استجواب، ناهيك باضطرابي إلى شرح أي من هذه المذكرات».
- «أعلم ذلك. وبصراحة، لم نتخيل قط أننا قد نحظى بفرصة لقائك وجهاً لوجه. لكننا تمكنا من الوصول إلى زاكاري بعد أن عشر إثان على إعلان حفلٍ موسيقي قديم».
- «لقد أخبرني ذلك. كان حفل أوركسترا بوسطن حسبما أعتقد. تمنيتُ لو أنه بقي في بوسطن، لكنه حقق نجاحاً مذهلاً وأصبح سعيداً. لا يسعني إلا أن أشعر بالفخر حيال ذلك».
- «إنه لأمرٌ رائع أن يحذو حذو والده. هل تعتقدين أنه يتذكره؟».
- «المعذرة؟».
- «قلت إن يانوش كان عازفَ كمان. لعله السبب الذي جعل زاكاري يقرر تعلّم عزف الكمان أيضاً، ربما لأنّه يتذكر والده وهو يعزف».
- «لا، إنه لا يتذكره»، قالت بعد أن شربت آخر قطرة في كأسها. «كان صغيراً جداً عندما توفي يانوش، ناهيك بأن

- يانوش كان مشغولاً خارج المنزل أكثر الوقت. لكنه يتذكر جوانا، أو هكذا يظن. اعتدتُ أن أحدثهما عنها قبل النوم. أردتهما أن يعرفاهما، وأن يعرفا أن لديهما والدتين».
- «والدتان اثنتان لكن دون أب. ألم تفكري في الزواج يوماً؟»
- لوّحت ماريان بيدها نافية: «لم يكن لدي وقت للزواج لانشغالي التام بين الأطفال والعمل. كان لدي كل ما أحتاج إليه، فما حاجتي إلى الزواج؟»، ابتعدت ماريان عن الطاولة ونظرت إلى ساعتها قائلة: «يا إلهي! تجاوزت الساعة العاشرة، لقد قضينا المساء كله في الكلام».
- وقفت آشلين وراحت تجمع كؤوس الشراب الفارغة: «اعذرنا على أخذ كثير من وقتك. سنساعدك في التنظيف، ثم سنستأذنك بالرحيل».
- «على الرحب والسعة. دعيها أرجوك. إنها بضع كؤوسٍ فحسب، سأتولى أنا ترتيب المكان، ثم إنَّ الضباب قد بدأ يخيم بالفعل. لا أريد أن أتسبب في تأخركما. اذهبا وارتيديا معطفيكما وسأقابلكما في الردهة».
- ارتدى إيثان وآشلين معطفيهما وتجهزا للانطلاق عندما ظهرت ماريان حاملةً زجاجة شراب. أعطتها لإيثان ثم طبعت قبلةً لطيفة على خده: «إنها من النوع الفاخر. تشاركها شربها معاً في سهرة جميلة، مذاقها شهّي مع الجبن والفواكه».
- تفحص إيثان ملصق العلامة على زجاجة الشراب: «إنها من كروم عائلتك».

- «عائلتك أنت أيضاً»، ذكرته ماريان. «قد تسافران معاً يوماً ما إلى هناك. أنا متأكدة أن أقاربك الفرنسيين سيسعدون بلقائكما».

قال إيثان لآشليين مبتسماً: «يبدو أن علينا البدء بتحسين لغتنا الفرنسية».

وجهت لهما ماريان نصيحةً تشوبها نغمة تنبيه: «لا تماطلا في الأمر. يمرّ الوقت كقطارٍ فائق السرعة لا يتوقف ولا ينتظر أحداً، فتهدرا فرصكما».

- «حسناً. لن نتأخر».

مدت ماريان يدها وراحت تتحسس وجه إيثان برفقٍ وروية: «أقاربك هناك أشخاصٌ طيبون. يجب أن تتعرف إليهم، وإلى زاكاري وإيليز والفتيات أيضاً. قل لي إنكما ستعودان أنتما الاثنان، ولعلكما تقضيان بضعة أيامٍ عندي. لا أريد أن نكون غريباء بعد الآن».

ابتسم إيثان متأثراً وهو يحمل زجاجة الشراب تحت ذراعه: «آسفٌ على الوقت كله الذي فاتنا. أعدك أن أعوض ذلك».

قابلت ماريان ابتسامته بابتسامةٍ تشعّ عاطفة وعينين تلمعان بدمعٍ لم ينسكب: «سيعوض كلانا ما فات. اذهبا الآن وتوخّ الحذر في أثناء القيادة أرجوك. لا أطيق الانتظار لقضاء مزيدٍ من الوقت مع ابن ديكى... وصديقتة».

الفصل السابع عشر

آشليين

«ما تراه العين لا يعكس بالضرورة ما يخفيه القلب. قيّم حالتك بدقة واعلم متى تطلب مساعدة يدٍ خبيرة».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

جلست آشليين في المقعد الجلدي تُقاوم النعاس الذي سببه الشراب والسيارة تطوي المسافات مبتعدةً عن ماربلهيد، والليل حلّ تاركاً الضباب الكثيف يلفّ الأجواء الباردة.

إلى جانبها، ثبتّ إثان نظره على الطريق صامتاً على غير العادة، يحاول على الأرجح استيعاب مجريات اليوم. ومنها تلك اللحظة الدافئة في الردهة قبل مغادرتهما عندما لمست ماريان خده وأخبرته أنها لا تريد أن يبقوا غرباء. وتلك اللحظة الغريبة الأخرى عندما وعد أن يذهب هو وآشليين إلى فرنسا. كانت تلك مجاملةً من إثان على الأرجح، لكنه بدا متأثراً حقاً حينها، أو لعله يفكر حقاً في زيارة أقاربه الفرنسيين. وهذا ما تمنّته آشليين. نظرت إليه آشليين وقد بدا غارقاً في أفكاره ومرهقاً بعض الشيء: «هل أنت بخير؟».

- «أجل. لم قد لا أكون كذلك؟».

- «لا أدري. كان يوماً حافلاً، وتبدو الآن هادئاً على غير عادتك. ظننتُ أن الحديث عن والديك أزعجك ربما».

- «كان الحديث لطيفاً في الحقيقة. سررتُ عندما علمتُ أن ماريان لاحظت مدى العشق الذي تكنّه والدتي لوالدي. قلّما نفكر في والدينا بهذه الطريقة. قلّما نراهما شابيين عاشقين لديهما أحلامٌ وشغف بالحياة. إنهما بالنسبة إلينا أبٌ وأم فقط».

فضّلت آشليّن ألا تُفكّر في والديها على الإطلاق، لذا لم تُعقب على كلام إيثان، واكتفت بالقول: «أصبحت لدينا الآن صورة أوضح للأحداث. لكن كيف تعامل والدك مع الكتّابين؟ ولماذا انقطع تواصله مع بيل؟ إنه لأمرٌ مؤسف. بدت تحبّه بحق، وأعتقد أنها كانت سعيدة جداً بلقائك».

- «ربما. لكنها بدت حذرةً في البداية وكأنها تعتقد أننا جننا لاستجوابها. فوجئتُ عندما انطلق لسانها بالكلام أخيراً وفتحت قلبها. بل فوجئتُ بأشياء كثيرة في الواقع. لم تكن كما توقعتها».

- «ماذا كنت تتوقع؟».

- «ظننتُها أكبر سناً وأكثر تحفظاً. لم أكن مستعداً لمقابلة هذه الشخصية التي فتحت لنا الباب بنفسها. كنت أعلم أنها جميلة، إذ لطالما تحدثت أُمي عن جمالها. لكنني لم أتوقع أن تظلّ جميلةً هكذا».

- «أليس كذلك؟ عدا عن شخصيتها الاستثنائية الرائعة. تخيل أنها تبنت اثنتين من أيتام الحرب وربتهما ليصبحا شخصين بالغين ناجحين. وذلك كله بمفردها. لا يهمّ كم تملك من المال، فنُبّل أخلاقها واضحٌ في عملها. ثم أسست منظمةً

غير ربحية لمساعدة الأطفال الأيتام في أنحاء العالم. وفوق ذلك كله، تعدّ يخنةً لذيذة. لا عجب أنها أرادت أن يعرف هيمي أنها عاشت حياةً كاملةً أدت فيها رسالةً نبيلةً».

- «قالت إن انشغالها الدائم منعها من الزواج».

- «قد يكون ذلك صحيحاً، لكنني أراهن بكل ما أملك أن ذلك ليس سبب عزوفها عن الزواج. أعتقد أن الأمر برمته مرتبطٌ بهيمي والجرح الذي سببه لها. من الصعب أن تتسى مشاعر الألم والخيانة عندما يؤذيك شخص تحبه بهذا القدر من الاكتمال، خاصةً عندما تعلم أنه فعل ذلك عامداً متعمداً».

- «أما زلنا نتحدث هنا عن ماريان؟».

شعرت آشليين به ينظر إليها فأشاحت بوجهها نحو النافذة وأجابت: «أجل».

- «متأكدة؟».

- «أجل».

تابع إيثنان النظر إليها منتظراً أن تُكمل كلامها. ولمّا طال صمتها قال: «بتنا نعرف اسمه على الأقل، هيو غاريت».

- «كدتُ أفقد صوابي عندما نطقْتُ اسمه. نعلم أنه كاتبٌ موهوب، فقد تحدّث عن تأليفه كتابين عن الحرب، لكنني لم أتخيل قط أن هيمي هو ذاته أشهرُ الكُتّابِ وأكثرهم مبيعاً، ناهيك بغزارة إنتاجه. لا بدّ أن ماريان كانت خائفةً من أن تظهر قصتهما يوماً على واجهة المكتبات».

عبس إيثنان وهو يفرك ذقنه قائلاً: «أتساءل لماذا لم يحدث ذلك؟».

- «ربما حدث فعلاً»، قالت آشليين على عجل مستغربةً لماذا لم تخطر الفكرة على بالها قبلاً. «لا يتطلَّب الأمر سوى تغيير بعض الأسماء ووضع عنوانٍ جديد. وهكذا، بضربة واحدة يصبح كتابه من أكثر الكتب مبيعاً. لن يتعرّف أحدٌ إلى القصة إلا ماريان التي قالت بنفسها إنها لم تقرأ أياً من كتبه. لقد قرأتُ أنا عدداً قليلاً منها، لكن ليس جميعها. إنه متخصصٌ في القصص التي تدمي القلوب. روايات تجعلك تذرف الدموع بغزارة. لا بد أنه نشر قصتهما ونحن لا نعلم». توقف إيثان عند إشارة المرور قائلاً: «سوف تشتري كتبه كلها الآن، أليس كذلك؟».

- «أشتريتها؟ لا. سأقرأ كلمات الغلاف على كتبه لأرى إن كنت سأجد شيئاً مألوفاً. ولو لم يتجاوز الوقت منتصف الليل الآن، لأجبرتك على قيادة السيارة إلى أقرب مكتبة. إضافةً إلى أنني متشوقةٌ لأعرف شكله. أنا متأكدةٌ أنه يستخدم صورة الوجه المعتادة على أغلفة كتبه، لكنني لم ألقِ بالاً إليها في السابق. الآن وقد ذكرتُ أمر كتبه، أتذكر وجود بعضٍ منها في الصناديق التي أحضرتها إلى متجر كيفن».

تحولَّ ضوء الإشارة إلى الأخضر. شغل إيثان الماسحات لمسح الزجاج الأمامي، ثم ضغط دواسة البنزين مسرعاً: «غالب الظن أنها تعود لأمي. كانت تعشق الروايات التي تستحضر الدموع».

- «هل تعتقد أنها عرفت أن هيو غاريت وهيمي هما الشخص ذاته؟».

- «لا أدري. لكنّ أبي كان يعلم بالتأكيد ولا أتصور أنه أخفى الأمر عنها. كما قلت لك قبلاً، لا توجد أسرارٌ بينهما».
- سرحت آشلين في أفكارها في صمتٍ دام برهة، إذ راحت تستعيد في ذهنها أجزاء من محادثة اليوم. لقد توضحت أشياء كثيرة أخيراً، ومع ذلك لم تستطع أن تكبح شعوراً راودها بأن هناك أشياء لم تكن ماريان على استعدادٍ لمشاركتها به. لقد اتسمت إجاباتها بحذرٍ ملموس، وتحليلٍ متأنٍ لكلماتها، يكاد يقارب الحذر الشديد. وهي مهارةٌ أتقنتها آشلين نفسها على مر السنين، إذ عرفت ما الذي يجب إغفاله عند الإجابة عن سؤالٍ مزعج.
- قال إيثن منتشلاً آشلين من شرودها: «أصببت عندما قلت قبل قليلٍ إنني هادئٌ على غير العادة. كان يوماً غريباً حقاً. على مدار سنواتٍ عدة، سمعتُ من أبي وأمي قصصاً عن هذه المرأة التي لم ألتقِ بها قط. لأجد نفسي اليوم جالساً على شرفة منزلها، أصغي إليها وهي تتحدث عنهما. أعتقدُ أن لقاءنا بها كان ليُسعد والدي، على الرغم من الخلاف الذي دبّ بينهما».
- «من المؤسف أنه لم يتسنّ لهما رأب الصدع قبل وفاته، لكنني أفهم غضبها الشديد تجاهه. ربما كانت نيّاته في ترتيب الغداء طيبة، لكن الأمر بدا بالنسبة إلى ماريان خيانةً جديدة صادرة من الشخص الوحيد في عائلتها الذي ظنت أنها تستطيع الوثوق به».
- «لا أدري حقيقة ما حدث أو لماذا، ولكنني أعرف والدي جيداً. ما كان ليفعل شيئاً بقصد خداعها قط. من الواضح أنه ظنّ أن لديها وهيمي أموراً يحتاجان إلى مناقشتها».

تأملت آشليين في الأمر ملياً. لم تقابل ريتشارد هيلارد من قبل، لكنها سمعت ما يكفي لتثق بكلام إيثان بشأن دوافع والده. ذكرت ماريان مراتٍ عدة أن موضوع هيمي كان نقطة خلافٍ دائمة بينهما، وأن ريتشارد ظل يحاول إقناعها بالعودة إليه. لكن ما لم تذكره ماريان هو السبب. هل من الممكن أن ديكي عرف الظروف الحقيقية وراء انفصال هيمي وبيل؟ قد يفسر ذلك إصراره الشديد على لمّ شملهما. لكن لماذا تصرّ ماريان على الرفض؟ - «هل لاحظتَ شيئاً غريباً اليوم عندما كانت ماريان تتحدث؟ شيئاً... غير عادي».

- «غير عادي؟».

- «لا أستطيع تحديده تماماً، لكنها بدت أحياناً وكأنها في موقفٍ دفاعي. أسألها عن أمرٍ ما، فتتحول إلى موضوع آخر أو تصرف الانتباه بسؤال تطرحه هي. كأن هناك خطأً معيناً ترفض تجاوزه، وفي كل مرة تقترب منه، تغلق النقاش تماماً».

- «لا أعرف إن كان وصفك مناسباً فنحن نتحدث عن ذكريات مؤلمة هنا. ناهيك باستجوابها من شخصين لا تعرفهما. لو كنت مكانها لتصرفتُ بغرابةٍ أيضاً. وبصراحة أكبر، أنا متفاجئ أنها شاركتنا قصتها».

- «أظن أنك محقّ».

لم تقتنع آشليين تماماً، لكن يوماً طويلاً قد انقضى، وهناك كثيرٌ من المعلومات لتستوعبها. أراحت رأسها على مسند الرأس، وغرقت في المقعد الجلدي. تمنّت لو أنها لم تترك سيارتها عند منزل إيثان، ففكرة القيادة ليلاً إلى منزلها أقلقته.

- «لا تزال أمامنا ساعة تقريباً»، قال إيثان وكأنه يقرأ أفكارها.
- «أغمضي عينيك وسأوقظك عندما نصل إلى المنزل».
- «الضباب يزداد كثافة. يجب أن أبقى مستيقظة في حال احتجت إلى مساعدة».
- «أستطيع تدبر الأمر، نامي قليلاً».



- غفت آشليين دون أن تدري كم مضى من الوقت عندما أيقظها صوت الحصى تحت عجلات السيارة. انتفضت واجمةً وراحت تنظر عبر زجاج السيارة الأمامي حيث تصدّع جدار الضباب تحت وطأة ضوء المصابيح الأمامية.
- «يا إلهي»، قالت وهي تدير رأسها يميناً ويساراً لتلّين عنقها المتيبسة. «آسفة لقد غفوتُ مدةً طويلة».
 - «لا عليك. وصلنا تقريباً».
- نظرت من النافذة مع دخول السيارة منعطفًا قاسياً وهي لا تزال تحاول تحديد موقعها. لكنها لم تستطع تمييز أي شيء عبر الضباب الكثيف. «أكره القيادة في مثل هذا الجو. أشعر دائماً بأنني على وشك السقوط من منحدر. قل لي أرجوك إنك تستطيع رؤية الطريق أمامك؟».
- «نحن على بعد دقائق قليلة فقط من المنزل. أستطيع القيادة على هذا الطريق وأنا معصوبُ العينين».
- أطلقت آشليين تهيدةً عميقةً قائلة: «لماذا لا يطمئنني هذا على الإطلاق؟».

- «تعلمين أن بإمكانك البقاء».

أدارت آشلين رأسها صوبه بسرعة أكبر مما كانت تتوي:
«ماذا؟».

- «لست مضطرةً إلى العودة الليلة إلى منزلك. يمكنك البقاء
في منزلي».

- «لا بأس. سأكون بخير، شكراً لك».

عندما دخلا بالسيارة ممر منزل إيثان، أمسكت آشلين بحقيبتها
ومدت يدها نحو مقبض الباب مستعدةً لخروج سريع من السيارة:
«شكراً على التوصيلة إلى هنا. كان يوماً جميلاً».

أطفأ إيثان محرك السيارة ونظر إليها قائلاً: «أتكلم بجدية.
ابقي هنا اليوم».

- «سأكون على ما يرام، إنها عشرون دقيقة على الأكثر».

- «لا أظن أن من الصائب القيادة في مثل هذا الجو، فضلاً عن
أن الوقت متأخر وأنت منهكة. وباستعارة عبارة الجدة ماريان،
سيتملكني القلق الشديد لو انتهى بك المطاف في حفرة».

ابتسمت آشلين رغماً عنها ثم قالت: «أعدك بتجنب كل
حفرة على الطريق»، ثم نزلت من السيارة وخرجت إلى الضباب
وهي ترفع حقيبتها على كتفها. «صحيح... كدتُ أنسى زجاجة
الشراب».

كانت لا تزال تحاول إخراج الزجاجة من حقيبتها عندما التف
إيثان حول السيارة ووقف أمامها: «ابقي»، قال بصوت عميق
هامسٍ تلاشى بغرابة أمام هدوء الضباب المعزول. «لا أقصد أن
تبقي معي، ليس هذا ما أطلبه. أريدك فقط أن تكوني هنا عندما

أستيقظ في الصباح، تحت السقف ذاته. هل يبدو طلباً غريباً؟». هزت آشلين رأسها نفيًا، بل بدا طلباً جميلاً في الواقع: «لا. لا يبدو غريباً... يبدو مخيفاً بعض الشيء».

رافقت ابتسامة رقيقة صوته عندما استأنف حديثه: «يمكنني أن أمنحك الاختيار بين خمس غرف نوم، اثنتان منها تطلان على المرفأ، وأبوابها كلها مزودة بأقفال. ليس لدي رداء حمام مطرز بحروف اسمك، ولكنني متأكد أن بإمكانني إيجاد قميص نوم قديم. هناك أيضاً فطور شهي إن كان ذلك يؤثر في قرارك».

- «ليست أقفال الأبواب هي ما يقلقني يا إيثان، الأمر لا يتعلق بعدم الثقة بك».

- «بم يتعلق إذن؟».

أغمضت عينيها متمنيةً اختفاء السؤال. إنها المحادثة التي ظلت تتجنبها، والحقيقة التي بقيت تتفادها أسابيع: «الثقة بنفسي على ما أظن».

- «تخشين النوم في غرفة الضيوف لدي؟».

بدا الأمر سخيلاً حين صاغه على هذا النحو، وكأنها تخشى أن تفقد السيطرة على نفسها إن كان في الغرفة المجاورة. لكنها وقفت على هذه الهاوية بالذات قبلاً، والقول إنها انتهت بشكل سيئ سيكون ألطف تعبير عما جرى. لقد قفزت في وقتٍ باكر، وسقطت بعنف، وتركت نفسها مكشوفةً لكل ما تلا ذلك. لا يمكنها أن تخاطر باقتراف هذا الخطأ مرة أخرى. لن تكون هناك عودة إن فعلت. لقد بنت لنفسها حياةً بعد وفاة دانييل. حياة صغيرة وحذرة وآمنة. وعليها أن تكفي بها.

- «إيثان...».

- «ابقِ هنا»، همس مجدداً بصوتٍ أخفّ هذه المرة لكنه أكثر إلحاحاً بطريقة ما. «أفهم أنك خائفة. لا أعرف السبب، لكنني أفهم ذلك. لست مدينة بأن تحكي لي أي شيء. لست مدينة لي بشيء على الإطلاق، لكنني مستمعٌ جيد إن كنتِ في مزاج للمشاركة، أو يمكننا ببساطة الجلوس على الأريكة ومشاهدة الأفلام طوال الليل ولا داعي لإخباري بأي شيء. ابقِ هنا فقط، دون قيود أو تبعات».

- «ألن يشوش ذلك علاقتنا؟».

- «يشوش علاقتنا؟»، أجاب إيثان وكأن السؤال كان غايةً في السخف. «أنا مشوشٌ منذ اللحظة الأولى التي التقيتكِ بها يا آشليين. وقعتُ في حيرة بشأن كل شيء. عندما سألتنا ماريان اليوم ذلك السؤال تجمدتِ، ولم تعرفي كيف تجيبين. لكنني أنا عرفت. لقد عرفت بالضبط ما أريد قوله. أردت أن أقول أجل يا ماريان إننا مرتبطان. ثم ذكّرتني بأن الكتابين هما ما جمّعنا. حسناً، ها قد حُلّ اللغز الآن ولم يعد الكتابان بحوزتنا، وأخشى أنني إذا تركتكِ تذهبين الليلة، فإن كل شيء سيكون قد انتهى. ولن يكون لديكِ أي سببٍ لرؤيتي مرةً أخرى».

- «تعتقد أنني سأختفي وكأنني لم أكن؟».

- «لا أدري ما أفكر أو أعتقد حقاً. كل ما أعرفه أنني لا أريد أن تكون هذه هي النهاية، لكنها تبدو كذلك. قلتها قبلاً وسأقولها مرةً أخرى، إن لم تكن واضحةً أول مرة؛ أريد أن أرى كيف سنكون معاً، لأرى هل هناك نحن، هل هناك إيثان وآشليين بعيداً عن هيمي وبيل».

أمعنت آشلين النظر إلى وجهه. أخفى الضباب بعض ملامحه، لكنها لم تكن بحاجة إلى رؤية وجهه. كانت كتفاه مشدودتين وجسده متصلباً كأنه يستعد لتلقي ضربة. لم تكن هي وحدها من يخاطر.

- «حسناً إذن».

- «حسناً ماذا؟».

- «سأبقى».

- «يمكننا إعداد البيض المخفوق إذا أردت».

عقدت آشلين حاجبها باستغراب: «هل أنت جائع؟».

- «لا، ولكن يبدو أن هذا ما يفعله كل ثنائي دائماً في الأفلام في وقت متأخر من الليل. يعدّون البيض المخفوق معاً. بالإضافة إلى ذلك، بدا لي تصرفاً آمناً، وأريد أن تشعري بالأمان».

- «سأكتفي بكوب من الشاي الساخن مع قليل من العسل إن كان لديك. الجو شديد البرودة هنا في الخارج».

في الداخل، أشعل إيثان المدفأة وتولّت آشلين إعداد الشاي. وبعد أن انتهيا، جلسا على الأريكة يشربان الشاي بصمت ويستمعان لصوت اللهب الخفيف في المدفأة. سرعان ما أصبح الصمت ثقیلاً.

- «حسناً. وماذا الآن؟»، سألت آشلين مدركة أنه كان ينتظرها لتبادر بالكلام.

- «بإمكاننا أن نحكي قصصاً عن الأشباح، تماماً كما اعتدنا أن نفعل في المخيم الصيفي. أظن أن لدي مصباحاً يدوياً في مكان ما هنا لإضاءة التشويق. أو... يمكننا أن نتحدث

عن أشياء أخرى. لقد عرّيتُ روحي أمامك قبل قليلٍ في الخارج. وهذا ما لا أفعله عادةً بالمناسبة. حان دورك الآن. اكتفيتِ قبلاً بشذراتٍ عن موضوعاتٍ من هنا وهناك. أشياء عن والدك وعن طلاقك، لكنني أعتقد أن هناك كثيراً مما يجب معرفته».

- «مثل ماذا؟».

- «مثل سبب خوفك الشديد... مني... منا نحن»، وضع كوبه جانباً ومدّ يده صوبها. أحكم أصابعه حول قبضتها المغلقة وقال: «أفترض أن الأمر له علاقة بدانييل. أخبرتني أنه خانك، ولكن هناك شيئاً آخر، أليس كذلك؟ شيئاً أسوأ على ما أظن؟».

نظرت آشلين إلى يده التي ضمت يدها بدفعٍ وإحكام. لكن داخل قبضتها المغلقة، شعرت بلدغةٍ ذكرياتٍ قاسية. زجاجٌ مهشّمٌ متطاير وصوت صرير الإطارات على الإسفلت.

أجل. هناك شيء آخر، شيء أسوأ بكثير.

فتحت فمها ثم أغلقته مرة أخرى، وهي تهز رأسها ثم قالت: «لا أعرف كيف أتحدث عن هذا الأمر مع شخص لا يتقاضى مني المال لقاء سماعي».

ضغط إيثان على أصابعها برفق قائلاً: «يمكنك الحديث عن القصة من بدايتها».

أغمضت آشلين عينيها وأخذت نفساً عميقاً وبدأت القول: «أخبرتكَ أن أمي رفضت العلاج عندما عاودها السرطان، وأنها اختارت الموت، لكنني لم أخبركَ عن أبي. صعد إلى العلية بعد

بضعة أشهر من وفاتها وأطلق النار على نفسه، عندما كان حفل عيد ميلادي السادس عشر جارياً على قدم وساق».

- «يا إلهي...!».

أشاحت بوجهها بعيداً عنه خشية أن تعجز عن إكمال حديثها إن هي تابعت النظر إليه.

- «انتقلت بعدها لأعيش مع جدتي. تنقلت بين مدارس عدة، وأمضيت أيام الخميس على أريكة طبيب نفسي متخصص بصدمات الأسرة. تعلمت مهارات التأقلم، والحزن الصحي كما يسمونه. تأقلمت مع مرور الوقت. أو ربما تعلمت أن أظهار بذلك. عجزت بعدها عن الحديث عن مأساتي لأي أحد كان، وتظاهرت أنني بخير. أنهيت دراستي الثانوية ونلت قبولاً في جامعة نيوهامبشير. ثم التقيت بدانييل».

سحبت يدها من يد إيثان ثم نهضت تحدوها الحاجة إلى وضع مسافة بينهما. شرعت تسير جيئةً وذهاباً، ذراعها مشدودتان بإحكام حول جسدها. «أخذني على حين غرة. كان ممثلاً بارعاً، يتقن اختيار ضحاياه. وقعت في حباله كلها. أخبرته بكل شيء، بنقاط ضعفي كلها. أعطيته القوة ليؤذيني، ولم يقصّر قط في استخدامها».

- «الطالبة التي رأيته ترتدي رداء الحمام في منزلك؟».

- «ماريبيث»، قالت آشليين بهدوء. «لم تكن الأولى بالتأكد، لكنها كانت الشرارة التي دفعتني إلى الرحيل. تقدمت بطلب الطلاق في اليوم التالي. لم يكن يظن أنني سأقدم على ذلك. وعندما أخبرته أنني لن أرجع إليه، بدأ يحوم خارج المتجر

ويراقبني من الطرف المقابل. كان يتصل في الأوقات كلها. تسمعه يتوسل إليّ أن أعود إليه، وبعد لحظة يسبني بأقذع الألفاظ. لم تَبَعْ روايته بعد وكان على وشك أن يُطرَد من الجامعة. كانت حياته بأكملها تخرج عن السيطرة. وبطبيعة الحال، كان ذلك كله خطئي أنا طبعاً.

- «قولي إنك اتصلت بالشرطة أرجوك».

جعل سؤال إيثان آشلين ترتجف. لم تتصل بالشرطة، لكن على مدار السنوات الثلاث الماضية، لم يمرَّ يومٌ واحد دون أن تتساءل عن إذا ما كانت الأمور ستؤول إلى نهايةٍ مختلفة لو أنها اتصلت بالشرطة.

- «لم أتصل من باب أن لديه ما يكفي من المتاعب، ولم أريد أن أضيفَ ثقلًا آخر إلى حملة. لكن لم يكن بإمكانني العودة، بغض النظر عن مدى سوء أوضاعه. اتصلتُ به ذات يوم وطلبتُ منه أن نلتقي. ظنَّ أنني أرغب في إصلاح الأمور، لكن بدلاً من ذلك، سلَّمته قائمةً بكيفية تقسيم ممتلكاتنا الشخصية. كانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير».

أصبحت نظرات إيثان مركزة عليها الآن، وهو يُعدّ نفسه لما هو قادم: «ماذا تعنين بالقشة التي قصمت ظهر البعير؟».

توجهت آشلين نحو الموقد، وأدارت ظهرها إليه وهي تحدّق في ألسنة اللهب المتراقصة: «جُنّ جنونه، لذلك نهضتُ وغادرت المكان. كنتُ قد عبرتُ الشارع بالفعل عندما خرج من الحانة. سمعتُ اسمي والتفتُ. كان يقفُ هناك على الرصيف، ينظرُ إليّ مباشرةً وتعابير غريبة تملو وجهه. كانت هناك شاحنة صغيرة

قادمة. شاحنة من النوع الذي يحمل تلك الألواح الزجاجية الكبيرة. راقبها وهي تقترب... ثم خطا أمامها خطوة». سمعت آشلين إيثن وهو يشهق مطولاً، ثم يزفر ببطء قائلاً: «يا إلهي...».

ارتسمت ملامح الرعب على وجه إيثن عندما التفتت تنظر إليه. رفعت كتفيها تستعد لإكمال كلامها: «قبل أن تطأ قدمه الشارع بجزء من الثانية، رفع رأسه ونظر إليّ مبتسماً ثم صرخ "انقلي تحياتي للدكتور سوليفان"». - «من هو ال...».

- «الدكتور سوليفان هو الطبيب النفسي الذي واطبْتُ على زيارته كل خميس بعد أن أطلق أبي النار على نفسه». بهت وجه إيثن: «تقولين إن...».

- «أقول إنه كان يعلم تماماً ماذا يفعل، ويعلم أنني أعلم. كان يعلم العواقب التي ستحلّ بي، وأنتي سأنهار تماماً». - «هذا ما قصدته في السيارة عندما تحدثت عن شخص تحبينه يؤذيكَ عمداً؟»، سأل إيثن بلطف. - «أجل».

- «أنا آسف جداً يا آشلين. لكن على الأقل لم ينجح ذلك الوجد في غايته. أعني، أنت واقفة على قدميك». - «بل نجح تقريباً، وكاد ينجح تماماً»، تألمت آشلين وهي تشارك إيثن هذه التفاصيل. تألمت وهي تقرّ أمامه أن محاولة دانييل لتدميرها قد نجحت تقريباً. لكنها أرادت أن يعلم كل شيء، أن يفهم أنّ ارتباطهما فكرة سيئة، وأنها

هي بحد ذاتها فكرة سيئة. تابعت بصوتٍ متهدّج: «ثلاثة أشخاص... ثلاثة أشخاص كان من المفترض أنهم يحبونني، لكنهم تركوني عمداً. مع سجلٍ حافلٍ كهذا، يصعب ألا تفكر أنك أنت السبب، أنّ شيئاً ما فيك... ليس كافياً. انتهى بي المطاف على أريكة طبيبٍ نفسي آخر، أيام الثلاثاء هذه المرة بدلاً من الخميس، أكثر من عام».

صمت إيثان مدةً بدت كأنها دهر. مرر يده بين خصلات شعره وقال بصوتٍ خفيضٍ أخيراً: «الآن فهمت. لكن ليس لدي ما أقوله سوى إنني آسف. من غير المفهوم أن يفعل ذلك وهو... يعلم ما مررت به».

- «حاولت إقناع نفسي أنني توهّمت ذلك كله».

- «لكنه لم يكن وهماً».

تموّج وجه إيثان خلف سحابة الدموع التي خانتها وانهمرت بغزارة في النهاية: «لم تكن حادثة... ولا عملاً أخيراً يائساً. كان صراعاً على من يملك الكلمة الأخيرة».

- «اللعة»، همهم إيثان وهو يمسح دموعها برفق بظهر يده.

«اللعة عليه، اللعة على ذلك الوغد. واللعة عليّ أيضاً لأنني

دفعتك إلى الحديث عن الأمر».

هزت آشليّن رأسها، فانسَلَّت دمعَتان أخريان على وجنتيها: «لا بأس» كانت تعني ذلك حقاً. إذ شعرت بأن حملاً ثقيلاً رُفِعَ عن صدرها، وكأنّ مجرد الوثوق بنفسها لتقول هذه الكلمات بصوت عالٍ، ليس لطبيبٍ نفسي ولكن لشخصٍ تهتمّ لأمره، ويهتمّ لأمرها في المقابل، قد جرّد هذه الكلمات من قوتها.

انهارت بعدها سدود الصمت، وفاضت الكلمات حاملةً معها أسراراً لم تُبَحْ بها آشلين لأحدٍ من قبل. تفاصيل قاتمة أرقّتها، واستدعت موجةً جديدةً من الدموع. لكنها كانت هذه المرة دموعَ ارتياحٍ وانعتاقٍ وصفاءٍ غسّلت روحها المثقلة. في تلك اللحظة بالذات، أدركت أنها تستطيع مسامحة دانييل، ليس على تصرفه الوحشي الأخير فقط، بل على كلّ شيء. على التلاعب والخيانة والتصرفات المؤذية التي نسجت خيوط عذابها. ولكنّ المفاجأة الأكبر كانت عندما أدركت أنّها تستطيع أن تسامح نفسها. أن تسامح نفسها على منح دانييل السيطرة عليها، وعلى تأخرها في رؤية حقيقته، وعلى البقاء معه مدةً أطول من اللازم.

أمسك إيثان بيديها بكلتا يديه وهي تتحدث، وبقي صامتاً حين نضب كلامها. امتد الصمت بينهما، ولم يبقَ سوى حفيف النيران المتراقصة في المدفأة. رفعت رأسها نحوه، وتمكنت من رسم ابتسامة خفيفة: «قلت إنك تجيد الاستماع، وهذا صحيح. شكراً لك».

- «أنا سعيدٌ لأنك شعرت بأن بإمكانك الثقة بي».

- «فوجئت مرةً عندما علمت أنه لم يدخل حياتي أحدٌ قطّ

بعد دانييل. أصبحت تعرف السبب الآن. لأنني أقسمت حينها

أنني لن أثق بأحدٍ مرةً أخرى».

- «يمكنك أن تثقي بي... إذا أردتِ ذلك يا آشلين».

هل أرادت آشلين ذلك حقاً؟

مدّت يدها برفقٍ ولامست راحةً كفها وجنته. كانت تعرف

الإجابة سلفاً في أعماقها، عرفتة أسابيع خلت. كما هي حالها

دوماً، كان الأمر متعلقاً بالثقة. ليست ثقتها بإيثان، بل ثقتها

بنفسها.

همست بلطفٍ وكأنها تبوح لنفسها بقدر ما تبوح له: «أعتقد أن باستطاعتي ذلك».

توقفت لحظةً قبل أن تقبله. لحظة لتستمتع بدقات قلبها المتسارعة، ونشوة الدوران في رأسها. لحظة للتأكد من شعور لم يكن مشوشاً هذه المرة. لحظة أكدت ما عرفته في أعماقها. مع استطالة القبلية، وخزتها لحظة قلق خفيفة، كنافذة شك ضيقة حيث الانسحاب لا يزال ممكناً. كانا يندفعان نحو أمر لا رجعة فيه. خطوة تجعل الانسحاب فوضوياً ومؤلماً. ولكنها أرادت هذا، أرادت إثبات، أياً كان ما سيأتي بعد ذلك.

أحسّ إثبات بتلك النافذة في تلك اللحظة. ابتعد قليلاً ونظر في عينيها وأنفاسه تتسارع: «سأخاطر في إفساد هذه اللحظة، لكنني أحتاج إلى معرفة معنى هذا كله. لا أريد أن أسيء فهم الموقف».

- «يعني أنني أريد أن أكون هنا عندما تستيقظ غداً. وربما بعد غدٍ أيضاً، إذا كان هذا ما تريده. أنا مع كل أمتعتي وأغراضي».

انحنى فم إثبات في ابتسامة بطيئة جميلة: «أظن أن هذا يعني أننا أصبحنا مرتبطين؟».

- «أعتقد ذلك».

قبلته رسالةً وعداً واستعطافاً في آنٍ واحد. لم تحدد بعد إلى أي مدى ستقفز، لكنها أجبرت نفسها على النظر إلى أسفل لتقيم على الأقل مسافة السقوط. كانت تلك البداية، وربما لن تسقط وحيدة هذه المرة.

الفصل الثامن عشر

آشليين

«حافظ على مسافة آمنة من الأخطار المتوقعة».

- آشليين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

28 أكتوبر 1984

راي، نيوها مبشير.

فتحت آشليين عينيها لترى سماءً زرقاء تخبُّ الأبواب، وأشعة شمسٍ تتسلل عبر ستائرٍ لم تألفها. استغرق الأمر منها لحظة لتستوعب وتتذكر أين هي ولماذا.

إيثان.

استيقظت آشليين وحيدةً في السرير، لكن دفع الفراش أنبأ أنه لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على نهوضه. تمددت قليلاً تحت الغطاء تتلذذ باللحظة. لقد مرّت سنوات على آخر مرة استيقظت فيها في فراشٍ غير فراشها، وسنوات على آخر مرة سمحت فيها لنفسها أن تُعانق وتلمس وتُحب. باتت الآن ذكريات مفاصلة إيثان مطبوعةً في ذاكرتها وجسدها على حدٍ سواء، كأصدقاءٍ كتابٍ لا تُمحي أبداً.

انتظرت آشليين موجة الندم الحتمية، والإدراك بأن السماح له بالدخول إلى حياتها وربما إلى قلبها أيضاً، كان خطأً. لكن ذلك لم يحدث. بدلاً من ذلك، أحست بخمولٍ حالمٍ ولذيذٍ، ورخاوةٍ تنتشر في جسدها كله، كعضلاتٍ استيقظت للتو على لمسةٍ حانية.

عندما رفعت الغطاء ونزلت عن السرير، فوجئت بملابسها مبعثرة على السجادة، مع ملابس إيثان. تركتها مرمية واختارت رداءً سميكاً من قماشٍ قطني وُضع أسفل السرير. ارتدته واستنشقت رائحته العالقة فيه وهي تتجه نحو الأبواب الزجاجية المطلّة على شرفةٍ صغيرةٍ والميناء خلفها. هل تمتع المشهد دائماً بهذا الجمال، أم أن أحداث الليلة الماضية جعلت العالم يبدو بهذا النقاء والإشراق؟

داعبت رائحة القهوة أنفَ آشليْن التي نزلت الدرج ودخلت المطبخ لتجد إيثان عند الموقد يحرك الملعقة ببراعة. التفت عندما سمع صوت خطواتها، وابتسم مرتبكاً ثم قال:

- «ما رأيك بكوب قهوة؟».

- «من فضلك».

سكب القهوة في فنجان قدّمه إليها برفقٍ مع ملعقة، ثم أشار إلى الكريمة والسكر. عدّلت آشليْن مذاق القهوة قليلاً حسب رغبتها ثم ارتشفت منها: «لذيذة جداً»، قالت دون أن تلاقي نظراته، إذ لم تكن معتادةً أحاديث ما بعد الفراش.

- «شكراً»، قال وهو يرتشف من فنجانه ويراقبها من فوق حافته. «هل كل شيء على ما يرام؟ أعني... بعد ليلة أمس؟». ابتسمت آشليْن مسحورةً بتلعثمه. يبدو أنه لم يكن بارعاً في أحاديث ما بعد الفراش هو الآخر.

- «كل شيء على ما يرام».

- «لا ندم من أي نوع كان؟».

- «أبداً».

مكتبة

t.me/soramnqraa

مع انصرافه مجدداً إلى الموقد، خَفَّ توتره وقال: «قد تعدلين عن رأيك بعد الفطور. أعدّ الفطائر المحلاة، أو أحاول ذلك بالأحرى، والنتيجة لم تُحَسِّمْ بعد. هَلَّا جهزت أدوات المائدة؟». وضعت آشليْن أدوات المائدة على الطاولة وأخرج إيْثان كومة من الفطائر المحلاة من المقلاة، وطبقاً من النقانق المحمرة الشهية. طوال ثماني سنواتٍ من زواجهما، لم يُحضِّر لها دانييل قطعة خبزٍ محمصة حتى. بدافعٍ عفوي، تسَلَّت آشليْن خلف ظهر إيْثان وطبعت قبلةً على كتفه.

استدار نحوها متفاجئاً مبتسماً: «ما مناسبة ذلك؟».

— «دون مناسبة».

— «ما الذي تؤدِّين فعله اليوم؟»، سأل وهما يجلسان إلى طاولة الفطور. «لا أظن أنك تعملين اليوم، أليس كذلك؟».

باغتها سؤاله، إذ لم تفكر أبعد من وجبة الفطور.

— «لا أعمل أيام الأحد صحيح. لكن ألا يجب أن تعود إلى الكتابة الآن وقد حَلَلْنَا لغز بيل وهيمي؟ ناشرك ينتظر».

— «ربما، لكنني أفضل قضاء اليوم معكِ على أي حال. لقد أحرزْتُ أخيراً بعض التقدم وأستحق أن آخذ استراحة. يمكننا أن نذهب إلى مزرعة هيلكريست لتناول فطائر التفاح وسماع بعض الموسيقى. أو نشاهد فيلماً ربما».

— «أو... نذهب إلى إحدى المكتبات».

— «صحيح. تذكرت الآن أننا تحدثنا عن ذلك الليلة الماضية».

— «أظن أن الأمر يستحق المحاولة لنرى إذا ما استخدم هيو غاريت قصة بيل وهيمي مصدرَ إلهامٍ لأحد كتبه من قبل».

وبعد ذلك، يمكننا الذهاب إلى هيلكريست. فأنا لا أرفض دعوةً لتناول فطائر التفاح أبداً».

رن جرس الهاتف قبل أن يتمكن إيثان من الرد. وضع قارورة العسل جانباً ورفع كلتا يديه وقال: «يდაي دبقتان، هلاً أجبتي أنت؟».

راود آشلين شعوراً غريباً وهي تتجه نحو الهاتف لترد على مكالمة إيثان: «مرحباً».

- «آشلين، أهذه أنت؟ أنا ماريان؟».

- «أجل، إنها أنا».

- «ما الذي تفعلينه في منزل حفيدي في مثل هذا الوقت؟»، ثم ضحكت ماريان في إشارة أن السؤال كان مجازياً. «يسعدني أنكما عرفتما طبيعة علاقتكما أخيراً».

احمرّت وجنتا آشلين خجلاً: «إيثان هنا. سأعطيه السماعة».

- «لا داعي لذلك يا عزيزتي. خطرت على بالي فكرة. لماذا لا تأتيان إلى بوسطن الخميس القادم؟ ستكون إيليز مع الفتيات هناك. أنا متحمسة جداً ليتعرف بعضكم إلى بعض. بإمكانكما البقاء وحضور حفل توزيع الجوائز المزعج مساء الجمعة. إنها فرصة لقضاء عطلة نهاية أسبوع رائعة. تستمتعان بعرض مسرحي أو تزوران بعض المتاحف».

- «إنه لطفٌ بالغٌ منك، لكنني أفضل أن تكلمي إيثان». غطت آشلين طرف السماعة وهي تعطيه إياها: «إنها ماريان تدعونا إلى زيارتها في بوسطن يوم الخميس لتناول العشاء، والمكوث هناك لحضور حفل توزيع الجوائز يوم الجمعة. لكن، لديّ

عملٌ في المتجر. مع ذلك، أعتقد أن عليك الذهاب. ستكون إيليز وبناتها هناك، وسيكون من الرائع أن تتعارفوا». مسح إيثان يديه وأخذ الهاتف من آشلين، يستمع ويومئ برأسه وماريان تكرر عرضها إلى أن قال أخيراً: «نتمنى لو نستطيع الحضور، لكنني وافقت للأسف على إعطاء بعض المحاضرات الإضافية نيابةً عن صديق، وآشلين لديها عملٌ في المتجر. لكن ربما نتمكن من حضور عشاءٍ متأخر مساء الخميس»، رفع عينيه صوب آشلين وقال: «عند الثامنة ربما؟».

أومأت آشلين برأسها مسرورةً لمجرد التفكير في رؤية ماريان مجدداً. بإمكانهما المغادرة فور إغلاقها المتجر، ثم العودة بالسيارة بعد انتهاء العشاء.

أنهى إيثان مكالمته وعاد لتناول فطوره. «الخميس عند الثامنة مساءً»، قال من خلف فنجان قهوته. «ستتصل ماريان فور حجز الطاولة»، ابتسم وهو يمسك بالسكين والشوكة ويتناول قطعةً من النقانق، ثم قال: «حان الوقت لتقابلي بقية العائلة».



توجهها بعد الفطور إلى بورتسموث ومتجر والدنبوكس المحليّ هناك. أخذت آشلين نفساً عميقاً وهي تدخل المتجر، مُستنشقةً روائح الورق والحبر الجديد المختلطة. لطالما شعرت بأنها رائحة دوائية، زيتية وتعقيمية خفيفة تشبه اليود. ليست رائحةً كريهة، لكنها مختلفة تماماً عن رائحة الخشب والدخان والحلاوة الخفيفة التي ترتبط بمتجرها.

منحها الوقوف وسط هذا الكمّ الهائل من الكتب الجديدة شعوراً غريباً. صفوفٌ متراسة من مجلداتٍ دون ماضٍ ولا أصداء. كانت الآن أشبه بألواح بيضاء ستُكتب عليها يوماً ما حكايات أخرى عن حيواتٍ منفصلة تماماً عن القصص المحصورة بين دفتيها.

سحّر الحكايات الموعودة رسم ابتسامةً على شفتي آشليين، وهي تُشقّ طريقها نحو قسم الروايات والأدب.

أطلق إيثن صغيراً خافتاً عندما أشارت إلى رفٍ يكتظ بكتب هيو غاريت: «لم تبالغي حين قلتِ إنه غزير الإنتاج. يوجد هنا ستة عشر كتاباً».

- «هناك كثيرٌ غيرها».

سحبت كتاباً من على الرف يحمل عنوان «نافذةٌ للتأمل»، هو أحدث إصداراته على الأرجح. حمل الغلاف صورة امرأة ذات شعرٍ داكن تنظر من خلال نافذةٍ تناثرت عليها قطرات المطر. وقد تاهت ملامح وجهها الشاحب خلف الزجاج المبلول.

- «انظر، قد تكون هي»، قالت وهي تمسك بالكتاب.

- «قد تكون أي واحدة»، قال إيثن بنبرة شك.

كان على حقٍّ بالطبع، لكنّ كان هناك شيءٌ ما طارد مخيلتها في صورة الغلاف. شيءٌ له صلةٌ بالتعتيم المتعمد لوجه المرأة. قلبت الكتاب لتقرأ الملخص المطبوع على الغلاف الخارجي. لم يشبه الملخص بأي حال من الأحوال قصة بيل وهيمي. أخذت كتاباً ثانياً ثم ثالثاً. لم تبدُ قصة أي منها مألوفاً ولو من بعيد. لكنّ الأغلفة كلها حملت صورة المرأة ذاتها، أو امرأة من النمط ذاته. امرأة تشبه بيل.

كانت قد انتهت للتو من الكتاب الثامن، وحاولت إعادته إلى الرفّ حين أفلت من يدها وأحدث دويّاً مكتوماً على الأرض. انحنّت لاستعادته، ثم تجمدت في مكانها حين رأت صورة المؤلف تحدّق إليها. عيان زرقاوان نافذتان، وشعرٌ داكنٌ كثيفٌ غطى رأسه، وفمٌ مثيرٌ بشكلٍ مذهل. كان أنيقاً، ووسيماً، ومألوفاً بطريقة لا تستطيع تفسيرها، وكأنها رأت وجهه مصادفةً في مكانٍ ما. ثم أدركت فجأة. لقد رأت وجهه قبلاً.

البارحة.

رفعت الكتاب عن الأرض وقالت: «إنه هو يا إيثان».

عقد إيثان حاجبيه وقال متهمكماً: «بالطبع هو. فاسمه مكتوبٌ هنا».

- «لا. انظر جيداً... إنه هو».

دقق إيثان النظر في الصورة ورأى أخيراً ما ترمي إليه آشليين: «يا إلهي لا بد أنك تمزحين».

قالت وهي تشهق: «إنه زاكاري... هيو غاريت هو والد زاكاري».

- «يا إلهي»، مرر إيثان يده على شعره، وعيناه لا تزالان مثبتتين على الصورة. «هل يمكن أن نكون مخطئين؟».

أمعنت آشليين النظر مجدداً إلى الصورة، مستذكّرة شيئاً ما كانت كتبت به بيل نفسها في نهاية كتاب «إلى الأبد وأكاذيب أخرى»: «لن أتحرر تماماً منك أبداً. من صوتك، من ابتسامتك. وحتى ذلك الشقّ الصغير في ذقنك لم يفارق أفكاري. أنت عذابي وعزائي». ظنت آشليين حينها أن الأمر يتعلق بالذكريات، بذلك النوع الذي لا يفارقه أبداً. لكنها أدركت الآن أن ماريان تتحدث عن أمرٍ مختلفٍ تماماً.

- «لا. إنه وجه زاكاري. انظر إلى عينيهِ، وفمه، وشكل فكّه. إنه هو تماماً لكن أضف إليه أربعين عاماً. هذا ما يفسر غموض ماريان، وطريقة تحايلها وتغييرها الموضوع باستمرار. لا بد أنها كانت حبلً عندما غادرت نيويورك، وقد اختلقت قصة أنه ابن جوانا لإخفاء ذلك. كما يفسّر أيضاً سبب انعدام الشبه بين زاكاري وإيليز. والداهما مختلفان».
- «أظن أن هيمي لا يعرف أن لديه ابناً».
- «أظن ذلك أيضاً. لم يُذكر أيّ من الطفلين في كتاب "إلى الأبد وأكاذيب أخرى". كتبت ماريان عن عملها وعائلتها في فرنسا، لكن لم تذكر شيئاً عن طفلها. لا توجد أم تتسى أطفالها. خاصةً إذا كانت مثل ماريان التي تبدو دون شك أكثر أم فخورةً على وجه الأرض. إن هذا الإغفال مقصود».
- «لا يمكننا الجزم بأيّ من هذا»، قال إيثان.
- «أعتقد أننا نستطيع. كتبت ماريان في نهاية كتابها شيئاً ما عن عدم حق هيمي في معرفة بعض تفاصيل حياتها. زاكاري هو ما قصّده».
- «يا إلهي. من المفترض أن نتناول العشاء معها يوم الخميس، ومع إيليز أيضاً. سيكون الموقف غريباً جداً».
- «يجب أن نحرص على ألا يكون غريباً يا إيثان. يجب ألا تعلم بأننا نعلم. لقد حفظت هذا السرّ ثلاثة وأربعين عاماً. يجب أن ندعها تحتفظ به إن كان هذا ما تريده».

الفصل التاسع عشر

آشليين

«كلما ازداد شغفُ الكاتبِ نفسه بالكتب، ازدادَ إعجابي به».

- هنري وادزورث لونجفيلو

1 نوفمبر 1984

بوسطن، ماساتشوستس.

اجتاحت آشليين موجةً من الإعجاب والرغبة وهي تدخل مع إيثنان قاعة استقبال فندق باركر هاوس. سبق لها أن زارته، ولكن ليست بوصفها ضيفة، بل سائحة. كان الدخول إلى قاعة الاستقبال بسقفها المجوف وثراتها البراقة، أشبه بالانتقال إلى زمن آخر، لكن تاريخ هذا المكان العريق هو ما أثار إعجابها. شُيّد فندق باركر هاوس عام 1855. وشهدت جدرانها العتيقة اجتماعات «نادي السبت» الأدبي الذي ضم بين أعضائه عمالقة الفكر الأمريكي أمثال ناثانييل هاوثورن، وهنري وادزورث لونجفيلو، وأوليفر ويندل هولمز. لم تقتصر شهرة الفندق على هذه الاجتماعات الأدبية، بل استضاف كذلك ضيوفاً بارزين آخرين، منهم الروائي الإنجليزي الشهير تشارلز ديكنز الذي أقام فيه مدة خمسة أشهر عام 1867. وقبله بعامين الممثل المسرحي جون ويلكس بوث.

سرت شائعاتٌ أن الفندق مسكونٌ بالأشباح، لا سيما الطابق العاشر. تقبّل أصحاب الفندق الشائعات برحابة صدر، وحافظوا

على سجلٍ وثقوا فيه حوادث الأشباح المزعومة لإشباع فضول الضيوف المهتمين. وجدت آشليين الفكرة ساحرة، فإذا كانت للكتب أصداء، فلماذا لا تُخلف المباني والكراسي والطاولات والمصاييح هي الأخرى بصماتٍ خفية تحكي قصصاً من الماضي؟

راق لها تخيلُ أن ديكينز وواذورث تبادلًا أطراف الحديث في زاوية هادئة، أو تشاحنا حول نقطة أدبية دقيقة غامضة، أو تناولا الشراب في المشرب الذي يقال إنه كان في السابق مكتبةً ضُمَّت أكثر من ثلاثة آلاف كتاب. لكنها الليلة ستتناول العشاء بصحبة إيثان مع أحدث فائزةٍ بجائزة الإنجاز مدى الحياة التي تقدمها شبكة رعاية الأطفال.

استقبلتهما الموظفة وأشارت إلى أن بقية أفراد المجموعة قد أخذوا أماكنهم بالفعل، وعرضت عليهما مرافقتهما إلى طاولتهما. لمحت آشليين ماريان على الفور، تجلس إلى جانب امرأةٍ شقراء طويلة القامة وثلاث فتيات صغيرات ضجرات.

همست آشليين لإيثان: «ميلا وداليا وليدا. أنا متأكدة أن ميلا هي أكبرهن».

ضغط إيثان على يدها قائلاً: «فهمت، شكراً».

أشرق وجه ماريان عندما رأتها يقتربان. انحنى صوب ميلا وهمست شيئاً في أذنها، فأسرّت هي الأخرى شيئاً لشقيقتيها اللتين توقفتا عن التملل واستقامتا في جلستهما. شعرت آشليين بالتوتر عندما وصلت الطاولة أخيراً وكأنها على وشك إجراء مقابلة عمل.

ابتسمت ماريان عندما استقرا على الكرسيين الفارغين، وقالت: «كم يسرّني قدومكما! هذه ابنتي إيليز. يا فتيات، هذا حفيدي وقريبكّن إيّان، وحبيبته آشلين».

أخفضت آشلين رأسها خجلاً. لم تفكر في كيفية تقديمها، لكنها أحبّت أن يُشار إليها على أنها حبيبة إيّان. أومأت برأسها للفتيات اللاتي كن يحدقن إليها بعيون واسعة وفضولية. «يسعدني أن ألتقي بكن جميعاً. لقد حدّثتي جدتكّن كثيراً عنكّن».

- «لم أخبرها إلا الأشياء المهدّبة طبعاً»، همست ماريان إليهنّ فأطلقن ضحكاتٍ مكتومة.

تفحصت إيليز آشلين وإيّان بعينيها الرماديتين الرزّينتين، فاستحضرت آشلين في ذاكرتها صورة عرّضها إيّان قبلاً لفتاة جادة ذات وجه حاد وتعايير صارمة. لم تتغير إيليز كثيراً منذ ذلك الحين، فظلّ وجهها حاداً مثلاً ونظراتها متحفظة. لم يكن ذلك بالأمر الغريب، فقد ظهرا فجأةً وفرضاً نفسيهما على عائلة ماريان الدافئة والمهدّبة. قليلٌ من الحذر أمرٌ منطقي.

توجهت إيليز إلى آشلين بالقول: «أخبرتني أمي أنك تملكين متجرَ كتبٍ نادرة في بورتسموث. وأنت وإيّان التقيتما بسبب بعض الكتب القديمة التي عُثر عليها في مكتبة ديكلي».

لمحت آشلين بطرف عينا كيف تشنّج كتفا ماريان عند ذكر الكتب. يبدو أن إيليز لا تعرف شيئاً عن الكتّابين. أجابت آشلين بلباقة: «أجل. وجد إيّان بعض الكتب بعناوين غريبة وهو يفرغ رفوف مكتبة والده، وانتهى بها المطاف بين يدي».

- «أنا مغرمةٌ بالكتب القديمة. هل وجدت شيئاً لافتاً؟».

- «لا، كلها كتبٌ لا تثير إلا اهتمام مؤلفيها».

- «خسارة. لكنه عملٌ ممتع، أليس كذلك؟ أن تعثري مصادفةً على كتابٍ مفقودٍ منذ زمنٍ بعيدٍ ألفه أديبٌ مشهور مثل تولستوي أو ترولوب. أسمع دائماً بحوادث مماثلة». استدارت بعدها إيليز صوب إيثان وقالت: «كان لطفاً منك أن تبحث عن أمي لتعيد إليها تلك الرسائل القديمة. اتصل بي زاكاري ليخبرني أنه تلقى خبراً منك. كان مرتاباً في البداية، لكنه تذكركَ لاحقاً من أيام رحلتنا مع والديك، فاطمأن قلبه. أحببت أمي ديكى كثيراً. أخبرتني أنك تسير على خطاه وتدرّس في جامعة نيوهامبشير، وأنتك ألّفتَ كتابين. إنه أمرٌ مثير للإعجاب بالنسبة إلى شابٍ في عمرك».

ردّ إيثان مبتسماً: «ليس الأمر مثيراً للإعجاب بالقدر الذي يبدو عليه، لكن أشكركِ على ذلك».

مع ذوبان الجليد، تدفق الحديث بسلاسةٍ مذهشة. شمل موضوعات شتى، منها العمل الذي يعكف عليه إيثان حالياً، وسعي إيليز الدؤوب إلى الحصول على الأستاذية الدائمة، والأصدقاء الرائعة التي حظيت بها جولة زاكاري الأخيرة في أرجاء أوروبا. وعندما وصل النادل بالقهوة وفطيرة بوسطن الشهيرة عالمياً التي يقدمها فندق باركر هاوس، شرعت إيليز تتباهى بمنظمة والدتها غير الربحية والعمل الدؤوب الذي لا تزال تهض به لمساعدة أيتام الحرب.

شعرت ماريان بالخجل من مديح ابنتها فقالت بلهجةٍ لطيفة: «توقفي أرجوكِ يا إيليز. إنه حديثٌ يُضجرُ ضيفينا».

- «على العكس تماماً»، قالت آشليين بصدق. فكلما علمت أشياء عن ماريان، زاد إعجابها بها. «من السهل فهم سبب منحهم إياكِ تلك الجائزة مساء الغد. لديك كثيرٌ مما يجعلك فخورة». أشرق وجه ماريان بابتسامةٍ دافئةٍ تجاه ابنتها والفتيات وقالت: «حالفني الحظ كثيراً في حياتي. ولدتُ وأنا أتمتع بامتيازاتٍ لم يحلم بها أكثر الناس. تخلصْتُ من معظمها، لكن ليست كلها. فقد ورثْتُ بعض المال عندما توفيت والدتي، مالٌ لم يلمسه أبي. وهذا ما منحني بعضاً من... الحرية. تمكَّنتُ من متابعة العمل الذي مثَّل أهميةً كبرى بالنسبة إليّ، ومنح طفليّ نوع الحياة الذي أردتهما أن يتمتعا بها. ولكن الأهم من ذلك كله، أنني كنت محظوظة عندما رُزقت هذين الطفلين الرائعين. ذكيان وموهوبان منذ صغرهما. أخذتهما معي رغماً عنهما عندما كانا صغيرين. انتزعتهما من بين أصدقائهما في كاليفورنيا لنعيش في كرم عنبٍ مهالك في بيرجيراك، حيث اضطررا إلى تعلُّم اللغة الفرنسية حتى يتمكنّا من الذهاب إلى المدرسة، ثم بعد أن عشقا حياة المزرعة وأحبّا أقاربنا الفرنسيين، عدتُ بهما إلى هنا مرةً أخرى».

قاطعتها إيليز ضاحكة: «أجل. لقد أحضرتنا إلى ماربلهيد، إلى ذلك المنزل الكبير الذي تعصف فيه الريح. ظننا أننا سنموت من البرد في شتائنا الأول هناك. لكن بعد ذلك جاء الصيف وتعلمنا السباحة والإبحار وجمع المحار، وعرفنا أنه منزلنا الحقيقي. أحبَّت بناتي المكان أيضاً. إنهن يتقنُ إلى العودة هذا الصيف. سيحضرن جميعهنَّ حفل زفاف خالهنَّ زاكاري. إنهن في قمة السعادة، أليس كذلك يا أحبائي؟».

بالكاد ردت الفتيات على أمهنّ. كان واضحاً من ثقل جفني ليذا وعبوسها، ومن الشجار الدائر بين داليا وميلا على آخر لقمة من الحلوى، أن الوقت تجاوز موعد نومهنّ بكثير.

بعد أن سددت ماريان حساب العشاء تهتدت وقالت: «لو كان بإمكان زاكاري أن يأتي هذه العطلة. ليس من أجل حفل توزيع الجوائز غداً، بل من أجل هذه الليلة. كان من الرائع أن يلتقيكما شخصياً، لكنه عاد للتو من جولته. أتمنى لو كان يعيش أقرب ولو استقر هنا في بوسطن». أضافت بابتسامة حزينة: «أشتاق إلى وجهه».

تبادل إيّان وآشليين نظرة سريعة.

ضمّت إيليز ليذا الناعسة إلى أحضانها بحركة حانية، وقالت: «لا تستبدي ذلك. ستسعد الفتيات كثيراً لو انتقل إلى مكان أقرب. وأنا أيضاً، لكنني لن أعترف له بذلك أبداً، ذلك المغرور المتغطرس».

لم تستطع آشليين منع نفسها من الابتسام، فقد كان تعلق إيليز بأخيها واضحاً رغم محاولتها إخفاء ذلك. سألت برفق: «هل كنتما مقربين عندما كنتما طفلين؟».

- «لم نكن ننفصل عندما كنا صغاراً. تنقلنا كثيراً وأصبحنا رفيقَي دربٍ لا يفترقان. لكن مع مرور الزمن، رسمت لنا الحياة مسارات مختلفة، فكونّا صداقاتٍ جديدة وتباينت اهتماماتنا. المسكينة أمي! لقد تشاجرنا كالقطط والكلاب الضارية في مرحلة المراهقة. كنتُ مولعةً بالكتب، وذات شخصيةٍ متحفظةٍ تأخذ كل شيء على محمل الجد. على

عكس زاكاري الطائش الذي لم يهتم بشيء سوى الموسيقى. لذلك كنا نتصادم باستمرار. لكن الحقيقة الثابتة التي لم تتغير قط ولن تتغير أبداً، هي أننا لطالما سند وسيسند أحداً الآخر».

رمت آشلين إيثان بنظرة العارف، لكنها أدركت متأخرة أن ماريان كانت تراقب هذا التبادل الصامت. ثبتت ماريان نظراتها على آشلين ثواني طويلة، نظرات كأنها تحمل اعترافاً مضطرباً ورجاءً صامتاً بالكتمان.

قالت إيليز دون أن تتبته للنظرة المتبادلة بين آشلين ووالدتها: «حسناً، أكره أن أكون سبباً في إنهاء هذه السهرة الممتعة، لكن عليّ أن أوصل الفتيات إلى غرفتهن. كما وعدت جيفري بالاتصال به قبل الحادية عشرة. كانت أمسية رائعة بحق. آمل أن نراكما في منزل أمي هذا الصيف. سأحرص على أن تتلقيا دعوة لحضور حفل زفاف زاكاري. لكن لا تنتظرا إلى حينه، يمكنكما زيارتنا في العطلات أيضاً»، ثم نهضت عن كرسيها تملو وجهها ابتسامة عريضة: «حسناً الآن، تصبحون على خير».

انزلقت داليا وميلا عن كرسيهما بارتياح واضح مع اقتراب موعد انتهاء السهرة، أما ليدا فقد سبقتهما إلى عالم النوم، ورأسها يتدلى بتراخٍ إلى جانب واحد. رفعت إيليز حقيبة ضخمة على كتفها، حقيبة أمومتها كما سمّتها، ثم انحنت لترفع ليدا النائمة بين ذراعيها. أصدرت الصغيرة صوت بكاء خافت وتحركت باحتجاج ضعيف قبل أن تستسلم للنوم مجدداً.

حاولت إيليز مرةً أخرى رفع ليدا النائمة، لكن جسدها الذي بدا وكأنه دون عظام جعل حملها صعباً. عانت لإبقاء الحقيبة على كتفها، إلى أن استسلمت أخيراً واستدارت نحو إيثان، وقالت بنبرة رجاء: «هل أستطيع أن أطلب من قريبي الجديد أن يحمل ليدا إلى غرفتي وأنا أُوصل الفتاتين إلى المصعد؟ اعتدتُ تحمّل مسؤوليتهنَّ كلَّهن، لكن ليدا كبرت كثيراً، وأصبح التعامل معهنَّ صعباً مستيقظاتٍ أو نائمات».

نهض إيثان ومدَّ ذراعيه وقال: «ضعيها بين يديّ إن كنتِ تعتقدين أنها لن تعترض».

- «لن تمانع وقد استبدَّ بها النعاس. شكراً لك».

ابتسمت آشليْن وهي تراقب إيثان يضم ليدا بين ذراعيه. استراحت عليه بحنوٍ وأصدرت شهيق نوم خافتاً وهي تدفن وجهها في تجويف عنقه، وقد لفت ساقِيها الصغيرتين تلقائياً حول خصره. فتحت لحظةً عينيها الثقيلتين الحائرتين باحثةً عن والدتها.

وضعت إيليز يدها برفق على شعر ليدا الأشقر، وهمست بهدوء: «سيحملك إيثان إلى غرفتنا ريثما أُوصل أنا شقيقتيك، ثم سأُتصل بوالدكِ حتى نتحدث معه إن كنتِ لا تزالين مستيقظة. ما رأيكِ؟».

أرخت ليدا رأسها إلى الخلف لتجد وجه إيثان قبل أن تتدلى على كتفه مجدداً: «أريد أن أنام».

- «نامي يا حبيبتي. سأضعكِ في السرير بمجرد أن نصل إلى الأعلى ويمكنك التحدث مع والدكِ غداً».

وجهت ماريان شكراً صامتاً لإيثان، ثم أرسلت في الهواء قبلاً ما قبل النوم إلى إيليز والفتاتين: «سأتحدث إليك في الصباح يا حبيبتي. سلمي على جيفري وأخبريه أنني تمنيت لو كان بإمكانه الحضور».

- «سأفعل. سرّني لقاءك جداً يا آشلين. هيا يا فتاتي، حان وقت الذهاب».

راقبت آشلين ابتعاد إيليز وإيثان والفتيات. حدثت نفسها أن إيثان سيكون من نوع الأقارب الذي ستحبّه الفتيات أيّما حبّ، سيكون أشبه بعمّ حقيقي لهنّ. ولم تبدِ إيليز أيّ ترددٍ في ضمّه إلى العائلة. من المؤسف أنهم لا يعيشون في أماكن قريبة.

تابعتهن ماريان بنظرها حتى اختفوا تماماً، ثم استراحت في كرسيها وحدّقت مباشرةً إلى آشلين: «منذ متى تعرفان؟».

أطرقت آشلين رأسها، إذ أريكتها صراحة ماريان المباشرة، لكن لا فائدة من تظاهرها بعدم فهم السؤال: «منذ بضعة أيام فقط».

- «كيف اكتشفتما الأمر؟».

- «عندما زرنّاك في منزلك، أريتنا صورة زاكاري. وعندما ذهبنا إلى المكتبة، رأينا صورة هيو غاريت؛ صورة هيمي. إنه نسخة من أبيه».

أومأت ماريان برأسها، وعلى شفيتها ارتسمت ابتسامة مُرة: «يشبهه كثيراً أليس كذلك؟».

- «وماذا عن قصة جوانا؟».

- «صحيحة كلها، باستثناء أن زاكاري ابنها»، شريت ماريان بعض الماء وأعادت الكأس إلى الطاولة بيدٍ ترتجف. «عندما غادرتُ نيويورك، كنت أشك في أنني حُبلى. وعندما وصلت إلى كاليفورنيا، تأكدتُ من ذلك. اشتريتُ خاتماً ذهبياً رخيصاً واختلقت قصة زوج وزواج. قلتُ إن زوجي كان طياراً في سلاح الجو الملكي البريطاني، وقد أُسقطت طائرته في أثناء توفير غطاءٍ لقافلة إمداد. لقد أصبحت بارعةً في سرد القصة إلى درجة أنني كدتُ أصدقها. عندما وُلد زاكاري، لم يشك أحد في شيء. لكنني كرهتُ كاليفورنيا. توجد أماكن تفيض بغربةٍ مقلقة، وكأنَّ فيها شيئاً مُعادياً لسكينة وجودك، دون أي تفسيرٍ لهذا الشعور. ربما كان الأمر مرتبطاً بعدم وجود هيمي هناك. لكنني لم أستطع العودة إلى نيويورك ومعِي طفل، لأن كورين ستكتشف الحقيقة في الحال ولأنني لا أثق بأبي. وأنا وسط هذه الدوامة لا أدري أين أذهب، انتقلت جوانا لتعيش في المنزل إلى جوار منزلي. كانت وحيدة وقد استبدَّ بها الخوف. فقدت ابناً وزوجاً وأباً وأماً، وكانت تنتظر مولوداً جديداً. لذلك بقيتُ، ثم عندما أنجبت إيليز وعرفتُ جوانا أنها لن...»، توقفت ماريان فجأة وقد غصَّت بالدموع والعاطفة والكلمات. «عندها طلبت مني أن آخذ الفتاة...».
- «فوجدتُ في ذلك طريقةً لإضفاء الشرعية على وجود زاكاري»، قالت آشلي برفق.
- «بل هي من فعلت»، لم تستطع ماريان كبح دموعها فأغمضت عينيها مراتٍ عدة وأخذت رشفة أخرى من الماء لتمنع

تدفقها ثانيةً. تابعت بصوتٍ مشوبٍ بالحزن: «في اليوم الذي أحضرتُ فيه إيليز إلى المنزل، ذهبتُ إلى غرفة جوانا. كنت لا أزال في حالة صدمة، ولم أستطع تصديق أنها رحلت. لكنني تذكرتُ قولها إنها تركت لي شيئاً في درج مكتبها. وجدتُ في الدرج العلوي ظرفاً حمل اسمي، وفي داخله شهادة ميلاد طفلٍ ذكرٍ يُدعى زاكاري؛ ابنها الذي توفي قبل مجيئها إلى الولايات المتحدة، مُرفقة برسالة قصيرة».

في حضرة التصرف السخي النبيل الذي سيُكشف عنه، لم تتطرق آشليين ببنتِ شفة، مع أنها كانت على يقينٍ تام بما هو مكتوب.

«كتبت لي: عندما تقرئين هذه الرسالة، ستكون روحي قد فاضت. لا تحزني عليّ، لكن إن نجت الطفلة، فأنا أوكل لكِ رعايتها، لتحبيها وتربيها وكأنها ابنتك. تركتُ لك أيضاً اسم نور عيني زاكاري وشهادة ميلاده. إنها طريق عودتك يا ماريان، طريقك لغسل ماضيك المُثقل بالألم والندم. قد تضطرين إلى تغيير اسم ابنك، لكنه سيحظى الآن بأختٍ ترافقه. ليحفظك الله ويسعدك، وباركك على كلِّ ما قدّمته من خيرٍ وعطاء، يا أختي الحبيبة».

وضعت آشليين يدها على فمها وقد أثقل قلبها مشهد أمٍّ تخطّ تلك الكلمات بقلبٍ مكسور، مدركةً أنّ احتمال نجاة طفلتها ضعيف، ومؤتمنةً إياها لامرأة غريبة لم تعرفها سوى منذ خمسة أشهر خلت. فلا عجب أنّ حفرت ماريان تلك الكلمات في أعماق ذاكرتها حفرأً.

- «كانت محظوظةً لوجودكِ قريباً. لا أتخيل اتخاذ مثل هذا القرار أو كتابة رسالة كهذه»، قالت آشليين بهدوء.
- هزت ماريان رأسها بحزن: «لا أعلم متى كتبتُها، لكنها كانت تعلم أنها لن تغادر المستشفى لتعود إلى المنزل. لقد أنهكتها القتال والمقاومة. ما يذهلني حتى بعد هذه السنين كلها، أنها في تلك اللحظات العصبية، كانت تفكر في».
- «هل كنتِ تعلمين بما عرَضته في الرسالة؟».
- «أجل. لطالما تحدثتُ أمامها عن العودة إلى الديار يوماً، لكنها كانت تعلم استحالة تحقيق ذلك، وتعلم الأسباب أيضاً. فقدمت لي هديةً ثمينة؛ اسم ابنها الراحل لتمهيد طريق عودتي. من خلال الادّعاء بأن زاكاري هو أخ إيليز الأكبر وليس ابني أنا، سنتحرر أنا وهو من وصمة عدم الشرعية. كانت شهادة الميلاد مؤرخةً في التاسع من أكتوبر 1941، قبل تسعة أشهر من ولادة توماس، اسم زاكاري الأصلي، لكنني كنت أعلم أنني أستطيع تسيير كل شيء بنجاح. وهذا ما فعلته. لم أعد إلى نيويورك قطّ. ليس لأعيش هناك على الأقلّ، فقد كنت لا أزال أخشى والدي. ولكن بات بإمكانني الذهاب إلى أي مكانٍ أريد، والبدء من جديدٍ بنفسي جديد، وقد فعلتُ ذلك. فعلناه ثلاثتنا معاً».
- «في ماربلهيد».
- ابتسمت ماريان ابتسامةً واهنة قائلةً: «أجل، في ذلك البيت عند أقاصي الأرض».

- «عندما اكتشفت أنا وإيثان السر، اتفقنا على كتمانِه. لم نكن ننوي الكشف عنه نهائياً، لا الليلة ولا في أي وقتٍ آخر».
- «أقدّر لكما ذلك. علمتُ أنكما عرفتما الحقيقة عندما تبادلتما النظرات خلال حديث إيليز عن زاكاري. لا أظنّ الأمر يهمُّ بعد الآن على أيِّ حالٍ. زاكاري شابٌّ راشد لم يعد بحاجةٍ إلى حمايتي. بل هو من أصبح يحميني وأحبّه على ذلك. بالمناسبة، كلاهما يعلم الحقيقة».
- «الحقيقة كلها؟».
- حوّلت ماريان بصرها بعيداً وقالت بنبرةٍ شابها التوتر: «لم أفصح عن أسماء إن كان هذا ما تسألين عنه. لكنني جمعتُهما وأوضحْتُ لهما أنّهما ليسا أخاً وأختاً بالولادة. كان زاكاري في الرابعة عشرة من عمره، وإيليز في الثانية عشرة. كان في نيّتي الانتظار حتى يصبحا أكبر قليلاً، لكن إيليز بدأت تطرح أسئلةً حولّ انعدام الشبه بينها وبين أخيها، بعد أن زرع أحد زملائها في المدرسة الشكَّ في نفسها، فما انفكت تسأل وتستفسر، حتى اضطررتُ في النهاية إلى إجراء تلك المحادثة الصعبة».
- «كيف تقبّلا الأمر؟».
- «هزّ زاكاري كتفيه بلا مبالاة وسأل إن كان بإمكانه تناول وجبةٍ خفيفة. أمّا إيليز فقد احتاجتُ إلى وقت أطول قليلاً لتستوعب الأمر. لم يكن يهتمُّها أن لديّ طفلاً خارج إطار الزواج، بل أعتقد أنّها عدّت ذلك شجاعةً منّي، لكنها انزعجت بشدّة لأنني كذبت بشأن زاكاري. لطالما كانت صارمة، ولا تتردد في عقاب من يخالف توقعاتها. خشيتُ

أن يفرّق هذا السر بينهما، لكنه في الحقيقة قوى علاقتهما وأصبحا أكثر قريباً في تجسيد آخر لطباعها، فهي تملك قلباً كبيراً لكنها تخفيه خلف تلك الشراسة كلها. لاحقاً، عندما كنّا أنا وزاكاري بمفردنا، سألتُهُ إن كان يريد معرفة والده. وأخبرته أنّ بإمكانني ترتيب لقاءٍ بينهما إن كان يرغب.»

- «لكنه رفض، أليس كذلك؟»

- «قال إن من الظلم بحق إيليز أن يصبح لديه أب وتظلّ هي محرومةً منه. قال إنه لا يعرف والده، فما فائدة معرفته الآن؟ وإننا نحن الثلاثة بخير وعلى أحسن ما يرام.»

- «يا لها من نظرةٍ رائعة للأمور»، قالت آشليْن وقد تأثرت بما سمعت .

- «هكذا هو زاكاري، يتأقلم مع الأمور ببساطة. كنّا سعداء معاً، لكن تراودني بعض الأفكار أحياناً. هل رفض فقط لأنّه ظنّ أنّ هذه رغبتِي؟ إذ لطالما أدركَ حاجتي إلى الخصوصية، حتى لو لم يفهم سببها. أو ربما لم يُردّ ببساطة أن يُخلّ بالتوازن القائم. لكان لقاءه بوالده بمنزلة إسفينٍ يُدقّ بينه وبين إيليز. كان دائم الحذر بشأن هذا النوع من الأمور، تلك التي تخصّ الحفاظ على علاقتهما بوصفهما أخاً وأختاً حتى بعد أن علما الحقيقة. لو دخل هيمي حياتنا فجأة، لهُزّها وأربكها.»

فهمت آشليْن الموقف بأبعاده كلها ثم قالت: «من الواضح من طريقة حديث إيليز عن زاكاري مدى علاقتهما المتينة. ظهور أبيه في حياتهما فجأةً كان ليُحدث شرخاً في تلك الرابطة الوثيقة.

لكن ماذا عن هيمي؟ أليس من حقه أن يعلم أنه له ابناً؟ هل فكرت يوماً في إخباره؟».

سكن الحزن ملامح ماريان مجدداً. تنهدت وأغمضت عينيها لحظات ثم قالت: «بل فكرتُ في ذلك كل يوم. كنت على استعداد لإخباره من أجل زاكاري بالطبع، حتى أنني حسمت أمري لأخبره. وعندما رفض زاكاري، شعرتُ براحةٍ كبيرة. كان إخباره سيفتح باباً لم أكن مستعدةً لإعادة فتحه. لقد أغلقت ذلك الباب إلى الأبد في اليوم الذي نكتُ فيه بوعده ونشرَ ذلك التحقيق الصحفي، فتقطعت سبل العودة تماماً».

أومأت آشليين برأسها: «فهمت. كنت أفكر أنه لو علم بوجود...».

قاطعتها ماريان وقد أصبحت نبرتها أكثر حدة: «أعلم بما تفكرين. أنه كان سيتزوجُ بي من أجل ابنا، وأنا كنا سنعيش حياة سعيدةً إلى الأبد. كم تشبهين ديكي في كلامك هذا».

- «هل كان ديكي يعلم أن زاكاري ابنك؟».

- «هل نسيت أن ديكي يعرف هيمي؟ لم تستغرق عملية اكتشافه حقيقة والد ابني أكثر من خمس دقائق. وسرعان ما راح يعطيني مواعظ أخلاقية حول خطئي في إخفاء الحقيقة عن هيمي. وأنتي لم أخطئ بحق زاكاري وحده، بل بحق هيمي وبحقي أنا. ظلّ سنين طويلة يعتقد أن بإمكاننا إعادة الأمور إلى نصابها، لكنني لم أرد علاقةً مع هيمي تقوم على أساس الابن المشترك. وعلى ما يبدو أنه لم يُردني على الإطلاق».

رفعت آشليين حاجبها بدهشة: «كيف تقولين هذا؟ لقد أراد الزواج بك».

- «مرةً ربما في الماضي البعيد . لكنه لم يحاول العثور عليّ . لم يتّصل بي أو يكتب لي حتى رسالةً واحدة» .
- ذُكرتها آشليين بكلماتٍ واضحةٍ محددة: «لقد كتب لك كتاباً» .
- قالت ماريان وقد سئمت من الكلام: «صحيح . أتذكرُ يوم استلامه . عندما قرأت الإهداء ظننتُ أنه اكتشف أمر زاكاري ، وأنّه يعاتبني على إخفاء ابنه عنه . أدركتُ أنّ الأمر مختلف تماماً ، وأن الكتاب ليس سوى محاولةٍ أخرى لتبرير أفعاله وتصوير نفسه على أنه الضحية المظلوم . لم يهتمّ بالحقيقة ، ولم يُظهر أيّ اهتمام بي وكأنه يريد تبرئة نفسه من كل ما حدث . وجدتُ في ذلك مسوغاً ودليلاً على أنه لا يستحق معرفة الحقيقة . أعلم أنّ كلامي قد يبدو قاسياً وأنانياً بالنسبة إلى شخص ثالث . ولعلها قسوة وأنانية بالفعل . لكنني فعلت ما رأيته صواباً لزاكاري . لقد كان سعيداً وناجحاً في حياته ، وهذا ما سعت إلى تحقيقه بشدة . أحببته بكلّ ما أوتيتُ من قوة ، وسأظلّ أحبه إلى الأبد . أما الأمور الأخرى ، فلا تعني لي شيئاً الآن» .
- «لا يسعني تصديقك ، ولا أظنك مقنعةً بما تقولين أنت أيضاً» ، ردت آشليين بنبرة لطيفة .
- حدّقت إليها ماريان ملياً وراحت تتقر بأظفارها الأنيقة المطلية على الطاولة ثم قالت: «سألتكِ قبلاً وسأعيد السؤال الآن: لماذا هذا الاهتمام كله في ماضيّ؟» .
- «لا أعلم . أدرك أنّ لا دخل لي ، لكنّ الشعور بأنكما كنتما مقدرين لتكونا معاً لا يفارقني ، وأن ما حدث كان مجرد خطأ فادح» .

ابتسمت ماريان بأسى وقالت: «لا تزالين شابةً بريئةً ساذجةً تؤمن بقدره الحب على قهر الصعاب كلها. حملتُ هذا الإيمان ذات يوم، منذ زمنٍ بعيد. لكنَّ مع مرور السنين، تعلَّمتُ أن الحياة أكثر تعقيداً من ذلك بكثير»، توقفتُ برهة وحرَّكتُ رأسها بحزنٍ عميقٍ وهي تتابع القول: «ينتصر الحب في بعض الأحيان أجل، لكنه يخسر في أكثرها».

تأملت آشليين ردها بعنايةٍ بالغة. كان ألم ماريان واضحاً جلياً رغم محاولاتها إخفاءه. قالت أخيراً بصوتٍ خافتٍ يفيض تعاطفاً: «لست ساذجةً بالقدر الذي تعتقدين. أعرف جيداً معنى انكسار القلب، وأعرف مدى الألم الذي تسببه خيانة شخصٍ تثقين به. وكيف تُمنين نفسك بالاختباء عن العالم لأنك تعجزين عن تصديق أنك ارتكبتِ مثل هذا الخطأ الفادح في منح قلبك لشخصٍ لا يستحقه. أعرف هذا كله لأنني ارتكبتُ هذا النوع من الأخطاء بنفسِي. لقد وهبت قلبي لشخصٍ لم يحبَّني حقاً. لكن وضعك مختلف، لقد أحبك هيمي يا ماريان، وأظنَّه لم يتوقف قط عن حبِّك. تماماً كما أظنُّ أنك لم تتوقفي عن حبِّه».

صمتت ماريان صمتَ الحجارة، رافضةً تأكيدَ شكوك آشليين أو نفيها.

- «بوسعك أن تجديه يا ماريان، لن يكون ذلك صعباً. وعندها يمكنك أن تخبريه الحقيقة أخيراً. الحقيقة كلها تماماً كما حدثتني بها الآن. ليس من أجل هيمي أو زاكاري، بل من أجلك أنت. كان ديكي على حق في ذلك. بغض النظر عما حدث منذ سنواتٍ خلت، وبغض النظر عما سيحدث في

المستقبل، أنتما تستحقان طي هذه الصفحة إلى الأبد». ظلّ وجه ماريان جامداً كالصخر وهي تقول: «تحدّثين وكأنّك تعتقدين أنّ هناك سبيلاً للعودة، وأنّ الكلمات تستطيع إصلاح ما حدث منذ أكثر من أربعين عاماً. لم يُكْتَبَ لنا أن نعيش حياة سعيدة معاً يا آشلين. لا حينها، ولا اليوم بالتأكيد».

- «لا يتعلّق الأمر بالحياة السعيدة، بل بقرار تحرير نفسك من عبء اللوم والغضب، وطيّ صفحة الماضي إلى الأبد. يتعلّق الأمر بالغفران يا ماريان».

- «الغفران»، ردّت ماريان وهي تتحاشى النظر في عيني آشلين. «كلمةٌ خفيفة على اللسان، لكنها صعبة التحقيق. الغفران يعني أن أعيش مع ذكرياتي دون لومٍ أو غضبٍ كما تقولين، ولا أظن أن بوسعي تحمّل ذلك».

فهمت آشلين ألم ماريان، فقد لجأت هي نفسها إلى تغليف ذكرياتها بالغضب، وتحصين نفسها باللوم والمرارة. لكنّها تذكّرت شعور التحرّر الغامر الذي حلّ بها عندما قرّرت أخيراً أن تغفر لدانييل. مضى على رحيله أربع سنوات، ولن يعرف أبداً حقيقة غفرانها، لكنّها ستعيش متحررةً من هذا العبء. في النهاية، كان الغفران قراراً اتّخذته آشلين لوقف معاقبة نفسها، وهو قرارٌ تستطيع ماريان اتّخاذَه هي الأخرى.

- «لا تملك إحدانا القدرة على تغيير الماضي يا ماريان، مهما كانت رغبتنا في ذلك شديدة»، قالت آشلين بصوتٍ يفيض رقة. «ما بوسعنا فعله هو التخلّص من ثقله بالغفران. الغفران الذي يتطلّب تحقيقه قراراً حاسماً. يمكنك أن تسامحي هيمي،

وأن تسامحي نفسك على إبعاد زاكاري عنه. تذكرني أنك في ذلك الوقت اتخذت قراراً اعتقدت أنه الأفضل لعائلتك، حتى لو لم يكن القرار ذاته الذي كنت ستتخذه اليوم».

- «تقصدين أن أبرئ نفسي؟».

- «بل ما قصدته...».

لم تكذ آشلين توضح كلامها حتى ظهر إيثان: «آسف، لقد استغرق الأمر وقتاً أطول مما توقعت. لكن ليذا استيقظت وأرادت مني أنا أن أضعها في السرير، ثم اضطررت إلى قراءة قصة لها، مع أنها غفت بعد أن قرأت صفحة واحدة. يا لها من طفلة رائعة». تفاجأت آشلين قليلاً عندما رأت ماريان تنهض وتشير إلى المطعم الشبه الفارغ من رواده: «لم أدرك أن الوقت قد تأخر إلى هذا الحد. أظن أنهم يفضلون أن يغادر الآن لنتيح لهم المجال لتنظيف المكان والعودة إلى منازلهم. كما أن لديكما رحلة عودة طويلة بالسيارة. أعتقد أن إيثان لديه عمل في الجامعة غداً صباحاً أليس كذلك؟».

حملت آشلين حقيبتها ونهضت واقفة، وتمنت لو أن لديها مزيداً من الوقت للحديث مع ماريان. لم تدرك إلا مؤخراً مدى قوة الغفران، وفهمت أن قرار المغفرة هو في الحقيقة مسألة شفاء للنفس بقدر ما هو إعفاء للآخر من ذنبه. بل وأكثر من ذلك ربما. تمت فقط لو كان لديها مزيد من الوقت لإقناع ماريان. رسمت آشلين ابتسامة على وجهها وقالت: «شكراً جزيلاً على العشاء يا ماريان. غمرني لطفك بأن دعوتني إلى هذه الجلسة العائلية».

- «أخشى أن هذه الأمسية لم تنتهِ نهايةً سعيدةً. لعلّكما الآن، وقد عرفتما أسراري كلها، تتمنيان لو أننا لم نلتقي قط».
- تبادل إيثان وآشليين نظرات حيرة واستغراب.
- «بالله عليك يا ماريان. قبل ستة أسابيع من الآن لم تكن لدي عائلة. ها قد حظيت الآن بجدةٍ أخرى وابنتها وحفيداتها، ودعوة أيضاً للاحتفال بالعيد القادم. حاولي التخلص مني إن استطعت».
- ربت ماريان على ذراعه بمحبة، وأشرقت أساريرُ وجهها: «إذا تغيّر أيُّ شيءٍ واستطعتَ حضور حفل الغد، سأكون من الشاكرين. ستكون ليلةٌ مملّة، لكنّ الطعام سيكون لذيذاً».
- ساروا معاً ثم توقفوا عند المدخل للوداع. فاجأتهما ماريان عندما احتضنتهما معاً قائلة: «اعتنِ جيداً بهذه الفتاة يا إيثان. إنها كنزٌ ثمين إن لم يخب ظني».
- فوجئت آشليين بفيض العواطف الذي غمرتهما به كلمات ماريان. خشيت قبل قليل أنها تجاوزت الحدود وتكلّمت بصراحة زائدة وبوقاحةٍ ربما عن أمرٍ لا يعنيهها. لكنها شعرت الآن أنها بكلامها زرعت بذرة تفكيرٍ في عقل ماريان.
- ابتسم إيثان وهو ينظر إلى آشليين قائلاً: «أعدكِ بذلك».
- «أعني ما أقول يا إيثان»، ثم أخذت وجهه بين راحتيها ونظرت في عينيه وأردفت: «سأقول لك ما قلته لأبيك منذ سنوات؛ لا تسمح لأي شيء بأن يفرّق بينكما». ابتعدت بعد ذلك وغمرت آشليين بعينها قائلة: «سأذهب لأحصل على قسطٍ من النوم

لأستعيد جمالي قبل ليلتي الكبيرة غداً. يبدو أن الأمر يتطلب
منّي جهداً أكبر كلما تقدّمتُ في السن». وقف إيثان وآشليين وقد تشابكت أيديهما وراحا يراقبان ماريان وهي تعبر الردهة متوجهةً نحو المصعد. فعلى الرغم من كل ما جرى معها، ومن كل آلام الخذلان والخسارة، لم تتوقف ماريان مانينغ عن الإيمان بالحب.

الفصل العشرون

ماريان

«تهدينا القراءة أصدقاء مجهولين».

- أونوريه دي بالزاك

2 ديسمبر 1984

بوسطن، ماساتشوستس.

عدلت شعري مجدداً وداعبتُ خيط اللؤلؤ الوحيد الذي يزين عنقي، متمنيةً لو كنتُ أكثر ثباتاً. أقلقُ حديثي مع آشلين الليلة الماضية منامي وقض مضجعي حتى ساعات الفجر الأولى. وهذا آخر ما يتمناه المرءُ قبل مناسبةٍ عصبية كهذه. يبدو أن حفيد أختي اختار امرأةً حكيمة، وأظن أنها خاضت خلال حياتها غمار تجارب قاسية.

انكشف سري الدفين أخيراً، بعد ثلاثة وأربعين عاماً من الكتمان. لقد حرمتُ الرجل الذي أحببته من ابنه. لم تظهر على وجه آشلين مؤشرات لوم أو تقريع وأنا أروي قصتي لها، بل تعاطفٌ صادقٌ عميق، وهي صفةٌ نادرة. لكنّ ما طلبته مني كان مستحيلاً. الغفران بعد هذه السنوات الطويلة كلها ودفنُ الماضي ببساطة. قالت إن عليّ أن أغفر من أجلي أنا، لكن كيف يمكن للغفران أن يفيدني؟ فأنا لست متأكدة أنني بعد سنواتٍ حزينٍ مديدة، سأتمكن من العيش دون هذا الحمل العاطفي الثقيل. ظلت كلمات آشلين تُراودني بطريقةٍ مزعجةٍ إلى أن انضمتُ إلى إيليز والفتيات على طاولتنا قرب المنصة.

شعرتُ بصداعٍ يحاول التسلل إلى رأسي. قاعة الاحتفالية خانقةٌ بشكلٍ لا يُطاق. هواءٌ كثيفٌ مُشبعٌ بمزيجٍ من روائح الشراب ومثبتات الشعر والعطور الفاخرة. أو لعلَّ همهمة المحادثات المضطربة التي ملأت تلك المساحة الواسعة كلها هي ما أثارت أعصابي. بدا الأمر وكأنَّ خلية نحلٍ غاضبةً على وشك الانقراض. دفعتني غريزتي إلى الهرب، ولكن الألوان قد فات. رُفَعَ العشاء وقُدمت الحلوى واقترب موعد الكلمات التكرمية. علقت لافتةً تحمل عبارة «شبكة رعاية الأطفال تُكرم ماريان مانينغ» فوق المنصة. مددتُ يدي نحو كأس الشراب، لكنني غيرتُ رأيي واحتسيت الماء بدلاً منه. فأنا بحاجةٌ إلى قواي كاملة لأتمكن من صعود المنصة والوقوف أمام الحضور. يداي حارتان ودبقتان. أكرهُ مثل هذه المناسبات التي أضطُرَّ فيها إلى حشر نفسي في ثوب سهرةٍ لأظهر أمام الجميع وكأنني قديسة. لكن هذا يعود بالفائدة على المؤسسة، لذا سأصبر على ذلك كلما اضطرتت إليه.

ضجَّت أركان القاعة بتصفيقٍ حاد حين أُعلن اسمي عبر مكبّر الصوت. تحاملتُ على النهوض وصعدتُ الدرجات المؤدية إلى المنصة حيث وقفتُ امرأةٌ ترتدي ثوباً ذهبياً لامعاً. إنها غويندولين هاليداي، رئيسة شبكة رعاية الأطفال. ابتسمت وسلمتني الجائزة. فوجئتُ بثقل الجائزة. كانت مجسم كرة أرضية مصنوعاً من الزجاج الشفاف، وقد نُقش اسمي على قاعدةٍ مربعة من الرخام الأزرق المصقول. أضاعت ومضات المصابيح المكان بشكلٍ متقطع، وارتفع صوت طقطقة آلات التصوير. إنها الصحافة التي لا مفر منها أبداً.

تجمّدت نظراتي على بحرٍ من الوجوه المتطلّعة التي تنتظر أن
أتفوه بما هو عميقٌ ومؤثر. تمنيتُ لو أنني كتبتُ شيئاً مسبقاً على
إحدى البطاقات، لكنني أعلم أنني لن أستخدمها، وإن استخدمتها
فلن ألتزم بترتيبها. لذلك قررت ألا أكتب شيئاً. أعني يا ربي.

علتُ وجه إيليز والفتيات ابتسامات تتطق فخراً. بدون جميلاتٍ
في فساتينهن الجديدة وقد صففن شعورهن على شكل تجميعاتٍ
أنيقة. كانت ليذا تُلوّح لي بحماسة من بين الحضور. رددتُ تحيتها
وأرسلتُ لها قبلةً: «مرحباً يا ليذا».

شعرتُ بالاسترخاء نوعاً ما عندما ضحك الجمهور، ثم شرعتُ
ألقي كلمتي. لم أحبّ صدى صوتي في هذه القاعة الفسيحة
ذات السقف العالي، ولكنني ابتسمتُ وتحدثتُ بما يليق بالمناسبة.
شكرتُ الحضور، فأجابوا بابتساماتٍ عريضة. ثم أدليتُ بملاحظةٍ
متواضعةٍ حول افتقادي بعض مهارات الخطابة الاحترافية،
فأطلقوا ضحكاتٍ خافتة. تناولتُ في كلمتي بعد ذلك أهمية
إيجاد بيوتٍ آمنة للأطفال المهجرين حول العالم، فأوماً الجميع
برؤوسهم بحماسة، موافقةً وإدراكاً لأهمية القضية.

فجأةً ومن بين زحام الوجوه... برز وجهه. ذاك الرجل الواقف
مستنداً إلى الجدار الخلفي. ذاك الرجل الطويل القامة ذو
الملامح الحادة المتجهمة. لم يكن يومئ برأسه أو يبتسم، بل
تسمّرت عيناه عليّ. ذاك الرجل الذي لن أتوه عن ملامحه أينما
رأيتَه، ولو بعد سنين طويلة.

دارت القاعة بي وضافت حتى صارت مجرد نقطتين داكنتين
في مدى بصري. ظننتُ برهةً أنّ ساقَي ستخوناني، وتخلّيتُ في

الحال العنوان الرئيس في صفحة المجتمع منشوراً في جريدة
الغد: سقوط صاحبة الأيدي البيضاء ماريان مانينغ خلال حفل
عشاء أقيم على شرفها. دوى تصفيق خافت حين غادرت المنصة،
لكنه بدا لي مكتوماً ومخنوقاً، وكأنني غصت في بحر عميق.

نظرت إليّ إيليز بقلق وأنا أجلس في مقعدي وأمسح العرق
الذي ظهر على شفتي العليا. سألتني إن كنت بخير، وأشارت إلى
أنني أرتجف قليلاً. أومأت برأسي وأجبرت نفسي على الابتسام.
لكن الأمر الوحيد الذي سيطر على أفكاري ورحت أردده في
رأسي: «الحمد لله أن زاكاري لم يتمكن من الحضور الليلة».

الحمد لله، الحمد لله.

أرادت الفتيات رؤية جائزتي فأعطيتها لميلا ثم تناقلنها بينهن
إلى أن همست إليهن إيليز طالبةً منهن الجلوس وحسن التصرف.
هناك امرأة تتحدث الآن. امرأة طويلة ترتدي ثوباً أصفر مكشكشاً
يذكرني بأزهار النرجس. تظاهرت بالإنصات، لكن كلماتها تتلاشى
مبهمة وكأنها مهمة بعيدة.

أصفق حين يصفق الآخرون، وأومئ حين يومئون، وأختلس
نظرة بين الفينة والأخرى إلى الجزء الخلفي من القاعة. لا يزال
واقفاً هناك... يراقبني. الفتيات متململات، وجاهزات للمغادرة
الآن بعد أن أنهت ميمي، هكذا يُناديني، كلمتها. شرعت النساء
يحملن حقائبهن ويرتدين معاطفهن، وطوى الرجال مناديلهم
وتوجهت الأنظار نحو المخارج. شارفت الفعالية على الانتهاء،
وشعرت بالارتياح، لكنني كنت مرتعبة في الوقت عينه.

بعد جولة تصفيقٍ أخيرة، تقاطر الجمع الحاضر نحوي. أحاطوا بي وقدموا التهئة وحرصوا على مصافحتي. اقتربت إيليز وقبلت خدي وأشارت إلى أن الفتيات أعياهن التعب والنعاس. وأكدت أننا سنلتقي على طاولة الفطور غداً صباحاً ثم انصرفت تاركة إياي مع المهنيين.

تصنعت الابتسام وتفوهت بالكلمات الملائمة التي تعبّر عن شكري وامتناني. لكنني كنت أرسل نظراتي طوال الوقت فوق الرؤوس وخلف الوجوه داعيةً أن يكون قد غادر المكان. بعد ثلاث نظراتٍ خاطفة، أدركت أنه لا يزال هناك ينتظرني والحشد ينفُض من حولي ببطء. لم يبقَ في النهاية سوى عددٍ قليل من المتأخرين. بدأ النُدُل ينظفون الطاولات، ولم يكن في وسعي فعلُ شيء سوى المضيّ قدماً. وضعت حقيبتني تحت ذراعي وحملت جائزتي وتوجهت نحو المخرج.

أخرج يديه من جيبه وعدّل وقفته وأنا أقترب. لا يزال نحيلاً، لكن ملامحه عكست نوعاً جديداً من الثقة، ثقة نابعة من النجاح لا من الغرور. أحسستُ فجأةً بالقلق بشأن مظهري. تساءلتُ إذا ما كان الفستان المخملي الأزرق الذي اخترته لهذه الليلة يجعلني أبدو هرمة. كيف للزمن ألا يطرق بابه منذ تلك الليلة في صالة الرقص في فندق سانت ريجيس؟ كان يرتدي بزةً داكنة محاكاةً بشكل مثالي، تتخللها خطوط بيضاء رفيعة، من ذلك النوع الذي اعتاد أن يسخر منه حين يرى أصدقاءً والدي يرتدونه. إنه في عقده السادس الآن، ولا يزال يتمتع بوسامةٍ آسرة.

سيبدو زاكاري مثله تماماً يوماً ما.

كانت هذه الفكرة ترعبني.

- «تهانينا»، قال عندما صرْتُ أمامه.

أعاد صوته عجلة السنين إلى الوراء، إلى تلك الليلة الأولى. لم تبهت زرقة عينيه، لكن خطوطاً دقيقة ظهرت حولهما الآن، كما داهم اللون الفضي شعره عند الصدغين. ترك الزمن بصمته على فمه أيضاً، أصبح أكثر قسوة وأقل ترحيباً واستعداداً للابتسام. إنه يبتسم الآن، إن جازت تسميتها ابتسامة. فهي لا تجد طريقاً إلى عينيه بل تزيد حدة ملامحه.

- «دعك من التواضع الآن. لقد تابعت أخبارك منذ رأيت إعلان

حفل الليلة في صحيفة غلوب. أنت مثيرة للإعجاب حقاً».

- «لماذا أنت هنا؟»، قلتُ أخيراً وقد استعدتُ قدرتي على الكلام.

- «وكيف لي أن أفوت فرصة احتساء كأس شرابٍ مع صديقة قديمة واستعادة ذكريات الماضي؟».

أربكني حديثه، فكلماته لا تتماشى مع ابتسامته الحادة، وكأنه يمتلك ورقة رابحة يخفيها في جعبته.

- «لقد تبادلنا الحديث قبلاً، أتذكر؟ لقد كتبتُ لي كتاباً».

- «وقد رددت الكتاب بآخر».

- «وهذا يعني أن الأمور انتهت، ألا ترى ذلك؟».

- «في السابق ربما، لكن سنحت لي الفرصة منذ ذلك الحين للتفكير فيما جرى والتأمل ملياً. يبدو أنك أغفلت بعض الأشياء في روايتك الأحداث. ثغرات في الحكمة كما نسميها».

حدقتُ إليه وقلبي يخفق بعنفٍ في صدري. هل كان يعلم؟ هل رأى زاكاري في مكان ما؟ خلال جولةٍ فنيةٍ ربما؟ لا شك أن نظرةً واحدةً كفيلةً بكشف الحقيقة. أو ربما قرأ شيئاً عنه، فاسمه يُذكر في الصحف دائماً. أو لعله كان يعلم طوال هذه السنين كلها. تذكرت الكلمات على الصفحة الأولى من كتابه ندمٌ على بيل. كيف يا بيل؟ بعد كل ما جرى... كيف يمكنكِ فعل ذلك؟ ربما هذا ما جاء ليسأله. ولكن وجهاً لوجه هذه المرة.

- «يوجد مشربٌ عند قاعة الاستقبال. ما رأيكِ بتناول شراب؟»، قال بلطف.

- «لا رغبة لي في ذلك. لقد كان يوماً طويلاً وأريد العودة إلى غرفتي».

- «لقد تخلفتِ عن موعدنا آخر مرةٍ كنا فيها في بوسطن».

- «لم أتخلف عن موعدك، بل عن موعد ديكي. لم يكن هناك ما نتحدث به حينها، ولا يوجد ما نتحدث به الآن»، ثم خطوتُ إلى اليسار وحاولت تجاوزه.

اعترض طريقي قائلاً: «بل هناك ما نتحدث عنه. لقد مضى وقتٌ طويل، وأظن أن الوقت حان لنحسم الأمر بشكل نهائي. ألا ترين أنكِ مدينةٌ لي بذلك؟ أربعون عاماً مدة طويلة لحجب الحقيقة عن شخص ما، بغض النظر عن التهم التي توجهينها إليه».

أومأت برأسي فحسب. أربعون عاماً زمنٌ طويل حقاً. طويل بما فيه الكفاية لأخدع نفسي فعلياً وأصدق روايتي التي حكتها

- بعناية، وأقنع نفسي أن باستطاعتي الحفاظ على سرّ كهذا دون عواقب.
- «إلى المشرب إذن؟»، اقترح هيمي مجدداً.
 - أومأت برأسي موافقة، إذ بدا أن لا مهرب من الأمر.
 - «أحتاج إلى دقيقةٍ للاتصال بغرفة ابنتي كي لا ينتابها القلق».
 - «هاتي عنكِ. سأحملها حتى تتحركي بحرية»، وقبل أن أعترض، أخذ مني الكرة الزجاجية ليضمن عودتي ثم أضاف: «هل أطلب لك شراباً؟».
 - «لا، لن أبقى مدةً طويلة».
- تجاوزته حينها وخرجتُ إلى الممر متوجهةً نحو الزاوية المنعزلة حيث توجد كبينة الهاتف. لم يكن الاتصال بإيليز ضرورياً في الوقت الحالي. كل ما كنت أحتاج إليه هو لحظة لأستعيد اتزانِي. كنت أعلم أن حمام السيدات يقع في هذا الجناح. دخلتُ إليه واستندتُ إلى الباب المغلق. لطالما راودني هاجس هذه المواجهة، ومع ذلك لم أضع خطةً مسبقةً لكيفية التعامل معها، ولم أفكر في أي عذرٍ يبرر ما فعلت. ربما لعدم وجود تبريرٍ أصلاً لخطأ كهذا.
- خطر على بالي وأنا أقف مرتعشةً أمام مفسلةِ الرخام الأسود أن أشلين قد تكون وراء سبب ظهور هيمي المفاجئ الليلة. لعلها فكرت في محاولة التوسط لعقد هدنة بيننا، كما فعل ديكي قبلاً. أمل ألا يكون هذا صحيحاً، لكن توقيت ظهوره يثير الشكوك، خاصةً بعد كلامها المؤثر عن الغفران البارحة. إضافة إلى أنها تعلم تحديداً مكان وجودي الليلة.

فخَّ آخر، لكنني سقطت فيه مباشرةً هذه المرة.

نظرت إلى المرأة، رأيتُ نفسي بأناقتي كاملة. تسريحةً أنيقة ومكياج مثالي يليق بحدث الليلة الكبير. تساءلتُ عمّا جال في خاطره حين دخلَ القاعة الليلة ورآني. هل خلُصَ إلى أن الزمن كان قاسياً عليّ أم رحيماً؟ وكان ذلك يهم الآن على أي حال. مع ذلك، بحثتُ في حقيبتي عن أحمر الشفاه، وأعدتُ تطبيقه بيد مرتعشة، تلتها لمسة خفيفة من البودرة على أنفي. وقفتُ لحظةً أخرى أتأمل نفسي.

- «هكذا سأبقى في ذاكرته»، حدثتُ نفسي. ثمّ عارضتني أفكارِي، «لا... ليس هذا ما سيتذكره. سيتذكر ما فعلتُ وما لم أفعل».

وجدته عند المشرب يحتسي شرابه المعتاد، مع وجود كأسٍ أخرى على رخام المشرب الأسود إضافةً إلى كرسي فارغ إلى جواره. جالت عيناَي في جنبات المكان، متمنيةً وجود مزيدٍ من الناس وأصوات موسيقا عالية، لكن المكان كان فارغاً وهادئاً بشكل رهيب.

- «تبدين جميلةً يا بيل»، همس بصوته الدافئ العميق الذي كان يجعل نبضي يتسارع يوماً. «لا تزالين جميلة».

- أردتُ أن أصرخ في وجهه: إياك والتلاعب بي الآن يا هيمي. قلتُ بدلاً من ذلك: «لا تتادني بيل. بيل رحلت منذ زمنٍ بعيد. وأنت لم تكن يوماً بذلك السحر الذي كنت تتخيله».

- «أتذكر أنني كنتُ في نظرك ساحراً إلى حدٍ ما. ليس مدةً طويلة، أعترف بذلك، ولكن بعض الوقت. متأكدٌ أنك لم تتسي».

احمرّ وجهي غيظاً. مددتُ يدي مجدداً نحو كأس الشراب، وتسمّرت عيناى على زجاجات الشراب المصطفة جنباً إلى جنب كجنود بلون الجواهر خلف المشرب: «قل ما جئتُ لتقوله».

- «ما جئتُ لأقول شيئاً، بل لأسمع. أظن أنك ترغبين في إخباري شيئاً ما، شيئاً تريدان تفسيره».

اختبأت خلف كأس الشراب، أسترقت النظر إليه بطرف عيني. لم تكن لديّ أي فكرة عن طريقة الإقرار باعتراف كهذا، وكيفية اختيار كلماتي وصياغتها، وعليه فقد قررتُ البدء بالحديث عن السبب.

- «لم أستطع الوثوق بك مجدداً بعد الذي فعلته. لم يكن بقائي وحيدة أمراً مهماً، فعلتُ ما كان ينبغي لي فعله. تابعتُ حياتي».

- «بسبب التحقيق الصحفي؟».

- «بسبب كل شيء، لكن السبب الرئيس كان التحقيق الصحفي، أجل».

تصادمت مكعبات الثلج في كأسه وهو يشربها عن آخرها. وضع الكأس الفارغة وأشار إلى النادل أن يملأها مجدداً. «ما زلتِ تلقين اللوم عليّ بعد هذه السنوات كلها».

- «ومن يجب أن ألوم؟».

- «ذهبتُ إلى تلك المحطة اللينة قبل موعدنا بساعتين. جررتُ حقيبتين إلى هناك وانتظرتُ مجيئك. هل تدركين كيف شعرتُ وأنا أقف على الرصيف وأشاهد القطار يغادر؟».

حدقتُ إليه وقد أذهلتني قدرته على الجلوس والتحدث إليّ

- أنا عن الألم. هل نسي دوره في هذا كله؟ الوعد الذي قطعه ثم نكث به؟ واختفاؤه من حياتي دون أي كلمة؟
- «أظنه يشبه شعوري حين دخلتُ شقتك في اليوم التالي ووجدتها خالية».
- «ذهبتُ إلى المحطة كما اتفقنا. أنتِ من لم تحضري».
- «أرسلتُ لك رسالة».
- «أجل، وكانت رسالتك واضحة تماماً. آسف على إلغاء خطط زفافك بالمناسبة. ومع ذلك، لا زلتُ أرى أنكِ تفاديتِ مصيراً صعباً. لم يكن تيدي يناسبك البتة».
- تيدي؟
- مرت سنواتٌ لم أذكر فيها خطيبي السابق، لذا أوقعني ذكرُ اسمه في حيرة.
- «لماذا تذكر تيدي الآن؟».
- رفع كتفيه مستهزئاً: «إن أردتِ حقاً أن تعرفي، فهي مسألة كبرياءٍ مجروح. ما زال يحيرني أمرُ تفضيلك ذلك الأحمق عليّ. أعجز عن استيعاب كلماتكِ حتى الآن، أو حقيقة اعتقادكِ إمكانية تهدئتي بذاك الهراء السافر الذي كتبته».
- وضعتُ كأسِي من يدي وحدثته مباشرةً. إمّا أنا من فقدتُ سياق الحديث، وإما هو من تاه عنه: «عن أي كلماتٍ تتحدث؟ لقد تبادلنا كثيراً».
- «عن الرسالة التي أرسلتها إليّ في شقتي مع ديكي».
- هذا ما يتحدث عنه إذن، الرسالة. راودتني راحةٌ غامرة إذ لم يكن الأمر يتعلق بزاكاري. لكنّ ما يقوله يجانب المنطق. «أنا لم أذكر تيدي في رسالتي قط».

أحضر النادل كأساً جديدة وأخذ الكأس الفارغة. أوماً له هيمي شاكرًا ثم استدار نحوي وتابع قائلاً: «لم تذكر اسمي صراحةً، لكنني فهمت مغزى الرسالة».

- «أي مغزى؟ ما الذي تتحدث عنه؟».

حدّق إليّ لحظة. كانت نظرات عينيه الزرقاوين حادةً إلى درجة أنني شعرتُ بالارتياح عندما نطق أخيراً: «لم هذا التلاعب وكلانا يعلم مضمون الرسالة؟ ما أهمية ذلك الآن على أي حال؟».

- «أنا لا أتلعب بك»، قلتُ حانقةً ومستاءةً من اللعبة التي يظن أنه يلعبها. توجهتُ أنظار الساقى نحونا، فرمقته بابتسامةٍ متكلفة وأخفضتُ صوتي: «أنا أعلم تماماً ما كتبت».

دسّ هيمي يده في جيب سترته. ظننتُ برهةً أنه يهيم في إخراج محفظته ليدفع ويفادر المكان. لكنه بدل ذلك، أخرج ورقة زرقاء مطوية، وفردها أمامي بحذرٍ شديدٍ قائلاً: «ربما يساعدك هذا على إنعاش ذاكرتك».

رحتُ أحدق إلى الورقة ذات الطيات الحادة، وكأنها فُتحت وأعيد طيها مراتٍ كثيرة. من الواضح أنها كُوِّرت وتجمعت في مرحلةٍ ما، لكن التجاعيد تسطحت مع مرور الزمن، وأدركتُ أن الرسالة حُفِظت بعناية. الحبر بهت، لكن الكلمات كلماتي.

كيف للمرء أن يكتب رسالةً كهذه وهو مدركٌ حجم الألم الذي ستسببه؟ يبدو إنهاء الأمور بهذا الوضوح، وبعد هذا التخطيط كله، أمرٌ مُحال حتى بالنسبة إلي. ستظن أنني قاسية وأنانية، وربما يكون ذلك صحيحاً، بل إنني على يقين بذلك. لكنّ نهايةً سعيدة لن تُكتب لنا. أنا أهتم بأمرك وسأظل مهتمةً بأمرك

بطريقتي، لكن علاقتنا لن تتجح أبداً. لم تتوافق آراؤنا في الأمور الجوهرية، وهذا ما يدفعني إلى إنهاء ما كان من شأنه ألا يبدأ أساساً. لو نظرت إلى الأمر بعينٍ واقعية، كما فعلتُ أنا، لرأيت أن إنهاء العلاقة أفضل لكلينا. في الحقيقة، أومن بأنك ستكون سعيداً لأنني عدتُ إلى رشدي. أنا المُلَامة طبعاً لإطالة الأمر أكثر من اللازم، بل للسماح لكل هذا بالحدوث أصلاً. أعترف بأن إنهاء العلاقة بكلماتٍ منمقةٍ على قصاصة ورقية ليس بالأمر الشجاع، لكن عندما يتعافى كبرياؤك من لدغة هذه الرسالة، ستدرك أنني أنقذتك وأنقذت نفسي. في الحقيقة، لقد قطعت وعداً لشخص آخر، وعلى الرغم من مخاوفي، فإنني لستُ قوية بما يكفي لنقض ذلك الوعد. سوف أرحل، وسأكون قد غادرت في أثناء قراءتك هذه الرسالة، فأنا أجبن من أن أواجه الفوضى التي سببتها. لا تحاول الاتصال بي أرجوك فقراري حاسم. أتوسل إليك أن تسامح قلبي الأناني المتقلب.

ماريان

نظرتُ إليه بذهول. كان ينتظر ردي وقد بدا راضياً عن نفسه وكأنه أوقع بي متلبساً في كذبةٍ ما. لكن الرسالة خاطئة، مألوفة، لكنها خاطئة تماماً. يا إلهي... كيف حدث ذلك؟

- «لماذا هذه الرسالة بحوزتك أصلاً يا هيمي؟».

علت محياه ابتسامةً باردة وقال: «ماذا عساي أقول؟ لا تدعي رجاءً أنك لم تكتبها».

- «بل كتبتها... لكن إلى تيدي. كيف وصلت إلى يدك أنت؟».

تلاشت ابتسامته وخلا وجهه من أي تعبير: «لقد أرسلتها مع ديكى».

نظرتُ إلى الورقة غير مصدقة: «هل هذه هي الرسالة التي أحضرها لك تلك الليلة؟».

- «تعرفين حق المعرفة أنها هي».

قلت وأنا أهز رأسي بشدة: «لم أرسل هذه لك. كتبتُ حينها رسالتين؛ إحداها إلى تيدي أشرح فيها سبب استحالة زواجنا، والأخرى إليك. كانت رسالتي إليك قصيرة جداً، ثماني كلمات على وجه التحديد. وهذه التي بحوزتك رسالة تيدي».

رفع كأسه إلى شفثيه ثم أعادها دون أن يشرب منها. غرق في الصمت وثبت نظره نحو الأمام في محاولةٍ لاستيعاب ما قلته للتو. قال أخيراً وقد تلاشت تعابير وجهه: «وماذا كتبتُ في رسالتي؟».

أشحت بنظري بعيداً وأنا أستذكر مسودات الرسائل التي انتهت بها المطاف في سلة المهملات ذلك اليوم. محاولات وداعٍ فاشلة مزقتها، لأنني أدركتُ في نهاية المطاف عجزني عن تركه.

- «كتبتُ فيها... أنا قادمةٌ يا هيمي... انتظرنى».

- «إنها خمس كلمات. ماذا كتبتِ أيضاً؟».

- «لا يهم».

- «أجل. لكنني أرغبُ في معرفة ما كتبتِ».

ارتكبتُ خطأً ونظرتُ إليه. تشابكت أعيننا لحظةً في صراع إراداتٍ بارد: «لا أتذكر»، قلت أخيراً وأنا أمد يدي لآخذ كأس شرابي: «لكنني على يقين تام أن مضمون رسالتي لك ليس

مطابقاً لما تراه الآن. لا أفهم ما الذي جرى. وضعتُ طابعاً بريدياً على رسالة تيدي فور إغلاقها، وأوعزتُ إلى ديكي أن يضعها في صندوق البريد. يستحيل أن يخلط بين الرسالتين».

- «لم يكن هناك طابع بريدي على الظرف الذي تركه لي». شعرت بنصلٍ بارد يخترقني عندما لمعت الحقيقة في ذهني. حقيقةٌ مروعة لكنها حتمية.

- «أحدهم بدّل الرسالتين. بطريقةٍ ما انتهت رسالة تيدي في الظرف المُرسَل إليك».

قال هيمي بنبرةٍ مشككة: «تقصدين أن ديكي فتح الرسالتين وقراءهما، ثم بدلتهما قبل أن يعيدهما إلى الظرفين؟».

- «لا أدري. لكن شيئاً ما قد حدث. انظر»، قلتُ وأنا أشير إلى اسمي الحقيقي في أسفل الصفحة: «الرسالة موقعة باسم ماريان». توقفتُ وابتلعتُ غصة الدموع التي باغتتني فجأة. «لم أكن بالنسبة إليك يوماً إلا بيل، فلماذا أوقعها باسمي الحقيقي إذا كانت مرسلةً إليك؟».

ألقى هيمي نظرةً خاطفةً على التوقيع دون أن يبدو متأثراً بكلامي ثم قال: «لا تبدو فكرتك منطقية. ولا أتصور أن ديكي يخاطر بنفسه لمجرد إلقاء نظرة على رسائل خالته. لقد كان المسكين مذعوراً حتى الموت. وعندما طلبتُ منه أن ينقل رسالةً إليك، قال إنه ممنوعٌ من التحدث معي وهرب مسرعاً».

- «هل تذكر إن كان الظرف ممزقاً عندما استلمته؟». حدّق إلى مستكراً وقال: «تسأليني إن كنتُ أتذكر؟». أخفضتُ بصري: «قصدتُ أنه...».

- «لا، لم يكن ممزقاً».

- «لا أفهم كيف...»، بترت الجملة في منتصفها حين ومض السؤال في ذهني. «ماذا كنت ستطلب من ديكي أن يخبرني؟». ساد صمتٌ طويل. ظننت أخيراً أنه على وشك الإجابة، لكنه بدل ذلك، نظر إلى كأسه وحرك الثلج الراقد في قعرها وقال: «لا أتذكر».

تعاد لنا .

قرأت الرسالة مرة أخرى، وطالعتُ السطور التي خطتها يداي منذ زمن بعيد. كلماتٌ مبهمة وعباراتٌ منتقاة بعناية، لكنها كانت موجهةً إلى شخص آخر. تخيلتُ هيمي وهو يقرأها أول مرة، فاعتراني ألمٌ حاد في قلبي وأنا أدرك سهولة اعتقاده أن الرسالة كانت موجهةً إليه، والألم الجارف الذي لا شك أنه قاساه جرأ ذلك. حاولت جاهدةً استيعاب الموقف وفهم كيفية حدوث ذلك. ثم تذكرتُ دخول كورين إلى غرفتي وأنا أكتب الرسالتين، وكيف كانت منهمكةً في ترتيب الغرفة عند عودتي من الحمام.

- «لا بدّ أنها الفاعلة»، قلتُ وأنا متأكدة أن شكّي في مكانه.

شعرتُ بعينيّه تحدقان إليّ بانتظار مزيدٍ من التوضيح، لكنني عجزتُ عن النطق، ففيض المشاعر فاق قدرتي على التعبير عنها دفعةً واحدة. كان من المفترض أن أصاب بالذهول والرعب لمعرفة أن أختي من لحمي ودمي قادرةٌ على الخداع بهذه الطريقة. لكن هذا الشعور لم يراودني، فهذا النوع من الأعمال الدنيئة يتماشى تماماً مع سلوك كورين المعروف، بل تملّكني الغضب من تأخري عن إدراك الأمر، وعدم توخي الحذر الكافي فيما يخص الرسالتين.

ضربني إدراك غدرها كقبضة من حديد. يا لفداحة ما سرقت مني... منا نحن. سرقت عمراً كنا سنبنيه معاً، وابناً كنا سنربيه معاً. إن كل ذرة في كياني تتوجع الآن.

أغشت الدموع بصري فالتقطت منديلاً لأجففها، وأنا مدركة أن هيمي ينتظرني لأكمل حديثي فتابعته: «دخلت كورين إلى غرفتي وأنا أكتب الرسائلتين. لا بد أنها قرأتها خلسة وأنا في الحمام، وأدركت أنني أنهي علاقتي مع تيدي. لا أعرف كيف فعلت ذلك، لكنها بدلتها بالتأكيد».

ارتسم الحذر على وجهه وهو يتفحصني. بدا بعيداً جداً ومنغلقاً تماماً. استكنتُ أمام إمعانه، متسائلة عما يراه ولماذا يجب أن يكون هذا مهماً بعد هذه السنوات كلها. لكنه مهم الآن. أصبح فجأة ذا أهمية بالغة. هل أدرك عواقب ما فعلتُ أختي، أم أنني الوحيدة التي تندب ما كان يمكن أن يكون؟

- «قل شيئاً»، قلتُ له أخيراً.

أخفض بصره نحو يديه القابضتين بقوة على حافة المشرب وقال: «ماذا تريدني أن أقول؟».

- «أريد أن تقول إنك تصدق أن كورين هي من بدلت الرسائلتين وأنتك تدرك ما يعنيه ذلك».

- «مضى زمن طويل على ذلك يا ماريان. لا أعتقد أن للأمر أي أهمية الآن».

كان استخدام اسمي الحقيقي، الذي بدا غريباً حين تلفظ به، أشبه بسكب دلو ماءٍ مثلج عليّ. مزقني رده المتعجرف. نظرتُ إليه بذهول قائلة: «قطعت هذه المسافة كلها إلى بوسطن وتطفلت

- على حفل توزيع الجوائز، لأنك ادعيت رغبتك في الحصول على تفسير، ولم يعد الأمر مهماً الآن؟».
- «لم أقطع مسافةً طويلةً لآتي إلى بوسطن، فأنا أعيش هنا. جزئياً على الأقل».
- كان هذا خبراً جديداً. جديداً ومقلقاً.
- «تعيش هنا حقاً؟».
- «منذ عامين تقريباً. أقسم وقتي بين بوسطن ولندن، ولكنني أقضي معظم أوقاتي في بوسطن في الآونة الأخيرة».
- «ذكرت أنك قرأت عن حفل توزيع الجوائز في الصحيفة. هل كانت هي الطريقة التي علمت بها بوجودي الليلة هنا؟».
- «أجل».
- «ألم تكن آشليين من أخبرتك؟».
- قال عابساً: «من آشليين هذه؟».
- «لا عليك، تفصيلٌ غير مهم».
- حال بيننا الصمت الآن. راح هيمي يحتسي شرابه وأنا أحرق إلى انعكاسي في مرآة المشرب. ما كان عليّ أن أوافق على المجيء، لكنني لن أترك الأمر معلقاً بعد أن أتيت، فقلتُ حين لم يعد بإمكانني تحمل الصمت: «ألا تصدق أن كورين بدلت الرسائلتين؟ أما زلتَ تعتقد أن تلك الرسالة كانت موجهة إليك».
- «سواء أوجهتها إلي أم وجهتها إلى غيري، لم يعد الأمر مهماً. ولعله لم يكن ذا أهمية منذ البداية. كلانا كان مستعداً لتصديق أسوأ الظنون في الآخر. وهذا لا يعكس صورةً إيجابية عما كان بيننا، أليس كذلك؟ ربما وقّرنا بذلك على أنفسنا كثيراً من وجع القلب».

- «وفرنا على أنفسنا كثيراً من وجع القلب؟»، رددت كلماته مذهولة، عاجزة عن تصديق أن بإمكانه مجرد نطق شيء كهذا، ناهيك بتصديقه. «هل هذا ما كنت تقنع نفسك به طوال هذه السنوات؟ أن اختفاءك من حياتي وقر علي كثيراً من وجع القلب؟ وأني تجاوزت الأمر ببساطة؟ وأني لم أتساءل مرة عن مكانك، وإذا ما كنت سأسمع خبراً عنك مرة أخرى؟ قل إنك لا تصدق ذلك حقاً».

أشاح بنظره بعيداً وقد اكتسى وجهه صلابة جعلته يبدو غريباً: «من الأسهل أحياناً رؤية الأشياء في المرأة الخلفية، عند وجود مسافة بينك وبينها».

لا. بغض النظر عما حدث ذلك اليوم، وبغض النظر عما آلت إليه حالنا الآن، لن أدعه يتذكرنا على هذا النحو. لن أدعه يتذكرنا على أننا عاشقين شابين متهورين نجيا بصعوبة من كارثة لأنني ترددتُ وهربتُ عائدةً إلى تيدي.

- «تعال معي لنواجه كورين. فلنذهب غداً معاً».

رفع حاجبيه وقال بنبرةٍ ساخرة نوعاً ما: «بعد أكثر من أربعة عقودٍ خلت، تظنين أن في وسعك التوجه ببساطة إلى منزلها وانتزاع اعترافٍ منها؟».

- «أنت لا تعرف كورين. لن تجد متعةً تفوق تباهيها بأنها السبب في تفريقنا، والتفاخر بذلك أمامي. أنا متأكدة أنها ترى في ذلك أحد إنجازاتها العظيمة».

- «لماذا إذن تقطعين هذه المسافة كلها إلى نيويورك لمنحها لذة الانتصار؟».

- «لأنني أريدك أن تعلم يقيناً أنني أقول الحقيقة. ولأنني أريد أن تعلم كورين أنني أعلم ما اقترفت. إذا غادرنا عند الثامنة، سنصل بحلول الظهيرة».

تجرّع كأسه عن آخرها ووضعتها على الطاولة قائلاً بحزم: «لا».

بدت واضحة الآن، تلك الطبقة الصوانية التي اكتسبها منذ فراقنا. نوعٌ من البرود الجليدي يرتديه درعاً واقياً.

- «تفضل أن تستمر في كرهِي إذن، أليس كذلك؟».

صمتَ برهة وكأنّه يزن كلماته التالية بعناية. وحين نطق أخيراً، كان صوته بارداً ومنهكاً.

- «لقد تجرّعتُ الممرار مدةً طويلة يا ماريان، طويلة جداً. لست متأكداً من قدرتي على تحمّل معرفة أنني قضيتُ الأربعين عاماً الماضية في عذابٍ مقيم دون سببٍ وجيهٍ يُذكر».

- «هل تفضل أن تتذكر علاقتنا بطريقة خاطئة؟».

- «شكراً، أفضل ألا أتذكر الأمر على الإطلاق. الغضب سهلٌ ومألوف. يمكنك القول إنه أضحى موقفي الاعتيادي».

حدقتُ إليه يراودني شعورٌ بأن هذا المشهد قد حدث من قبل. ألم أقل شيئاً مشابهاً لآشليين بالأمس؟ ومع ذلك، لسعني ردّه البارد. «سأظل الطرف الشرير في الحكاية إذن، فقط لأنه الأمر الأسهل. كيف يُمكن أن يكون هذا عادلاً؟».

- «ليس عادلاً، أقرّ بذلك. لكنّ حضوري الليلة كان خطأً فادحاً».

انتظرتُ أن يقول مزيداً، لكنّ تصلّب فكّه كان دليلاً واضحاً على أنّه أفرغ دلوّه كله.

- «حسناً، إنها النهاية إذن؟».

أوماً برأسه وهو يشخص ببصره نحو الأمام: «أجل، إنها النهاية».

أشرتُ إلى النادل وفتحت حقيبتي لأخرج النقود. لا أريد شيئاً الآن أكثر من الابتعاد عنه، لكنني أرفض أن يدفع ثمن شرابي. المشكلة أنني لم أجد نقوداً في حقيبتي الخالية إلا من أحمر الشفاه ومفتاح غرفتي ومسحوق التجميل.

قلتُ للنادل عندما وصل: «هل بالإمكان من فضلك إضافة ثمن الشراب إلى فاتورة غرفتي؟ ماريان مانينغ، الغرفة رقم 412».

كنت على وشك النزول من على كرسي المشرب عندما لمسني هيمي برفقٍ شديدٍ لمسةً خفيفة بأصابعه على ظاهر يدي ثم قال: «سأقول لك صادقاً إنني لم أشارك نهائياً في نشر التحقيق الصحفي. لم أعطِ غولدي ما جمعته من معلومات قط. بل تخلصتُ منها كما أخبرتك قبلاً. لكنني تركتُ ورائي دفتر ملاحظاتٍ قديماً وأنا أفرغ مكتبي على عجل. وجدته غولدي وسلمته إلى شواب، واعترف شواب بذلك عندما واجهته بالأمر. لا أستطيع إثبات ذلك، فقد توفي كلُّ منهما، لكنها الحقيقة».

نظرتُ إليه متسائلةً إن كان ما يقوله صحيحاً، وهو ما أتمناه بشدة. لكنني أدركتُ بعد لحظة أنه على حق، فلن يُغيّر ذلك شيئاً. لقد حُسِمَ الأمرُ منذ أكثر من أربعين عاماً.

- «أنت على حق، لم يعد أي من هذا يهم الآن»، قلتُ وأنا أخطو مبتعدة.

توقعتُ أن يناديني... أن يحاول منعي من المغادرة. وعندما امتنع، أدركت مدى رغبتني في ذلك لو فعل.

الفصل الحادي والعشرون

ماريان

«ينبغي دائماً أخذ البيئة في الحسبان، فالكتب مثل الناس،
تتشرب ما يحيط بها».

- آشلين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

3 نوفمبر 1983

بوسطن، ماساتشوستس.

شارفت الساعة على الثامنة صباحاً عندما أنهيتُ حزم أمتعتي.
تكوّمت حقيبة القطار وحقيبة سفرٍ صغيرة وحقيبة ملابس فوق
السرير، بانتظار قدوم عامل الفندق لحملها إلى الأسفل. كنتُ قد
اتصلتُ بإيليز لأخبرها بحدوث أمرٍ طارئٍ اضطرّني إلى العودة
باكراً. سيخيب أمل الفتيات، لكنني سألتقي بهنّ في عيد الشكر
بعد بضعة أسابيع.

بالكاد غفوتُ البارحة وقد أرّقني خوف الرحلة التي تنتظرني.
ليس إلى بيتي في ماربلهيد، بل إلى نيويورك وكورين. كم يبدو
الأمر غريباً الآن! فبعد انقضاء أربعين عاماً، بدا هذا اللقاء
حتمياً بطريقة ما، وكأنّني وأختي كنا نسير على مسار تصادم
محتوم. ومع أنّني قضيت معظم الليل ساهرةً تتقاذفني أمواج
الحزن والغضب، ما زلت حائرةً فيما سأقول لها. لكنني أملك
متسعاً من الوقت لاختيار كلماتي بعناية في السيارة.

طُرق الباب وأنا أبتلع الرشفة الأخيرة من عصير البرتقال. وضعت الكأس الفارغة في صينية الفطور واتجهتُ لأفتح الباب لحَمَّال الفندق. لكنني وجدتُ هيمي واقفاً في الباب يحمل جائزتي تحت ذراعه.

- «ماذا تفعل هنا؟».

سَلَّمَنِي الكرة الزجاجية قائلاً: «صباح الخير لك أيضاً. نسييتها في المشرب الليلة الماضية».

وقفتُ مُتَبَيِّسة عند المدخل. لم أكن مستعدة لخوض معركةٍ أخرى، ليس معه على الأقل. فقلتُ بفضاضة: «كنتُ على وشك الخروج. في الواقع، اعتقدتُ أنك الحَمَّال».

- «لن يأتي الحَمَّال، أخبرتهُ أنني سأحمل حقائبك بدلاً منه».

- «تحمل حقائبي؟ لم؟».

- «لأنني سأقلِّك إلى نيويورك».

تسمَّرتُ في مكاني وقد فاجأني تغيير رأيه: «لكنَّ سيارتي هنا».

- «سأعيدك عندما ننتهي من الأمر. إن كنتما ستجريان هذه المحادثة حقاً، فلن أفوت سماعها أبداً».



ساد صمتٌ شبه كاملٍ في السيارة بيني وبين هيمي. ربما بسبب انشغالي بما سأقول حين أرى كورين أخيراً وجهاً لوجه. لم ألتقِ بأختي منذ خمسةٍ وثلاثين عاماً، ولم تطأ قدماي منزل أبي طوال هذه المدة. ولم أفقدهما أصلاً. بعيداً عن ذكريات

والدتي، لا يجد الحنين طريقاً إلى شيء آخر في تلك المرحلة من حياتي. وليس هناك ما أطلع إلى زيارته اليوم. لحسن الحظ، لن يستغرق ما سأقوله وقتاً طويلاً.

كان الصمت خانقاً ومُثقلًا بأشياء غير محكية، حتى أنني شعرت بالراحة عندما ظهر المنزل أخيراً. بدا لسبب ما أصغر مما أتذكر رغم واجهته الجرانيتية المهيبة. شعرتُ بتقلُّص في معدتي عندما دخل هيمي الممر خلف المنزل وأطفأ المحرك. نزلتُ من السيارة وتوجهت إلى المدخل الرئيس وأخذتُ نفساً عميقاً وأنا أقرع جرس الباب.

لم تكن كورين من فتحت الباب، بل امرأة في منتصف العمر ممثلة الجسم ترتدي زي الممرضات. ألقت نظرة فاحصة علينا وقالت وهي تستعد لإغلاق الباب: «المعذرة، لا نستقبل الباعة الجوالين هنا».

- «لسنا باعة جوالين»، أوضح لها هيمي مظهراً ابتسامة خاصة يحتفظ بها للجنس اللطيف. «إنها شقيقة السيدة هيلارد. لقد جئنا من بوسطن بزيارة مفاجئة».

نطق هيمي كلماته بإقناع إلى درجة أنني كتمتُ ضحكةً كادت تفلت مني. تخيلتُ مدى الذهول الذي ستصاب به كورين لدى رؤيتي مرةً أخرى.

ظلت الصرامة مسيطرةً على ملامحها، لكن الحذر الشديد الذي ارتسم في عينيها بدأ يخف:

- «حالة السيدة هيلارد الصحية ليست على ما يرام حالياً. إنها تنتظر الطبيب ولا يمكن إزعاجها».

تلقتُ الخبر بنوع من الدهشة. لم أعهد كورين تستسلم لأي وعكةٍ صحية. لطالماً كانت مسيطرةً وعصية الانكسار. طمأنتُ الممرضة: «لن نطيل البقاء، لكنّ هناك مسألة عائلية ملحة نعتقد أن السيدة هيلارد سترغب في حلها على الفور، بالنظر إلى حالتها الصحية، تفهمين قصدي طبعاً». شعرتُ بهيمي يرمقني بنظرة إعجاب سريعة. «أخبريها أن ماريان هنا، أنا متأكدة أنها سترغب في رؤيتي».

أومأت الممرضة برأسها على مضض وأدخلتنا إلى الردهة: «سأصعد لأتحقق من وضعها. أرجو أن تنتظرا هنا».

راقبتها وهي تبتعد على عجل تقرع الأرضية بحذائها الأبيض ذي النعل السميك. بعد أن توارت عن ناظرينا، اتجهتُ صوب غرفة المعيشة، يتبعني هيمي بخطا بطيئة، محتفظاً بصمته اللاذع.

المنزل الآن مجرد صدئٍ حزينٍ لما كان عليه قبلاً. بائس وباهت ومملوء بتحفٍ قديمة تنتمي إلى عهد كان يتباهى فيه آل مانينغ بواحدٍ من أفخم المنازل في باريك أفينيو. لم يتبق من الأشياء المألوفة سوى القليل؛ بعض التحف الفنية القديمة وبعض اللوحات على الجدران. حتى الأثاث الجديد إن جازت تسميته كذلك، لم يكن أفضل حالاً. كراسٍ بذراعين ومقاعد ذات مظهر متعبٍ ووسائد مترهلة. تاكل السجاد في أماكن معينة، والأرضيات التي كانت تلمع قبلاً باتت الآن باهتة بسبب الإهمال.

انتابني شعور غريب باللذة وأنا أرى بعيني مدى انحدار عائلة مانينغ، كيف ذهبت مؤامراتها كلها أدراج الرياح، وكيف تحطمت إمبراطورية والدي المكتسبة بطرائق غير مشروعة. ألقىتُ نظرة خاطفة على هيمي ورأيت شعوري ذاته ينعكس على وجهه.

نبهنا صوت الحذاء إلى عودة الممرضة. وافتنا إلى أسفل الدرج وقالت: «تطلب منكما أن تصعدا إليها. إنها في غرفتها، آخر باب على اليمين».

- «أعرف مكانها، شكراً لك».

تجاوزناها وصعدنا الدرج، ثم سرنا على طول الممر. استحضر ذهني برهة ذكرى ليلة العشاء المشؤوم، حين مكثت أنا وكورين أعلى الدرج نشاهد والدي يختلق الأعذار مبرراً سلوك والدتي غير اللائق. دفعتُ بالذكرى جانباً ونحن نتجاوز غرفتي القديمة ثم غرفة والدتي. وأخيراً، وقفت أمام باب غرفة كورين الذي كان مفتوحاً. التفتُ بحثاً عن هيمي، فرأيتُه واقفاً على بعد خطوات قليلة خلفي. أوماً برأسه مطمئناً، ولمحتُ وهلة صورة هيمي القديم خلف ابتسامته.

شعرت بأن معدتي تغلي وأنا أخطو عبر الباب. الغرفة دافئة بشكلٍ مضطرب وتضوح منها رائحةٌ عفنة، كرائحة الملابس المتسخة والشعر غير المغسول. ألقيت نظرة سريعة على الغرفة من حولي. ولّت أيامها الجميلة حالها حال بقية المنزل. فقد ورق الجدران المزخرف بنقشة الورود بريقه منذ زمنٍ طويل، وعلى الرغم من الإصلاحات المتكررة، فإنه متقشر في أماكن عدة. الستائر مألوفة أيضاً، ولكن الحرير الفاخر الذي كان جميلاً يوماً، أصبح الآن مترهلاً ومصفراً بفعل الزمن.

كانت كورين تجلس في كرسي ذي مسندٍ مرتفع إلى جوار سريرٍ غير مرتب، طُويت أغطيته بطريقةٍ توحي أنها نهضت منه للتو. لطالما كانت نحيلة لكنها نحيلة الآن وكأنها قسبة. تلبس

رداءً فضفاضاً يكشف عظم ترقوتها وبشرتها الباهتة المجمعة. خفَّ شعرها وفقد لونه. رفعته وثبته أعلى رأسها كتاج غير متناسق. استحضر ذهني فجأةً صورة نورما ديزموند من فيلم «سانسيت بوليفارد»، نجمة السينما العجوز التي تعيش العزلة في قصرها المتهالك. أثارت هذه الصورة اشمئزازي الذي خشيتُ أن يتحول إلى شفقة تحاول التسلل إلى قلبي، لكنني لن أسمح بذلك. استقرت عيناها عليّ. كانتا شاحبتين وباهتتين بشكل غريب: «أهلاً، أهلاً. انظروا ماذا أَلقت الريح على بابي. هل عصف بك الحنين إلى الديار يا عزيزتي؟»، كان صوتها خشناً، وكلماتها مشوشة قليلاً. علا عبوسٌ مصطنع وجهها وأكملت: «هل افتقدتي كثيراً؟».

قلتُ متجاهلةً نبرتها الساخرة: «أخبرتني الممرضة أن صحتك ليست على ما يرام. هل الوضع خَطِر؟».

تلاشى العبوس الزائف وحلَّت محله ملامح شاحبة منهكة: «عادةً ما تكون أورام الدماغ خطيرة. أياً كان سبب مجيئك، أقترح أن نتحدثي بسرعة، فأنا أنتظر الطبيب».

ورم في الدماغ! استوعبت الخبر وأنا أتساءل عن مكان أبنائها وسبب غيابهم عن رعايتها. ربما طردتهم أيضاً، ولم يبق لها سوى ممرضةٍ تتقاضى أجراً لتلبية احتياجاتها. كنت لأشعر بالأسى ربما لو كان معي متسعٌ من الوقت، وربما لا. ما أحتاج إليه الآن، التركيز على سبب قدومي إلى هنا.

- «لا أنوي المكوث طويلاً».

لمعت عيناها ببريقٍ خافت: «طبعاً فأنت مشغولةٌ للغاية، أليس كذلك؟ تنتظرك الجوائز والتقديرَات. يبدو أن قلبك الرؤوم خدمك جيداً بعد كل ما حدث. أنت تسعين إلى القداسة وفقاً لما تقوله الصحف».

ذهلت لمعرفة أنها تتابع أخباري، ووخزني القلق بشأن ما يمكن أن تكون على علم به أيضاً.

- «أرى أنكِ تمكنتِ من الحفاظِ على المنزل».

قالت وهي تجول بنظرها في الغرفة ببطء: «أكاد أجزم أنهم سيهدمونه لحظة رحيلي. لن يطول الأمر، لكنّ ذلك لن يحدث وأنا على قيد الحياة»، رنّت إليّ بعينيها وقد أصبحتا يقظتين فجأة. «ماذا تريدان؟ أمل ألا يكون المال لأن كل شيء قد ذهب».

- «لا. لم آتِ من أجل المال بل أحضرت لكِ زائراً. صديق عائلتنا القديم».

وجّهت نظرها بسرعة نحو الرواق الفارغ، وبدا عليها الوجل والحدَر: «لا أريد أن أرى أحداً، خاصة إذا كان صديقاً لك».

- «لكنه كان صديقك أنتِ أيضاً»، قلت وأنا ألقى نظرة إلى الخارج نحو الرواق. «لنرَ إن كنتِ تتذكرينه».

وكأنه تلقى أمراً، تجاوز هيمي عتبة الباب ووقف صامتاً وانتظر.

رمقته كورين عابسةً وقد عقدت حاجبيها فوق عينيها الشاحبتين. ثم بانّت على وجهها علامات الإدراك التي كنت أنتظرها. زمجرت بصوت ضعيف أجش: «أنت...».

أجاب هيمي بابتسامة فاترة: «أجل، إنه أنا».

- نظرت نحوي بسرعة وقالت: «كيف تجرئين على إحضاره إلى هذا المنزل؟ اخرجنا كلاكما حالاً».
- حدقتُ إليها بعناد: «هناك بعض الأمور التي ينبغي مناقشتها».
- «اخرجنا من هنا حالاً».
- «ماذا فعلتِ بالرسالتين يا كورين؟».
- بانّت غشاوة الصدمة في عينيها قبل أن تزيحهما بعيداً: «لا أعرف شيئاً عن أي رسائل».
- «لقد بدلتيهما. كيف فعلتِ ذلك؟».
- نظرت إليّ بوجه جامد خالٍ من أي تعبير. لا تزال مغرورة عصيّة الندم، تماماً كما عهدتها. لا زالت تتوهم أنّ باستطاعتها التحكم في الجميع وفي كل شيء، لكنها مخطئة. كانت مخطئة آنذاك، وهي مخطئة الآن.
- «نحن هنا للحصول على إجابات يا كورين، ولن نغادر دونها. لذا، ولأنك عاجزةٌ عن إخراجنا عنوة، فالأجدى بك أن تخبرينا ما نريد معرفته».
- وجهت نظرها نحو هيمي ببطء وإمعان ثم قالت: «تتكلمين بصيغة "نحن" الآن، أليس كذلك؟ أنتِ وصبي الجرائد معاً أخيراً؟ هل أتيتما للحصول على مباركتي؟».
- «لا يوجد "نحن" من الأساس»، قلتُ ببرود. «وهذا صنيع يدك. وما نجهله هو كيف فعلتِ ذلك. أخبرينا كيف بدلتِ الرسالتين».
- مألت كورين بجسدها نحو الأمام في محاولة لإظهار بعض التهديد، لكنها على عكس ذلك بدت متجهمّة وسخيفة ومضطربة:

«لديكما الجرأة على التبخر في منزلي وتوجيه الأوامر وكأنني مدينة لكما بشيء! لست ملزمةً تجاهكما بأي شيء. غادرا على الفور وإلا سأتصل بالشرطة».

- «اتصلي بالشرطة وبالصحافة أيضاً. فأنا على يقين أنهم سيرغبون في سماع هذه التفاصيل كلها. لا يملّ سكان نيويورك من مشاهدة غسيل عائلة مانينغ الوسخ. لدي النهار بأكمله».

أسندت كورين ظهرها إلى الكرسي، ومدّت ذراعيها على جانبيه. بدت كملكة عجوز تعلي عرشها المتهالك. أغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً، وقد طغى الشحوب على شفثتها ثم قالت: «اتركاني وشأني».

تقدم هيمي خطوةً نحوي وهو يهز رأسه: «كُفّي يا ماريان. لا يمكنها أن تخبركِ لأنه لا يوجد ما تخبركِ إياه. رغم أنني أثني على محاولتك في استنطاق امرأةٍ تُحتضر لانتزاع اعترافٍ منها. حتى أختكِ لم تكن لتستطيع فعل ما تتهمينها به».

جلست كورين في كرسيها صامتةً مدةً طويلة، وكأنها تدرس خصمَها بهدوء: «وما الذي تتهمني به على وجه الدقة؟ ما الشيء الذي يُفترض أنني لم أستطع فعله؟».

- «تعتقد أنك عبثت بالرسالتين اللتين كتبتَهما قبل مغادرتها نيويورك، واحدة لي وأخرى لتيدي. وأنت من خلال خدعة ما، حرصت على أن تصل رسالة تيدي إليّ بدلاً منه. أخبرتها بأنها رأت أفلاماً كثيرة، وأن أحداً لا يملك الذكاء الكافي ليفعل ما تدّعيه».

شخرت كورين باحتقار: «وهل ذكرتُ سبب قيامي بهذا الفعل الشنيع تجاه أختي».

- «الغيرة»، أجاب هيمي ببساطة.

- «الغيرة؟» بدا أن الكلمة أدهشت كورين. «أنا كورين أغار منها هي؟».

ثم أطلقت ضحكةً حادةً مزعجة أعادت إلى ذهني فجأةً كلامها الساخر الذي قالته يوماً. كلامها عن كيف أنها لم ترغب قطّ في أن تكون زوجةً أو تملك منزلاً مملوءاً بالأطفال. كيف أنها سئمت الرقص على إيقاعٍ يضربه الآخرون. وكيف أن دوري أنا جاء لأقوم بواجبي.

- «لكنكِ كنتِ غيورة حقاً»، ذكرتها وأنا أشعر بهدوءٍ غريب يغمرني، وإدراكٍ طال انتظاره يأتيني. «ظننتُ قبلاً أن الأمر يتعلق بما يريده أبي، وبأن أكون منقادةً لأوامره. لكنّ الأمر تجاوز ذلك. لقد أزعجتكِ حقيقة أنني لم أستسلم وأتزوج بتيدي، كما فعلتِ أنت مع جورج. لقد كرهتيني لأنني آمنتُ بحقي في اتخاذ قراراتي الخاصة. أردتيني أن أكون تعيسةً مثلك. وعلمتِ أنني سأكون كذلك مع تيدي».

ارتسم على وجه كورين تعبير قاسٍ، وتلاشى إنكارها الحذر فجأةً ليحل مكانه ابتهاجٌ سام: «وما الضير في ذلك؟ ولماذا يجب ألا أغتاظ منك عندما لم يُسمَح لي بالاختيار قط؟ وعندما كان يُتوقَّع مني دائماً أن أفعل ما يريده الآخرون؟ تتحدثان عن الذكاء؟ ماذا يعرف أيّ منكما معنى أن تكون ذكياً؟». زاد بريق عينيها وهي تقول: «تتسللين سراً إلى شقةٍ قذرة وتعتقدين أن لا أحد يعلم بما

تخططين. لكنني كنتُ أعلم. وأنت يا سيد غاريت، ربما تمكنت من تدميرنا بتحقيقك المقرف، لكن لم يكن هذا ما تريده حقاً، أليس كذلك؟»، توقفت وهي تشير بإصبعها نحوي ثم أردفت: «إنها ما كنتُ تريده حقاً؛ أختي الصغيرة الجميلة. حسناً، لقد تكفلتُ أنا بذلك». علتُ وجهها ابتسامة المنتصر وهي تنظر إلى هيمي وتقول: «من الذكي الآن يا صبي الجرائد؟».

ألقى هيمي نحوي نظرة خاطفة وقال بعد إيماءة بالكاد لحظتها: «أستمبحك عذراً يا كورين. يبدو أنني قلتُ من شأنك». - «دون شك»، توجهتُ نحوي بعدها بابتسامة مريضة زائفة وقالت: «وأنت أيتها الحمقاء الغافلة، لقد ساعدتني حقاً». أرجعت كورين رأسها إلى الوراء وأطلقت ضحكة مدوية أخرى. «ما كان يجدر بك تركي وحيدة مع رسائلِك يا أختي العزيزة. لم يمضِ وقتٌ طويل حتى اكتشفتُ نيتك في الهرب مع البريطاني. لكن بدا أنّ مشكلة طرأت في وقت سابق من ذلك اليوم على ما يبدو، أليس كذلك؟ فاتك موعد لقائه أو شيء من هذا القبيل. لذا، كتبتُ له رسالةً تطلبين منه الانتظار. أما ما كنتُ أجهله، فهي الطريقة التي كنتُ تنوّن بها إيصال الرسالة إليه. كنتُ على يقين أن لديك خطة ما، وإلا لما كتبتُها أصلاً، لذا بقيتُ متيقظة. خمنني من اصطدته يتسلل على الدرج الخلفي وهو يحمل معطفه تحت ذراعه؟ لقد حالفني الحظ حقاً باختيارك جاسوساً عديم الكفاءة كابني الصغير الخبيث».

ابتسمت حينئذٍ ابتسامة الرضا التام عن نفسها: «تبعته إلى المطبخ ورأيتهُ يُخرج ظرفين من تحت قميصه ويدسّهما في جيب معطفه. المسكين، كدتُ أفزعهُ حتى الموت عندما اقتربتُ منه من الخلف. وبخته على ارتدائه حذاءه الجديد، فقد أمطرت في وقتٍ سابق وكانت الطرق كلها موحلة. أخذتُ معطفه وأمرته بالصعود إلى الطابق العلوي ليبدل حذاءه، ثم طلبتُ منه أن يرتدي وشاحاً أيضاً. كنتُ بحاجةٍ إلى ضمان أن لديّ وقتاً كافياً لفتح الظرفين». كانت جملتها الأخيرة التي قالتها بمنتهى اللا مبالاة، وكأنها تناقش كيفية تنظيف قميصٍ من بقع العصير، صادمةً إلى حدٍ ما.

- «أنّى لك أن تعرفي كيفية فتح ظروف مختومة؟»، سألتها. قالت بنبرة سخرية واضحة: «يا له من سؤالٍ سخيف. لكنك لم تتزوجي قط، لذا أعذرِك. إنها عمليةٌ سهلةٌ جداً عندما يكون الختم على الظرف حديثاً كحال رسالتكِ. لا يحتاج فتحها إلا إلى ثوانٍ فوق غلاية الشاي وفتّاحة رسائل، أو سكين زبدة في حالتي، وبعض الحذر. أردت في البداية أن أقرأهما للاطلاع على خططكما فحسب، لكن بعد أن قرأتُ ما كتبتَ لتيدي، راودتني فكرةٌ أفضل. عرفتُ كيف سيبدو الأمر بالنسبة إلى صبي الجرائد. سيعتقد أنك تخليت عنه. لذا، بدلتُ الرسالتين وأعدت الظرفين إلى جيب معطف ديكى».

كانت كورين تُفاخر ببراعتها كسارق مصرفٍ يتباهى بنجاحه في عملية سطو مثالية. أصابتني كلماتها بالغثيان، ولكن ثمة ما أحتاج إلى معرفته أيضاً. «ما مصير الرسالة الأخرى؟».

- «تقصدين تلك التي كان يُفترض به أن يتلقاها؟»، رمقت هيمي بنظرة سريعة ثم قالت وهي ترفع كتفها بلا مبالاة: «لقد رميتها مع قشر البطاطا في سلة السماد».
- سماد! أثارت الفكرة بحد ذاتها غثياني. كلماتي التي كتبتها إلى هيمي، تحللت وتحولت إلى سائل تسرّب إلى باطن الأرض المظلم. نظرت إلى هيمي وقد برأت نفسي، لكن لا فرحة في هذه اللحظة، ولا راحة أو صفح. بل شعورٌ جديد بالخسارة، وتذكيرٌ مروع بما سُلِب مني... ومنه.
- «وماذا عن ظرف تيدي؟ ماذا حلّ به؟»، سألتها بفتور.
- «أعدتُ إغلاقه وهو فارغ، وأرجعته إلى معطف ديكي. أظن أنه تسلّمه، لكنني لا أستطيع الجزم بذلك. يعلم الله وحده ما جال في ذهنه حين فتحه. أما المسكين ديكي فلم تكن لديه أدنى فكرة عما حدث». ابتسمت مرة أخرى ابتسامة صغيرة حادة حاقدة وقالت: «هل أنت سعيدة الآن؟».
- «هل أنا سعيدة؟»، حدقتُ إليها غير مصدقة. يبدو الأمر كأنها فقدت تماماً الجانب الإنساني الدافئ منها. وتساءلتُ، كيف يمكن أن نكون شقيقتين أساساً. «لقد حطمت قلبي مرة أخرى يا كورين. ذكّرتني كم كنتُ قريبة من الحياة التي أردتها، وكيف كان شعوري حين فقدتها. لكنني سعيدة لأن الأمر قد انتهى، سعيدة بإنهاء كل ما يربطني بك وبهذا المنزل، سعيدة لسماع أنهم سيهدمونه فور موتك. سأغادر الآن ولن أعود أبداً».

نادتني كورين باسمي قبل أن نتجاوز باب الغرفة. التفتُ إليها، وفوجئتُ برؤيتها مُنكمشةً على نفسها فوق كرسيها، وكأن الهواء فرغ من رئيتها. قالت بنبرة قاطعة: «أذهبى إلى الخزانة، هناك صندوقٌ يحتوي بعض الأشياء. أريدك أن تأخذها».

دفعني رد فعلي الأول إلى مواصلة السير والابتعاد عنها قدر الإمكان بأسرع ما يمكن، لكن شيئاً جديداً قد تسلل إلى صوتها. مزيجٌ من الاستسلام والهزيمة. وجدتُ نفسي رغماً عن إرادتي، أشعر بشيء من التعاطف تجاه الأخت التي أعلم أنني لن أراها مرة أخرى. ففعلتُ ما طلبته مني على مضض.

وجدت داخل الخزانة إلى الخلف قليلاً صندوق قبعات قديماً. فتحتُه على الفور، وشعرتُ بأنفاسي تتلاحق وأنا أرفع الغطاء. إنها أغراضها... أغراض أُمي. الفرشاة ذات المقبض الفضي التي كانت تضعها على طاولة زينتها، ودبوس من اللؤلؤ والألماس، وخيط من الخرز الياقوتي، ومجموعةٌ من الرسائل القديمة تحمل طابع بريدٍ فرنسية. وفي الأسفل، وجدتُ ألبوم صورٍ من الجلد البني نُقِشت عليه الأحرف الأولى من اسم والدتي بالذهب الباهت.

كان الجلد جافاً ومتشققاً، والغلاف مشقوقاً تماماً، وقد ثُبِتَت الصفحات التي انفصلت عبر السنين باستخدام رباطين كبيرين من المطاط. أثارت رؤية ألبوم الصور كثيراً من الذكريات الجميلة الحلوة والمرة معاً، وشعرتُ لحظةً بأنني أستطيع سماعها، وشم رائحتها، والشعور بها قربي (ماماً).

غمرتني السعادة والغضب أيضاً. حدثتُ إلى كورين وقلت: «أنكرت وجود الألبوم عندما سألتكِ عنه. قلتُ إنكِ تخلصت منه، قلتُ إنكِ تخلصت من كل شيء. أخفيت هذه الأشياء عني طوال هذا الوقت رغم علمكِ أنها كانت ترغب في أن أحصل عليها. لم؟».

- «لقد أجبت عن سؤالك بنفسك»، قالت بجفاء.

- «فعلت ذلك لإغاضة امرأة متوفاة؟».

- «بل لإغاضتك أنت».

خنقتني كلماتها. كنتُ طفلة عندما ماتت والدتها، طفلة وحيدة تائهة. وقد أخفت عني عمداً الأشياء التي كان من الممكن أن تمنحني بعض الراحة.

- «ما الذي اقترفته بحقك يا كورين؟ أرجوكِ ساعديني على فهم هذا النوع من الكراهية».

التزمت الصمت برهةً، عاقدة الحاجبين تتفحص ظهر يديها بتركيز كأنهما يدا شخص غريب، ثم أسقطتهما في حجرها ورفعت بصرها إليّ وقالت: «لم تكوني قد ولدت عندما توفي إرنست. كنتُ وحيدتها. عاشت أماناً إثر وفاته أوقاتاً عصيبة. كانت تعتكف في غرفتها معظم الأيام، لكنها كانت تتاديني عندما تشعر بتحسن، وتمشط شعري وتغني لي. كنتُ ابنتها المدللة، ثم أتيت أنتِ وأصبحتُ أنا في المرتبة الثانية. وعندما أبعدها والدي، توقع مني أن أعطي بك، أن أعطي بالأخت التي لم أكن أطيق رؤية وجهها. كنتُ في السادسة عشرة من عمري، وعلى اعتاب بناء حياة خاصة بي، أو هكذا ظننت. لكنني فعلتُ ما كان

متوقعاً مني، كحالي دوماً. بما في ذلك الزواج بجورج هيلارد، الذي كان يثير اشمئزازي. لكنك لم تفعلي كما فعلت. كنت أنبل من أن تتزوجي بالرجل الذي اختاره لك أبي. لقد أردت صبي الجرائد».

- «أجل»، أجبتُ بهدوء دون أن أجرؤ على النظر نحو هيمي. «لقد فعلتُ ذلك».

- «كان ذلك غاية مناكٍ ومنتهى طموحك. لذا وجب إعطاؤك درساً لتعرفي مكانك جيداً، ولتؤدي واجباتك كما أُجبرتُ أنا على تأديتها. وهذا ما كنتِ سترضخين لفعله لو أزيح صبي الجرائد من المشهد. لكنك هربتِ بعد نشر التحقيق، وتركتِ لي مهمة تنظيف الفوضى مجدداً»، التفتت إلى هيمي باشمئزاز واضح وتابعت: «أنتِ من أحضره إلينا. أنتِ من ساعده على كشف تلك القذارات كلها حتى مرَّغ اسم والدنا في الوحل ودمَّره تماماً. لقد دمَّرنَا جميعاً. وبعد ذلك كله، تقفين هنا وتسألينني ماذا اقترفتِ؟ لو كان بإمكانني إيذاؤك بأي شكلٍ من الأشكال، حتى لو بأصفر قدر ممكن، فإن ذلك يُسعدني».

تقيّأت كرهها كله دون خجل، ودون أن يرف لها جفن. أدركتُ كيف شوَّها حقدها. نظرتُ إلى محتويات الصندوق بعينين فرحتين. أغراض شخصية اكتُزت قسراً، كأنها غنائم من ميدان معركة. لكن لم احتفظت بها أساساً؟ ولم كذبتِ بشأنها أيضاً؟ خطر على بالي فجأة أن احتفاظ كورين بأشياء والدتنا لم يكن بدافع الضغينة نحوي، بل بسبب شيءٍ آخر تماماً، شيء رفضت

- الاعتراف به حتى لنفسها. قلتُ بنبرة لطيفة وقد فهمتُ أخيراً:
«لقد أردتِ الأغراض لنفسك. أردتها لأنها أشياء تخصّ أمنا».
- «أشاحت بنظرها بعيداً عني وقالت: «أتريدنها أم لا؟».
- «أريدها».
- «خذيها واخرجي إذن».

حملتُ الصندوق بين ذراعيّ. وقبل أن أغير رأيي، أخرجتُ الفرشاة ووضعتها على وسادة كورين، هدية لا تستحقها. لم ترني أفعل ذلك، لكن هيمي رأني. التفتت أعيننا وهو يأخذ الصندوق مني. أخذتُ حقيبتني من على السرير وتوجهتُ نحو الباب. لم أقل وداعاً. لم ألتفت إلى الخلف. حصلتُ على ما جئتُ من أجله، ولا أريد الآن سوى الابتعاد عن كورين وعن منزل والدي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني والعشرون

ماريان

«الكتب أصدقاء أوفياء هادئون، ومستشارون حكماء مُتاحون دوماً ولا يخطئون، ومعلمون صبورون لا يملّون».

- تشارلز. و. إليوت

شعرتُ ونحن نصعد سيارة هيمي بكآبة النهايات، وبأن الخيط السائب قد حيك واكتملت الرواية. قصة سقوط عائلة مانينغ اكتملت تقريباً، ولم يبقَ إلا إكمال قصتي أنا وهيمي. خيم صمتٌ طويل على رحلة عودتنا. كنت أنظر من النافذة إلى السيارات المارة والمناظر التي تتلاشى كأنها لوحة ضبابية، محاولةً استيعاب ما حدث في الأسابيع القليلة الماضية. اكتشف إيثان وآشليين الكتّابَين، وظهور هيمي فجأةً وبحوزته رسالة عمرها أربعة عقود، واعترف كورين بأنها دمّرت عمداً آمالي بحياة سعيدة. وقريباً سأكشف النقاب عن القطعة الأخيرة من اللغز، تلك التي أخفيتُها طويلاً.

أن تكشف عقود أربعة عن أسرارها في وقتٍ قصير جداً، بدا أمراً مستحيلاً. لكن جزءاً دفيناً من كياني يعرف أنه أمرٌ محتوم. ألم أكن دائماً مستعدةً لهذا اليوم؟ عندما وصل كتاب هيمي ورأيت ما كتبه «كيف يا بيل؟»، ألم أكن مستعدة؟ كنتُ مستعدةً طبعاً.

ظلت كلمات آشليين تؤرقني طوال اليوم.

الختام.

هل يمكن أن يحدث ذلك حقاً؟ أن يلازمك الغضب والفقدان مدةً طويلةً إلى درجة أنك لا تستطيع تخيل الاستيقاظ دون أن يحرقاً صدرك؟ أن يظهر الوجه الذي طاردك سنواتٍ كثيرة أمامك فجأةً، مُهدداً بإعادة فتح الجروح التي اعتقدتَ اندمالها؟ يبدو أن آشليين تعتقد بإمكانية حدوث ذلك. وهو على ما أظن اعتقادٌ نابع من تجربةٍ شخصية، مع أنها لم تقل ذلك صراحة. تقول إن الأمر متعلقٌ باتخاذ قرار، وقد اتخذتُ قراري. ولكن قبل الختام، هناك تصفية حسابٍ يجب أن تتم. حسابي أنا.

مع هذا كله، لم أكن مستعدةً لتحمل كامل اللوم وحدي. إلى جانبي، سيطر الوجود على هيمي خلف عجلة القيادة، وهو يشق طريقه بانتباهٍ وسط زحمة ساعة الذروة. شعرت بنظراته تتسلل نحوي بين الحين والآخر، وبأنه على وشك أن يقول شيئاً، لكن عندما ألتفت إليه، يحوّل نظره بعيداً.

سألته عندما لم أعد أحتمل الصمت: «ألن نناقش أياً مما حصل؟ حديث كورين وما يعنيه؟».

ظَلَّت عيناه مثبتتين على الطريق، ويداه تقبضان بإحكام على عجلة القيادة: «ما الذي حصل ويستحق المناقشة؟».

صعقني رده. «يمكننا أن نبدأ ربما بحقيقة أننا كنا على خطأ طوال هذه السنوات، وأنتي كنت صادقةً ليلة أمس عندما أخبرتك أن الرسالة التي أريتي إياها كانت موجهةً إلى تيدي وليست إليك. أعتقد أنني أستحق نقاش هذه النقطة على الأقل».

لم ينبس ببنت شفة متظاهراً بالانشغال بشيء ما في مرآة الرؤية الخلفية. رحّت أنتظره وأراقبه. اعتدتُ قراءة وجهه جيداً،

بكل تفصيل فيه. لكنَّ السنين قسّته، وصعّبت قراءة ملامحه، إلى أن قال أخيراً: «ثم ماذا؟ كلانا آسفٌ بعد ثلاثة وأربعين عاماً. وماذا بعد؟».

قطعت مرارة صوته نياط قلبي فقلت: «ثم نغفر يا هيمي. يتوقف أحدنا عن لوم الآخر، وعن تحديد من آذى الآخر أولاً. لن يغير ذلك شيئاً مما خسرناه. لا شيء يمكنه تغيير ما جرى، ولكنه قد يمهّد الطريق لنوعٍ من الكشف والختام، لنتمكن كلانا من تجاوز ما حصل».

حبستُ أنفاسي وأنا أنتظر رداً منه أو إشارة تدل على أنه سمعني، لكنه ظلّ صامتاً ونائياً. حوّلتُ وجهي نحو النافذة، وحدّقتُ إلى الطريق السريع. الغفران والختام كلمتان جميلتان، لكنهما بدتا مزيفتين عندما نطقتهما. لأنني أعلم ما هو قادم... أشياء أكثر وأساء. أشياء لا تُغتفر ربما. مع ذلك، يجب أن أبوح بها. يقولون إن الاعتراف مفيدٌ للروح. لكن ليس هنا وسط صخب أبواق السيارات ومحركاتها. أريد أن أكون في ملعبٍ حين أخبره. قلتُ فجأةً وقبل أن أفقد شجاعتي: «أريد أن تأتي معي إلى المنزل يا هيمي. عندما نعود إلى الفندق وأستقلّ سيارتي، أريدك أن تتبعني إلى منزلي».

نظر إليّ أخيراً وقد لانت تعابير وجهه: «هل أنت بخير؟».

- «أنا بخير. لكنّ هناك أمراً يجب أن نناقشه».

- «قضينا في السيارة نحو ثلاث ساعات، ولا يزال أمامنا ساعة

للوصول إلى بوسطن. هل هناك سببٌ يمنعنا من مناقشة أيّ

شيء الآن؟».

- «أجل. هناك شيء أريد أن أريك إياه».

- «في منزلك؟».

- «أجل».

سألني بنبرة قلقة: «ما هو؟».

حدقت إلى النافذة مرة أخرى: «ليس هنا. ليس بعد».



شعرت بحرارة يديّ وتعرقهما وأنا أركن سيارتي أمام منزلي. ركن هيمي سيارته خلف سيارتي وترجل منها. عانيت وأنا أخرج حقيبتني وصندوق مقتنيات أمي من صندوق السيارة، وسيتعين عليّ العودة مرة أخرى لأخذ باقي الأغراض. جاء هيمي وخفف عني الحمل بأخذ الحقيبة والصندوق. همهمت بكلمة شكر مرتبكة وسرت في الممر تاركاً إياه يتبعني.

بالكاد نظرتُ إليه وأنا أخلع معطفي في الردهة. وضع الحقيبة والصندوق أرضاً، ثم ألقى نظرة صوب غرفة الاستقبال.

- «لا يوجد أحد هنا»، قلتُ وأنا أمدّ يدي لأخذ معطفه. «إننا بمفردنا».

لم يرغب في خلع معطفه فعاد خطوة إلى الوراء قائلاً: «شكراً لك».

جال ببصره في غرفة الاستقبال على القطع الفنية والأثاث والبيانو الذي عُرضت فوقه مجموعة من الصور المؤطرة. حبستُ أنفاسي بانتظار أن يراها، لكنه لم يرها.

- قال بنبرة جافة: «جميل جداً، ليس كما توقعته تماماً، ولكنه جميل على أي حال».
- توجه صوب النوافذ. كانت الستائر مفتوحة تكشف أجزاء من الشاطئ الممهّد بالحصى، وقد اكتسى الماء بلون رمادي غامق بعد أن غاب أكثر من نصف الشمس خلفه. تركته يستمتع بمشاهدة المنظر وذهبت إلى المطبخ لأحضر الثلج. كان لا يزال عند النافذة عندما عدت، لكنه خلع معطفه ووضعه على مسند الأريكة. أحضرتُ كأسين للشراب، واستدار عندما سمعني أفتح سداًة الزجاجاة.
- «لديك شاطئٌ خاص أيضاً. لا يفاجئني ذلك».
- حملتُ كلماته نبرة التعييب التي ذكرّتي بأيام ما كان يثير غضبي بانتقاد نشأتي المرفهة وأسلوب حياتي الثري. راودتني فكرة تذكيره بمنزله الفخم في منطقة «باك باي» لكنني قاومتها.
- «إنه شاطئٌ مشترك في الواقع، لكن العائلة الأخرى نادراً ما تكون هنا، لذا فالمكان لي وحدي معظم الوقت».
- تسمّرت نظراته في عيني لحظةً ثقيلة: «اعتدنا الحديث عن العيش إلى جوار البحر».
- أردت القول إننا تحدثنا عن أشياء كثيرة، لكن الكلمات غصّت في حلقي، فمجرد التفكير في قولها مخاطرةً يمكن أن تعوقني عن قول ما أريد. قدمت له كأس الشراب وقلت: «أعلم أنك تفضّله بالليمون، لكنني أخشى أنك ستضطر إلى الاستغناء عنه هذه المرة. فأنا لم أحسب حساب ضيفٍ يأتي معي».
- هز كتفيه بلا مبالاة: «تعلمتُ الاستغناء عن أشياء كثيرة».

- «هيمي...».
- «نخب من نشرب؟».
- نظرت إلى كأسِي وإلى الأرضية وإلى أي مكانٍ إلا عينيه:
«نخب نجاحاتك»، قلتُ بفتور. «كم كتاباً أصبح لديك؟».
- «واحد وعشرون في آخر تعداد».
- «ومعظمها من الكتب الأكثر مبيعاً. تهانينا».
- أحنى كتفيه قليلاً إذ بدا غير مرتاحٍ لإشادتي. نظر أحدنا إلى الآخر واتسع الصمت بيننا على امتداد ثلاثة وأربعين عاماً. قال أخيراً: «أنتِ حاضرةٌ فيها كلها».
- أربكتني كلماته، خاصةً أنه نطقها بصوتٍ عميقٍ أجش، لامس فيّ أوتاراً لم تعزف منذ وقتٍ طويل. «لا أعلم ما يعنيه ذلك»، قلت.
- «أعني أنكِ كنتِ بطلة كل روايةٍ كتبتها. بغض النظر عن أسمائهنّ، كنّ جميعهن بيل. كُنْ أنتِ».
- «هيمي...».
- «هل قرأتِ أيّاً منها؟».
- «لا».
- «بدأ كل شيءٍ بكتابتي "ندمٌ على بيل". كان أول كتابٍ والأفضل على الإطلاق، ولعله سيبقى كذلك»، أخذ رشفةً من شرابه وقطب حاجبيه وهو يبتلعها: «ماذا حلّ به بالمناسبة؟ هل لديك فكرة؟».
- «إنه بحوزتي... كلاهما بحوزتي»، أجبتُ بهدوء.

- بدت هذه المعلومة فاجأته وسرته ربما. «احتفظت بهما عندك؟».
- «لا. ديكي هو من احتفظ بهما. وعثر ابنه عليهما في مكتبه بعد وفاته».
- «لم أكن أعلم أن لديه ابناً».
- «اسمه إيثنان. ولم تسبق لي رؤيته في حياتي حتى الأسبوع الماضي. إنه يشبه ديكي كثيراً».
- «وأظن أنه قرأهما، صحيح؟».
- أجبت وأنا أخفض عيني: «أجل. لقد تذكر مزرعتنا في روز هولو واكتشف باقي التفاصيل».
- «أن يقرأ شخص غريب عن حياتك العاطفية، لهو أمر مثير للاهتمام».
- «إنها حياتك العاطفية أنت أيضاً»، ذكرته ببرود. «وبالفعل كان ذلك... مثيراً للاهتمام».
- «هل يعلمون حقيقتي؟ أنني أنا هيمي وأنا...؟».
- توجد ندبة جديدة أسفل عينه اليسرى مباشرة، أعلى خده. لم ألاحظها إلى الآن. راودتني تساؤلات عابرة عن كيفية حصوله عليها ومتى. وكبحت رغبة عارمة في مد أصابعي إليها... ولمسها. لكنني اكتفيت بأن قلت: «إنهم يعرفون كل شيء. يعرفون أشياء حتى أنت لا تعرفها».
- «بيل...»، خطا نحوي خطوة ثم أخرى. يتلاشى عزمه الجليدي كلما اقترب مني. «لا أعلم من أين أبدأ، من الليلة الماضية... مما حدث اليوم... لا أدري. تحملت هذا الوجع

في قلبي طوال أربعين عاماً، مُلقياً اللوم عليك، ومصدقاً كذبة. أنا آسف، آسف جداً. آسف لأنني لم أثق بك ولأنني لم أصدقك. والأهم من هذا كله، أنا آسف بشأن التحقيق الصحفي اللعين ذاك. كان يجب أن أخبرك ما كنت أعمل عليه. لو أخبرتك، لما حدث شيء من هذا. لقد كان تصرفاً غيباً وأناانياً، وأنا أتحمل مسؤوليته تماماً. لكنني أقسم لك يا بيل، لم يكن لي أي دور في ظهور التحقيق إلى العلن. غولدي وشواب كانا وراء ذلك».

- «بل هناك مخريتان اثنتان».

- «من تعنين؟».

- «الحياة التي كان من المفترض أن نعيشها دمرتها مخريتان؛ أختي وغولدي. كانت لكلّ منهما مآربها، وقد حققتا ما تريدان. أما ما أردناه نحن، فلم يكن يهم».

- «هل أنت سعيدة يا بيل؟ حالياً، أعني... هل ثمة أحد في حياتك؟».

تناولت رشفةً من كأسٍ ثم وضعتها على الطاولة: «سؤالان مختلفان تماماً، بإجابتين مختلفتين تماماً. أجل أنا سعيدة، فقد بنيتُ حياتي، ولدي أشياء التي تثير شغفي، وأنا متأكدة أنها حالك أنت أيضاً. أما عن السؤال الثاني، فليس ثمة أحد».

وضع كأسه على الطاولة وراح يمعن النظر إلى وجهي، وكأنه يحاول قراءة أفكارٍ وهو يزن كلماته بعناية: «لم أتصور قط في حياتي أنني سأتلفظ بهذه الكلمات يوماً. ساعدني يا إلهي، ها أنا ذا، ها نحن ذا. لم يعيش في داخلي أحدٌ سواك يا بيل، منذ اليوم

الأول حتى الآن. عندما لم تأتِ في يومنا الموعود وجدتُ نفسي وحيداً محطّماً على الرصيف. ثم جاءت تلك الرسالة اللعينة. عندما قرأتها وظننت أنك ستعودين إلى تيدي، مات شيءٌ ما في داخلي، وما عدت أكثرث لأي شيء. لطالما راودني كابوس فقدانك، فإذا به يتجسد بين يديّ دليلاً صارخاً، لكنه كان خدعة. لقد أهدرنا وقتاً كثيراً، لكنّ ذكرى بيل لم تفارقني طرفة عين، ولم أكف لحظةً عن التمني لو...».

على الرغم من رغبتني في مقاومته حين اقترب مني، والتراجع حتى لا يتفاقم الأمر أكثر، لكنني انتظرتُ سماع تلك الكلمات سنواتٍ كثيرة. ثقلُ يده فوق ذراعي مألوفٌ حدّ الألم، والقناع المتحجر الذي يخفي ملامحه سقط فجأة. ها هو ذا هيمي الذي عرفته قبل سنوات طوال. الرجل الذي لم أتوقف عن حبه يوماً. سبّب إدراكُ هذه الحقيقة ألماً في صدري. كيف لي أن أنكر معنى هذه اللحظة، إذ أشعر بالسنوات تعود إلى الوراء، وأتذكر كيف كان الحب معه. وكيف كنّا معاً.

حين قبلني، شعرتُ بأن الوقت لم يمضِ قط، وبأننا لم نفترق يوماً. شعرتُ بأنني عدتُ إلى وطني. هألني مدى اشتياقي إليه، إلى مذاق شفثيه وإلى الإحساس بذراعيه تلفانني. كيف يعقل أن أنسى هذا كله؟ أن أنسى هذه الجنة؟ ارتسمت صورةٌ خاطفة خلف عينيّ المغلقتين. أصابع متشابكة، وملاءاتُ زرقاء مبعثرة، جسدان مستلقيان يلمعان عرقاً. لقد مضى وقت طويل جداً كأنه لم يمضِ، كأن ما حدث، حدث بالأمس.

انصهرتُ بين ذراعيه، مستسلمةً للرجل الذي أحب. علمت يقيناً أنني أرتكب خطأ، وأن كل شيء سينهار بين لحظة وأخرى مجدداً. وهذه المرة لن يكون هناك لبسٌ حول من يتحمل المسؤولية. جرفتني هذه الفكرة كسيل ماءٍ بارد، فدفعته بعيداً عني.

- «هيمي... انتظر».

تراجع محرجاً وقال: «أنا آسف».

قلتُ وأنا أهز رأسي: «لا تعتذر رجاءً، لا أريدك أن تتأسف على شيء. رغم خشيتي أنك ستأسف حقاً. هناك ما يجب أن أخبرك به. أمر كان يجب أن أطلعك عليه منذ زمن بعيد».

لم يعلق هيمي بشيء، بل علا وجهه الترقب وهو ينتظرني أن أكمل.

- «عندما سألتني قبل قليل إن كان إثان يعلم بأمرنا، قلت لك إنه يعلم كل شيء، ويعلم أشياء لا تعرفها أنت. لم تسألني عن ماهية تلك الأشياء».

أخذتُ كأسه ووضعتها في يده ثم توجهتُ صوب البيانو. حدقت إلى صورة زاكاري الذي بادلني النظرات من خلف إطار صورته الأسود الثقيل. تمنيت لو كان لدي الوقت لأخبره أنني سأفشي السر، لكنني أنا نفسي لم أكن على علم بما سيحدث، لكنني واثقة بأنه سيسامحني.

أصبح هيمي واقفاً إلى جانبي الآن وعيناه تفيضان بالأسئلة. استدرتُ حاملةً الصورة ووضعتها أمام عينيه. بحثت عن كلمات تمهد ما سيعرفه، لكن خائني مخزوني من الكلمات ولم أجدها. لقد تاهت أمام هذا السرّ الذي يخنقني. لذا، وضعت الصورة بين يديه وانتظرت.

- حديق إلى الصورة بوجهٍ خالٍ من أي تعبير في البداية، غير مدركٍ ما يراه: «ما هذا؟... من هذا؟».
- «اسمه زاكاري»، قلت بهدوء.
 - «زاكاري»، تمتم الاسم ببطء، وأعاد نطقه باحثاً عن أي ذكرى مألوفة تتعلق به.
 - «إنه ابننا»، قلتُ أخيراً. «ابني وابنك».
- لفحت وجهه أشعة الحقيقة التي بدأت بالبزوغ وكأنها أيقظته من سباتٍ عميق. «ماذا تقولين؟».
- «أقول إن لدينا ابناً يا هيمي. ابناً أخفيته عنك. أخبرتك الجميع أنه مُتبنى، لكنه ابني وابنك».
- تهيأتُ لموجة الغضب التي توقعْتُها، لكن تعابير وجهه تلاشت تماماً، واحتل مكانها فراغٌ مضرع يعكس عجزه عن الإدراك. لم ينطق حرفاً. حملتُ عيناه نحوي وهو يكافح لاستيعاب كلماتي. رفعتُ رأسي وأجبرتُ نفسي على تحمّل نظراته وأنا أتابع حديثي: «لم أعلم أنني حبلى إلا بعد وصولي كاليفورنيا. وبحلول ذلك الوقت، لم تكن لدي أي فكرة عن مكانك أو كيفية العثور عليك».
- تصلب وجهه، وتحول إلى قناعٍ صلب لا يمكن اختراقه.
- «هل حاولتِ حتى؟».
 - «كيف لي أن أبحث عنك وقد كنت تعمل مراسلاً حريباً حينها»، انفلتت الكلمات من فمي قبل أن أتمكن من كبجها. عذراً أقبح من ذنب. لم يكن خطأه، كان بإمكانني العثور عليه لو أردتُ ذلك. لكنني اخترتُ ألا أبحث.

- «وماذا عن مدة ما بعد الحرب؟»، استشاط غضباً الآن واكتسبت كلماته زخماً وقوة وهو يدرك فداحة ذنبي. «عرف ديكى كيف يجدنى. أرسلتِ إليّ كتاباً معه، أتذكرين؟ كتاباً أغفلتِ فيه أي ذكر لابنى».

أومأت برأسى وأنا أكبح دموعى، وفي حلقي غصة أكبر من أن تسمح لي بالرد.

- «وفي اليوم الذي كان من المفترض أن تتناولي فيه الغداء مع ديكى. أظن أننا بتنا نعرف الآن سبب عدولك عن القдом حين علمتِ بوجودي في المطعم. إضافة إلى ذلك، تتجاهلين حقيقة أن وجهي كان يطلّ من نوافذ مكاتب البلاد كلها تقريباً على مدار عقدين من الزمن. من فضلك لا تدّعي أنك لم تجدي سبيلاً للوصول إليّ يا ماريان. كان أمامك ثلاثة وأربعون عاماً لتتمكني من العثور عليّ. وكلّ ما يتطلّبه الأمر رفع سماعة الهاتف».

كنتُ مستعدة لمواجهة غضبه، لكن لست مستعدة لحرقه الألم التي بحّ بها صوته، أو رؤية الدموع التي تكاثفت في عينيه.

- «هيمي...».

أدار ظهره لي وابتعد إلى الطرف الآخر من الغرفة ثم استدار ليواجهني: «هل كرهتني إلى هذا الحدّ حقاً؟».

- «لم أكرهك يوماً قط. أردتُ ذلك، وحاولت، لكن لم أستطع».

- «حرميتي من ابني، من ابننا. كيف يمكنك فعل هذا؟».

ها هو ذا أخيراً. السؤال الذي طرحه عليّ قبل تلك السنوات كلها، مكتوباً بخط يده على الصفحة الأولى من كتاب «ندم على

بيل». لكنه الآن يعني شيئاً مختلفاً؛ شيئاً أكثر فداحةً وأصعب إدراكاً. «كسرت قلبي» أجبتُ بصوتٍ متهدج وأنا أعلم أن هذا غير كافٍ، وأعلم أن كلمات اللغات كلها لن تكون كافيةً لتصحيح هذا الخطأ. «عندما غادرت، ثم عندما نُشر التحقيق في الصحيفة، صُدمتُ أنك فعلتها حقاً».

- «لكنني لم أكن الفاعل».

- «وما أدراني؟ وأنى لي أن أعرف حينها؟».

- «لذا رأيتُ أن حرمانني من طفلي كان مبرراً»، حكَّ شعره بأصابعه بتلك الحركة المألوفة التي تُوجع صدري. «يا إلهي، لقد بلغ الثانية والأربعين. إنه رجلٌ كاملٌ ناضج. وقد فاتني كل شيء».

نظرتُ نحوه وستائر الدموع تحجب رؤيتي باحثةً عن شيء أقوله: «أنا آسفة يا هيمي. آسفةٌ حقاً وبشدة. منذ لحظة ولادة زاكاري، وفي كل لحظةٍ من كل يومٍ على مدى اثنتين وأربعين عاماً، كنتُ أنظر إليه وأرى وجهك. أرى وجه الرجل الذي وعدني بحبٍ أبدي، ثم اختفى دون أن يقول كلمةً واحدة. قلتُ لنفسِي إن رجلاً يفعل ذلك...»، خانتني صوتي وكتمتُ بكائي. «كنت ستعود يا هيمي، لكنك ستكونُ لي الضغينة. ضغينة تكفي لأن تتركنا كلينا. في النهاية، من السهل أن تهجر امرأةً بالغة، لكن أن تفعل ذلك مع طفل، فذلك شيء آخر. لم أستطع المخاطرة بحدوث ذلك لزاكاري».

- «أهذا ظنك بي؟ أنني رجل يتخلى عن ابنه؟».

- «تهتُّ عن حقيقتك حينها ولم أعرف ما قد تفعل. ما أعرفه أنك خنتَ ثقتي ونكثتَ وعدك. كنتُ لأغفر ذلك كله، لكنَّ ما عجزتُ عن غفرانه هو خروجك من حياتي صامتاً، وكأنني لا أعني شيئاً بالنسبة إليك. رأيتُ ما يحدث عندما يفقد الرجل اهتمامه بزوجته ومدى تأثير ذلك في الأطفال». أغمضت عيني حين باغتتني موجة دموعٍ جديدة: «لم أكن أعرف كيف أثق بك مجدداً».

أطبق علينا صمتٌ لا يطاق. وكأنَّ ذكرياتنا كلها معاً محيت تماماً، ولم يبقَ سوى هذا الواقع الجديد المُريع. وقف هيمي حاسراً. وجهه مزيجٌ من الظلال والزوايا الحادة وهو يحدق إلى صورة ابننا. رفع رأسه أخيراً ووخزني بنظراته الثاقبة الزرقاء.

- «ذكرتَ فتى المشرب أمس، أنكَ فعلتِ ما وجب عليك فعله، وأنكَ... واصلتِ حياتك. هذا ما كنتِ تقصدينه؟ تربية ابننا دوني؟»

استجمعتُ قواي لمواجهة عينيه اللتين تفيضان ألماً مزق قلبي: «آسفةٌ جداً يا هيمي».

- «هل كان ديكي على علم بذلك؟».

أومأتُ برأسي وقلتُ: «كان زاكاري نسخةً منك. وتشاجرنا كثيراً بسبب ذلك. اعتقد ديكي أنك يجب أن تعرف. ورأيت أن الأمر ليس من شأنه. وصل خلافتنا ذروته بعد حادثة الغداء، ولم نتحدث منذ ذلك الحين».

- «كنتِ مصممة على إبعادني عن ابني إلى الحد الذي جعلك تقطعين علاقتك بابن أختك المفضل، لأنه اعتقد أن من حقي أن أكون جزءاً من حياة ابني؟».

كيف يمكنني أن أجعله يفهم ما شعرت به وما خشيته؟ ليس فقط من أجلي، بل من أجل طفلي والحياة التي بنيتها لهما بعناية.

- «لم أستطع أن أسمح لك بالعودة إلى حياتنا يا هيمي. ليس بهذه الطريقة، إذ يقتصر حضورك على عطل نهاية الأسبوع، والإجازات، أو المساهمة في دفع تكاليف المخيمات الموسيقية، أو أن نتقابل عَرَضاً في العروض الفنية وكأننا غربيين مهذبين يتشاركان ابناً. ثم هناك إيليز أيضاً، كيف كانت ستتأقلم مع هذا الوضع؟».

قال بوجه خالٍ من أي تعبير: «إيليز؟».

«ابنتي. كان زاكاري في الثانية عندما تبنيتهما. ترعرعا كأنهما أخ وأخت حقيقيان، وجعلتُ الجميع يصدق ذلك. كان من الغريب أن يظهر أب لزاكاري فجأة».

- «بقدر غرابة اكتشافي أن لدي ابناً يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً؟».

كنتُ مقتنعة أنني لا أملك حق الدفاع عن نفسي، وأني بعد ما فعلته، ليس أمامي إلا الوقوف أمامه، وتحمل أي اتهامات يرميني بها. لكن ما لا أستطيع تحمّله اعتقاده أن أياً مما حدث كان سهلاً بالنسبة إلي، وأن يوماً واحداً مرّ خلال نشأة زاكاري دون أن أشكك فيه بالقرار الذي اتخذته.

- «ليس هذا ما عنيته يا هيمي. بحلول الوقت الذي عرفتُ فيه كيف أجذك، كان قد مرّ وقتٌ طويلٌ جداً. وكنا نحن الثلاثة وحدنا فقط مدّة طويلة جداً أيضاً. لقد خشيتُ أن...».

- رفع يده وقاطعني قائلاً: «لا أريد أعدارك. لا يوجد عذرٌ أو مبرر لما فعلت».
- «أنا لا أبرر ما فعلت، أنا أقرّ بخطئي. وبغض النظر عما اعتقدتُ أنكِ اقترفت، لم يكن لي الحق في إبعاد زاكاري عنك»، شوّشت الدموع رؤيتي، دموعٌ لا حق لي في ذرفها: «لا أعرف ماذا أقول أو ماذا أفعل غير ذلك».
- وقف هيمي بذراعين متصالبتين وساقين متباعدتين ثابتتين، كصخرة لا تلين.
- «ما الذي تريدينه؟».
- «ما الذي أريده؟».
- «ما السيناريو الذي يدور في رأسك الآن؟ لا بد أنكِ فكرتِ في خطةٍ نهائية من نوع ما عندما طلبتِ مني الحضور إلى هنا. ما هي؟».
- «أردتُ أن أصلح الأمور بيننا، وأخبرك أنني أدرك أنني مخطئة، وخطئي رهيبٌ لا يُغتفر. لكنني أسألك الغفران على أي حال»، انتظرتُ رده غير قادرةٍ على معرفة إذا ما أثرت كلماتي فيه، لكن وجهه ظل خالياً من أي تعبير. «قل شيئاً أرجوك».
- انقبضت عضلة فكه وهو يقول: «ماذا تودّين لو أقول؟».
- «لا أعرف. قل أي شيء.. أخبرني إلى أين ستسير الأمور».
- «لن تسير إلى أي مكان يا ماريان. ليس الآن».
- أومأت برأسي وأغمضت عيني: «حسناً. على كلّ حال، زاكاري عازف كمان في أوركسترا شيكاغو السيمفونية، وسيتزوج في يونيو».

- «لم يفتني كل شيء إذن».

وجهه الذي كان متحجراً منذ لحظة، بدا أنه تشظى أمام عينيّ، وتشظى قلبي معه.

- «لا أعلم كم مرة يجب أن أعتذر يا هيمي، لكنني سأعتذر بقدر ما تطلب مني ذلك. سأعتذر إلى الأبد».

هز رأسه ونظر بعينين فارغتين قائمتين: «لطالما تساءلت طوال تلك السنين إن كان هناك سبيلٌ لسلكِ طريقٍ مختلف. تذكرت ما كان بيننا، أحلامنا وخططنا، وتمنيتُ لو تمكنا من استعادتها بطريقة ما. لهذا جئتُ الليلة الماضية. لأرى إن كانت هناك فرصة لتعويض ما خسرناه. ثم اليوم في لحظةٍ مجنونة، عندما قبّلتك، لمحتُ ضوءاً في نهاية الطريق. أما الآن، فأنا مدرك أننا أضعنا الفرصة. كان زاكاري فرصتنا الوحيدة. بعد الاحتمالات كلها، وسنوات الفراق الطويلة، كان جسر عودتنا. ربما كان بإمكاننا إنقاذ جزءٍ من حياتنا التي حلمنا بها. لكنّ الأوان قد فات. أما الفصل الأسوأ من الحكاية، فهو أن ليس هناك من نلقي عليه اللوم هذه المرة، فخديعة تبديل الرسائلتين ونشر التحقيق الصحفي نفذهما شخصان آخران أسميتهما مخريان. لكنك أنتِ من أوصلنا إلى هنا، أنتِ/المخرّبة الحقيقية».

انتزع معطفه من على الأريكة واتجه صوب الباب دون أن يلتفت خلفه. راقبته وهو يبتعد، متمنيةً لو أعرف كيف أجعله يمكث. لكنّ مخزوني من الاعتذارات قد نفذ، كما نفذت رغبته في الاستماع إليها.

ساد المكانَ صمتٌ ثقيلٌ بعد أن أغلق الباب خلفه، وصدى الفراغ يهدد بابتلاعي. احتلني شعورٌ بالنهايات وبالفراغ التام. التقطتُ صورة زاكاري من على الطاولة حيث تركها هيمي، حدّقتُ إلى وجه ابننا، وجه أبيه. كنتُ أتوق إلى الخاتمة وإغلاق الماضي، لكنّ ما حصدته ألم جروحٍ قديمة تُكأ.

الفصل الثالث والعشرون

ماريان

«لطالما تخيلتُ إغلاق الكتاب مشابهاً لإيقاف فيلم مؤقتاً في منتصف المشهد، إذ تتجمّد الشخصيات في عوالمها المتوقفة، حابسةً أنفاسها، بانتظار القارئ ليُعيد إحياءها من جديد، تماماً كقُبلة الأمير السحرية في حكايةٍ خيالية».

- آشلين غرير، راعية الكتب القديمة وحافظتها

كانت الشرفة الخلفية ولا تزال مكاني المفضل في هذا المنزل، ملاذاً آمناً على حافة البحر حتى ليلاً. جلست هناك منذ رحيل هيمي، والأنوار مطفأة والبحر يعزف موسيقاه من حولي. ضوء القمر خافتُ هذه الليلة، والظلام ثقيل فارغ. مع ذلك، فهو ممتلئ بالماضي في الوقت ذاته.

اتصلتُ بزاكاري وأخبرته حقيقة والده. كشفتُ له كل شيء، أو بالأحرى، كل ما تستطيع أم أن تكشفه لابنها البالغ بأريحية. التزمت تماماً بالوقائع، وبالأسماء والأماكن. تقبّل الأمر بالشكل الذي توقعته، وكما يتقبّل كل شيء دائماً، بسؤالي إن كنتُ على ما يرام. أجبْتُ أنني بخير، كنتُ أكذب، لكن الكذب في بعض الأحيان أهون الشرور.

حاولتُ الاتصال بإيليز أيضاً، لكنها لم ترد. سأعاود الاتصال غداً، ولكن بحلول ذلك الوقت، سيكون شقيقها قد أطلعها على كل شيء. لطالما ربطتهما علاقةٌ خاصة، إذ كان يشعر كل منهما

بالآخر عندما يحتاج إلى كتف يتكئ عليها. لكن الأمر انتهى الآن. سقطت الورقة الأخيرة. ولم يعد هناك مزيد من الأسرار المؤلمة التي تنتظر أن تُكشف.

غمرني إحساس غريب بالاكتمال، وكأن الأمور قد وُضعت موضعها النهائي، وإن لم تكن قد أُنجزت تماماً.

وضعت كتابي وكتاب هيمي على الطاولة أمامي. لا أدري لم أحضرتهما معي إلى الشرفة. ليس لأقرأهما بالتأكيد. ربما لأراهما معاً مرةً أخيرة. سأشعل النار غداً، وأفعل ما طلبت من ديكي فعله منذ سنين؛ سأحرقهما. سيستحيل ماضي هيمي وماضي أنا دخاناً. يبدو ملائماً الآن أن ما كان يتوهج قبلاً بنور ساطع جداً وأكثر من اللزوم ربما سيُطفأ أخيراً. خاتمة من نوع ما.

هل ستكون خاتمة فعلاً؟

تظاهرت أكثر من أربعين عاماً بأنني أغلقت باب الماضي. حصّنت نفسي ضده بكل ما يحمله من ذكريات وكنت شديدة الحذر. ثم في غضون أقل من أربع وعشرين ساعة، نسيْتُ حذري. رأيت وجهه وفتحتُ باب الذكريات، وشعرتُ بذراعيه وقبلاته، وسمحتُ لنفسي بالأمل.

تمسكتُ بغضبي بشراسة، وأغرقتُ نفسي في اللوم والذكريات الأليمة، وسيلة للهروب من المشاعر الحقيقية الكامنة تحتها. ألم فقدانه لا يهدأ. أشعر به قربي حين تتملكني الوحدة ويحتل الصمتُ المنزل. رحل هيمي، لكنه بقي جزءاً من كياني. حفرت السنوات الضائعة فجوةً عميقة في روحي. فجوة حزنٍ يعتصر روحي على ما كان يمكن أن يكون، وما كاد يتحقق.

يا ليتني أخبرته كل شيء. يا ليتني أخبرته كم تحطم قلبي
بعد رحيله! وكم تألمت لغيابه طوال هذه السنين... وما زلت! لكن
هيهات. حسم الأمر بأنني أغلقت كل نافذة عندما قررت حرمانه
من زاكاري. إنه على حق، أنا هي المخربة.

نظرت صوب الشاطئ متأملة الأفق الممتد خلفه. سألت نفسي
إن كنت سأتمكن يوماً من إعادة الجني إلى القمقم، والنسيان من
جديد. لكنني على يقين تام بأنني لن أتمكن من ذلك. سيكون
مصيري الآن أن أسجن في قفص التفكير بهيمي وزاكاري وبي،
بالعائلة التي كان بإمكاننا أن نبنيها، لو أنني اتخذت خياراً مختلفاً.
عليّ أن أدخل الآن وأستعد لما هو قادم. العشاء والنوم والغد.
لكن لا أريد التفكير في الغد، ليس بعد. ألقيت نظرة على شاطئ
الحصى المترامي أسفل الشرفة، وعلى ذلك الهلال الصغير حيث
يلتقي البحر باليابسة، فاستحضرت ذاكرتي إيليز وزاكاري وهما
طفلان يلعبان، وبينيان القلاع ويجمعان الحصى الناعمة اللامعة
في دلو بلاستيكي أزرق. لقد صنعت ذكريات جميلة هنا. ذكريات
حدثت نفسي أنها كافية. يجب أن تكون كافية.

المدّ متراجع وضوء القمر شحيح. مع ذلك، بدا الشاطئ
كأنه يشع بهالة خافتة تكاد تكون من عالم آخر. أغمضت عيني
أنصت إلى الأمواج وهي تهمس للصخور بإيقاع ساحر. حركة
المد والجزر هادئة أشبه بالتنفس. ضبطت تنفسي معها، شهيق،
ثم زفير، شهيق، ثم زفير. شعرت بالتحسن. أجل، أنا أفضل قليلاً
بلا شك. بإمكانني الدخول الآن.

ما إن فتحتُ عينيّ، حتى لمحتُ وميضاً خافتاً على الرمال.
صورةٌ ضبابيةٌ داكنةٌ تتحرك على خلفيةٍ أفتح. لم يَدُم الأمر سوى
لحظةٍ خاطفة، لكنني على يقينٍ تام بأنني رأيتُ شيئاً ما. راقبتُ
وانتظرتُ، كان كل شيءٍ ساكناً. حدثتُ نفسي أنه خيالٌ عابر رسمه
ضوء القمر الخافت، لكنّ الوميض عاود الظهور مرةً أخرى.

حدقتُ إلى العتمة، وأجهدت عينيّ حتى تعتادا الظلام. لم
أستطع تمييز أيّ شيءٍ في البداية، لكنني لمحتُ أخيراً ظلاً
غريباً يستند إلى الصخور التي تفصل الشاطئ عن الطريق.
ربما عاد جيراني وفتحوا المنزل. لكنه أمرٌ مستبعد في هذا
الوقت من العام، حيث أغلقت كثيرٌ من المنازل الساحلية أبوابها
في ماربلهيد هذا الموسم، فضلاً عن أن الجو باردٌ جداً لقضاء
أمسيةٍ على الشاطئ.

استبدَّ بي الفضول، فاتجهتُ نحو باب الشرفة وفتحته.
اجتاحني هديرُ البحرِ محمولاً على نفحةٍ من الهواء المالح. أياً
كانت ماهية هذا الظل الغامض، فهو لا يزال ثابتاً مكانه ولكنه
أكثر وضوحاً الآن. خطوتُ خارج الشرفة، فراودتُ نسائم الليل
شعري، وحركته حتى لامست خصلاته عينيّ. أزحته برفقٍ عن
وجهي، وأبقيت نظري مُركزاً على الصخور. رأيت انعكاس القمر
الخافت يظهر مجدداً على شكلٍ قوسٍ ويختفي. إنه ظلٌّ مألوف
إلى حدٍّ ما.

تسللتُ ومضةً من الذكريات إلى ذهني. أصابع طويلةٌ نحيلةٌ
تزيح عن وجهٍ ما خصلةً متمردةً من الشعر الأسود. ساعة يدٍ
تلمع تحت ضوء الشموع. خفق قلبي مُتسارعاً. جنونٌ محضٌ بلا
شك، ثمرة خيالٍ ملأته الأمانى.

- شيء ما يحثني على نزول الدرج. نزلت بحذرٍ في الظلام، متمسكةً بالدرازين الخشبي حتى وُطئت قدمي الشاطئ.
- لا يزال الظل الغامض مكانه؛ حضورٌ غريبٌ رسم ظله على الصخور. إنه رجل. أصابني هذا الإدراك بالدوار. غاص كعب حذائي في الرمال ورحلت أمشي بخطواتٍ متعشرة غير متوازنة. مع أنني لم أره بوضوح، لكنني شعرتُ به يلتفت لينظر إليّ. في ظل ومضة ضوءٍ أخرى، تردّد لحظة، ثم تحرك من مكانه. وقف ويداه إلى جانبيه، وساقاه متباعدتان، يراقبني وأنا أتقدم. سأتعرف إليه في أي مكانٍ ومهما كان الظلام دامساً.
- «مرحباً»، قال عندما وقفتُ أمامه أخيراً. تبددت الكلمة مع الريح كأنها همسٌ من عالمٍ آخر: «ماذا تفعلين هنا؟».
- «إنه شاطئ. هل كنتَ تجلسُ هنا طوال الوقت؟».
- «جلستُ في السيارة مدة».
- «لم؟».
- رفع كتفيه ثم أخفضهما متثاقلاً: «لم أستطع الرحيل».
- حاولتُ إقناع نفسي أن ردّه لا يحمل المعنى الذي أظنه وأتمناه، لكن دقائق قلبي المتسارعة وصخب البحر حجباً عن ذهني أي أفكارٍ أخرى.
- «الجو شديد البرودة. أين معطفك؟».
- «في السيارة».
- «لا يمكنك البقاء في الخارج هنا يا هيمي».
- «أتريدين أن أرحل؟».
- «لا، لكن لا يمكنك البقاء خارجاً. تعال إلى الداخل».

سرنا نحو الدرج بصمتٍ، تفصل بيننا مسافة حذرة. دخلتُ المنزل وأشعلتُ المصباح، ثم التفتُ إليه. كان وجهه شاحباً مُتّشحاً بالزرقة، تفوح من ملابسه رائحة البرد المألحة. مددتُ يدي إلى وجهه، ولأمتستُ خده بأطراف أصابعي: «أنت تتجمد برداً».

تصلّب قليلاً تحت لمستي قائلاً: «أنا بخير».

- «شفّتك زرقاوان».

- «ماذا كنتِ تفعلين على الشاطئ؟».

بدا السؤال غريباً من شخص وجدته للتو جالساً على الصخور. «لم أكن على الشاطئ. كنتُ جالسةً هنا على الشرفة أطلع الأفق، عندما رأيتُ شيئاً يتحرك بين الصخور، ثم تبين لي أنه أنت».

- «كنتِ جالسةً في العتمة؟».

- «كما كنتُ جالساً».

كان على وشك الرد عندما رأى الكتابين على الطاولة. لم يحاول لمسها، لكن عينيه تحولتا صوبي، ففهمتُ السؤال الذي جال في خاطره.

- «أخرجتمها بعد مغادرتك. كنت أفكر ماذا سأفعل بهما».

- «وهل قررتِ؟».

- «هل تريدهما؟»، سألته متجنباً الإجابة بطرح سؤالٍ مضاد.

- «لا».

جاءت إجابته سريعة وحاسمة إلى درجةٍ أجفلتني: «سأحضر الشاي».

تبعني إلى المطبخ، وأخذ يراقبني بصمتٍ وأنا أضع الغلاية على الموقد وأجهز كوبين. أعادتني ذاكرتي لحظةً إلى مطبخه

الصغير في نيويورك، وأنا أعدّ الطعام وهو يتصفح الجريدة أو ينقر على لوحة المفاتيح لكتابة قصة ما، وكأن الزمن لم يمضَ على الإطلاق. لكن عندما أنظر إليه عبر المنضدة، أتذكر مجدداً مدى ابتعادنا عن العاشقين الشابين اللذين كنا عليهما يوماً.

ظهرت في وجهه تجاعيد جديدة، لكنه لا يزال وسيماً جداً. عونك رباه. أتمنى ألا أرى هيمي القديم وأنا أنظر إليه. لكنه هنا قربي، يراقبني بعينه الزرقاوين الحذرتين. وخصلة الشعر تلك تتدلى على جبينه. داهمها بعض الشيب، لكنها مألوفة بشكل رائع ومؤلم في آن.

أخرجت كيسَي الشاي وأضفت بعض الحليب إلى كوب هيمي، كما يحب أن يشربها.

- «سيدفئك قليلاً»، قلت وأنا أمدّ يدي بالكوب نحوه.

أخذ الكوب ووضعه على الطاولة فوراً. وقبل أن أخطو بعيداً، أمسك بمعصمي وقال: «لا أريد الشاي يا بيل».

- «حسناً، سأعد شيئاً آخر إذن. ماذا تريد أن تشرب؟».

غامت عيناه وأرخى قبضته عن معصمي وقال: «أتوق إلى العودة إلى سنة 1941 مجدداً. أريد أن أعود إلى اليوم الذي يسبق مغادرتي نيويورك، اليوم الذي يسبق عشورك على دفتر الملاحظات. أتوق إلى أن نعود إلى الماضي».

- «هذا مستحيل يا هيمي».

- «أعرف ذلك، وأدرك استحالة أن يصبح ماضينا حاضراً. لكنك سألتني عما أريد. لقد أمضيت الساعتين ونصف الساعة الماضية في محاولة معرفة ذلك».

- «والآم خُلصت؟».
- «لم يودع أحدنا الآخر يوماً».
- اعتصر الألم قلبي وأنا أرفع عيني لأنظر إليه: «هل هذا ما تريده؟ الوداع؟».
- «لم أُرِد الوداع يوماً».
- «ما الذي تريده إذن؟».
- «لا أريد أن أبقى غاضباً يا بيل. لقد عشتُه طويلاً. ظننتُه درعاً يحميني من الذكريات، لكنه لم يُجدِ نفعاً، بل جعلني متكبراً جداً لأفعل ما كان ينبغي لي فعله منذ زمنٍ طويل».
- قال بيل وليس ماريان. أخفضت نظري، خائفةً من تسلل الأمل إلى قلبي.
- «وما هو؟».
- «أن أبتلع كبريائي اللعين وأعثر عليك. لو فعلت، لكنتُ عرفتُ زاكاري وأصبحت جزءاً من حياته وحياتك أيضاً. لكنني بدل ذلك، توقعتُ وشريت كثيراً وألّفتُ كتباً انتهت كما تمنيت لحكايتنا أن تنتهي»، قال ثم ابتعد واضعاً يديه في جيبه.
- «هيمي...».
- استدار نحوي وعيناه محمرتان ومُتعبتان: «لقد أضعنا كثيراً من الوقت، وأمضينا سنوات طويلةً يلوم أحدنا الآخر على أشياء فعلها آخرون. لا زلت غاضباً لأنهم سرقوا كثيراً منا، سرقوا الوقت الذي لا يمكننا استعادته. سأظلُّ غاضباً حيال ذلك ما حييت. لكنني لم أعد غاضباً منك أو من نفسي. لكنني أخاف جداً ما سيأتي بعد ذلك. لا أريد أن أكون الوحيد الذي...».

خفت صوته وتتحنح ليصفي حنجرتة: «هذا هو سبب ظهوري البارحة على أي حال. أردت معرفة إن كان لأملي فرصة في أن يتحقق. ثم رأيتك في تلك القاعة. عرفت تماماً اللحظة التي وقع فيها بصرك عليّ. كانت الابتسامة تزين ثغرك، وما هي إلا ثوان حتى شعرتُ بأنك على وشك التقيؤ. حينها عرفت أنني ارتكبت خطأً».

تحدث بحرقه جعلتني أبكي. قلت بهدوء: «كنتُ خائفة بسبب زاكاري. لم أكن مستعدة بعدُ لإجراء تلك المحادثة. لكن مجيئك ليلة أمس لم يكن خطأً يا هيمي. أنا من ارتكبتُ الخطأ الجسيم. ما فعلته لا يغتفر، وأستحق كل ما قلته».

- «لا يتعلق الأمر بإذا ما كان يُغتفر أم لا. عندما أخبرتني عن زاكاري، شعرتُ كأن صاعقة نزلت عليّ. لم أعتقد يوماً أن شيئاً يمكن أن يؤلمني أكثر من عدم حضورك ذلك اليوم، لكنني كنتُ مخطئاً. كل ما استطعتُ التفكير فيه عندما أخبرتني عن زاكاري، هو ما خسرتَه وليس ما كسبته، خسرتُ ابناً وفرصة ثانية ربما. لم أتخيل قط تلك النهاية. لكن ها أنا ذا يا بيل. ها نحن ذا».

نحن.

عصفت بقلبي فجأة دقات قوية حتى خلّتها مسموعة. مع ذلك، خشيت أن أسمح لنفسي بالأمل.

- «هل يتعلق الأمر بزاكاري؟ بأن تكون جزءاً من حياته؟».

- «يتعلق بكل شيء يا بيل. يتعلق بزاكاري وبكِ وبِي. بأن نعيش حياة حقيقية بعد كل ما حدث. لأنني لم أحظُ بها حتى الآن».

لم تكن قصص الحرب، والكتب، والجوائز سوى قتلٍ للوقت إلى أن أتمكن من العودة إليك. إننا الآن شخصان مختلفان؛ أكبرُ سنًا وقد غيرتنا الحياة. لكن بعض الأشياء تظلُّ كما هي، بالنسبة إليّ على الأقل. لقد ظننتُ، أو تمنيتُ بالأحرى، أن يكون لي مكانٌ في حياتك».

كان نبرة الاستجداء واضحةً في صوته، لكنني شعرت بالخوف فجأة. خوف أن الأمور تتطور بوتيرةٍ سريعةٍ جداً، وأن ما نشعر به في هذه اللحظة لا يكفي. خوف أن أي محاولة لن تكون كافية بعد خسائرنَا الفادحة كلها.

- «لم يعد يعرف أحدنا الآخر كالسابق يا هيمي. لقد قلتُ ذلك بنفسك. إننا شخصان مختلفان الآن. قد نرتكب خطأً جسيماً».

أوماً برأسه موافقاً: «أنت محقة، لعنا تغيرنا، لكنها فرصة أنا على استعدادٍ للمخاطرة بها، وبالسُرعة التي تريدونها مهما كانت بطيئة. كنت بيل وستظلين بيل دائماً. أعرف أنك أصبحتِ شخصاً آخر أيضاً، كلانا كذلك. وأودُّ لو تتاح لي الفرصة لأعرف بيل الجديدة. أعلم أننا تأخرنا كثيراً، لكنني أظنُّ أن الأمر يستحقُ معرفة إمكانية بناء مستقبل لنا»، أخذ يدي بيده وغاصت نظراته في عيني: «هل أطلب كثيراً؟».

نظرتُ إلى يدينا المتشابكتين، إلى أصابعه الدافئة المألوفة تتداخل مع أصابعي. استعدتُ في ذاكرتي النصيحة التي وجهتها إلى ديكي منذ سنوات. النصيحة ذاتها التي قدمتها لإيثان قبل بضع ليالٍ؛ ألا تدع شيئاً يقف بينك وبين الحب. هل أملك

الشجاعة لأخاطر بقلبي مرةً أخرى؟ لقد بنيت لنفسي حياةً جيدة، حياةً مكتملة بكلّ المقاييس. ربّيتُ طفلين ناجحين وكرّستُ نفسي لعمل الخير. وهو ما يجب أن يكون كافياً. لكن لطالما علمتُ أنّ هناك قطعةً مفقودة في لوحة حياتي، وأنّ تلك القطعة المفقودة هي هيمي.

قلت أخيراً: «لا. أنت لا تطلب كثيراً. أنت تطلب ما ينقصنا تماماً».

فتحت زجاجة شرابٍ وأعددت وجبةً خفيفة من الفواكه والجبن، وأخذتها إلى غرفة الجلوس. أوقد هيمي النار ثم جلسنا على الأريكة معاً لنللمم خيوط حياتنا المبعثرة.

تتسلل يده بين الحين والآخر لتمسك بيدي، وكأنه يُطمئن نفسه أنني حقيقية. تماماً كما تتسلل يدي إلى وجنته للغرض ذاته. ذاك الرابط الذي جمعنا يوماً لا يزال موجوداً. يسري بيننا كتيارٍ خفي يشتد مع كلّ لمسة، ويغويّنا بالتخلي عن أي حديث والغوص في عناقٍ طويل. ما أسهل الاستسلام لتلك الإغراءات، وإتمام لمّ شملنا في الظلام الآمن والساكن. لكن هناك سنواتٍ كثيرة تفصل بيننا، وفجواتٍ كبيرة تحتاج إلى أن تُملأ. لذا واصلنا الحديث.

تحدث عن الحرب وما رآه من أهوالٍ تفوق بشاعتها الوصف ولا يمكن الكتابة عنها. حدثني أيضاً عن وفاة أمه. وكيف عاد إلى الديار حين مرضت، وحين واروها الثرى إلى جوار أبيه في اليوم ذاته الذي كان يُفترض أن يكون ذكرى زواجهما الثالثة والثلاثين. وكيف أنه وسط حزنه كله، تزوج بامرأة تذكره بي، ليدرك يوم زفافهما أن ارتكب خطأً فادحاً.

أخبرته بدوري عن كاليفورنيا وعن الحياة دونه هناك، وعن مدى خوفي عندما أدركت أنني سأصبح أماً. أريته صورة جوانا وقصصت عليه حكايتها، وكيف تحولت صداقتنا إلى أخوة. كيف أنها عندما علمت بدنو أجلها، أهدتني ابنتها إيليز واسماً جديداً لابني الذي ولدته بعيداً عنه.

مرت الساعات وفرغت كؤوسنا ونيران المدفأة خبت. ومع زجاجة الشراب الثانية، أخبرته عن إيثان وآشليين وكيف دخلا حياتي بفضل الكتائين، وأنهما أصبحا جزءاً من عائلتي. أخبرته أن إيثان يشبه ديكي شكلاً ومضموناً تماماً، وكيف أن آشليين دفعتني إلى البحث عن الخاتمة وإخباره أخيراً عن زاكاري.

ثم فجأة ودون مقدمات، فرغت جعبتنا مما فيها من كلمات. هناك مزيدٌ ليرويهِ أحدنا للآخر، فثلاثة وأربعون عاماً عُمرٌ كامل، بل عمران في حالتنا. لكننا في الوقت الحالي قلنا ما يكفي. ذهبت إلى غرفتي وأخذت اللحاف عن سريري. عدت إلى هيمي ومددت يدي إليه بصمت فأخذها بصمتٍ أيضاً. توجهنا نحو الشرفة الخلفية ونزلنا السلم إلى الشاطئ.

جلسنا على الصخور صامتَيْن ونحن نراقب ولادة الشمس من رحم البحر. هواء الصباح قارس البرودة يلسع وجهينا، لكننا جلسنا تحت الغطاء متلاصقين، كتفاً إلى كتف وذراعاً بذراع؛ أحدنا ملاذ الآخر. بقينا كذلك حتى أخذت الشمس مكانها في كبد السماء واكتسى البحر زرقته الداكنة وأخذت الرمال تحت أقدامنا لونها الذهبي. نزلنا عن الصخور في النهاية ووقفنا وجهاً لوجه.

أوهمتُ نفسي أنني أسعى إلى طيّ الصفحة، إلى نهايةٍ مرتبةٍ
لماضٍ مشوّش. لكن عندما جذبني هيمي إلى حضنه، لم يبدُ
الأمرُ طيّ صفحةٍ على الإطلاق، بل بدا بدايةً جديدة. وفجأةً
تذكرتُ قبلةً أخرى، قبلةً حدثتُ قبل عمرٍ مضى، في يومٍ ما طر
داخلٍ إصطبلٍ خيول. كانت تلك بدايةً أيضاً. ابتسم هيمي وكأنه
يقرأ أفكارِي، ثم شدني أكثر إلى حضنه الدافئ. فكرت وقد
تلاقت شفاهنا، هذا ما يجب أن يكون عليه الحب، هذا ما يجب
أن يكون عليه الاكتمال.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الخاتمة

آشليين

7 ديسمبر 1985

ماريلهيد، ماساتشوستس.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة، وأشعة شمس الظهيرة تتسلل مائلةً عبر الستائر، ملقيةً على الجدران ضوءاً كهربانياً جميلاً. تأملت آشليين بعنايةٍ نتاج عملها. كانت الهدايا مغلفة بورقٍ أزرق ومزينة بحلقات من الشرائط الفضية والبيضاء، ومنتشرة على بطانيةٍ عتيقة. ستوزع هذه الهدايا خلال احتفالات العيد الليلة. كان هذا ثاني عيدٍ تحتفل فيه آشليين مع عائلة إيثان الجديدة، لكنها أول مرة تشارك في تقديم الهدايا، ما جعلها تتوتر قليلاً. لقد رحبوا بها أجمل ترحيب وعاملوها بوصفها فرداً منهم، وهذا ما سيصبح حقيقةً فعليةً قريباً. لقد احتفظ إيثان وآشليين بهذا السر منذ عيد الشكر الماضي، لأن إيثان أراد أن يعلن الخبر عندما تكون العائلة كلها مجتمعة.

لا تزال تجد صعوبةً في تصديق مدى التغيير الذي طرأ على حياتها خلال عام ونصف العام فقط. تغيير طرأ بسبب كتابين وجدا طريقتهم إلى يديها فيما تبدو مصادفة. لكن هل كانت مصادفةً حقاً؟ من بين متاجر الكتب جميعها في نيو إنجلاند، انتهى المطاف بكتابي «ندمٌ على بيل» و«إلى الأبد وأكاذيب أخرى» في متجر كيفن. وبسبب ذلك تغير كل شيء. ليس بالنسبة إليها وإلى إيثان فقط، ولا حتى بالنسبة إلى هيمي وبيل، بل إلى عائلةٍ بأكملها. عائلة فرقتها أسرار ظلت طي الكتمان عقوداً.

فكرت في الكتابين اللذين يستقران الآن جنباً إلى جنب في مكتبة ماريان. تذكرت آخر مرةٍ مرت بأصابعها عليهما. كتاب هيمي أولاً ثم كتاب بيل. أصبحت تشعر بهما تحت أصابعها يدندنان ذاك النغم الخفي ذاته، الهادئ والمتناغم والمنعش كأنهما علامتان موسيقيتان تترددان في انسجام تام.

لقد غيّر الكتابان أصداءهما.

مثلت تلك اللحظة نوعاً من الكشف بالنسبة إليها. أدركت أن الأصدقاء التي يتركها الشخص في إثره ليست سوى انعكاس لخياراته. والأهم من ذلك ربما، أن تغيّر هذه الأصدقاء واردةً دوماً. فتحت يدها الآن وهي جالسةً على حافة الفراش، ومرّت بإصبعها على الخط المتعرج الذي يقسم خط الحياة في راحتها. قبل الخط وبعده تذكيرٌ آخر أقسمت ألا تنساه؛ أن حياة الناس لا تحددها الندوب التي يكتسبونها، بل بما يكمن على الجانب الآخر من تلك الندوب، وبما يصنعونه بقية عمرهم. لقد مُنحت فرصةً ثانية للحب، وفرصةً ثانية للعائلة، ونوت أن تستغلها إلى الحد الأقصى.

وقفت عندما دقت الساعة معلنةً الرابعة. كان عليها أن تذهب الآن وتتضم إلى إيثان وبقيّة العائلة. ستغرب الشمس قريباً، وقد اقترب وقت إشعال الشموع. جمعت الهدايا من فوق السرير بين ذراعيها، ثم أضافت هدية أخرى إلى كومة الهدايا، هدية خاصة لماريان.



يكاد النور يذوب في قلب الظلام، والشمعدان يلمع ببريقه بانتظار إشعال شموعه. جلتُ بنظري في غرفة الجلوس وقلبي يكاد يطير فرحاً لرؤية عائلتي المختلطة مجتمعةً في مكانٍ واحد أخيراً. إنه العيد الثاني لنا معاً، لكنه مختلفٌ هذه المرة. إنه العيد الأول الذي أشعر فيه بالاكتمال.

عبرت في المنزل روائح أطباق العيد كاللحم المدخن وفطائر البطاطا والكعك المحشو بالمريى. ابتسمتُ للفتيات اللواتي يرفرفن حول إيليز وجيفري. ارتدين فساتين زرقاء متطابقة وبدون أشبه ببطاقات الأعياد الجميلة، ينتظرن بفارغ الصبر فتح الهدايا بعد العشاء.

جاء زاكاري وروتشيل من بوسطن لقضاء بضعة أيام معنا. من الرائع أنهما انتقلا للسكن في مكانٍ أقرب إلينا. ستلد روتشيل توأمين في مارس المقبل، ومع أنهما لا يدركان بعد المسؤولية التي تنتظرهما، فإنها تجربةٌ رائعة. يتناقش زاكاري وهيمي بشأن كيفية دمج سريرَي الطفلين وتعليق ورق الجدران في غرفتهما. لم يكن هيمي يتوقع قط أن يصبح جدياً، لكن سعادته تفوق الوصف لفكرة مناداته بكلمة «جدي».

تزوجنا في أغسطس. انتظرنا إلى ما بعد زفاف زاكاري، ثم تسللنا إلى المحكمة كعاشقين شابين، مع فرقٍ بسيطٍ عن الخطة الأصلية يبلغ ثلاثة وأربعين عاماً فقط. لكننا تزوجنا أخيراً. نظرت إليه من طرف الغرفة المقابل، إنه يشبه ابنه كثيراً. مرر يده في خصل شعره ليرفعها عن جبينه، ثم نظر نحوي فجأة وكأنه شعر

بنظراتي إليه. غمزني بطرف عينه فتسارع نبض قلبي. بعد هذه السنين كلها، لا يزال بوسعه أن يصيبني بالدوار بنظرة. في الجانب الآخر من الغرفة، يتحدث إيثان وآشليين بصوت منخفض. وإن لم تخنّي توقعاتي، سأقدم لهما هدية زواج قريباً. شهر غسل إلى فرنسا ربما ليتعرفا إلى أقاربنا هناك. تتحنج زاكاري وأعلن أن الوقت قد حان لإشعال الشموع. وقف هيمي إلى جانبي واضعاً يده الدافئة فوق كتفي. وقفنا وقد كللنا الصمت جميعاً ونحن نراقب زاكاري يشعل الشموع.

غنيماً جميعاً تلك الليلة، وملاً سماع أصواتنا مجتمعة قلبي غبطة. نظرت صوب إيثان، رأيته يغني بسعادة وقد حفظ هو وآشليين كلمات أغاني العيد كلها هذا العام. غمر قلبي شعوراً بالامتنان لأنهما أصبحا جزءاً من عائلتنا.

حان وقت الطعام أخيراً. حثت إيليز الفتيات على الذهاب إلى الحمام وغسل أيديهنّ. فرغت غرفة الجلوس، لكنني تمهلّت مستمتعةً بلحظة الهدوء النادرة. أعياني التعب، لكنّ السعادة تغمر قلبي. جلّت بعينيّ في أرجاء المكان. انعكاس الشمعدان على النافذة المظلمة، وأكوام الهدايا الملفوفة بأوراق جميلة تنتظر أن تُفتح، والسجادة تعج بأقلام التلوين والدمى. كيف يمكن لأحد أن يرغب في أكثر من ذلك؟

وكأنه يجيب عن سؤالي، ظهر هيمي فجأة حاملاً صندوقاً ملفوفاً بورق فضيٍّ لامع، قدّمه إليّ قائلاً: «عيداً سعيداً».

أخذت الصندوق متفاجئة ومتسائلة لماذا يقدم لي هديتي قبل العشاء. لمعت عيناه بفضول محمّل بالترقب وهو يشاهدني أمزق

الورق الفضي بارتباك. رفعتُ الغطاء وأزلتُ بضع طبقات من الورق الرقيق. بقيتُ لحظةً أجهلُ إلَامَ أنظر. إنه كتابٌ مجلّدٌ بجلد بني ناعم. حدقتُ إلى الأحرف الذهبية المطبوعة على الغلاف .H.L.T

هيلين لويس تريفيز.

غير معقول! ما إن رفعتُ المجلد حتى تأكدتُ مما رأيت. ألبوم أمي المُستعاد بجمالٍ وعنايةٍ فائقتين. لمستته بأصابعي وقد أخذني الدهول. الجلد طري وناعمٌ كالزبدة، والظهر المكسور أصلح ببراعة، والصفحات سليمةٌ خالية من آثار الأربطة المطاطية القبيحة. هذه التحفة صنيعة آشليين لا شك. إنه تغييرٌ لا يقلُّ عن معجزة.

قلبتُ الغلاف حابسةً أنفاسي وقد اختنقتُ بعبراتي. شعرتُ فجأةً بأن تلك المرأة تبادلني النظرات، تلك المرأة التي أتذكرها من أوقات الظهيرة التي قضيناها معاً، شابةً جميلة تضح حيوية. مأمًا كما في ذكرياتي. ارتجفت يداي وأنا أتأمل الصفحات وأقلبها ببطء.

سمعتُ أصواتهم تتعالى في غرفة الطعام وهم يتجمعون حول المائدة على وقع رنين الأواني الفضية والأطباق، وضحكات الفتيات الرنانة وهممة الأحاديث. إنها أصوات العائلة، وما أجملها! سيُنادونا قريباً متسائلين عن اختفائنا. أغلقتُ الألبوم على مضضٍ وأعدته إلى صندوقه. سأستمتع لاحقاً بهديتي. أما الآن، فالعشاء ينتظر.

وقفت وأنا أبتسم لهيمي من خلف غيمةٍ من الدموع، شاكرةً
إياه على الذكريات التي أعادها إليّ، وعلى الذكريات الجديدة
التي سنصنعها معاً.

النهاية

أسئلة للمناقشة

1. يُعرّف «علم نفس الأشياء» بأنه القدرة على اكتشاف حقائق عن حدث أو شخص من خلال لمس الأشياء المرتبطة به. هل ترى هذه القدرة هدية أم عبئاً؟ إذا كان بإمكانك امتلاك هذه القدرة، ولكنها مقتصرة على نوع واحد من الأشياء، فما الشيء الذي ستختاره ولماذا؟
2. ترى آشليين عملها في الورشة مهنة مقدسة أو نداءً روحياً. ما الدلالات الرمزية التي تحملها عملية إعادة تجليد الكتب وترميمها في الرواية المتعلقة بمعالجة الجروح العاطفية؟
3. ظاهرياً، تبدو آشليين وماريان امرأتين مختلفتين تماماً. لكنهما تتشاركان بعض أوجه الشبه على المستوى العاطفي. كيف تعكس شخصيتا آشليين وماريان بعضهما بعضاً؟
4. كيف ألقت تجارب آشليين الشخصية مع الحب والعلاقات الرومانسية بظلالها على اندفاعها للتعمق في علاقة بيل وهيمي؟ وكيف ساهمت هذه التجارب في ربطها مع بيل على المستويين العاطفي والغريزي؟
5. كثيراً ما يُقال إنَّ الغفران طريقةٌ لشفاء ذواتنا أكثر من كونه تبرئةً لمن سبب لنا الألم أو الضرر. هل تؤيد هذه النظرية؟ وإذا كان الأمر كذلك، هل تعتقد أن هناك ظروفًا لا تسمح بالغفران ببساطة، أم أننا يجب أن نسعى دائماً إلى الغفران بغض النظر عن فداحة الخطأ؟

6. عانت آشليين طوال الرواية ندبةً مزعجةً على راحة يدها اليمنى. إلام كانت ترمز الندبة بالنسبة إليها في بداية الرواية؟ وكيف تغيرت دلالتها في نهاية الرواية؟

7. اعترف هيمي وبيل بأنهما اختارا التمسك بالغضب بدل السماح لنفسيهما بتجربة الحزن العميق الذي شعرا به إثر فقد أحدهما الآخر. هل عشت أوقاتاً في حياتك تمسكت فيها بالغضب لإخفاء جروح عاطفية أعمق؟ وإن حدث فعلاً، هل تتدم على هذا الخيار؟

8. كيف أدت قضية الثقة وعدمها دوراً في العلاقات بين آشليين وإيثان وبيل وهيمي؟ ناقش الأحداث في حياة كلتا المرأتين التي قد تكون ساهمت في عدم قدرتهما على الثقة.

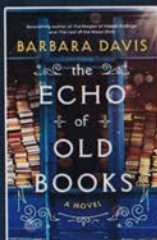
9. ربطت كورين وماريان علاقة متضاربة بشدة. بينما ظلت ماريان تحمل مشاعر الرفض والخيانة، بدت كورين امتداداً لوالدها؛ باردةً ومسيطرة. لكن مع اقتراب نهاية الكتاب، تنقلب موازين القوة لمصلحة ماريان. ومع ذلك، ورغم اعترافات كورين، تصدر من ماريان بادرة طيبة. لماذا تعتقد أنها اختارت هذا الطريق بدل التمسك بغضبها؟ وهل كنت ستتمكن من فعل الشيء ذاته في ظل هذه الظروف؟

10. في بداية الكتاب أخبرت آشليين إيثان أنها لم تفعل شيئاً شجاعاً قط. لكن مع اقتراب الكتاب من نهايته، يتكون لديها مفهوم جديد عن معنى الكلمة. ناقش السبب، ولماذا تشعر بأن رأيها في شجاعتها قد تغير؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

صدى الكتب القديمة



"دون قارئ، يدخل الكتاب في حالة جمود، جسد دون نبض أو نفس، لكن ما إن يصبح الكتاب جزءًا من عالم شخص ما، حتى يعود إلى الحياة، بياض وحاضر".

تتمتع آشليين غريسر، بائعة الكتب القديمة، بموهبة تمكنها من الإحساس بمشاعر أصحاب الكتب السابقين بمجرد لمسها. تنكشف لها هذه الأصدقاء على

شكل نكهات أو روائح أو وخزٍ أو فرح أو حزنٍ أو ألمٍ حسيّ. يلقي القدر في طريق آشليين كتابين لم ينشرا قط. وعندما تبدأ القراءة، تكتشف أنها يرويان القصة ذاتها من وجهة نظر عاشقين جمعتهم قصة حب وفترتها الخيانة والغدر. فتبدأ آشليين رحلة البحث عن الكاتبين "هيمي وبيل" وتعمق في عالمها وتشهد ولادة حبها ودماره، مستكشفة قوة الغفران والنسيان والحب.

إنها قصة عن العائلة والغفران والخيانة والحب. يحمل كل شخص فيها أسرارًا. وكما هي الحال مع الماضي كلها، فإن الهفوات والأخطاء غير المنطوقة يمكن أن تسبب ضررًا هائلًا للأشخاص الذين لم نرغب يومًا في إيذائهم.

"صدى الكتب القديمة" كتابٌ عن الكتب، وروايةٌ تملك القدرة على نقل الأصدقاء إلى قرائها، فيشعر القارئ بالفرح وألم الفراق، والغضب، والدمار، والحب، والفقد، والحزن إلى جانب آشليين وهيمي وبيل.

